

# الفوْحَاتُ الْهَيْتَرِ

شرح الأسماء الحسنى للذات العالية

المجلد الأول

الْوَدُودُ

الرَّفِيقُ

الْقَدِيسُ الْأَطِيفُ

السَّلَامُ

الْوَكِيلُ

الْمَلَائِكُ وَالْمَلَائِكُ وَالْمَلَائِكُ

ألفية الشيء

محمد الدبيسي

حفظه الله وعف عنه

## تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفر له، وننحو بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا آتُقُوا اللَّهَ حَقَ تُقَاتِلُهُ وَلَا تَمُوتُنَ إِلَّا وَأَنْتُمُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ آتُقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَآتُقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا آتُقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١-٧٠]

أما بعد.. فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

عهدي بتدریس الأسماء الحسنى، يعود إلى ما يقرب من عشرين عاماً، وتحديداً في أغسطس ١٩٩٠م؛ وكان هذا الاهتمام المبكر يلقاها على طلبة العلم لما في التتحقق بها من معرفة رب - سبحانه وتعالى - ومحبته، والذي له أحسن الأثر في توحيد وإجلاله ومحاباته والخوف منه والرجاء فيه، مع الإنابة إليه، وحسن التوكل عليه، والثقة فيها عنده، ودوم ذكره والأنس به، والشوق إلى لقاءه، مع تجهيز أتم الجهاز والزاد استعداداً لهذا اللقاء.

أصحاب هذا السلوك هم خلاصة العالم..

- ١ -

## تقديم

قال ابن القيم - رحمه الله - فيهم: «وأما من جهة العلم والمعرفة، فإن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها، مطابق لما جاء به الرسول ﷺ، لا مخالف له، فإن بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف. ويكون مع ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصة، التي تقتضيها كل صفة بخصوصها، وهذا سلوك الأكياس، الذين هم خلاصة العالم، والساكعون على هذا الدرب أفراد من العالم، طريق سهل قريب موصل آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه ....» إلى أن يقول - رحمه الله - : «فالسير على طريق الأسماء والصفات، شأنه عجب، وفتحه عجب، صاحبه قد سبقت له السعادة وهو مستلق على فراشه». <sup>(١)</sup>

ومن ثم كان من مهمات الدين، إصلاحاً للنفس والقلب، والثبات على السير إلى الله تعالى، تعلم هذه العلوم العزيزة في الأسماء الحسنى، ويتلو ذلك أخذ المرء بحظه منها، حتى يتصرف بما يليق به من صفات الله تعالى، من العلم والرأفة والرحمة والقوة والتوبة، والوهب والبر والإحسان، إلى آخر أسمائه تعالى وصفاته، وحيثئذ يدعوه ربه ويوجهه بها، فيصير عبداً ربانياً فيها بينه وبين ربه، سائراً بجميل صفاته بين خلقه، رافعاً لراية الإسلام، باذلاً وقته وجهده ومالمه نفسه، على المحبة لله تعالى، نصرة لدينه واتباعاً لسنة نبيه ﷺ.

إن ما تحقق المرء بذلك ظهرت عليه آثار التخلق بالأسماء الحسنى والصفات العليا، وهي بركات الله تعالى ورحماته وحفظه وإحسانه وجوده وبره ونصره وولايته، إلى آخر ذلك الفضل والإنعم.

تغير بذلك وجه الإسلام، وعادت دولته، فاتسعت رقعته، حيث حمله الأكياس الأولياء من العباد والعلماء والزهاد.

توقف الشرح لأسباب عديدة، أهمها الأسباب الصحية، ثم عاد بها يسمى الشرح الثاني، ليبدأ من جديد، نرجو الله أن يتمه بخير.

(١) ابن القيم، طريق المجرتين، دار الكتب العلمية (٢١٥).

كان فضل الله تعالى، وعنايته في هذا الشرح، وراء توجه المرء للقرآن الكريم، يدرس فيه الأسماء الحسنى لله تعالى، إذ هو كلام الله تعالى المبارك، فهو أجرد وأعظم من يتكلم عن أسمائه سبحانه - ويبينها أكمل البيان، ويوضحها أتم التوضيح، لأنها طريق معرفته وتوحيده الذي أرسل لأجله رسلاه، وأنزل كتابه؛ فمن بعد الله ينفيك عنه؟!... ليس ثم إلا رسوله ﷺ المبلغ عنه، المصطفى في كل شيء لديه، سيد ولد آدم ولا فخر.

كان فضل الله تعالى في ذلك التوجّه، أعظم من محاولات العقول، وسعى الجوارح؛ فظهر بكرمه ورعايته هذا المنهج، في دراسة الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، وما يوضحه من سنة النبي ﷺ.

فاعتمد ذلك المنهج تتبع كل اسم من الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، على طريقة التفسير الموضوعي، التي أكرم الله تعالى بها العبد الفقير في رسالة الماجستير «القوى في القرآن الكريم - دراسة في التفسير الموضوعي».

وكذلك تتبع مشتقات كل اسم وما يتعلّق به، وهدأه الله تعالى إلى ترتيب هذه الآيات، بحيث تكون كل مجموعة - تحمل معنى واحداً، أو متشارهاً - تحت عنوان جزئي، يخصها؛ ومن هذه العناوين الجزئية، يتشكل العنوان الرئيسي - في النهاية - للاسم المشرف موضع البحث، ليكون صورة واضحة متكاملة عنه، ثم الشروع في تفسير هذه الآيات تفسيراً إجمائياً، يوضح كيف عالج القرآن الكريم، شرح هذا الاسم، تحت هذه العناوين المختلفة، مع ربط الآيات بعضها ببعض، وترتيب معانيها، لتسلّم إلى العنوان التالي، ثم بعد ذلك نفصل تحت كل عنوان شيئاً من هذه الآيات، تبين حقيقة ما يجمعهم من المعاني، وما يرمي إليه من الحكم والعظات وال عبر، لتوضّح كل ذلك، وتجمّعه وتبرز علاقات الآيات بعضها، ونظم كل ذلك في سلك متتابع، يُسلّم بعضه إلى بعض، ليتّهي إلى صور متكاملة عن الاسم المشرع حينئذ.

كل ذلك مع إزالة هذه الآيات على واقع المؤمنين، وما ينبغي أن يستفيدوا منها، من إيضاح حظ القلب والجوارح من هذه الآيات، وحظ المؤمن فيها يتعلّق بسلوكه مع بقية

المؤمنين، وغيرهم مع كيفية دعاء الله تعالى وتوحيده بها، ولم ينس البحث الإشارات المهمات إلى جماليات الآيات وبلاuguتها وعلوها، مما يحمل المرء، على محنة القرآن الكريم، والإقبال عليه، وتدبّره، وإدمان تلاوته.

ظهرت بعد بداية شرح الأسماء الحسنى هذه، دراسات وكتب تعنى بشرحها والاهتمام بها، ولكنها - وذلك من التحدث بنعمة الله - أكدت - في نهاية المطاف - تخصص هذا المنهج، وتفرده، مما حمل المرء على التمسك به، وانتظار فضل الله تعالى، في زيادة توضيحه ونشره، وهو ما حدا بإخوانى في مسجد المهدى - الذى تلقى فيه هذه الدروس - إلى جمعها، وبدء طبع ما يمكن من ذلك، مساعدة في إبراز هذا المنهج، وعلى قدر المستطاع من ترتيب وتهذيب.

لا شك أن هذا المنهج، يحتاج إلى توضيح وأمثلة، مع ذكر اعتقاد السلف فيها، وعددتها، وإحصائهما، وما يتعلّق بها، والرد على من خالف شيئاً من ذلك، بما يشفي الغليل، وينير السبيل، ولكن البدء في إنجاز طبع الرسائل المتفرقة، التي طبعت من قبل، في مجلد واحد، يفتح به، كان وراء الإسراع بإصدار هذا المجلد الأول، خاصة وقد آثر إخواننا أن يكون مع مناسبة أخرى وهي عقد نكاح ابنتي الغالية إكراماً لهذا الجمجم المشرف.

هذا السفر الأول - بفضل الله تعالى - يحتوي على تسعه أسماء من الأسماء الحسنى، غير مرتبة على وقت شرحها، وإنما كل اسم منها، كان قد طبع في مناسبة تلقي به، فضمت جميعها كما هي، فما كان من صواب فمن الله تعالى، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، مع انتظار نصح خالص الله تعالى، نصلح به خللاً أو نصحح به خطأ.

نسأل الله تعالى أن يتمها على أكمل التهام وأحسن الأحوال، وأن ينفع بها كاتبها، وطابعها، والقاريء لها، والساudi في نشرها.

والحمد لله رب العالمين.

# القسر الأول

بِسْمِ اللَّهِ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ



## مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

آمَّا بَعْدُ ..

تميَّزت أخلاقُ المؤمنين ومعاملاتهم في الفترة الأخيرة - من بداية الصَّحْوة الإسلامية إلى الآن - بشيءٍ واضحٍ من الشدة والعنف والغلظة والفتواز فيهم، كأنَّها وسيلةٌ نَسَرَ الإسلام، خلافاً لما هو مُتوقَّعٌ أو مطلوبٌ من المودة والرحمة والرفق والتكافل والتواصل وسعة الصدر وتحمل الأذى وكف الأذى، وهي الأخلاق الإسلامية الأصيلة التي أمر بها رسول الله ﷺ وحَقَّها هو وأصحابه رضي الله عنهم، خاصةً في التعليم والإرشاد والدعوة، أو في إنكار المنكر ونشرِ المعروف، أو في المعاملة مع مخالفٍ في الرأي والاعتقاد بما لا يخرج عن اعتقاد أهل السنة والجماعة وهم السلف الصالحون، أو في كل معاملات المسلمين.. في صداقاتهم.. في عداواتهم.. في مساجدهم وأعمالهم وبيوْتهم. صارت تلك الأخلاقُ الحادةُ والتصرُّفاتُ الحشنةُ وأكثرُ من ذلك ذائبٌ.

كان هذا العنف سبباً في الوقع في الأعراض من غيبة ونميمة وتطاولٍ أدى إلى القطيعة والتدابر والتشاحن، حتى وصل حال المؤمنين إلى ما لا يخفى على الناظر أو المتأمل، مما كان صدراً عن سبيل الله ورفعاً للرحمة ونزولاً للسخط الإلهي.

من ثمَّ رأينا أن نطبع هذه الرسالة لفضيلة الشيخ محمد الدبيسي - حفظه الله تعالى وغاف عنه - في هذا الاسم المشرف من الأسماء الحسنى؛ نُعيد سيرة الرفق، ونرفع رايته

حتى تُرْفَرَفَ على معاملاتنا وأعمالنا وأخلاقنا ويُيوّتنا ودَعْوَتَنا وعِلْمَنَا وإرشادنا، تأسيساً في ذلك بالنبي ﷺ وأصحابه المكرمين، ليكون الرفق طريق نزول الرحمة والخير على المؤمنين المتقيين، ودفعاً لهذا العذاب النازل على أمة الإسلام، ليتَشَّرَّ دعوته وتعَمَّ برَكتُه، ول يكن المؤمنون أهلاً - بفضل الله تعالى - لِيرَه وإحسانه وجوده.

وهذه الرسالة جزء للمشاركة في تصحيح السَّيْر إلى الله تعالى ومساعدة للمؤمنين على البر والتقوى، وهي جهد المُقْلِل، ننتظر من المطالع لها النصيحة لسد خَلَل أو تصويب خطأ؛ إذ ما فيها من صواب فمن الله وحده وما فيها من خطأ فمنها ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ ينْفَعَ بِهِ قَارِئُهُ وَكَاتِبُهُ وَنَاسِرُهُ وَالنَّاظِرُ فِيهِ.

مسجد الهدي المحمدي

## الفصل الأول

### معاني اسم الله تعالى «الرفيق»

- أهمية اسم الله تعالى «الرفيق».
- الدليل على اسم الله تعالى «الرفيق».
- المعنى اللغوي.
- معنى «الرفيق» في حق الله تعالى.

## أهمية اسم الله تعالى «الرفيق»

وهذا الاسم - كباقي أسماء الله تعالى - نحن في أشد الاحتياج إليها: في توحيد الله تعالى بها، وفي دعاء الله تعالى بها، وفي أن يأخذ المرأة حظها منها. حتى إذا ما تخلق المرأة بمعاني هذه الأسماء والصفات، أوشك أن يكون ذلك سبباً لأن يكون أهلاً لجاورة الله تعالى في جنته يوم القيمة؛ إذ لا يجاوره إلا الطيبون.

وهذا الاسم المشرف يحتاجه المؤمنون في أنفسهم، ومع أهليهم وأولادهم، ومع كل أحدٍ؛ يرجون بالتلّخُّل به رحمة الله تعالى، ويتسَلّحون به في الدعوة لدين الله تعالى، مع ما يهدّفون إليه من حُسْنِ الْخُلُقِ الذي اتَّسم به النبي ﷺ في قوله تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم: ٤]، وفي القرب منه يوم القيمة إذ أقربهم إليه ﷺ أحسنهم أخلاقاً.

وإنَّ أحدَ أسباب الصَّدَّ عن سبيل الله تعالى هو: ترك الرِّفق.

وإنَّ من طُرق القطيعة والبغضاء والشحناه هو: العنفُ بين المؤمنين وعدم اللين وسُهولةِ الجانب وعدم الرِّفق. فإذا كان عدم الرفق سبباً لما سبق، فإنَّ الأحاديث التي قالها النبي ﷺ تدل على أنَّ الرِّفق سببُ الخير وأنَّ «مَنْ يُحْرِمِ الرِّفقَ يُحْرِمُ الْخَيْرَ كُلَّهُ»<sup>(١)</sup>.

وهذه مشكلةٌ عظيمةٌ تبيّن لنا ما وصلنا إليه من الأحوال السيئة بسبب حرمان هذا الخير من الله تعالى. وتأكد لنا قيمة هذا الاسم المعظم الذي يُشعرنا بجلال هذا الموضوع، وهو الرفق، وكيف يدعوا المرأة ربَّه: أن يرزقه الرفق، وأن يرزقه بهذا الرفق

(١) رواه الإمام مسلم مرفوعاً من رواية جرير [٢٥٩٢] بنحوه، وأبو داود [٤٨٠٩]. وستأتي الإشارة إلى باقي هذه الأحاديث لاحقاً إن شاء الله تعالى.

الخير الذي ذكره النبي ﷺ، وأن اتباع ذلك إنما هو بالمجاهدة عليه ومكافحة النفس على القيام به؛ لِتُخْرُجُ النَّفْسُ عَنْ شَطَطِهَا وَعُنْفَهَا وَرَعْوَتَهَا فِي الْمُعَامَلَةِ تَرْجُو بِذَلِكَ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْجُو نَشَرَ دُعَوةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْجُو الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تُقْرَبُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الجنة.

### الدليل على اسم الله تعالى «الرَّفِيق»

ونذكر في ذلك كلام الإمام القرطبي رحمه الله<sup>(١)</sup>، إذ هو الذي ذكر «الرَّفِيق» في الأسماء الحسني من المتقدمين<sup>(٢)</sup>.

يقول رحمه الله: «ومنها» أي من أسماء الله الحسني «الرَّفِيق» جل جلاله وتقدست أسماؤه». وهذا الاسم «لم يرد في القرآن اسمًا ولا فعلًا، ولا ورد في عِدَادِ الْأَسْمَاءِ» التي جاءت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه الترمذى وسرد فيه تسعه وتسعين اسمًا من

(١) الإمام القرطبي صاحب التفسير، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الإمام العلامة أبو عبد الله الأنباري الخزرجي القرطبي، إمام متفقٌ عليه في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله، وقد سارت بتفسيره الرُّكبان وهو تفسير عظيم في بابه، وله كتاب «الأسمى في أسماء الله الحسني»، وكتاب «التذكرة»، وأشياء تدل على إمامته وكثرة اطلاعه. مات بمنيةبني خصيب من الصعيد الأدنى بمصر سنة إحدى وسبعين وستمائة. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي و«طبقات المفسرين» للسيوطى.

(٢) انظر - بتصرف كثير: «الأسمى في شرح الأسماء الحسني» للإمام القرطبي، [ج / ٥٥٦] طبعة دار الصحابة للتراث بطنطا - الطبعة الأولى - سنة ١٤١٢ هـ، ١٩٩٥ م. وقد جعلنا كلام الإمام القرطبي بين تنصيص هكذا «...».

أسماء الله الحسنى، وهذا الحديث ضعيف الإسناد<sup>(١)</sup>. (ولكن ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عائشة» رضوان الله تعالى عليها «زوج النبي ﷺ»، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

(١) رواه الترمذى [٣٥٠٧]، وأشار الحافظ فى التلخيص الحبّير إلى روایات أخرى للحديث فيها سرد الأسماء بزيادة أو نقصان ثم قال: [قال القاضي ابن العربي: «لا نعلم هل تفسير هذه الأسماء فى الحديث أو من قول الراوى». قلت: والدليل على ذلك اختلافها. وقال محمد بن حزم: « جاء فى أحدى ثنايا موطأ مسلم موضع لا يصح منها شيء ». ]. هـ. من التلخيص الحبّير، [ج ٤ / ٣٣٨]. مؤسسة القرطبة - الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٦م. وانظر أيضًا: تحقيق الحافظ فى الفتح فى شرح حديث رقم [٦٤١٠]. وقال الحافظ ابن كثير: «والذى عوَّل عليه جماعة من الحفاظ أنَّ سرد الأسماء فى هذا الحديث مُدرج» عمدة التفسير، [ج ٢ / ٦٩]. دار الوفاء - الطبعة الثالثة، سنة ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥م. والحديث برغم ذلك أخرجه ابن حبان [ج: ٨٠٨] في صحيحه وحسنه الإمام النووي في الأذكار [ص ١٠٠] طبعة دار الفكر، ولكن المعتمد لدينا ما قدمناه. أما الحديث بدون ذكر الأسماء فرواه البخاري مرويًّا [٦٤١٠] بلفظ: «الله تسعه وتسعون اسمًا، لا يحفظ لها أحدٌ إلَّا دخلَ الجنةَ وهو وثُرْ يُحِبُّ الْوَتْر». وبقريب منه أخرجه مسلم [٢٦٧٧].

(٢) السيدة عائشة، بنت الإمام الصديق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ، أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة، التَّيِّمِيَّةُ، أمُ المؤمنين، زوجة رسول الله ﷺ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق، وأفضل نسائه جميعاً عدا خديجة بنت خويلد. تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة بنت خويلد وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً، وقيل بعامين، ودخل بها في شوال سنة اثنين، فرأت عنده علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه. وعن عمرو بن العاص رض أنه قال للنبي ﷺ: «أيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟» قال: عائشة<sup>ؑ</sup>؛ متفق عليه: البخاري [٣٦٦٢]، ومسلم [٢٣٨٤]. وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الْثَّرِيدِ عَلَى الطَّعَامِ»؛ البخاري [٣٧٧٠]، ومسلم [٢٤٤٦]. وعن عائشة رض: «لَقَدْ أُعْطِيْتُ تِسْعَا مَا أُعْطِيْتُهَا امْرَأً بَعْدَ مَرْيَمَ بْنِتِ عِمْرَانَ: لَقَدْ تَرَكَ جَبَرِيلُ بِصُورَتِهِ فِي رَاحَتِهِ حَتَّى أَمَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَتَرَوَّجَ جَنِيْ بِكُرْكَ، وَمَا تَرَوَجَ بِكُرْكَ أَغْيَرِيْ، وَلَقَدْ قِبَضَ وَرَأْسَهُ فِي حِجْرِيْ، وَلَقَدْ

يا عائشة: إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سُوَاهُ<sup>(١)</sup>. فهذا الحديث يدلنا على أن هذا الاسم قد ورد في سُنة النبي ﷺ، وسنعود لشرحه بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

## معنى اللغوي

للرفق عدة معانٍ، منها<sup>(٢)</sup>:

الأول: قال الجوهري صاحب كتاب «الصحيح في اللغة»: «الرِّفْقُ ضُدُّ الْعُنْفِ» والفعل منه: «رَفَقَ يَرْفُقُ». وحكى أبو زيد: رَفَقْتُ بِهِ، وَأَرْفَقْتُهُ، بمعنى أي أن رَفَقَ بمعنى أَرْفَقَ، فلو قلنا: أَرْفَقَ بفلان، فمعناه: رَفَقَ بفلان، «وَكَذَلِكَ: تَرَفَّقْتُ بِهِ» بمعنى رَفَقَ وَأَرْفَقَ.

الثاني: «ويقال أيضًا: أَرْفَقْتُ، يعني: نَفَعْتُ، يعني: أَوْصَلْتُ لَهُ النَّفَعَ. و«الرَّفِيقُ»: المُرَافِقُ في السفر»؛ ولذلك فـ«الرَّفِيق» يُطلق على غير الله عَزَّوجلَّ يعني: هذا الاسم من

قبْرُهُ في بيته، ولقد حَفِيتَ المَلَائِكَةَ بِيَتِي، وَإِنْ كَانَ الْوَحْيُ لَيُنْزَلُ عَلَيْهِ وَإِنِّي لَمَعَهُ فِي لِحَافِهِ، وَإِنِّي لَأَبْنَهُ خَلِيقَتِهِ وَصَدِيقَتِهِ، ولقد نَزَّلَ عَذْرِي مِنَ السَّمَاءِ، ولقد خَلَقْتُ طَبَيَّةً عِنْدَ طَيِّبٍ، ولقد وَعَدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا». رواه أبو بكر الأجري. قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: «إسناده جيد». تُوفيت سنة ٥٧ هـ على الصحيح، وقيل سنة ٥٨ هـ، ودُفنت في البقيع. انظر: سير أعلام النبلاء، وتهذيب التهذيب.

(١) أخرجه بنحوه الإمام مسلم [٢٥٩٣]، وأبو داود [٤٨٠٧]، وابن ماجه [٣٦٨٨]، ورواه الإمام البخاري [٦٩٢٧] بلفظ: «يا عائشة: إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».

(٢) انظر - بتصرف: «الأسمى» للإمام القرطبي / ، [ج ١ / ٥٥٦].

الأسماء التي يجوز أن تطلق على غير الله جل وعلا<sup>(١)</sup>، وجمعه: رُفَقَاء. «وقد يكون الرفيق أيضًا واحدًا وجماعًا» أي بمعنى الجمع، كـ«صديق» تطلق على الواحد وتطلق على الجمع، فقوله تعالى: «وَحَسْنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا» [النساء: ٦٩] تطلق على الجمع كما تطلق على المفرد.

الثالث: وأصلُ الرّفق الاحتيالُ. يعني: المحاولة لإصلاح الأمور وإقامها.

ولله تعالى من ذلك كله ما يليق بجلاله.

### معنى «الرفيق» في حق الله تعالى

وله كذلك معانٍ عدة عندما نطلقه في حق الله تعالى، نشير إليها فيما يلي<sup>(٢)</sup>:

#### المعنى الأول: اللين والسهولة

فـ«الرفيق» عندما نطلقه في حق الله تعالى يعني به أنه تعالى كثير الرفق، وهو اللين والسهولة. وضده: العنف، وهو التشديد والتصریب، وذلك مُنْزَه عنه بِهِمَا.

#### المعنى الثاني: الإرافق وهو الإعطاء

يعني الرفق بمعنى: الإرافق، وهو الإعطاء، فـ«أَرْفَقَهُ» أي: نفعه وأعطاه. وكل المعنين صحيح في حق الله تعالى: أي الرفق الذي هو ضد العنف، والرفق الذي هو الإعطاء والنفع. إذ هو الميسير بِهِ والمسهل لأسباب الخير كلها من ناحية، وهو المعطي لها جلًّا وعلاً من ناحية أخرى. فكلا الأمرين في حق الله تعالى صحيح، وهو التيسير

(١) بخلاف بعض الأسماء كـ«القدوس»، منع بعض العلماء أن يطلق على غير الله تعالى.

(٢) انظر - بتصرف كثير: «الأسمى» للإمام القرطبي ج ١ / ٥٥٦.

والتسهيل لأسباب الخير كلها، وفي نفس الوقت هو الذي يعطي هذه الأسباب للمرء، فيعطي له الخير ويعطي له أسبابه ويُيسّر له <sup>بِهَا</sup> تلك الأسباب ويسهلها عليه.

### (فائدة)

هذا المعنى السابق من أَجَلٌ المعاني وأهمها؛ لأن المرء في هذه الحياة الدنيا - وهو الواقع - كثيراً ما تَصْعُبُ عليه أحوال الحياة وأحوال العبادة، ويشق عليه الطريق إلى الله تعالى والمعاملة مع الناس، والرزق والسعى، والطاعة وتسهيلها والاستمرار والثبات عليها، وقد تغلق في وجهه أسباب الطاعات وأبوابها، فلا يستطيع أن يُصلّي ولا أن يَذْكُر الله تعالى، ولا أن يقوم... إلخ، وتراه حزيناً على نفسه وأحواله. إن الذي يُيسّر ذلك كله ويسهل ذلك كله هو المولى جل وعلا، والذي يعطيه ذلك ويرفق به فيه ويوصله له بل ويَدْفع المرء إلى ذلك هو الله جل وعلا. وذلك يجعل المرأة يركن إلى الله تعالى. فالمشكلة التي نحياها اليوم: أن يتعلم المرء هذه الأسماء الحسنة وهذه الصفات العليا ثم لا يرَكِنُ إلى ربه! ولا يدعوه بها، ولا يتحقق بمعانيها، ولا يحاول أن يلْجأ إلى الله تعالى من بابها؛ لظهور عليه آثارها، آثارُ اللين والرفق والإعطاء من الله تعالى والتسهيل. فإذا لم يُعَرِّضِ المرء نفسه لهذه البركات فلا بد أن تحدث له هذه الأحوال التي ذكرنا: من التصعب والتشديد وإغلاق الأبواب، وظهور عليه هذه الآفات والمصائب. فإذا صعبت عليك الأمور، وضاقت عليك الأحوال وشدد عليك في دنياك وعبادتك وأخراك، ووجدت نفسك قد ضاق صدرك بما تراه.. وَحَدَّ رَبَّك بـ«الرفيق»، وادعوه به؛ لأن المسهل لذلك والميسّر له والمعطى أسبابه هو الله <sup>بِهَا</sup>. وحينئذ يشرح صدرك بالله تعالى، ويدّهُب عنك هذا الصعب والضيق وهذا الألم الذي تحسه.

وهذه المسألة ينبغي أن يحفظها المرء واثقاً من حصولها بفضله ﷺ وهي أنه: إذا صاق عليك طلب العلم، وصاق عليك العمل به، وصاق عليك الذكر، وصعب عليك القيام، واستشقت ذلك كله ومملأته منه، وتعسرت أمور دنياك، وأغلقت الأبواب في وجهك..

فهي مِنْحَةٌ في صورة المُحْمَّة.. فالله تعالى يريدك أن توحده بأنه «الرفيق»..

يريدك أن تدعوه بأنه «الرفيق». لترى رحمته ﷺ: يريد أن يظهر عليك آثار رفقه، فلماذا تبتعد أنت عن الأسباب؟! ولماذا تغلق في وجهك الأبواب؟! أنت الذي تغلق على نفسك وفي وجهك هذه الأبواب من أسباب الرفق ومن أسباب الإعطاء والخير التي يعطيها المولى ﷺ لعباده ويحب أن تظهر آثارها عليهم !!

فالله ﷺ يحب أن تظهر على العبد هذه الآثار من أسمائه وصفاته، فهو ﷺ «الغفور» يحب أن تظهر آثار مغفرته على العبد، كما قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا تُذْنِبُوا الَّذِهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَبِجَاءِ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وهو ﷺ «الرحمن، الرحيم، الرزاق، اللطيف، التواب...»<sup>(٢)</sup>، يحب أن تظهر آثار ذلك كله على عباده. ومن هذه الآثار التي يحب أن تظهر بين الناس وبين المؤمنين بالذات هو الرفق.

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ [٢٧٤٩].

(٢) وهذه الأسماء كلها بالإضافة إلى اسمه تعالى المشرف «الغفور» قد شرحها المؤلف في محاضرات صوتية متوفرة على موقع طريق الإسلام وغيره من مواقع (الإنترنت). وجُل هذه الأسماء – إن لم يكن كلها – من مهمات الأسماء، فارجع إليها.

فإذا صعبت عليك الأحوال فاذهب إلى ربك ﷺ؛ ليهديك طريقه عالماً أن إذا لم يُسْهِلْها لك لا يسهُلُها أحد<sup>(١)</sup>، وإذا أغلقها في وجهك لن يفتحها لك أحد، وإذا ضاقت عليك فلن يفرجها أحد.. إلا هو ﷺ.

سيضيق عليك الأمر حتى تظن أن لا ملجأ منه إلا إليه ﷺ، حينئذ تنفرج هذه الأمور، وتنفك هذه الأحوال، وتلين هذه الشدائـد، وإذا بالله تعالى يُفـرـج ذلك كـلـهـ في أعمـالـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ التـيـ نـعـانـيـ مـنـهـاـ جـمـيعـاـ إـلـاـ مـنـ رـحـمـ اللهـ تـعـالـىـ.

وينبغي أن يحفظها المرء هكذا: إذا ضاقت عليك فاعلم أنه لا يوجد تيسير إلا

تيسيره ﷺ ..

فلا تتأتـفـتـ يـمـيـناـ أوـ شـمـاـلـاـ إـلـىـ غـيرـهـ لـيـتـكـ عـنـكـ! اـذـهـبـ إـلـىـ إـلـيـهـ؛ لـأـنـهـ هـوـ الـذـيـ يـدـفـعـكـ إـلـىـ بـهـذـهـ الـقـوـارـعـ. فـكـلـ الشـدـائـدـ الـتـيـ تـنـزـلـ بـكـ فـيـ أـمـوـرـ الـدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ تـدـلـكـ عـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ دـلـيـلـاـ، وـتـهـدـيـكـ إـلـىـ سـبـيـلـاـ. نـزـلتـ عـلـيـكـ الشـدـةـ فـيـ الـعـبـادـةـ.. فـيـ الـمـالـ.. فـيـ الـوـلـدـ.. فـيـ الطـاعـةـ.. فـيـ الـأـهـلـ.. فـيـ النـفـسـ.. فـيـ الـقـلـبـ.. فـيـ الـمـرـضـ.. فـيـ غـيرـ ذـلـكـ، فـاعـلـمـ أـنـ ما يـسـوـقـهـ إـلـيـكـ الـمـوـلـىـ ﷺ بـسـوقـهـ، لـيـأـخـذـ بـيـدـكـ وـقـلـبـكـ إـلـىـ إـلـيـهـ ﷺ.

(١) وقد كان من هديه المشرف ﷺ أن يقول هذا الذكر المبارك إذا صعبت عليه الأمور، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لَا سَهَلَ إِلَّا مَا جَعَلْتُهُ سَهَلًا وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحَزْنَ سَهَلًا إِذَا شِئْتَ». رواه ابن حبان في صحيحه: الإحسان، [ج: ٩٧٩ / ص: ٣٦٦]. طبعة دار المعرفة. وصححه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية، [ج: ٤ / ص: ٢٤، ٢٥].

(٢) كما قال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مِّنْ قَبْلِكُمْ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالظَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ» فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَاتٍ تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ فَسَطَ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأيام: ٤٢، ٤٣].

فلا تُنَصِّرْ حِينَئِذٍ إِذَا جَاءَكَ شَيْءٌ مِّنْ ذَلِكَ بَأْنَ يَكُونُ سَبِيلَكَ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ طَرِيقًا لَكَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ جَلَّ وَعَلَا بِاسْمِهِ «الْرَّفِيق»، وَأَنْ تَتَعَلَّمَ مِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَنْفَعُكَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ، هَاتَفًا:

مَا مَسَّنِي قَدْرٌ بِكُرْهٖ، أَوْ رِضًا  
إِلَّا اهْتَدَيْتُ بِهِ إِلَيْكَ طَرِيقًا  
أَمْضِ الْقَضَاءَ عَلَى الرِّضَا مِنِّي بِهِ  
إِنِّي وَجَدْتُكَ فِي الْبَلَاءِ رَفِيقًا<sup>(١)</sup>

\* \* \*

وَنَنْتَقِلُ إِلَى هَدْفِ جَلِيلٍ مِنْ أَهْدَافِ الرَّفِيقِ ..

وَهُوَ أَنْ أَعْظَمُ هَذِهِ الْأَمْوَارِ الَّتِي يَيْسِرُهَا تَبَلُّغُ تِيسِيرُ الْقُرْآنِ لِلْحِفْظِ، وَتَسْهِيلِهِ لِعِبَادِهِ الْمُقْبِلِينَ الْمُحْبِبِينَ. وَهِيَ مِنْ مَهَمَّاتِ الدِّينِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي قَوْلِهِ يَحْلَّ ذِكْرُهُ: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِكِيرِ فَهُلْ مِنْ مُؤْكِرٍ» [القرآن: ١٧]. وَلَوْلَا تِيسِيرُهُ وَتَسْهِيلُهُ لَهُمْ لَهُمْ هَذَا الْأَمْرُ مَا قَدَرَ عَلَى حِفْظِهِ أَحَدٌ.

### المعنى الثالث: التمهل والتأني في الأمور

إن التمهل والتأني من معاني رفقه تبلّغ التي يجب أن يعلمها المرء عن ربه، فيستعمل الرفق بهذا المعنى في أموره وأحواله كلها فيفلح لا يندم ولا يتسرّع.

(١) انظر: إغاثة اللاهفان، للإمام ابن القيم - الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته.

و «الرفيق» في حق الله تعالى بهذا الشرح قريب من معنى «الخليم» ﷺ، ولكن له معنًى زائداً: فـ«الرفيق» فيه شيء من الرحمة، أما الحلم فمتعلقٌ بعدم تعجيل العقوبة فقط؛ فإنه لا يُعجل بعقوبة العصاة ليتوبَ مَنْ سَبَقَتْ له العنايةُ فِرْفُقَ بِهِمْ ﷺ، ويؤخر عنهم العقوبةَ لِمَنْ كانت له توبةٌ وسَبَقَتْ له أسبابُ السعادة أن يتوب ويرجع إلى الله تعالى، ولزيادة مَنْ سبقت له الشقاوةُ إِثْمًا والعياذ بالله تعالى<sup>(١)</sup>.

لكنَّ هذا كله لا يمنع الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، فليس معنى هذا الكلام السابق أن يُضيّع معه المرءُ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر كما سندكر، وإنما انظر إلى هذه المعانٰي أولاً فتعلّمها، ثم بعد ذلك تَدَبَّرْ فيما وراء ذلك من أمور الشرع الشريف مما يلزمك فلا تُقصِّرْ فيه.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله<sup>(٢)</sup>: «وقال الخطابي: قوله<sup>(٣)</sup> "إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ" معناه: ليس بعَجُولٍ» لا يتعجل الأمرَ كما هي حال البشر - حال المؤمنين اليوم وغيرهم -. كلما حدث لأحد هم سوء تفاهُمٍ مع أخيه المسلم سارع بالغضب لنفسه؛ حتى إذا كَلَمَهُ أخوه المسلم مستعملاً الذُّوق والأدب معه، حَمَلَ كلامَه على سوء الظن وأساء إليه وشتمه.. ثم تعلو أصواتُها، ثم تأتي بعد ذلك القطيعةُ مع البغضاء والشحناه بسبب عدم أخذ الأمور بالتأني والترىث والرفق، والتأكد مما يقال مع التبصر في عاقبة الأمور.

(١) وقد شرح هذا الاسم المشرف «الخليم» من قبل، وهو متوفّر في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيرها من الواقع على الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت). فارجع إليه لمعرفة المزيد من المعانٰي المتعلقة بهذا الاسم المشرف.

(٢) انظر: الأنسى، للإمام القرطبي / [٥٥٧ / ١].

(٣) يعني قول النبي ﷺ في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

ونرجع إلى قول الخطابي<sup>(١)</sup> من أوله حيث يقول: «إن الله رفيق، معناه: ليس بعجل، وإنما يعدل من يخاف الفوت» يعني: لماذا يتعدل المرء في أمره؟ لأنَّه خائف أنْ يفوت ويُضيع عليه، والله تعالى لا يضيع له شيء؛ إذ مَنْ كانت الأشياء في قبضته ومُملِّكه فليس يَعْجَلُ فيها، فكل شيء في قبضته بِهِ لا يفوته ولا يخرج عن مُملِّكه<sup>(٢)</sup>.

وببناء على ما سبق يكون قوله بِهِ: «يُحِبُّ الرفق»، يعني: يُحب ترك العَجَلة في الأعمال والأمور» فليس كُلُّ أمرٍ لا بد أن تأخذ فيه قراراً فورياً.. فالله بِهِ يحب الترافق في الأمر كُلُّه. فترافق، وخذ حذرك، وتأن في أمورك ولا تعجل، وترى، واسأْل واستوثيق وتأكد. وليس من ذلك التمهُّل الذي يُضيّع عليك أمورَ الخير وغيرها، لا.. وإنما ذلك يكون في الأمور التي لا يكون عاقبةُ الترافق فيها الأسف والندم. وقد رأينا مصداق ذلك الرفق في خُلقه بِهِ، وسنذكر الأحاديث التي تشرح هذه المعاني وتُجلِّيها.

وكما أشرنا فإننا كلنا - إلا من رحم الله تعالى - على عكس حاله المشرَّف بِهِ; فما أن يحدث شيء ما بين أحدانا وبين أخيه المسلم اليوم إلا بادر إلى البغض والإقطيعة والغيبة

(١) الخطابيُّ أبو سليمان حَمْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ خَطَّابِ الْبُسْتَيِّ، الْإِمَامُ، الْعَالَمَةُ، الْحَافِظُ، اللُّغَوِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ. وُلِّدَ: سَنَةً بِضْعَ عَسْرَةَ وَثَلَاثَ مَائَةً، وَأَخْدَى الْفِقَهَ عَلَى مَذَهَبِ الشَّافِعِيِّ عَنْ: أَبِي بَكْرِ الرَّفِعَالشَّاشِيِّ، وَأَبِي عَلَيِّ ابْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَنُونَرَائِهِمَا. حَدَّثَ عَنْهُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَاكِمُ - وَهُوَ مِنْ أَقْرَانِهِ فِي السُّنْنِ وَالسَّنَدِ - وَالْإِمَامُ أَبُو حَامِدِ الْإِسْفَارِائِيِّيُّ. وَلَهُ «شَرْحُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى»، وَشَرْحُ «سِنْنِ أَبِي دَاوُدَ»، وَكِتَابُ «الْعُنْيَةِ عَنِ الْكَلَامِ وَأَهْلِهِ»، وَغَيْرُ ذَلِكَ. تُوَفِّيَ الخطابيُّ بِسُنَّةَ سَنَانِ وَشَهَانِ وَثَلَاثَ مَائَةٍ. انظر - بتصرف كثير: السير [٢٤ / ١٧] وما بعدها - طبعة الرسالة.

(٢) وانظر للغائدة: «معاقد ملك الله تعالى» و«مظاهر ملك الله تعالى» في شرح أسماء الله تعالى «الملك والمالك والمليك» للمؤلف، الفصل الثاني والثالث على الترتيب.

من غير أن يسأله ويَشْبَّتْ من وقوع ذلك منه كأنه يتضرر خطأه، فلا رفق أو تمهل حتى يعلم عذرها. وهبْ أنه ليس له عذرٌ فالرفق والمودة وسلامة الصدر والقلب واللسان أولى من البغضاء والشحناه وسوء الظن.

فنتعلم هذا الرفق في الأمور وترك العجلة والتأني.

وينبغي لكل مسلم أن يكون رفيقاً في أموره وجميع أحواله، غير عجلٍ فيها؛ فإن «العَجَلَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ»<sup>(١)</sup>، ولا تفارقه الخيبة والخسران على ما تَعَجَّلُ فيه. وقد قال رسول الله ﷺ لأشجع عبد القيس رض، وهو أحد الصحابة المُبَجَّلين: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحَلْمُ وَالْأَنَاءُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده [٢٤٨/٧]، مرفوعاً إلى النبي ﷺ. ونماه: «التَّائِي مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ». قال الإمام ابنُ القيم في أعلام الموقعين: «إسناده جيد».

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه [١٨].



## الفصل الثاني

### الرِّفْقُ

- الأحاديث الواردة في «الرِّفْق».
- الرِّفْقُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- حظ العبد من اسم الله تعالى «الرَّفيق».

## الأحاديث الواردة في الرفق:

١) «مَنْ يُحِرِّمِ الرَّفْقَ يُحِرِّمِ الْخَيْرَ»<sup>(١)</sup>. وهذا الحديث رواه مسلم. وفي راوية

الترمذى: «مَنْ حُرِّمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ حُرِّمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ»<sup>(٢)</sup>.

٢) «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ لِّلْحُبُّ الرَّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى سَوَادِهِ»<sup>(٣)</sup>.

٣) «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»<sup>(٤)</sup>.

٤) «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»<sup>(٥)</sup>.

وهذه الأحاديث كل معانيها جليلة، ولكن نشير أولاً إلى حديث منها، وفيه قصة  
ذكرها ثم نعود بعد ذلك إلى بقية الأحاديث.

وهذا الحديث هو: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». والإمام البخاري بَوَّبَ في  
صحيحه [باب: الرفق في الأمر كله]<sup>(٦)</sup>. وورد تحت هذا الباب حدثان.

(١) سبق تخرجه في «الدليل على اسم الله تعالى: الرفيق».

(٢) رواه الترمذى من رواية عائشة وجرير وأبي هريرة رض [٢٠١٣] وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) سبق تخرجه، انظر: هامش رقم (٦).

(٤) متفق عليه من رواية السيدة عائشة رضى الله عنها مرفوعاً إلى النبي ﷺ: البخاري [٦٠٢٤]،  
ومسلم [٢١٦٥].

(٥) رواه الإمام مسلم في صحيحه من رواية السيدة عائشة مرفوعاً، كتاب: البر والصلة والأدب [٢٥٤٩].

(٦) وهو الباب الخامس والثلاثون من كتاب الأدب - الكتاب الثامن والسبعين، ترقيم الأستاذ محمد  
فؤاد عبد الباقي. أو فتح الباري [ج. ١٠٦ / ٥٠٦]، طبعة دار الحديث - سنة ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

الحادي الأول هو حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ تقول:

[دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: «السَّامُ عَلَيْكُمْ». فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: «وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةً.. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُ الرَّفِيقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟!». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»]<sup>(١)</sup>.

و«السام» معناه: الموت. وقد ورد عن النبي صلوات الله عليه وسلم أنه قال: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكَ. فَقُلْ: وَعَلَيْكَ»<sup>(٢)</sup>. وفي راوية: «فَقُلْ: عَلَيْكَ»<sup>(٣)</sup>، فهذا سلامهم.

وقولها رضي الله عنها «فَفَهِمْتُهَا» يعني: فَهِمْتُ بِفَطْنَتِهَا أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ: الْمَوْتَ عَلَيْكُمْ.

ولما فَطِنَتْ إِلَى الْكَلْمَةِ وَأَنْهُمْ لَا يُسَلِّمُونَ بِلَيْدِ الْمَوْتِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلوات الله عليه وسلم، قالت: «وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ». فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةً.. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُ الرَّفِيقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». فَقَالَتْ - وَكَانَهَا ظَنِّتْ أَنَّ النَّبِيَّ صلوات الله عليه وسلم لَمْ يَسْمَعْ مَا قَالُوا -: «أَوْلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟!». فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ».

وهناك رواية أخرى للحديث ذكرها الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث في

«فتح الباري»..

(١) رواه الإمام البخاري [٦٠٢٤].

(٢) رواه الإمام البخاري [٦٢٥٧] من رواية ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه الإمام مسلم [٢١٦٤] من رواية ابن عمر رضي الله عنهما.

وهي أن رسول الله ﷺ قال لها: «فَيُسْتَجَابُ لِي مِنْهُمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِي»<sup>(١)</sup> .. يعني: إن الله يجيب دعوتنا عليهم ولا يجيب دعوتهم علينا. وهذا دليل على أن الداعي إذا دعا بشيء ظلمًا فإن الله لا يستجيب له، ولا يجد دعاؤه محلًا في المدعو عليه<sup>(٢)</sup>; هذا هو المعنى الأول.

والمعنى الثاني وهو المهم، ألا وهو الرفق كما ذكر النبي ﷺ، فقد قال النبي ﷺ: «مَهْلَأً يَا عَائِشَةً»؛ اليهود يقولون: «السام عليكم» وهو يقول ﷺ: «مَهْلَأً.. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفِقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». يعني حتى لو كان القائل لك ذلك يهودياً - وقد كان بينهم وبين النبي ﷺ عهْدٌ يومئذ - فإنه صلوات الله وسلامه عليه يقول لها: «مَهْلَأً.. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفِقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». لا يرد عليهم هذا الرد، وإنما بكل ما أوتي من رفقٍ ﷺ يقول لها: «قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ». فيبين لها أنه لا ينبغي أن يعجل المرأة ولا يترك التأني أو يستخدم العنف عندما يرد<sup>(٣)</sup>، حتى ولو كان هذا الشخص الآخر على هذا النحو من سوء الخلق ومن العمل والقول المسيء؛ كل ذلك يرجو به المرأة أن يتالف معه، كما قال الحافظ في شرح الحديث: أنه ﷺ قال ذلك على سبيل المصلحة في تألفهم وفي نفس الوقت قد رد عليهم ما يستحقون به، ولكن في غير شططٍ.. وفي غير ما يكون سبباً للمؤاخذة عند الله تعالى ولا عند الناس.

(١) أخرجه الإمام البخاري [٦٠٣٠] عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

(٢) انظر: الفتح، شرح الحديث رقم [٦٢٥٧]، أو [ج ١١ / ص ٥٢] طبعة دار الحديث. وقد نقله الحافظ عن الخطابي ملخصاً.

(٣) وفي رواية أخرى للحديث أنه ﷺ قال لها: «مَهْلَأً يَا عَائِشَةً: عَلَيْكِ بِالرَّفِقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ». أخرجه البخاري في صحيحه [٦٠٣٠].

وقفة أخرى مع الرفق تُظهر قيمة وأثره يُبينها حديث النبي ﷺ الذي ذكره كذلك البخاري في نفس الباب، وله روایات أخرى صحيحة في صحيح مسلم وغيره نذكرها كذلك؛ يقول الراوي <sup>(١)</sup>: «جاءَ أَعْرَابِيُّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ إِلَيْهِ الصَّحَابَةُ» أي: وَثَبُوا إِلَيْهِ «فَقَالُوا: مَهْ مَهْ زَجَرُوه.. قَامُوا إِلَيْهِ.. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تُزِرُّ مُوْهُ، ثُمَّ دَعَا بِدُلُّ مِنْ مَاءِ فَصُبَّ عَلَيْهِ.. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: اللَّهُمَّ ارْحَنِي وَمُحَمَّداً وَلَا تَرْحَمْ مَعَنِّا أَحَدًا!» فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ حَجَرْتَ وَاسِعًا» <sup>(٢)</sup>.

انظر إلى هذا الرفق كما يشرح العلماء معنى الحديث: «لَا تُزِرُّ مُوْهُ»: «تُزِرُّ مُوْهُ» من الإِزْرَام، يقال: «زَرَمَ الْبُولُ» إذا انقطع، و«أَزْرَمْتُهُ» يعني إذا قطعه. وكذلك يقال في الدمع. فـ«لَا تُزِرُّ مُوْهُ» يعني: دعوه، ولا تقطعوا عليه بوله.. إنه ببول في مسجد النبي ﷺ!! ومع ذلك قال ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُوا عَلَيْهِ بَوْلَهُ». ولم يكن منه ﷺ إلا أن دعا بدلوا من ماء فصُبَّ عليها، فكان أن حلَّ - عليه الصلاة والسلام - المشكلة ببساطة <sup>(٣)</sup> وبغير فظاظة ولا إغلاظ ولا سخرية ولا غيره بل بالرفق.

وهذا فيه كما يقول أهل العلم: إرشاد الجاهل وتعليمه مع الرفق به إذا لم يظهر منه العناد. فإذا رأيتَ مثلًا أحدًا من إخوانك يفعل أو يأتي بقول أو بتصرف من التصرفات

(١) هذا الحديث رواه كُلُّ من أبي هريرة وأنس بن مالك كما هو في البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) انظر روایات هذا الحديث في البخاري [٦٠٢٥]، ومسلم [٢٨٥].

(٣) «بَسَطَ» الشيء: نشره وجعله بسيطًا لا تعقيد فيه. انظر الوسيط، مادة [ب س ط]. وقال الفيروز آبادي: «واستعار قوم (البسيط) لكل شيء لا يتصور فيه تعقيد أو تأليف أو نظم». اهـ. من تاج العروس، مادة [ب س ط]. ومقصدنا بقولنا: «بساطة» أي: بدون تعقيد.

السيئة التي علمتَ أنه ينبغي إرشاده وتعليمه فيها، فلزمك استعمال الرفق معه حتى تصل إلى ما تصبو إليه من هدایته وأخذه إلى الله تعالى، وتقريره إلى سنة النبي ﷺ. تأمل كيف فتح الرفق قلب الأعرابي وأثر فيه، حتى قال لما رأى ذلك من النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّداً وَلَا تَرْحَمْ مَعَنِّا أَحَدًا»! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ حَجَرْتَ وَاسِعًا» يعني من رحمة الله تعالى. كأنه يقول: أرحم من رفق بي فقط محبةً لفعله وتقديرًا له.

فانظر كيف كان فعل النبي ﷺ وقوله معه! وتأمل ما يدخل الرفق في قلوب الناس من المحبة للرفيق التي بها يستجيب الخلق إلى الله تبارك وتعالى، ويبعد بها الشيطان، ويحفظ بها المرء بموذته بينه وبين إخوانه، ثم يجعل للمسيء طريقةً للرجوع.

وعلى عكس ذلك: فلو قلتَ له قوله غليظاً لأغلقتَ عليه طريق الرجوع عن فعلته ولعاند واستمر في غيه، وعندئذٍ يصعب عليك أن تكلمه مرة أخرى، ولا أن تسلم عليه. فهذه مشاكل وطرق الشيطان التي يسلكها من لم يستفد من اسمه «الرفيق» ﷺ.

لذلك قال النبي ﷺ في الحديث التالي: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ وَيُعْطِي عَلَى الرَّفِيقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ». فإذا كنتَ تظن أن الشدة مطلوبةً ومستحبةً في دين الله تعالى مثلًا، وأن مثل هذا الشخص لا يصلح إلا بذلك، فإنه إذا لم يكن موضعها ذلك الموضع وهذه ليست من الدين في شيء لأنها ليست رفقاً، بل هي عنف. لذلك يقول: «وَيُعْطِي عَلَى الرَّفِيقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ».

وقد يتطرق إلى عقل المرء أنه ليس بعنفٍ ولا شيء، إنما يقول: «أنا أتكلم معه فقط، ولا يكون كلامي على هذا هو العنف المقصود».

لذلك نستكمل كلام النبي ﷺ، حيث قال:

«إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ وَيُعْطِي عَلَى الرَّفِيقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» ..

فليس المقصود ترك العنف فقط، بل وترك كل ما سوى اللين لأنه ﷺ يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ولا على ما سواه<sup>(١)</sup>.

وهذه الرواية الأخيرة رواية الإمام مسلم. فأنت إذا كنت تريد - أيها المسكين - بعنفك أو بفظاظتك أو بشدتك أو بتضعيك للأمور أو بإغلاظك وزجرك أن تحصل ثواب الله تعالى فاعلم أنك لا تحصل ثواباً بذلك، بل على العكس: فإن الله تعالى يثيب على الرفق - يعني يعطي الثواب الجزيل على الرفق - ولا يعطيه على العنف ولا يعطيه على ما سواه.. يعني بأنه يريد منك ما هو أكثر من مجرد ترك العنف.. يريدك أن ترك العنف وأن تكون ليئنا<sup>(٢)</sup>، لأنك ترجو بذلك ثواب الله تعالى، لذلك يقول: «وَيُعْطِي عَلَى الرَّفِيقِ» يعني: يثيب.

ولها معنى آخر ذكره القاضي عياض فيما نقله عنه الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم في معنى قوله ﷺ: «وَيُعْطِي عَلَى الرَّفِيقِ»: «معناه: يتآتى به من الأغراض ويُسْهُل من

(١) وفي رواية في الموطأ وغيره: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ وَيَرْضَى بِهِ وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ». انظر: حديث رقم [١٨٠] طبعة المكتبة. وسيأتي بكلمه قريباً إن شاء الله تعالى.

(٢) وقال ﷺ مرتنا على نبيه ﷺ: «فَإِنَّمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِئَلَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا غَلِظَ الْقَلْبِ لَا نَفْصُوا مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران: ١٥٩].

المطالب ما لا يتأتى بغيره<sup>(١)</sup>. وهذا المعنى الثاني اختاره الحافظ ابن حجر على المعنى الأول وهو الثواب.

فالحديث إذاً فيه معنيان في قوله: «وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ». الأول: يعني الشواب الجزيل على الرفق. والثاني: أنه يأتي من وراء الرفق من الأغراض والمطالب التي تُريد لها ما لا يأتي بغير الرفق وما لا يأتي بالعنف. فإن قلت: إذن أترك العنف؟ نقول لك: ليس العنف فقط، بل وترك ما سوى الرفق. ففي الحديث «وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» كأنه يقول: دع كل ما لا يسمى رفقاً. يدخل فيه العنف وغير العنف - لأنه لا يُثبِّت عليه بِكُلِّ شَيْءٍ، وفي نفس الوقت لا يأتي به من الأغراض ويُسْهِل به من المطالب كما يسهل بالرفق.

والحديث التالي: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»<sup>(٢)</sup>. وهذا الحديث كذلك في صحيح مسلم.

وهذا الحديث له قصة قصيرة كذلك: وهي أن السيدة عائشة بنتِ خاتمة صُعبَت عليها ناقة - يعني: كانت تركب ناقة وصعبت عليها - فأخذت تُرْدِدها، يعني تشدها هكذا وهكذا.. يميناً ويساراً. فقال لها النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، فَإِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

وهذا المعنى الثالث: وهو كون الرفق زينةً للأعمال، وزينةً للأقوال، وزينةً للمعاملات، ومعنى أن يكون الرفق زينةً أي: أن يكون حليةً المؤمن، فيكون في أخلاقه وشمائله وكل

(١) انظر: شرح الإمام النووي على الحديث رقم [٢٥٩٢] في كتاب البر والصلة والأدب، باب: فضل الرفق. أو [ج ٨ / ٣٩١] دار الحديث - الطبعة الأولى - سنة ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.

(٢) سبق تخربيجه.

أحواله التي تكون سبباً لإظهار هذه المعانى الجميلة التي ينبغي أن ترى على المؤمنين في جميع معاملاتهم مع المسلمين ومع الكفرا و مع الدواب<sup>(١)</sup> ومع كل شيء.

ونشير إلى آخر الأحاديث .. وهو موضع الخطر في قضية الرفق: «مَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفِيقِ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ»<sup>(٢)</sup>.

فاحفظ ذلك جيداً: كُلُّمَا هَمَّتْ نَفْسُكَ بِالْخُرُوجِ عَنِ الرَّفِيقِ وَاللِّيْنِ وَالسَّهُولَةِ وَالْتَّيسِيرِ  
وَالترِيْثِ وَالتَّؤْدَةِ، وَخَرَجْتَ نَفْسُكَ إِلَى الصُّعُوبَةِ وَالشَّدَّةِ وَالْعَنْفِ وَالرَّدُودِ السَّيِّئَةِ

(١) وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ بَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقُ يُحِبُّ الرَّفِيقَ وَيُرِضِي بِهِ وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ، فَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَ الْعُجْمَ فَأَنْزَلُوهَا مَنَازِلَهَا، فَإِنْ كَانَتِ الْأَرْضُ جَدْبَةً فَأَنْجُوْهَا عَلَيْهَا بِنَقِيْهَا. وَعَلَيْكُمْ بِسَيِّرِ اللَّيْلِ، فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ مَا لَا تُطْوَى بِالنَّهَارِ». رواه الإمام مالك في الموطأ مرفوعاً [١٨٠١] طبعة المكتن. وعن أبي هريرة رض أن رسول الله صل قال: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخُصُبِ فَأَعْطُوْا إِلَيْلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَبَادِرُوا بِهَا بِنَقِيْهَا». رواه الإمام مسلم [١٩٢٦]. قال الإمام النووي في الشرح: [«الْخُصُب» بكسر الخاء، وهو كثرة العشب والمرعى، وهو ضد الجدب. والمراد بـ«السَّنَة» هنا القحط، ومنه قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ بِالْتَّيْبِينَ» [الأعراف: ١٣٠]، أي: بالقحط. وـ«نَقِيْهَا» بكسر النون وإسكان القاف، وهو: المخ. ومعنى الحديث: الحث على الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها؛ فإن سافروا في الخصب قللوا السير وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير فتأخذ حظها من الأرض بما ترعاها منها، وإن سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصدة وفيها بقية من قوتها، ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر لأنها لا تجد ما ترعى فتضعف ويزهد بـ«نَقِيْهَا»، وربما كَلَّت ووقفت، وقد جاء في أول هذا الحديث في رواية مالك في الموطأ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقُ يُحِبُّ الرَّفِيقَ» [١]. ا.هـ من شرح الإمام النووي على صحيح مسلم، شرح الحديث رقم [١٩٢٦].

(٢) سبق تخرجه، انظر: هامش رقم (٢٣).

والأعمال الشديدة، وخرجت إلى الرعونة والتهور وما إلى ذلك قُل لها هذا المعنى: من حُرم الرفق يُحرم الخير. من حُرم حظه من الرفق حُرم حظه من الخير.

والمرء إذا كان على هذا الحال السيئ من العنف وغيره مما سوى اللين والرفق – فإنه بقدر ما يَقْدُر حظه من هذا الرفق يُحرم هذا الحظ من الخير.

وهذه المسألة خطيرة..

كيف يتحقق المرء بالخير بعد أن رأى طريقاً يحقق به خيراً نفسه وخير قلبه وخير أهله وخير أولاده وخیره مع الناس جيغاً وأن يكون محلاً للخير؟ فمن رأى حاله على هذا المنوال – يعني منوال من حُرم الخير – فإنه يعلم أنه لا يتأتى منه لا دعوة ولا صلاة ولا عبادة ولا ذِكر على حالٍ يُرجى منه الثواب أو القفضل أو الدرجة عند الله تعالى؛ لأنَّه شخصٌ محروم من هذا الخير، حُرم هذا الحظ، فكيف يتَّأتى منه الخير، وكيف تتأتى منه أخلاق، ومودة ومعاملة وغير ذلك مما قد حُرمه بسبب حرمانه هذا الخير؟! وهذه مشكلة! فعل قدر ما يُحرم المرء من الرفق على قدر ما يحرم من الخير.

لم يقتصر توجيه النبي ﷺ وتحذيره للمرء وحده من ترك العنف لتحصيل الخير لنفسه وعدم حرمانه، بل تَعَدَّاه إلى أهله وبيته؛ إذ أراد كذلك ﷺ أن يعم الرفق بيوت المسلمين وأهاليهم لِتَنْزَل حُبُّ الله تعالى عليهم، ويعطى كُل أهل بيته حظهم من الخير، ولذا قال ﷺ مُرْغِبًا في الرفق: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ حَيْرًا أَدْخِلْ عَلَيْهِمُ الرَّفِيق»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من رواية عائشة ك، [ج ٦ / ٧١] الطبعة الميمنية، وصححه المنذري في الترغيب، [ج ٣ / ٣٦١] دار الفجر.

وترى الحديث **يُبَيِّن** هذه الفضيلة؛ أن إدخال الرفق إنما هو من الله تعالى لمحبته الخير لهم، ثم يقول **عَزَّوَجَلَّ** محدداً من العنف: «مَا مِنْ أَهْلٍ بَيْتٍ يُحِرِّمُونَ مِنَ الرِّفْقِ إِلَّا حُرِّمُوا»<sup>(١)</sup>.  
إنَّ الرِّفْقَ عندما يُرْفَرُفُ على بيوت المسلمين في مثل هذه الأونة الصعبة التي غَلَبَتْ  
عليها الأخلاق السيئة لِيُعْطِيَ الأمل في أن تُبَنِّي بيوت صالحة ملؤها الخير، تكون سبباً في  
عودة الإسلام ورفع رايته. وإنَّ أَكْثَرَ ما نعاني منه في البيوت اليوم سَبَبُهُ حِرْمَانُ الْخَيْرِ،  
فتلك دعوة إلى سلوك هذا السبيل من قوم يُهْمِّهم محبة ربهم ويُقْلِّقُهم أمر دينهم.

## الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ونأتي إلى المسألة الأخيرة وهي مسألة أردت أن أشير إليها لإشارة العلماء لها وهي:  
«الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وهي مذكورة في «مختصر منهاج القاصدين» للإمام شمس الدين ابن قدامة المقدسي **رحمه الله**<sup>(٢)</sup>، على سبيل الإيجاز الواضح.  
يقول في المختصر: «في آداب المحتسب: وجملتها ثلاثة صفات، الأولى: العلم..  
والثانية: الورع.. والثالث: حُسن الأخلاق. قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا  
رفيق فيها يأمر به، رفيق فيها ينهى عنه، حليم فيها يأمر به، حليم فيها ينهى عنه، فقيه فيها  
يأمر به، فقيه فيها ينهى عنه».

(١) رواه الطبراني في الكبير [٢٢٧٤] مكتبة العلوم والحكم - الموصل، قال المنذري في الترغيب: «رواته ثقات»، [ج ٣ / ٣٦١].

(٢) انظر - بتصرف واختصار: الرابع الثاني من الكتاب «ربع العادات - كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فصل: صفات المحتسب وأدابه وشروطه»، [ص ١١٩] وما بعدها - دار العقيدة - الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٦ هـ، م ٢٠٠٥.

يعني أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي أن تكون درجاتُه كلها بالرفق الذي يكون سبباً لرفع المنكر، وإشاعةِ المعروف، وقُرْبِ الناس إلى الله تعالى، وأخذِهم إليه؛ لأنَّ همَ الْأَمِيرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيُّ عَنِ الْمَنْكَرِ أَنْ يُقْرِبَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ تَرَكُوا هذَا الْمَنْكَرَ وَعَمِلُوا بِهذَا الْمَعْرُوفَ بِأَقْلَمِ كَلْمَةٍ طَيِّبَةٍ وَجُمْلَةٍ حَسَنَةٍ فَمَا الدَّاعِيُ إِلَى أَنْ يَزْجُرُهُمْ وَأَنْ يَعْنِفُهُمْ وَأَنْ يُقْاطِعُهُمْ وَأَنْ يَفْعُلْ... إِلخ. فَمَهْمَاهَا انتهَايَةُ الْمَنْكَرِ بِشَيْءٍ خَفِيفٍ فَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ، فَلَا تُكْثِرْ وَلَا تَزَدَّدْ بِمَا قَدْ يَكُونُ سبباً بَعْدَ ذَلِكَ لِتَشْبِيهِ هذَا الْمَنْكَرَ، أَوْ سبباً لِلصَّدِّ عنِ سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى.

لذلك يقول: «قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه».

والذي يخصُّنا هنا: أن الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُتعيّنٌ، لقول الله تعالى: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَهُ رِيَّدَكُرْ أَوْ سَخْشَى» [ط: ٤٤] وهذا لفرعون. لذلك لما جاء رجلٌ إلى الخليفة العباسى<sup>(١)</sup> فقال له: «سأقول لك قولًا شديداً». قال له: «لا تقل لي قولًا شديداً؛ فأنتَ لستَ بأحسن من موسى وأنا لست أسوأ من فرعون، والله تعالى قال لموسى في فرعون: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَهُ رِيَّدَكُرْ أَوْ سَخْشَى»». أي: لا تقل لي قولًا شديداً

(١) هو أبو جعفر هارون ابن المهدى الرشيد الخليفة العباسى. استُخلف في سنة ١٧٠ هـ، وكان من أئمة الخلفاء وأحشى الملوك، ذا حجّ وجهاً وغزاً وشجاعةً ورأيًّا. قيل إنه كان يصلٍ في خلافته مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدق بألفٍ، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويُبغض الشّدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنبه، لا سيما إذا وعظَ له فتوحاتٌ ومواقفٌ مشهودة، توفي سنة ١٩٣ هـ غازياً، وقبرُه بمدينة طُوس. انتهى مختصرًا من سير أعلام النبلاء.

ولا زَجْرًا ولا غيره؛ فلا أنت أحسن من نبى الله موسى عليه الصلاة والسلام ولا أعلى منه، ولا أنا أسوأ من فرعون حتى تشتد علىَّ في الإنكار.

ورُويَ أنَّ أبا الدرداء (١) مرَّ على رجل قد أصاب ذنباً والناسُ يسبُونه فقال: «رأيتم لو وجدتموه في قَلِيب، ألم تكونوا مُسْتَخْرِجِيه؟» يعني: أرأيتم إن كان هذا الشخص وجدته واقعاً في بئر، ألم تكونوا مستخرجيـه من ذلك البئر؟ قالوا: «بلى». قال: «فلا تسبُوا أخاكـم، واحمدو الله على الذي عافـكم». فقالوا: «أفلا تبغضـه؟» فقال: «إنما أبغضـ عمـلهـ، فإذا تركـهـ فهو أخيـ». والمقصودـ من هذا الكلام الرفقـ في الأمرـ بالمعروفـ، والحمدـ على العافيةـ التي نجـاكـ اللهـ تعالىـ بهاـ منـ هذاـ الذنبـ وهذهـ الخطـيـةـ، ثمـ أنـ يكونـ هـمـكـ أـنـ تأخذـ بيـدـهـ إلىـ اللهـ تعالىـ، أـلـستـ لـوـ رـأـيـتـهـ قدـ وـقـعـ فيـ بـئـرـ أـلـسـتـ كـنـتـ مستـخـرـجـهـ منـ هـذـاـ الـبـئـرـ؟

وقصة ثانية مع أصحاب صلة هـلـلـهـ: «حيث مرَّ فتى يجرب ثوبـهـ والنبي صـلـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـلـهـ قد عـلـمـتـ

هـيـهـ عنـ إـسـبـالـ الشـوـبـ صـلـوـاتـ اللهـ وـسـلـامـهـ عـلـيـهـ (٢) فـهـمـ أـصـحـابـ صـلـةـ بنـ أـشـيـمـ»،

(١) أبو الدرداء: عُوَيْبُرُ - وقيل مالك أو عامر أو ثعلبة أو عبد الله - بن زيد بن قيس الأنباري، الإمام القدوة قاضي دمشق وصاحب رسول الله صـلـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـلـهـ، وهو معدودٌ فيمن تلا القرآن على النبي صـلـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـلـهـ، وهو معدود أيضاً فيمن جمع القرآن في حياة رسول الله صـلـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـلـهـ. أسلم عقبـ بـدرـ، لكنـ فـرـضـ لـهـ عمرـ هـ فأعقبـ بالـبـلـرـيـنـ جـلـالـتـهـ. تـوـفـيـ سـنـةـ ٣٢ـ هـ وـقـيلـ بـعـدـهـ. انـظـرـ: سـيـرـ أـعـلامـ النـبـلـاءـ، وـتـهـذـيبـ التـهـذـيبـ.

(٢) وردـ فيـ التـهـذـيبـ عنـ إـسـبـالـ الشـوـبـ عـدـةـ أـحـادـيـثـ، مـنـهـ قـوـلـهـ صـلـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـلـهـ: «مـاـ أـسـفـ مـنـ الـكـعـبـيـنـ مـنـ الـإـزارـ فـيـ النـارـ». أـخـرـجـهـ الإـمامـ الـبـخـارـيـ [٥٧٨٧]ـ، وـقـالـ أـيـضاـ صـلـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـلـهـ: «ثـلـاثـةـ لـاـ يـكـلـمـهـمـ اللهـ وـلـاـ يـنـظـرـ إـلـيـهـمـ وـلـاـ يـزـكـيـهـمـ وـلـهـمـ عـذـابـ أـلـيـمـ»ـ. المـنـانـ الـذـيـ لـاـ يـعـطـيـ شـيـئـاـ إـلـاـ مـنـهـ، وـالـمـنـفـقـ سـلـعـهـ بـالـخـالـفـ الـفـاجـرـ، وـالـمـسـبـلـ إـزـارـهـ». روـاهـ الإـمامـ مـسـلـمـ [١٠٦ـ].

وصلة بن أشيم هذا هو أحد التابعين العباد الفقهاء، صاحب حذيفة بن اليمان من أصحاب النبي ﷺ<sup>(١)</sup>. يقول: «فَهُمْ أَصْحَابُ صِلَةَ بْنِ أَشِيمٍ أَنْ يَأْخُذُوهُ بِالسَّتْهِمَ أَخْذًا شَدِيدًا» إنكاراً لهذا المنكر؛ كيف يجر ثوبه هكذا ويمشي يتبعثر<sup>(٢)</sup>؟! «فَقَالَ صِلَةُ: دَعُونِي أَكْفِكُمْ أَمْرَهُ. ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنَّ لِي إِلَيْكُ حَاجَةً. قَالَ: مَا هِيْ؟ قَالَ: أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعَ إِزَارَكَ. قَالَ: نَعَمْ.. وَنُعَمِّي عَيْنَيْ، فَرْفَعَ إِزَارَهُ». فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل ما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وأديتموه لشتمكم».

وهذه قصة ثالثة؛ يقول أيضاً في المختصر: «وَدُعِيَ الْحَسْنُ<sup>(٣)</sup> إِلَى عُرْسٍ، فَجَاءَ بِجَامٍ من فضة» والجام مثل القدح، وهذا الجام «فيه حبيص» والحبص: الحلوا المخبوصة من التمر والسمن، يعني الخليطة من التمر والسمن، خبص يعني خلطـ، «فتاوله» الحسن «وَقَلَبَهُ عَلَى رَغِيفٍ فَأَصَابَ مِنْهُ» يعني أخذ الجام، وأخذ منه الحبيص، ووضعه على رغيف، ثم أرجع الجام إنكاراً له، ولكن إنكاراً يظهر منه هذا المعنى وهو معنى الرفق،

(١) صلة بن أشيم أبو الصهباء العدوي التابعي الزاهد العابد القدوة البصري، زوج العالمة معاذة العدوية. عن معاذة زوجته: «كَانَ أَبُو الصَّهْبَاءِ يُصَلِّي حَتَّى مَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَأْتِي فِرَاشَهُ إِلَّا رَخْفًا! تُوفِيَ هُوَ وَوْلُدُهُ مُجاهِدِينَ سَنَةَ ٦٢ هـ. وَلِهِ كِرَامَاتٌ عَدِيدَةٌ ذُكْرُهَا الْذَّهَبِيُّ فِي السِّيرِ».

(٢) «البَخْتَرَةُ وَالْتَّبَخْتُرُ»: مُشَيْةٌ حَسَنَةٌ. وقد يَخْتَرْ وَيَتَبَخْتَرْ.. و«البَخْتُرِي»: المتبخر في مشية، وهي مشية المتكبر المعجب بنفسه. انظر - بتصريف: «لسان العرب»، مادة: [ب خ ت].

(٣) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري الأنباري مولاهم أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، ويقال مولى جابر بن عبد الله. من الطبقة الوسطى من التابعين. إمامُ كبير الشأن، ثقةٌ فقيهٌ فاضلٌ مشهورٌ رأسُ في العلم والعمل، توفي سنة ١١٠ هـ. انظر: تهذيب التهذيب.

كأنه لا يستخدم هذه الأشياء التي نهى عنها النبي ﷺ<sup>(١)</sup> «فقال الرجل: هذا نهى في سُكُون». ويبين أن المقصود ينبغي أن يصل إليه المرء بأفضل السبل التي تُنكر المنكر، وتعيد المعروف ولا تُفرق، ولا تصد عن سبيل الله تعالى.

### حظ العبد من اسم الله تعالى «الرفيق»

١- أما حظ العبد من هذا الاسم المشرف: فبأن يعتقد أن الله تعالى هو الرفيق، فيوَحِّده بذلك ﷺ ويدعوه - جل وعلا - بهذا الاسم المشرف أن يرزقه الرفق واللين، وأن يُوسّع صدره، وأن يُبعد عنه أسباب العجلة وأسباب الغضب، وأن يُكثر من الدعاء، يقول: يا رفيق افتح علي بالرفق.. ويا رفيق ارحمني.. يا رفيق خُذ بيدي.. يا رفيق علمني... كل الأمور التي يدعوها ويكثر منها<sup>(٢)</sup>.

٢- أن يكون المرء مثلاً لهذا الرفق الذي ورد في حديث السيدة عائشة عليها السلام: «مَهْلًا يا عَائِشَةً.. إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ لِمَنِ احْمَدَهُ»<sup>(٣)</sup>. ولا يتحقق هذا الأمر إلا بمحادثة النفس عليه؛ فإذا شتمك أحد فلن تدعوك نفسك قائلة: «كن رفيقاً!»، بل ستقول لك:

---

(١) ورد أيضًا في النهي عن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة عدة أحاديث، منها قوله ﷺ: «لَا تَشْرُبُوا فِي آنِيَةِ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَرِيرَ وَالْدِبِيجَ؛ فَإِنَّهَا هُمْ فِي الدُّنْيَا وَكُلُّمْ فِي الْآخِرَةِ»، أخرجه البخاري [٥٦٣٢]. وقال أيضًا عليه السلام: «الَّذِي يَشْرُبُ فِي إِنَاءِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجْرِحُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ». أخرجه البخاري [٥٦٣٤].

(٢) قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مستند ظهره يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَأَلْحَقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى»، أخرجه الإمام البخاري [٤٤٤٠].

(٣) سبق تخيجه، انظر: هامش رقم (٢٨).

«أشتمه مثلما شتمك واضربه... إلخ»، فاستمسيك بالرفق إذن حال أمرك بالمعروف ونفيك عن المنكر. وقد يقول قائل: «لَمْ! فهذا غضبُ الله» والجواب: إذا أنكرت هذا المنكر كما تقول ولم يذهب هذا المنكرُ بل بقي، أو زاد، أو صدقت بسبب ذلك عن سبيل الله تعالى، فأين المنكر الذي أزلت؟ أو أين أثر الإنكار الذي قمت به؟

فهذا الحظُّ بالذات من حظوظ المرء من اسم الله تعالى «الرفيق» يحتاج إلى المجاهدة، وإلى مكافحة النفس على التخلُّق بهذه الأخلاق الحسنة، وإلى الترثُّث في اتخاذ القرارات الصعبة التي تخرب البيوت<sup>(١)</sup> وتُوحِّد البغضاء والعداوة بين الناس والشقاوة والفرقاة، ويترتب عليها الشتمُ واللعنُ والسبُّ والقطيعةُ وغير ذلك . فيتعلم المرءُ أن يكون رفيقاً في أمره بالمعروف ونفيه عن المنكر، ويتعلم المرء كذلك أن يكون رفيقاً في أخذه وعطائه وتناوله، وأن يكون رفيقاً تاركاً للشدة والعنف يتظاهر الثواب<sup>(٢)</sup> وينتظر تحصيل أغراضه التي يريدها ومطالبه التي يود تحصيلها كما ذكرنا في الحديث. فلا تتحقق هذه الأغراض ولا يمكن تحقق هذه المصالح إلا بالرفق كما ذكر النبي ﷺ.

(١) وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأحاديث النبوية التي تنبه على أهمية الرفق في إصلاح البيوت ونفعها، وأخرج الطبراني في الكبير عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «مَا أُعْطِيَ أَهْلُ بَيْتِ الرَّفِيقِ إِلَّا نَعَمُهُمْ وَلَا مُنْعَوْهُ إِلَّا ضَرَّهُمْ» جَوَّدَ إِسْنَادَهُ الْمَنْزَرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ، [ج ٣ / ٣٦٢].

(٢) وبالإضافة إلى الثواب الجزيل الذي ذكرته الأحاديث السابقة في الترغيب في الرفق والحدث عليه ذكر بعض الأحاديث الأخرى:

- قال ﷺ: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ.. تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنَ لَيْنَ سَهْلٌ». رواه الترمذى [٢٤٨٨] وقال: حديث حسن صحيح.

- قال ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلَيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَأَشْقَقُ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلَيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَقَّ بِهِمْ فَأَرْفَقْ بِهِ» رواه الإمام مسلم [١٨٢٨].

٣ - وحظه من هذا الرفق أيضاً هو الوقوف بباب الله تعالى؛ كلما استصعبت عليه الأمور وأغلقت في وجهه الأبواب في الدنيا والآخرة والعبادة، فإنه لا يسهلها إلا هو ﷺ ولا يسرها إلا هو، وقد ضربنا مثلًا وهو حفظ القرآن الكريم وأن الله تعالى كيف يسره، وأن الله تعالى يسر الأمور كلها، وييسر أسبابها وأنه لا تيسير إلا بتيسيره ﷺ ولا عطاء إلا بعطائه - جل وعلا - ولا رفق إلا بإرفاقه ﷺ. فيتعلم كيف يرتفق من ربها، يعني كيف يأخذ العطاء من الله - تبارك وتعالى - حتى يشرح صدره ويسر أمره في كل أحواله المتعرّبة عليه، وفي كل الأمور التي يضيق بها صدره فيُحسّ فيها بالألم والنكد في هذه الحياة الدنيا... فيسّرها ويسهلها الربُّ جل وعلا.

٤ - والحظ الرابع هو حظ بيته وأهله من الرفق، بأن يكون سبباً لنُزول الخير على بيته؛ إذ «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»<sup>(١)</sup>، وأن يعمل جاهداً على رفع البلاء النازل عن بيوت المسلمين وأولادهم اليوم؛ إذ هو من أشد البلاء وأصعبه وما يُبني عليه أسوأ منه. إن دفع الهجمة على أولاد المسلمين ليمّن أهّم الواجبات وأعلى المهمّات التي يجب بذلُّ الجهد والوقت لها اليوم.

اللهم رفقك يا رفيق..

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذى مرفوعاً إلى النبي ﷺ [٣٨٩٥]، وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، ونماه: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي». وانظر الحاشية رقم [٢] من الباب الرابع: شرح اسم الله تعالى «اللطيف».



## القسم الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْوَدْوَدُ



## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاحة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإنْ فشا في الناس معرفةً هذا الاسم المعظم «الودود» انقلبت أحواهم إلى حبّة الله تعالى، وحبّة الرسول ﷺ وحبّة بعضهم بعضاً، وحبّة الخير بينهم، وظهر عليهم بعد ذلك حبّة الطاعة - التي هي من آثار حبّة الله تعالى - وحبّة لقاء الله جل وعلا، وحبّة ذِكره وإدمانه والخلوة بالله تعالى، وحبّة القيام له ﷺ.

وهذه المعانى بالذات هي توحيد الله تعالى، إن فرّط المرء في شيء منها فرّط في توحيده ومعرفته بربه ومحبته له، وفرط في الدرجات العالية في الدين ودرجات المحبة.

وإن المرء بقدر ما ينقص حظه من اسم الله «الودود» ينقص حظه من تحبة الله تعالى، وينقص حظه من إرادة الخير للناس ومحبته لهم، وكذلك ينقص مقدار حظه من درجاتقرب من الله تعالى، والتخلق والاتصاف - بما يليق بالعبد - من صفاته وأسمائه ﷺ.

ومن ثمَّ كان هذا الاسم المشرف «الودود» مما ينبغي أن يتعلمه المرء ليتعبد ربه به، ويذعن له، ويأخذ حظه منه ﷺ. وهو أيضاً له وقعه الجليل على قلب المرء إذا عبد الله تعالى به، وبرزت عليه آثاره، وبان عليه حظه إذ تظاهر به على المرء آثار مودته للناس، وحبّة الخير لهم، ومحبته إياهم بعد حبّة الله تعالى وحبّة رسوله ﷺ. مما يسود به التكافل والطاعة وتنزل به الرحمة والمغفرة، ويرتفع البلاء والنوازل.

واسمه «الودود» ﷺ - كبقية الأسماء الحسنة - اشتد إليها احتياج المؤمنين اليوم لتوحيد رب ومحبته الحاملة على السارعة إلى تقديمها على النفس والمال والولد وكل شيء، وحتى يفوز المرء بالخلق والتعلق بهذا الاسم، فيكون سبباً للمودة بين الناس وإشاعة الخير بينهم، ودعوتهم إلى الله تعالى بالقول والحال الحسن.

إنَّ المحبة بين الناس هي طريق محبة الله لهم، كما بين الله تعالى في الحديث القديسي:  
«وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَايِبِينَ فِي...»<sup>(١)</sup> الحديث.

من ثمَّ كان تبيين معاني «الودود» من المهام التي تُفرِغُ لها الوقت والجهد رجاء توحيد الله تعالى ورحمته.

لِمَا سبق فَرَغْنا هذا الدرس من دروس فضيلة الشيخ / محمد الدبيسي - حفظه الله تعالى وعفا عنه - لنشره؛ نصحاً لنا وللمؤمنين، وتحملاً لشيء من مسؤولية هذا الدين، وجمعًا لقلوب من يقرأه أو يسمعه من المؤمنين على المحبة سواء لله ولرسوله وللمؤمنين أو إرادة الخير والدعوة إلى الله تعالى، مع الانتظار من قارئه ما يسد خللاً أو نقصاً خالصاً لوجهه الكريم.

نُسَأَلُ الله تعالى أَنْ ينفع بِهِ كاتبه وناشره وقارئه والناظر فيه إِنَّه سميع قريب.

مسجد الهدي المحمدي

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» [١٧٤٥] طبعة المكتن، والإمام أحمد في مسنده [٥/٢٣٣] الطبعة الميمنية. كلامها يرويه عن معاذ بن جبل مرفوعاً. قال المنذري في «الترغيب»: «رواه مالك بإسناد صحيح». اهـ [٤٥٧٤] الطبعة العلمية.

## الفصل الأول

### معاني اسم الله تعالى «الودود»

- الدليل على اسم الله تعالى «الودود» .
- المعنى اللغوي .
- معنى «الودود» في حق الله تعالى .

## الدليل على اسم الله تعالى «الودود»

«الودود» من أسماء الله تعالى الحسنة، وقد ورد في القرآن الكريم في آيتين:

الأولى: في قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّ رَحِيمٍ وَدُودٍ» [هود: ٩٠].

والثانية: في قوله تعالى: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّيُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ» [البروج: ١٢-١٤].

الأولى: «رحيم ودود»، والثانية: «غفور ودود» سبحانه وتعالى.

## المعنى اللغوي

«وَدَ» تدل على المحبة، لذلك نقول: وَدِدْتُه يعني أحببته، والمودة التي ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه هي خالص المحبة، يعني: ألطاف المحبة وأرقها وأجملها وأعلى درجات المحبة الخالصة هي المودة؛ لذلك قال: «إِنَّ رَبَّ رَحِيمٍ وَدُودٍ» كما سنشير إلى معناها إن شاء الله تعالى.

و«الود» هو الحب<sup>(١)</sup>، والود يكون في جميع مداخل الخير، فمادة «وَدَ» هذه تحمل معنى المحبة التي تُكِنُ الخير لكل أحد، يعني: عندما نقول: «هذا إنسان ودود» أو «هذا وديد فلان» يعني: محبوبه، أو «هذا إنسان فيه مودة» انطبع في ذهنه هذا المعنى اللطيف

(١) «الود»: مصدر من «وَدَ» بمعنى: أحب. ويجوز كسر «الواو» أو ضمُّها أو فتحُها؛ قال ابن سيده: وَدَ الشيءَ «وُدَّاً» و«وِدَّاً» و«وَدَّاً» و«وَدَادَةً» و«وَدَادًا» و«وَدَادًا» و«مَوَدَّةً» و«مَوَدَّدَةً»: أحبه. انظر: «لسان العرب»، مادة: [و د د].

الجميل الذي يبين عكسه لو كان هذا الإنسان بخلافه، تقول مثلاً: «هذا إنسانٌ جافٍ وغليظُ»؛ لذلك ذكر الله تبارك وتعالى المودة فيما يكون بين الرجل وأهله فقال: «وَمِنْ أَيْتَتْهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً» [الروم: ٢١]. و«وَدٌ» قد تأتي في القرآن وغيره بمعنى قميٌّ، كما قال تعالى: «يَوْمٌ أَحَدُهُمْ لَوْيَعْمَرُ أَلْفَ سَنَةً» [البقرة: ٩٦].

## معنى «الودود» في حق الله تعالى

وذكر العلماء في شرح هذا الاسم المشرف ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: الودود هو الواد لأهل الإيمان ..

«ودود» صيغة مبالغة على وزن «فعول» بمعنى فاعل، كقولنا: «غفور» بمعنى غافر، أو «شكور» بمعنى شاكر، ويكون معناه: أنه هو الواد لأهل الإيمان، أي: هو الذي يحب أهل الإيمان؛ يعني: يحب المؤمنين وأولياء الصالحين ويودهم <sup>(١)</sup>، أي هو المحب لهم <sup>(١)</sup>.

(١) فائدة مهمة: وهذه المعانى نذكرها حتى يفهم المرء معنى «الودود» من أسماء الله <sup>عز وجل</sup> الحسنة والشرف، ثم بعد ذلك ليعرف حظه منها، وكيف يدعو الله تعالى بها، ويعرف كيف يوحده <sup>عز وجل</sup> بها، وكيف ينزل هذا المعنى على قلبه؛ فثورث له ثمرات المحبة لله تعالى، وتوحيد الله تعالى، والخلق بما يليق بالعبد من معانى هذا الاسم المشرف. لـما ذكر الله تعالى أنه «رحيم ودود» فلا بد أن يفهم المرء هذه المودة التي يحب أن يكون عليها، وكيف يدعوه <sup>عز وجل</sup> بها كما قال تعالى: «إِنَّمَا أَنْهَاكُمْ فَآذَعُوهُ <sup>بِهَا</sup>» [الأعراف: ١٨٠] جل وعلا.

قال الحليمي<sup>(١)</sup> في معنى ودود بمعنى واد: «هو الواد لأهل طاعته، والمحب لهم»، ومن لوازم محبة الله تعالى لأهل طاعته: الرضا عن أعمالهم، وأن يحسن إليهم لأجل هذه الأعمال، وأن يمدحهم بِهَا.

إذن «الودود» بمعنى الواد، يعني: هو الذي يحبهم. وهذه قد وردت في قوله تعالى: **«لَمْ يُحِبُّهُمْ وَلَمْ يُحِبُّوْهُمْ»** [المائد़ة: ٥٤]، وهذا المعنى سنتير إلى تفاصيله بعض الشيء؛ لأن قضية المحبة لله تعالى ولرسوله هي قضية الدين كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»**<sup>(٢)</sup>.

(١) الحليمي الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم القاضي، أبو عبد الله، العلام، البخاري، الشافعى. رئيس المحدثين والمتكلمين بما وراء النهر، وأحد الأذكياء المؤصوفين، ومن أصحاب الوجوه في المذهب الشافعى. أخذ عن: الأستاذ أبي بكر القفال، والإمام أبي بكر الأوزدى. وحدث عنه: أبو عبد الله الحكم وهو أكبر منه، وأخرون. وكان مفتنتاً، سائل الدهن، مناطراً، طويلاً الباع في الأدب والبيان. ولد في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وثلاثمائة، وله مصنفات نفيسة. ومن تصانيفه: «شعب الإيمان» في نحو ثلاثة مجلدات. توفي في سنة ثلاث وأربعين مائة. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مستنه: [٢٠٧/٣]، [٢٧٨/٣] الطبعة الميمنية، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في التحقيق: «إسناده صحيح على شرط الشيفين»، وأخرجه الإمام البخاري [٢١] بلفظ: «ثلاث من كُنْ فِيهِ وَجَدَ حَلَوةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ يَكْرُهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَدَهُ اللَّهُ كَمَا يَكْرُهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»، وبقريب من هذا اللفظ أخرجه الإمام مسلم [٤٣]. كلهم يروونه من حديث أنس بن مالك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرفوعاً.

وكيف يكون المرء بعد ذلك متخلقاً بما يليق بالعبد من هذا الاسم المشرف تلك هي قضية الدين، وقضية الدعوة، وقضية القلب الذي يتفجر بالإيمان والمحبة والخير لأهله وولده والناس أجمعين، كما سنشير إلى هذا المعنى لاحقاً إن شاء الله تعالى.

### المعنى الثاني: الودود هو المحبوب

ذكرنا أن «ودود» على وزن «فعول»، صيغة مبالغة بمعنى فاعل، ويأتي أيضاً «فعول» بمعنى «مفعول»، كرجل «هيوب» بمعنى «مهيب» وكفرس «ركوب» أي: مركوب، فيكون الودود بمعنى المؤدود، يعني: المحبوب. المعنى الأول بمعنى المحب، المعنى الثاني بمعنى المحبوب. فهو الحبيب

وقد ورد ذلك كذلك في قوله ﷺ: «يحبهم ومحبوبهم».

فـ«يحبهم» إشارة إلى الودود بمعنى الواد المحب، وـ«محبونه» إشارة إلى المحبوب

وكذلك ورد هذا المعنى الأخير في قوله جل وعلا: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًا لِّهِ»

[البقرة: ١٦٥].

والمعنى الثاني قال فيه الحليمي أيضاً: «وقد قيل هو المؤدود لكثرة إحسانه» يعني: المحبوب لكثرة إحسانه، فإن النفس تحب من يحسن إليها، وجُبل المرء على محبة من أحسن إليه؛ أي: أنه يُحِبُّ المستحق لأن يُؤْدَد؛ لأنه هو المُحْسِن<sup>(١)</sup>، وهو المربى<sup>(٢)</sup>، وهو الذي

---

(١) وقد شرحتنا هذا الاسم المشرف من أسماء الله الحسنى - «المُحْسِن» - وذكر الدليل على ثبوت هذا الاسم المشرف والآيات القرآنية المتعلقة به في عدة دروس. وهذه الدراسات متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيره من مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات «الإنترنت».

(٢) ومن أسماءه الحسنى «الرب» يُحِبُّ.

جعلك تحبه، فما كانت محبتك له إلا بسابق محبته لك واصطفائه إليك، فلئنماً أحبك إليه، ولو كرهك ما سلكت طريقه، ولا عرفت بابه، ولا التزمت سلوك النبي ﷺ.

ذلك هو المحبوب على الحقيقة؛ لأنَّه هو المحسن إليك... هو المحب لك... هو الذي اصطفاك... هو الذي ربَّاك... هو الذي رعاك... هو الذي حفظك... هو الذي أمدك بأسباب الوجود وأعطاك أسباب البقاء كذلك؛ فهل يحبُّ غيره؟

وأنت إذا أحبت أحداً في الدنيا، فإنك تحبه لإحسانه، أو تحبه لحاله، أو تحبه لكماله في نفسه. فأنت تسمع مثلاً عن إنسان صادق أو عابد أو عالم أو شجاع أو حاكم عادل أو غيره، فترأك تحبه. الناس كلهم مثلاً يحبون الشافعى<sup>(١)</sup> وأحمد ومؤلاء الأئمة الكرام ولم

(١) هو محمد بن إدريس... بن المطلب بن عبد متاف بن قصي بن كلاب، الإمام، عالم عصره وفريد دهره، المجدد لأمر الدين على رأس المائتين، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبد الله القرشي، ثم المطلي، الشافعى، المكي، الغزى المؤلد، تسلَّب رسول الله ﷺ وابن عمِّه. انفق مؤلده بغزة، ومات أبوه إدريس شاباً، فنشأ محمد بيته في حجر أمِّه، فخافت عليه الصيغة، فتحولت به إلى محبده - أصله - وهو ابن عاميين، فنشأ بمكة. أقبل على العربية والشرع، فبلغ في ذلك، ثم حُبَّ إليه الفقه، فساد أهل زمانه. وأخذ العلم بمكة عن: مسلم بن خالد الزنجي - مفتى مكة - وسفيان بن عيينة وفضيل بن عياض، وعلمه. وارتحل إلى المدينة فحمل عن مالك بن أنس «الموطأ»، ثم رحل إلى العراق، وجد في الاستغلال بالعلم، وناظر محمد بن الحسن فقيه العراق وغيره، ونشر علم الحديث، وأقام مذهب أهله، ونصر السنة، وشاع ذكره وفضله وتزايد تزايداً ملاً البقاء. قدم الشافعى مصر سنة ١٩٩ أو سنة ٢٠٠، وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره في البلدان، وقصده الناس من سائر النواحي والأقطار للتلقفه عليه والرواية عنه، وساد أهل مصر وغيرهم، وابتكر كتاباً لم يسبق إليها، منها «الرسالة» في أصول الفقه، وكتاب «القسام»، وكتاب «الجزية»، وكتاب «قتال أهل البغي»، وغيرها. قال أبو عبيدة: «ما رأيت أعقل من الشافعى»، وكذا

يلتقوا بهم وليس بينهم وبينهم معروفٌ ولا إحسان ولا غيره، ولكنهم يحبونهم لـما اتصفوا به من هذه الصفات. إذا عرفت ذلك علمت أنَّ كُلَّ الصفات التي يُحبُّ منْ أجلها كاملة أشد الكمال في الله تعالى. فلا يكون محبوبًا على الحقيقة... حبِيباً على الحقيقة  
إلا الله جل وعلا.

وكما يُحبُّ المرء فلاناً في الدنيا للصفات التي ذكرنا فإنَّه قد يُحبُّه أيضًا لأنَّه بينه وبينه - كما يقول أهل العلم - صفات باطنة غير معلومة، وهي مُستنبطة من قول النبي ﷺ:  
«الآرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»<sup>(١)</sup>، فأنت ترى المرء

قالَ يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَتَّىٰ إِنَّهُ، قَالَ: «لَوْ جُمِعَتْ أُمَّةٌ لَوْ سَعَهُمْ عَقْلُهُ». قالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقِيسُ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ رَأْسٍ مَائِةَ سَنَةٍ مِنْ يُعْلَمُهُمُ السَّنَنُ وَيَنْفِي عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْكَذَبُ، فَنَظَرْنَا فَإِذَا فِي رَأْسِ الْمَائِةِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَفِي رَأْسِ الْمَائِتَيِّنِ الشَّافِعِيُّ». لَهُ أَقْوَالٌ وَأَحْوَالٌ كَثِيرَةٌ حَسْنَة، مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَعْلَمَ الْقُرْآنَ عَظَمَتْ قِيمَتُهُ، وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي الْفَقْهِ تَمَّ قَدْرُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ قَوِيَّتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْلُّغَةِ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْحِسَابِ جَزْلَ رَأْيِهِ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ». وَقَالَ أَيْضًا هَذِهِ: «وَدَدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعْلَمُوا هَذَا الْعِلْمَ - يَعْنِي: كُتُبَهُ - عَلَى أَلَا يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ». قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمانَ: «كَانَ الشَّافِعِيُّ قَدْ جَزَّا اللَّيْلَ: فَتَلَهُ الْأَوَّلُ يَكْتُبُ، وَالثَّانِي يُصَلِّي، وَالثَّالِثُ يَنَامُ». قَالَ الْحَمِيدِيُّ: «قَدِيمُ الشَّافِعِيُّ صَنْعَاءُ، فَضُرِبَتْ لَهُ خَيْمَةٌ، وَمَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ، فَجَاءَ قَوْمٌ، فَسَأَلُوهُ، فَقَلَعَتِ الْخَيْمَةُ وَمَعَهُ مِنْهَا شَيْءٌ». صَنَفَ الْكِبَارُ التَّصَانِيفَ الْمُفْرَدَةَ فِي مَنَاقِبِ هَذَا الْإِمَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا. وَهَذِهِ السُّلُطُورُ لَتَضِيقُ عَنْ مَنَاقِبِ هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ. تَوَفَّى سَنَةً ٢٠٤ هـ بِمَصْرَ. انْظُرْ «سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ، وَ«تَهْذِيبُ الْأَسْمَاءِ» لِلنَّوْيِيِّ، وَ«تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ» لِلْحَافِظِ بْنِ حَمْرَاءِ.

(١) أخرجه الإمام البخاري تعليقاً بصيغة الجزم من حديث عائشة [٣٣٣٦]، والإمام مسلم من حديث أبي هريرة [٢٦٣٨] مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

يُحب الشخص ويميل إليه بغير سابق معرفة، وبغير إحسان بينهما، وكل هذه الأسباب من أسباب المحبة كلها مجتمعة في الرب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

لذلك لا يكون محبوبًا على الحقيقة إلا هو. وإن أحبت أحدًا فإنما تحبه لأنه يُحب الله تعالى، أو يُدُلُّك على محبة الله تعالى. وذلك متحقق في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ومن يدلك على الله تعالى، أو يُحبُّ أهل الإيمان لمحبتهم لله تعالى، كما تبغضهم بمعصيتهم للرب جل وعلا.

لذلك وَرَدَ في المعنى الثاني من معاني «الودود» - بمعنى المحبوب الحبيب - قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مَا سِوَاهُمَا»<sup>(١)</sup>.

المعنى الثالث: الودود هو الذي يُحبُّ عباده إلى خلقه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ..

وهذا المعنى ينبغي أن يأخذ حيزاً مهماً من التفكير والفهم ليصل المؤمن إليه؛ فالودود يعني الذي يُحبُّ عباده الذين يستحقون هذه المحبة إلى خلقه، ويُلقي بمودتهم في قلوب الخلق على قدر هذه المحبة التي يستحقونها من الله تعالى. وهو مصدق قول الله جل وعلا: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ آلَرَّحْمَنُ وُدًا» [مرim: ٩٦]، أي:

قال المناوي في «الفيض»: «جنود مجنة» أي: جموع متجمعة وأنواع مختلفة «فما تعارف» توافق في الصفات وتناسب في الأخلاق «منها اختلف» أي: أَلْفَ قلبه قلب الآخر وإن تبعداً، كما يقال: أَلْوَفْ مؤلفة وقاطير مقنطرة. «وما تناكر منها» أي: لم يتافق ولم يتناسب «اختلف» أي: نافر قلبه قلب الآخر وإن تقارباً جسداً.. اهـ. من الفيض، [ج ٣ / ص ٢٢٥، ٢٢٦] طبعة مكتبة مصر، ط، ٢، سنة ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

(١) سبق تخرّيجه، انظر: هامش رقم (٥).

سيجعل لهم محبة في قلوب الخلق، يَوْدُونَهُمْ عَلَيْهَا وَيَجِدُونَهُمْ لَهَا، وقد ورد ذلك المعنى من إلقاء المودة في قلوب الخلق في حديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَاهُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحَبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ» - قَالَ - فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُو. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ - قَالَ - ثُمَّ يُوَضِّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»<sup>(١)</sup>.

وهذا المعنى في قوله جل وعلا: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ اللَّهُمَّ أَرَحْمَنُ وَوَدًا» قد مثَّله قول النبي ﷺ كذلك في قوله:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَااطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ: إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضُّوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحَمَّ»<sup>(٢)</sup>.

وهذا الآية والأحاديث تُبيّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون، من التوادّ بينهم - يعني: من المحبة الخالصة بينهم، وكما يحب المرء نفسه لأنّهم جسد واحد - وأن يكون

(١) أخرجه البخاري [٣٢٠٩] ، [٦٤٠] ، ومسلم [٢٦٣٧] واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) متفق عليه: البخاري [٦٠١٢] ، ومسلم [٢٥٨٦] ، واللفظ له من حديث نعيم بن بشير رضي الله عنه. قال الحافظ في الفتح: «قال ابن أبي جحرة : الْذِي يَظْهَرُ أَنَّ التَّرَاحُمَ وَالتَّوَادُّ وَالتَّعَااطُفَ بَعْضًا بِأَخْوَةِ الْإِيمَانِ لَا يُسَبِّبُ شَيْءًا أَخْرَى، وَأَمَّا التَّوَادُّ فَالْمَرَادُ بِهِ: التَّوَاصُلُ الْجَالِبُ لِلْمَحَبَّةِ كَالْتَّرَاؤُرِ وَالْتَّهَادِيِّ، وَأَمَّا التَّعَااطُفُ فَالْمَرَادُ بِهِ: إِعَانَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا كَمَا يَعْطِفُ الثُّوبُ عَلَيْهِ لِيُقْوَى. أَه. مُلْحَصًا. «تَدَاعَى» أَيْ: دَعَاهُ بَعْضُهُ بَعْضًا إِلَى الْمَشَارِكَةِ فِي الْأَكْمَانِ. قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ: فَتَشْبِيهُهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَسَدِ الْوَاحِدِ تَكْثِيلٌ صَحِيحٌ، وَفِيهِ تَقْرِيبٌ لِلْفَهْمِ وَإِظْهَارٌ لِلْمَعَانِي فِي الصُّورِ الْمُرْئِيَّةِ، وَفِيهِ تَعْظِيمٌ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ وَالْحُسْنَى عَلَى تَعَاوُنِهِمْ وَمُلَاقَةَ نَفَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا» أَه. باختصار وتصريف.

حُجَّةُ اللَّهِ تَعَالَى، لَا لِشَيْءٍ أَخْرَى<sup>(١)</sup>، كَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخَاهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا. فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخَاهُ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تُرِيَّهَا؟ قَالَ: لَا؛ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) وقد سبق الإشارة إلى عاقبة هذه المحبة في الله تعالى في حديث: «وَجَبَتْ مَحْبَبِي لِلْمُتَحَابِيْنَ فِي»، وفي الحديث أيضاً أنه قال ﷺ يروي عن ربه ﷺ: «الْمُتَحَابُوْنَ بِحَلَالٍ فِي ظَلَّ عَرْشِي يَوْمَ لَا ظَلَّ إِلَّا ظَلِيلٌ». رواه الإمام أحمد في مسنده [٤/١٢٨] الطبعة الميمنية. قال المنذري في الترغيب: «رواه أبو حماد بإسناد جيد» [ج: ٤٥٨٢] الطبعة العلمية.

وقال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُتَحَابُوْنَ فِي جَلَالِهِ لُهُمْ مَتَابِرٌ مِّنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّوْنَ وَالشُّهَدَاءُ». أخرجه الترمذى [٢٣٩٠]، وقال: «حديث حسن صحيح». وعن أبي أمامة رض أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَعْطَى اللَّهَ وَمَنَعَ اللَّهَ وَاحْبَبَ اللَّهَ وَأَنْكَرَ اللَّهَ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانُهُ». رواه أبو داود [٤٦٨١]. وعن البراء بن عازب رض أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوْسَطَ عَرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ وَتُبَغْضُ فِي اللَّهِ». رواه الإمام أحمد [٤/٢٨٦] الطبعة الميمنية.

وعن ابن مسعود رض قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَمَأْيَلُهُ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». رواه البخاري [٦١٦٩]. وفي رواية للإمام البخاري: عن أنس رض أن رسول الله ﷺ قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قال أنس رض: «فَإِنَّا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِلَيْهِمْ». أخرجه البخاري [٣٦٨٨]، ومسلم [٢٦٣٩].

وقد شُرِّحت أكثر هذه الأحاديث – إن لم يكن كلها – في سلسلة خطب «المحبة في الله تعالى»، وهي متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيره من موقع الإنترنـت. كما طُبعت الخطبة الأولى منها، فارجع إليها جميعاً للاستزادة من هذه المعاني المهمة من معانـي المحبة في الله تعالى التي كدنا أن نفتقدـها بين المسلمين اليوم – إلا من رحم الله عز وجل.

قال: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَبْتُهُ فِيهِ<sup>(١)</sup>.

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث رجلاً ذهب ليزور أخاه في الله تعالى، فأرسل الله تعالى على طريقه ملكاً، فسألته: إلى أين؟ قال: أزور أخي في هذه القرية، قال: أَلِنْعَمَةٌ لِكَ عليه تردها؟ يعني: بينك وبينه نعمة؟ بينك وبينه مال؟ تريد أن تتزوج ابنته؟ بينك وبينه قرابة أو كذا من هذه الأمور التي تتدخل فيها النيات؟ قال: لا، غير أنني أحبه في الله تعالى. يعني: قَطَعَ هَذَا الرَّجُلُ هَذِهِ الْمَسَافَةَ الطَّوِيلَةَ مِنْ بَلْدَهُ إِلَى تَلْكَ الْبَلْدِ لِيَزُورَ أَخَاهُ لِهِ اللَّهُ !! إِنَّهُ أَخْوَهُ فِي اللَّهِ لِذَلِكَ يَزُورُهُ اللَّهُ تَعَالَى لَا لِشَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِ الزَّوْجِ وَلَا مَالٍ وَلَا غَيْرَهُ مِنْ أَمْوَالِ الدِّينِ. قال: فإني رسول الله إليك أن الله تعالى قد أحبك لأنك أحبيته فيه. يعني: أَحَبَكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَبْتَ لَهُ هَذَا الْعَبْدَ<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الإمام مسلم: [٢٦٣٧] وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. قال الإمام النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: [مَعْنَى «أَرْصَدَهُ»: أَقْعَدَهُ يَرْفَعُهُ، وَ«الْمَدْرَجَةُ» بِفَتْحِ الْيَمِّ وَالرَّاءِ هِيَ: الْطَّرِيقُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ يَدْرُجُونَ عَلَيْهَا، أَيْ: يَمْضُونَ وَيَمْشُونَ. قَوْلُهُ: «لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تُرِبُّهَا» أَيْ: تَقْوُمُ بِإِصْلَاحِهَا، وَتَنْهَضُ إِلَيْهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ. فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَضْلُ الْمَحَبَّةِ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا سَبَبُ لِحْبِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، وَفِيهِ فَضْيْلَةٌ زِيَارَةُ الصَّالِحِينَ وَالْأَصْحَابِ، وَفِيهِ أَنَّ الْأَدَمِيَّنَ قَدْ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ]. اهـ من «شرح الإمام النووي على صحيح مسلم».

(٢) وقد لَخَّصَ الإمام ابن القيم رحمه الله هذه المعاني الثلاثة في تفسير اسمه تعالى «الودود» في عدة أبيات سهلة الحفظ للطلبة، قال:

أَحَبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَانِ بِهِمْ وَجَازَاهُمْ يُحِبُّ ثَانٍ وَضَّةً وَلَا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ لَكِنْ يُحِبُّ شُكُورَهُمْ لَا لِاحتِياجِ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ	وَهُوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ حَقًا لَا مُعَا لَكِنْ يُحِبُّ شُكُورَهُمْ لَا لِاحتِياجِ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ
--	--

انظر «شرح القصيدة النونية» للشيخ محمد خليل هرّاس، ج ٢، ص ١٠١، دار الشريعة، ط ١، ١٤٢٤ هـ.

### مسألة: وضع المودة في قلوب الخلق تتعلق بأمرتين:

الأمر الأول: وهو قول الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ أَرْحَمَنْ أُوذًّا» ..

فالإيمان والعمل الصالح هو الذي يكون سبب هذه المودة في قلوب أهل الإيمان، فبقدر ما يعلو إيمانك وبقدر ما يرتفع منك إلى الله تبارك وتعالى من أعمال صالحة، بقدر ما يَضَعُ لك الله تعالى في قلوب الناس من المحبة التي هي قيمتك عندك بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إذ على قدر محبتك لله تعالى على قدر محبة الله لك.. هذا هو الأمر الأول.

والأمر الثاني: على قدر مودتك لأهل الإيمان على قدر مودتك عند الله تعالى كما قال

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«مَا تَحَبَّ رَجُلًا نَفِيَ اللَّهُ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَفْضَلَهُمَا أَشَدُهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»<sup>(١)</sup>.

يعني: كان الأكثر حبًّا عند الله تعالى هو الأكثر محبة لأخيه في الله تعالى.

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده [٦/١٤٣]. قال المنذري في الترغيب [ج: ٤٥٦٩] الطبعة العلمية: «رواته» أي رواه أبي يعلى «رواة الصحيح، إلا مبارك بن فضالة». والحاكم بنحوه [٧٣٢٣] العلمية، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». قال الذهبي في التلخيص: «صحيح». كلها يرويه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه.

## الفصل الثاني

### حَظُّ الْعَبْدِ مِنْ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى «الْوَدُودُ»

□ آثار المودة.

□ حظ العبد من اسم الله تعالى «الودود».

□ محبة الله تعالى:

■ كيف يحب العبد ربّه جل وعلا؟

■ علامات محبة العبد للله تعالى.

## آثار المودة

من آثار المودة أنك إذا وَدِدتَ شخصاً - يعني إذا أحببته - فإن من آثار هذه المحبة ومن علاماتها أنك ترید له الخير، وأنك تحبه كما تحب نفسك، أو لعلك تُؤثّره على نفسك كذلك، وأنك تقوم بمحاصله وتفضيّها له حتى ولو لم يعلم بذلك، وأنك تعرف ما يحبه فتسارع إليه، وتعرف ما يكرهه فتُمتنع منه ولا تعمل به، وأنك كثيراً ما تُشّني عليه وعلى أخلاقه وصفاته، وكثيراً ما تذكره بالخير، وأنك تواسيه إذا كان يستحق المواساة، وأنك تفرح له في أمور السرور وتشاركه فيها.

ونَفْصُلُ بعض المعاني السابقة بعض الشيء..

### الأثر الأول: محبة الخير لجميع الخلق والإحسان إليهم

«الودود» هو الذي يحب الخير لجميع الخلق؛ لأن المودة تدعى ذلك؛ فلا يمكن أن يقال: هذا يجب فلاناً وهو يكره له الخير، أو لا يساعده في مصالحة، أو لا يفرح له في السراء، أو لا يذكره بأمور المحبة التي تدل على أنه يوده ويحبه ويقبل عليه، أو أنه يقاطعه أو أنه يصبر عن رؤيته، أو غير ذلك من مشاهد المحبة وآثارها، فلا توجد المحبة إذن.

وهذه الخصلة من الخصال المفقودة بين المؤمنين اليوم، فإذا مرض أحدُهم فلا يسأل عليه أحدٌ حتى يراه فيسأله أين كنت؟ أو يأتي عليه الفرح فلا يبارك له أحدٌ، ومعظم العلاقات على هذا النحو لأنه لا وقت لأخيه عنده، فهذه مسألة من المسائل التي يود النبي ﷺ لأهل الإيمان أن تتغير فيهم، وقد تغيرت بالفعل في المؤمنين المتقيين الأول،

وذكرها العلماء في شرح اسم تعالى المشرف «الودود» في قوله تعالى: «**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ وَلَا يَمْحُدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ ۝ بِهِمْ خَصَّاصَةٌ**» [الحشر: ۹]، يعني: يحبون من هاجر إليهم من أصحاب النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، والمحبة المذكورة هنا يستدل بها العلماء على عموم مسألة المحبة. لَمَّا ذهب الصحابة المكرمون من مكة إلى المدينة مهاجرين - وقد تركوا ديارهم وأموالهم وأولادهم ونساءهم لله تعالى - واستضافهم إخوانهم من الأنصار يقاسمونهم أرضهم وديارهم وأموالهم ونساءهم، ولم يستقلوا شيئاً من ذلك<sup>(۱)</sup>، لما فتح على بعض المهاجرين شيءٌ من الدنيا قال تعالى عن الأنصار: «**وَلَا يَمْحُدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا**»، يعني: ليس عندما فتح على المهاجرين شيءٌ من الدنيا قال الأنصار: «يكفي هذا، فليذهبوا وشأنهم»، لقد فعلنا معهم ما بوسعنا، ونحن قاسمناهم أموالنا.. لا: لم يقولوا ذلك، بل قال الله تعالى فيهم: «**وَلَا يَمْحُدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا**»، يعني: مما آتاهم الله تعالى لهؤلاء المهاجرين، بل زيادة على ما سبق قال الله تعالى فيهم: «**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ ۝ بِهِمْ خَصَّاصَةٌ**»<sup>(۲)</sup>.

(۱) انظر مثلاً إلى ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه [۳۷۸۱]: عن أنس رض أنه قال: «قَدِيمٌ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَحَى رَسُولُ اللهِ صلوات الله عليه وسلم يَبْيَهُ وَبَيْنَ سَعْدٍ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرُ الْمَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمْتَ الْأَنْصَارَ أَنَّىٰ مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَانظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطْلِقُهُمَا، حَتَّىٰ إِذَا حَلَّتْ تَرَوْجُتَهَا.. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكِ فِي أَهْلِكَ».

(۲) قوله تعالى: «**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ ۝ بِهِمْ خَصَّاصَةٌ**» يعني: يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم حاجة، أي: يقدمون المحاويخ على حاجة أنفسهم، ويدعون الناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وعن أبي هريرة رض أنه قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةَ أَفْضَلُ؟ قَالَ صلوات الله عليه وسلم: جُهْدُ الْمُقْلَّ».

والمؤمنون اليوم - إلا من رحم الله - لا يُؤثرون ولا يحبون ولا يودون ولا يزورون ولا يسألون ولا يفتقدون ولا شيء من ذلك! هل هناك أحد اليوم يقوم شيء من واجبه تجاه إخوانه؟! بل على العكس، يتضرر إخوانه ليقوموا له بحقوقه، ويحزن منهم ويقاطعهم ويتأفف من قوتهم ومن فعلهم، يقول: «وقفت معه في السراء وفي الضراء، وعندما

أخرجه الإمام أحمد [٣٥٨/٢]، وصحح إسناده الشيخ شعيب في تحقيق المسند. وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله: «وَيَطْعِمُونَ الْطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ» [الإنسان: ٨]، وقوله: «وَءَاقَ الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ» [البقرة: ١٧٧]. فإنَّ هؤلاء آتروا على أنفسهم مع خصاصتهم و حاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام: تصدق الصديق بـ«بِجَمِيعِ مَالِهِ»، فقال له رسول الله ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، فقال: «أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكُلُّ منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مُثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرَدَ الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم.. رضي الله عنهم وأرضاهم.

وأخرج البخاري [٣٧٩٨] عن أبي هريرة قال: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَنِي الْجَهَدُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا سَيِّدَنَا فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ؟ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَدَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ لِإِمْرَأَتِهِ: ضَيِّفْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا تَدْخِرِيهِ شَيْئًا. قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصَّبِيَّةِ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعَشَاءَ فَنَوَّمِهِمْ، وَتَعَالَى فَاطِئِي السَّرَّاجِ وَأَنْطُوِي بُطْوَنَّا اللَّيْلَةِ.. فَفَعَلَتْ. ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - أَوْ صَحِحَّ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةً. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَرُؤُثُورَتْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ حَصَاصَةً». وفي رواية مسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رض. انظر - بتصرف كثير جدًا: تفسير الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله - تفسير الآية التاسعة من سورة الحشر.

حدث معي ما حدث لم أجده بجاني»... إلى آخره. وكل هذه الأخلاق ينبغي المسارعة في إصلاحها، فبصلاح هذه الأخلاق تصلح نفوس أهل الإيمان؛ لأن الإيمان لا يتأتى إلا بالسماحة وسلامة الصدور لإخوانهم. وهذه السماحة هي التي بها يصلى المرء، وبها يصوم، وبها يتصدق. فإذا كانت نفسك كَرْزَةً<sup>(١)</sup> فإنها لا يخرج منها صلاة ولا جهد الله تعالى ولا صيام ولا غيره. وإذا خرجت من نفسك هذه الأعمال من أعمال الطاعة والإيمان خرجت على الاستقلال والضجر، وسرعان ما يتخلص منها وكأنها جبل على ظهره: هذه الصلاة يريد أن يخلص منها بسرعة، والصيام: متى يفتر؟! والقيام: يود أن ينام ولا يقوم، وإن قام فمتى ينتهي من حزبه لينام؟ وكل أعمال الدنيا وراحتها وسعتها ودَعَتها<sup>(٢)</sup> يُفَضِّلُه ويحبه ويقدمه على ما يكون سبب رُقْيَةٍ ورفعته وعلو درجة عند الله تعالى. لذلك فإن «الودود» هو الذي يحب الخير لجميع الخلق، فيحسن إليهم، هذه الأولى، ويشني عليهم، وهذا هو..

### الأثر الثاني: الثناء على الخلق

و«يُحِسِّنُ إِلَيْهِمْ» غير «يُشْنِي عَلَيْهِمْ» في المعنى؛ فقد تَجَدُّ بعض النفوس تُحْسِنُ.. نعم، أما أن تُشْنِي وتتمدح.. فلا! نَفْسُ أحَدِهِمْ لا تَجْبُودُ بالثناء! لا يريد أن يقول: «فلان هذا طيب»، أو: «عليه سَيِّئَا الْخَيْر»، نفسه شحيحة بأن يُشْنِي على إخوانه بشيء قد فَضَّلَهُمُ اللهُ

(١) «الكَرْزُ»: الذي لا يَنْبِسِطُ، و«رَجُلُ كَرْزٌ»: قليل المؤاتاة والخير، و«رَجُلُ كُرْ الْيَدِين» أي: بخيل. اهـ من «السان العربي»، مادة: [كـ زـ زـ].

(٢) «الدَّعَةُ»: الحفْضُ –يعنى السكون. تقول منه: «وَدَعَ الرُّجْلُ» بضم الدال، فهو «وَدَعْيُ»، أي: ساكن. و«وَادِعُ» أيضاً. انظرـ بتصرف: مختار الصحاح، مادة [وـ دـ عـ].

به، أو بشيء قد رفعهم الله تعالى به، وهذا يدل على سوء هذه النفوس وعلى خبث هذه الطوایا كما يقول أهل العلم. أما الودود فهو الذي يحسن إلى الخلق ويثنى عليهم.

الله تبارك وتعالى وهو خالق العباد ورازقهم ومحبهم وميّتهم، وهو الذي أعطاهم، وهو الذي وسّع عليهم، وهو الذي رزقهم المال والولد والطاعة، يُثني على عباده يَكْتُلُ قائلاً: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًا لِّهِ» [البقرة: ١٦٥]. ويقول: «رَجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِحْرِيَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكُوْرَ» [النور: ٣٧]. ويقول: «أَوْتَيْكَ اللَّذِينَ صَدَقُوا أَوْتَيْكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» [البقرة: ٢٠٣].

[١٧٧]

### الأثر الثالث: الإنعام على سبيل الابداء

ونذكر كلام الإمام الغزالى<sup>(١)</sup>.. إذ له رأى في هذا الاسم المشرف، حيث يقول حَفَظَهُ اللَّهُ:

(١) الشيخ، الإمام، البحر، حجّة الإسلام، أعيجوية الزمان، زين الدين، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعى، الغزالى، صاحب التصانيف والذكاء المفرط. لازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة، ومهّر في الكلام والجدل حتى صار عين المُناظرين، وأعاد لِلطّلبة، وشرع في التصنيف. تولى تدریس نظاميّة بغداد وسنّه نحو الثلاثين فقط، وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، وأدخله سيلان ذهنه في مضائق الكلام، ومن'all الأقدام، والله يسرّ في خلقه. مولده سنة خمسين وأربعين مائة. صَفَّه: «البسيط» و«الواسط» و«الوجيز» و«الخلاصة» و«الإحياء»، وألَّفَ: «المستتصقى» في أصول الفقه، و«المنجول» و«اللباب» و«المتحل» في الجدل» و«تهافت الفلسفه» و«محك النظر» و«معيار العلم» و«شرح الأسماء الحسنى» و«مشكاة الأنوار» و«المُنقذ من الضلال» و«حقيقة القولين» وأشياء... قال الإمام الذهبي حَفَظَهُ اللَّهُ: «أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لو لا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحر في الصوفية، نسأل الله علماً نافعاً. تدري ما العلم النافع؟ هو ما

«إن الودود قريب من معنى الرحيم، ولكن الرحيم يستدعي مرحوماً ضعيفاً يحتاج إلى الرحمة»<sup>(١)</sup>، يعني: لا بد أن يكون هذا المرحوم مستحقاً لهذه الرحمة، يعني ضعيفاً، تريد أن ترحمه بهال تواسيه منه، أو ب موقف تقف فيه إلى جواره، أو أن تقوم له بمصلحة أو تخفف عنه عبئاً أو شيئاً. أما الودود فإنه لا يستدعي مودوداً ضعيفاً، بمعنى أن الودود يَوْدُ كُلَّ الناس استحقوا أو لم يستحقوا، محتاجين أو غير محتاجين، ضعفاء أو غير ضعفاء؛ لذلك كان هذا المعنى معنى جليلاً؛ لذلك قال تعالى: «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ

نَزَلَ به القرآن، وفسرَه الرسُولُ ﷺ قَوْلًا وفَعْلًا، لَمْ يَأْتِ نَهْيٌ عَنْهُ؛ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ رَغَبَ عَنْ سُتُّنِي فَلَيْسَ مَنِّي». فَعَلَيْكَ يا أخِي بِتَدْبُرِ كِتَابِ اللهِ، وَبِإِدْمَانِ النَّظَرِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» و«سُنْنَ النَّسَائِيِّ»، و«رِياضِ النَّوْرِ» و«أَذْكَارِهِ»، تُفْلِحُ وَتَنْجُحُ. وَإِيَّاكَ وَآرَاءُ عُبَادِ الْفَلَاسِفَةِ، وَوَظَائِفَ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ، وَجُجُوعِ الرُّهَبَانِ، وَخُطَابَ طَيْشِ رَءُوسِ أَصْحَابِ الْخَلَوَاتِ، فَكُلُّ الْخَيْرِ فِي مَتَابِعِ الْحَتِيفِيَّةِ السَّمَحةِ، فَوَاغُوتَهَا بِاللهِ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ». تُوفِيَ سَنَةُ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ مائَةً، وَلَهُ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً، وَدُفِنَ بِطُوشِ. وَعَلَيْهِ فِي كُتُبِهِ الْأُخْرَى اِنْتِقَادَاتٍ؛ ذَكَرَ بعْضًا مِنْهَا الْإِمَامُ الْذَّهَبِيُّ فِي السِّيرِ وَانْظُرْ التَّنبِيَّهَ الَّذِي فِي الْحَاشِيَةِ التَّالِيَةِ عَلَى كِتَابِهِ «الْمَقْصِدُ الْأَسْنَى». فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامُ أَبَا حَامِدَ الْغَزَالِيَّ فَأَيْنَ مُثْلُهُ فِي عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ؟! وَلَكِنَّ لَا نَدَعِي عِصْمَتَهِ مِنَ الْأَسْنَى». فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامُ أَبَا حَامِدَ الْغَزَالِيَّ فَأَيْنَ مُثْلُهُ فِي عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ؟! وَلَكِنَّ لَا نَدَعِي عِصْمَتَهِ مِنَ الْأَسْنَى». فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامُ أَبَا حَامِدَ الْغَزَالِيَّ فَأَيْنَ مُثْلُهُ فِي عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ؟! وَلَكِنَّ لَا نَدَعِي عِصْمَتَهِ مِنَ الْأَسْنَى». فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامُ أَبَا حَامِدَ الْغَزَالِيَّ فَأَيْنَ مُثْلُهُ فِي عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ؟! وَلَكِنَّ لَا نَدَعِي عِصْمَتَهِ مِنَ الْأَسْنَى». فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامُ أَبَا حَامِدَ الْغَزَالِيَّ فَأَيْنَ مُثْلُهُ فِي عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ؟! وَلَكِنَّ لَا نَدَعِي عِصْمَتَهِ مِنَ الْأَسْنَى». فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامُ أَبَا حَامِدَ الْغَزَالِيَّ فَأَيْنَ مُثْلُهُ فِي عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ؟! وَلَكِنَّ لَا نَدَعِي عِصْمَتَهِ مِنَ الْأَسْنَى». فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامُ أَبَا حَامِدَ الْغَزَالِيَّ فَأَيْنَ مُثْلُهُ فِي عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ؟! وَلَكِنَّ لَا نَدَعِي عِصْمَتَهِ مِنَ الْأَسْنَى». فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامُ أَبَا حَامِدَ الْغَزَالِيَّ فَأَيْنَ مُثْلُهُ فِي عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ؟!

الْذَّهَبِيُّ [ج ١ / ص ٣٢٤ - ٣٤٦] طبعة الرسالة.

(١) انظر: المقصد الأسنى للإمام أبي حامد الغزالى [ج ١ / ص ١٠١، ١٠٢] - بتصرف.

تبنيه مهم: سبق التنبية أكثر من مرة أنَّ في هذا الكتاب للإمام الغزالى والكتاب الأسنى للإمام القرطبي رحمهما الله تعالى، وغيرهما تأوياً في الأسماء والصفات على مذهب الخلف، وأننا لا نذكرها أثناء الشرح تقريراً لمذهب السلف، لذا: فمَنْ يقرأ في هذه الكتب فعليه أن يقرأ ما نذكره فقط، مع ملاحظة أننا في أحياناً قليلة نذكر عبارة المصنف أثناء الشرح ثم نذكر عقيدة السلف الصالحة من إثبات الصفات بغير تشبيه أو تمثيل أو تأويل أو تعطيل.. على سبيل التنبية.

نَّفِّ رَحِيمٌ وَدُودٌ» [مود: ٩٠]. وهي من الآيات القليلة التي قُرِنَ فيها اسمه تعالى «الرحيم» باسمه تعالى «الودود» كما ذكرنا في شرح أسمى الله تعالى «الرحمن» و«الرحيم»<sup>(١)</sup>. معظم الآيات يقول: «الرحمن الرحيم»، «الغفور الرحيم»، «البر الرحيم»، إلا هذه الآية يقول فيها ﷺ: «إِنَّ رَبِّ رَحِيمٌ وَدُودٌ فَلِمَذَا قَدَمَ الرَّحْمَةَ عَلَى الْوَدِ؟

الجواب: لأن الرحمة من آثار المودة، فعندما يكون الإنسان ودوداً سيرحم الشخص الذي أمامه، فالإنسان المحب تتفجر الرحمة من قلبه على حبيبه، لذلك آخر المودة.

لكن لماذا قال: «رب رحيم»؟

الجواب: لأنه ودود ﷺ؛ يحب الخير للخلق كلهم ويحسن إليهم ويشفي عليهم ويعطيهم استحقوا أو لم يستحقوا، محتاجين أو غير محتاجين.

وهناك معنى آخر مهم نشير إليه كذلك في قوله ﷺ: «وَأَسْتَغْفِرُوكُمْ ثُمَّ تُوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّ رَحِيمٌ وَدُودٌ» [مود: ٩٠]، وهو أن الله تبارك وتعالى شديد المحبة لمن تاب إليه واستغفر له ﷺ، وحيث ذكر في الآية الأخرى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْوَّابِينَ» [البقرة: ٢٢٢] مما يُعِين شدة المحبة - ليست محبة فقط - لكن شدة المحبة حتى يعلم المرء قيمة التوبة عند الله تعالى، وقيمة الاستغفار لله جل وعلا، فإن التائب الذي يتوب إلى الله تعالى له أعلى الدرجات عند الله تعالى.

(١) شرح المؤلف هذين الاسمين المشرفين وما يتعلق بهما من الآيات القرآنية في عدة دروس عند بداية شرحه للأسماء الحسنة منذ أكثر من خمس سنوات تقريباً، وهذه الدروس متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيره من الواقع على الشبكة العنكبوتية للمعلومات «الإنترنت»، فارجع إليها للفائدة.

وحكى ابن القاسم رحمه الله: «أن قَصَابًا وَلَعَ»<sup>(١)</sup> بجارية لبعض جيرانه. فأرسلها أهلها إلى حاجة في قرية أخرى فتبعها فراودها عن نفسها فقالت: لا تفعل! لأنّا أشد حبًّا لك مني، ولكنني أخاف الله. قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه، فإذا هو برسولٍ لبني إسرائيل فسألة فقال: ما لك؟ قال: العطش. فقال: تعال حتى ندعوا الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية. قال: ما لي من عملٍ فأدعوه. قال: فأنا أدعوه وأمّنْ أنت. فدعا وأمّنَ الرجل، فأظللتها سحابةٌ حتى انتهيا إلى

(١) هو الشيخ الإمام العلام ذو الفنون، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرْعَعيُّ الدمشقيُّ الحنبليُّ، المشهور بابن قيم الجوزية. تفقه بشيخ الإسلام تقيي الدين ابن تيمية، وكان من عيون أصحابه. وأفتي، ودرس، ونظر، وصنف، وأفاد. كان جريء الجنان واسع العلم عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وغلب عليه حبُّ ابن تيمية رحمه الله، حتى كان لا يخرج عن شيءٍ من أقواله، بل يتصرّ له في جميع ذلك، وهو الذي هدّب كتبه ونشر علمه، وكان له حظٌّ عند الأمراء المصريين، واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل مصر وبالدّرة، فلما مات ابن تيمية أفرج عنه. وكان رحمه الله ذا عادة وتهجد وطُول صلاة إلى الغاية الفصوى، وتائهٌ وهاج بالذِّكر، وشغفٌ بالمحبة، والإِنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم يشاهد مثله في ذلك، ولا رأى أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه. وقد امتحن وأوذى مرات. وحجَّ مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة، وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه. له مؤلفات كثيرة حافلة، منها: «مدارج السالكين»، و«زاد المعاد في هدي خير العباد»، و«أعلام الموقعين»، و«بدائع الغوائد»، و«حادي الأرواح»، و«تهذيب سنن أبي داود». توفي رحمه الله سنة ٧٥١ هـ. انظر: «العبر في خبر من غرب»، «الدرر الكامنة»، «الوافي بالوفيات»، «ديوان الإسلام».

(٢) «ولع» بفلان «يلعُ ويولعُ ولعاً وولوعاً»: تعلق به بشدة، فهو «ولع» وهي «ولعة». انتهى من الوجيز - مادة [ولع].

القرية. فذهب القصّاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه!! فرجع إليه الرسُولُ فقال: زعمتَ أَنْ لِيْسَ لَكَ عَمَلٌ وَأَنَا الَّذِي دَعَوْتُ وَأَنْتَ أَمْنَتَ فَأَظْلَلْنَا سَحَابَةً ثُمَّ تَبَعَّتَكَ! لَتُخْبِرَنِي مَا أَمْرُكَ؟ فَأَخْبَرَهُ الرَّسُولُ: إِنَّ التَّائِبَ إِلَى اللَّهِ بِمَكَانٍ لِيْسَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بِمَكَانِهِ<sup>(١)</sup> يَعْنِي: إِنَّ التَّائِبَ أَعْلَى مَكَانًا عِنْدَ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى مِنْ أَيِّ أَحَدٍ آخَرَ.

وَكَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلٍ فَإِنَّ أَفْعَالَ الْوَدُودِ لَا تَسْتَدِعِي مَرْحُومًا ضَعِيفًا - كَمَا فِي الرِّحْمَةِ - وَإِنَّا إِلَيْنَا عَلَى سَبِيلِ الابْتِداءِ مِنْ عَلَامَاتِ الْمُوْدَدَةِ، أَوْ مِنْ نَتَائِجِ الْوَدِّ.

### حظ العبد من اسم الله تعالى «الودود»

وهي المسألة التي تتعلق بحظ المؤمن من هذا الاسم، لقد علمت أن الله تعالى هو الودود وأنه يحب الخير للناس ويحسن إليهم ويُشَيِّنُهم، وأنه يُهَلِّلُ شَيْئَيْنِي ويعطي ابتداءً من غير احتياج للذى أمامه، وأن الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود، فما حظك من هذا؟

وأول هذه الحظوظ<sup>(٢)</sup>: أن تعلم أن الودود من عباد الله تعالى من ي يريد خلق الله تعالى كلَّ ما يريده لنفسه<sup>(٣)</sup>. والثاني؛ وهو أعلى من الأول: مَنْ يُؤْثِرُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، كما قال الله

(١) انظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تأليف الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله. ص ٤٥٠ - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - سنة ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.

(٢) انظر - بتصرف كثير: «المقصد الأسمى» ص ١٠١، ١٠٢.

(٣) عَنْ أَنَسِ رض عَنِ النَّبِيِّ صلوات الله عليه قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». أَخْرَجَهُ البخاري [١٣]، واللفظ له، ومسلم [٤٥] وغيرهما.

تعالى: «**لَخُبِيُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا سِجْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أَوْتُوا وَيُؤْتُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَا  
كَانَ لَهُمْ خَصَاصَةٌ» [الخشر: ٩].**

والمؤمنون اليوم - إلا من رحم الله - ليسوا في درجة الإيثار تلك. فهذه الدرجة قد مات أهلها من زمان بعيد، وكأن الإيثار هذا قد انتهى! نحن نجاهد للتحقق بالدرجة الأولى من درجات حقوق المسلم على أخيه المسلم، وهي: أن يُسلّم عليه إذا لقيه، وأن يعوده إذا مرض، ويفتقده إذا غاب، ويشتمه إذا عطس، ويمشي في جنازته إذا مات؛ هذه هي الدرجة الأولى من درجات حقوق المسلم. والدرجة الثانية من الحقوق: أن يُحب له ما يحب لنفسه. والدرجة الثالثة: أن يُؤثره على نفسه.

فدعونا نكُن في درجة من هذه الدرجات الدنيا، الأولى لنقوم بها ثم تجاهد أنفسنا على الثانية، ودرجة الإيثار مفتوحة لمن أراد أن يتنافس في طريق الخير إلى الله تعالى، وفي الترقى عند الله تعالى، وفي إرادة محبة الله له جل وعلا، فإنه إن أحب الله تعالى على هذه الحال فإنه يوشك أن تكون درجته على هذا العلو عند الله تعالى.

قال الإمام أحمد <sup>(١)</sup> روى فيها صح عنه: «وددت لو قرض جسمي بالمقاريض وأن الناس أطاعوا الله تعالى». لذلك ينبغي أن يكون المرء على هذا البذل، وعلى هذا الشعور

(١) هو الإمام حقا، وشيخ الإسلام صدقًا، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي، الشيباني، المروزي، ثم البغدادي، أحد الأئمة الأعلام. صاحب «المسنن» و«الزهد» وغير ذلك. كان من كبار الحفاظ الأئمة ومن أحبّار هذه الأمة. ولد في سنة أربع وستين ومائة. خرج به من مرو حملًا، وولد ببغداد ونشأ بها. ومات أبوه شاباً فوليته أمّه وربّي أحمد تيسيا. طلب العلم وهو ابن حمس عشرة سنة. وحجّ حمس حجج، منها ثلث راجلا. قال إبراهيم الحربي: «رأيت أبا عبد الله، كأن

بمحبة الخير للناس، وأن يكون محبًا لهم كما يحب لنفسه، وأن يؤثرهم على نفسه، خاصة في أمور الآخرة، ولو أدى به ذلك إلى أن يُفرض بالمقاريض.

وكمال هذا المعنى - أي: معنى إرادة الخير للناس - : ألا يمنعه عن الإيثار والإحسان الغضبُ والخذلُ وما ناله من الأذى، وهي مسألة مهمة، قلل في أهل الإيمان اليوم من لا يقع فيها حتى ولو كانوا قد تحققوا بشيء من درجة الإيثار. ولا بد أن يفكر فيها الناس تفكيراً جيداً؛ لأن أحوال المؤمنين اليوم على العكس من ذلك تماماً؛ لأنه إن كان المرء يُحسن لشخصٍ ما فإن أذاه هذا الشخص منع إحسانه منه، أو كان يعامل أحداً بمعاملة الأخلاق الكريمة العالية التي تتكلم عليها في معنى الودود، فإذا أغضبه قطع عنه صيلته وإحسانه وقاطعه ودابره ولعله أن يتشارج معه وأن يتطاول عليه.

لذلك نكرر هذا المعنى مرة أخرى حتى يحفظه المتقون: كمال هذه الدرجة ألا يمنعه الغضبُ والحسدُ والإيذاء عن تمام الإحسان، واستمرار الإحسان، والإيثار لهؤلاء الذين يحسن إليهم.

الله جَمَعَ لَهُ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ». وقال الشافعي رحمه الله: «خرجت من بغداد فما خلفت بها أفقهه ولا أزهد ولا أورع ولا أعلم منه». وقال أبو زرعة الرازي: «كان أَمَدُ يحفظ ألف ألف حديث»! قيل: «وما يُدرِيك؟» قال: «ذَاكُرُتُهُ فأخذتُ عليه الأبواب». قال ابن حبان في الثقات: «كان حافظاً متيناً فقيهاً ملازماً للورع الخفي، مواظباً على العبادة الدائمة، أغاث الله به أمة محمد صلى الله عليه وأآله وسلم، وذاك أنه ثبت في المحنـة وبذل نفسه لله حتى ضرب بالسياط للقتل فعصمه الله تعالى عن الكفر وجعله علماً يقتدى به وملجاً يلتجأ إليه». مات ببغداد يوم الجمعة سنة إحدى وأربعين ومائتين، وحضر جنازته أكثر من ثمان مئة ألف نفس. انظر - بتصرف: «طبقات الحفاظ»، و«سير أعلام النبلاء»، و«تهذيب التهذيب».

وتحقق المرء بهذه الدرجة إنما يكون بالمجاهدة، بأن يُصفي نفسه ويُهذبها حتى يصل إلى هذه الحالة الطيبة؛ لأنه إن حدث عكس ذلك دلّ على أن المرء لم يكن مخلصاً في هذا الإحسان، وإنما كان محسناً له حتى يناله منه شيء من ثناء أو مدح، فإن ناله منه تنگر لفضله قطع إحسانه، أما إن كنت تحسن الله تعالى فلا يمنعك الغضب من أن تديم هذا الإحسان وتلك الصلة.

لذلك لما سأله عقبة بن عامر<sup>(١)</sup> النبي ﷺ قائلاً: يا رسول الله، أخبرني بفوائل الأفعال، فقال:

«يا عقبة، صِلْ مَنْ قَطَعْتُ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمْتُ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمْتُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) عقبة بن عامر الجهنمي المcriي الإمام، المcriي، أبو عبيس - ويقال: أبو حماد، ويقال: أبو عمرو، ويقال: أبو عامر، ويقال: أبو الأسد - صاحب النبي ﷺ. وكان عالماً، مقرئاً، فصيحاً، فقيها، فرضياً، شاعراً، كبير الشأن، وكانت له السابقة والهجرة، من أصحاب الصفة، وهو أحد من جمع القرآن، وروى حديثاً كثيراً. وفي صحيح مسلم عن قيس بن أبي حازم قال: «عن عقبة بن عامر: وكان من رفقاء أصحاب محمد». اهـ. شهد فتح مصر، واختلط بها، وولى الجند بمصر لمعاوية، وكان عقبة من الرؤامة المذكورين. وعن أبي عبد الرحمن الحليلي: «أن عقبة كان من أحسن الناس صفتاً بالقرآن». فقال له عمر: اعرض على. فقرأ، فبكى عمر». مات سنة ثمان وسبعين. وفجراً بالقطم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٤/١٤٨]، قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني وأحد إسنادي إحمد ثقات». اهـ المجمع [ح: ١٣٦٩٠، ١٣٦٨٩] طبعة دار الفكر. والحديث حسنة أيضاً الشيخ شعيب في تحقيق المسند. وهناك روایات عديدة لهذا الحديث عن عليٰ ﷺ وبعض الصحابة، لكن في إسنادها مقال كما بين الهيثمي عليه السلام في مجمع الزوائد.

فتكون محبته لله جل وعلا هي التي دفعته للبذل والإحسان، وليس الذي دفعه للبذل والإحسان أنه يتضرر شيئاً من الخلق؛ لأنه لو انتظر شيئاً من الخلق لا يدل ذلك على إخلاصه لله تعالى، سواء بدمحهم له أو بإعطائهم إيه أو بدفع ذمهم عنه أو بدفع أذاهم عنه.. بل هو يعطي ويمنع، ويسارع إلى كل ذلك لله تعالى، وهو من علامات الإيمان كما ذكر النبي ﷺ<sup>(١)</sup>، وهو من فوائل الأعمال كما أشرنا في الحديث الشريف.

وحكى النبي ﷺ عن نبيٍّ أن قومه أدمواه وهو يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»<sup>(٢)</sup>. فلم يمنعه ﷺ سوء صنيعهم عن طلبه الهدية والإيمان لهم. وكما أمر ﷺ في حديث عقبة بن عامر الذي أشرنا إليه: «صِلْ مَنْ قَطَعْتُ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَّمْتُ، وَأَغْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكُ». ﴿لَمَّا ذَكَرْنَا الْمَعْنَى الثَّانِي مِنْ مَعْنَى «الْوَدُودِ» أَنَّهُ بِمَعْنَى الْمَحْبُوبِ، وَأَنَّ الْمَحْبُوبَ يَعْنِي الْحَبِيبَ ﷺ، فَلَا بُدَّ مِنْ عَلَامَاتٍ تَدْلِيْلٌ عَلَى أَنَّكَ تَحْبُّ اللَّهَ تَعَالَى﴾

## محبة الله تعالى

لَمَّا ذَكَرْنَا الْمَعْنَى الثَّانِي مِنْ مَعْنَى «الْوَدُودِ» أَنَّهُ بِمَعْنَى الْمَحْبُوبِ، وَأَنَّ الْمَحْبُوبَ يَعْنِي الْحَبِيبَ ﷺ، فَلَا بُدَّ مِنْ عَلَامَاتٍ تَدْلِيْلٌ عَلَى أَنَّكَ تَحْبُّ اللَّهَ تَعَالَى.

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث الذي رواه أبو أمامة رض أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَعْطَ اللَّهَ وَأَحَبَّ اللَّهَ وَأَنْكَرَ اللَّهَ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ». أخرجه أبو داود [٤٦٨١].

(٢) متفق عليه: البخاري [٣٤٧٧]، ومسلم [١٧٩٢] من حديث عبد الله بن مسعود رض يرفعه. قال

الإمام النووي: «فِيهِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَلْمِ وَالتَّصْبِيرِ، وَالْعَفْوِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى قَوْمِهِمْ، وَدُعَائِهِمْ لَهُمْ بِالْهُدَايَا وَالْعُقْرَانِ، وَعُذْرَاهُمْ فِي جِنَاحَيْهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَهَذَا النَّبِيُّ الْمَسَارِ إِلَيْهِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَقَدْ جَرَى لِنَبِيِّنَا صل مِثْلُ هَذَا يَوْمَ أُحُدٍ». اهـ. من

شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم رحهما الله تعالى.

ولكن قبل ذكر هذه العلامات، نشير إلى معنى مهم وهو:

## كيف يحبُّ العبدُ رَبَّهُ؟

قال بعض أهل العلم: «وما أحسَّ أحدٌ حلاوةً المحبة إلا بقطع العلاقة عن قلبه» يعني: قد يسأل المرء: كيف تأتي هذه المحبة إلى القلب؟! والجواب: أن القلب لا يتسع للمحبتين معًا؛ لمحبة الله ومحبة الدنيا، فسبب المحبة الأول هو قطع العلاقة عن القلب، ويكون ذلك بقطع أسباب الدنيا عن القلب؛ لأن الدنيا والآخرة لا يجتمعان؛ مما ضرَّتَان<sup>(١)</sup>. وبالتالي إذا زاد حب الدنيا في القلب انخفض حب الآخرة، وكذلك إذا تعلق قلب المرء بشُعبة من شعبها فإن شعبة من شعب قلبه قد تعلقت بحب غير الله تعالى، فإن تعلق بالمال أو الولد أو الأهل أو الجاه أو السلطان، فإن ذلك معناه أن زاوية من قلبه مشغولة بغير الله تعالى، مشغولة بما سوى الله تعالى، في قلبه مَنْ ينافِسُ اللهَ تعالى في محبته، فهو تشويش وراثٌ على القلب وشُغُلٌ له وإفساد عن استكمال السير لتحقيق الإقبال على الله فضلاً عن محبته.

## ونرجع إلى هذا السؤال المهم: كيف يحبُّ المرءُ ربَّه؟

الجواب: أول هذه الأمور التي تسبب محبة الله تعالى قطع هذه العلاقة. والثاني: معرفته بربه. وهذا أمر يطول شرحه، وله مجال آخر، ونختصر ذلك بذكر علامات المحبة.

(١) «ضرَّةُ» المرأة: امرأة زوجها. اهـ. مختار الصحاح، مادة: [ضن رر].

## علامات حبّة العبد لله تعالى

في «حبّة الله تعالى» عدّة مسائل؛ المسألة الأولى: أسباب حبّة الله تعالى<sup>(١)</sup> والثانية: علامات حبّة الله للعبد. والثالثة: علامات حبّة العبد لله.

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «الأسباب الجالبة للمحبة والمحببة لها وهي عشرة؛ أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويسرحه ليتفهم مراد صاحبه منه. الثاني: التقرب إلى الله بالنواقل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة. الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصبيه من هذا الذكر. الرابع: إيهار محاباته على محابيك عند غلبات الهوى والتَّسْنُم إلى محاباه وإن صعب المرتقى. الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقبلها في رياض هذه المعرفة ومبادئها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة. السادس: مشاهدة بِرَه وإحسانه وألائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته. السابع: وهو من أعجبها - انكسار القلب بِكُلِّيَّته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات. الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبية. التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقطاط أطاييف ثمرات كلامهم كما ينتقي أطاييف الشمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً حالك ومنفعةً لغيرك. العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله تعالى. فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب، وملأوك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وافتتاح عين البصيرة. وبِإِلَهِ التوفيق». انتهى - بتصرف - من «مدارج السالكين»، [ج ٣ / ص ١٦، ١٧] طبعة دار الحديث - سنة ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م. وعلى المرء الراغب في نيل حبّة الله تعالى أن يجاهد نفسه للتحقق بهذه الأسباب حتى ينال حبّة الله تعالى.

ومحبة العبد لله تعالى هي الدعوى التي يدّعىها كل أحد، أليس كذلك؟ كل أحد يدعى محبة الله، ولكن انظر إلى هذه العلامات التي أوردنها سريرًا لترى حقيقة ما نحن فيه والتي أشرنا إليها على سبيل الإجمال استكمالاً لهذا الكلام في معنى المودود عليه السلام، وحتى تسود أخلاق المؤمنين المودة ومحبة الخير ومحبة الله تعالى ومحبة الرسول صلوات الله عليه وآله وسالم ومحبة الصالحين، وأن تكون هي المحبة الخالصة، التي هي أرق المحبة وألطف المحبة وأجمل المحبة التي تتفجر بالخير لكل أحد، إحساناً وثناءً، ومدحًا وعطاءً، وإيشاراً... كما ذكرنا، ولا يكون المرء مؤمناً حقاً إلا أن يتذكر في أن يتحقق بهذه العلامات؛ وإليك إياها.

### العلامة الأولى: حُبُّ لقاء الله تعالى

وهذا المعنى ذكره النبي صلوات الله عليه وآله وسالم في قوله: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهَ لِقَاءَهُ»<sup>(١)</sup>، فإن أول دليل على هذه المحبة أنه يجب أن يلقى الله تعالى، وما يتمنى أن يؤخر هذا اللقاء إلا ليتهيأ له، ليقابل محبوبه صلوات الله عليه وآله وسالم على أحسن حال من التوبة والعمل الصالح وإعداد الزاد، وعلامة من يتمنى ذلك أنه دائم الخدمة والنشاط في القيام بما يجب حبيبه، أما أن لا يريد لقاء ربه ويتنمى الأماني على الله تعالى، مع التقصير والتکاسل، فليس هو من يجب لقاء الله، ويسمى العلماء هذه الحالة بحالة التائب.

### العلامة الثانية: أَنْ يُؤْثِرَ مَا أَحْبَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَا يُحِبُّهُ فِي ظَاهِرِهِ وَبِاطِنِهِ

أما أن تؤثر النوم والأكل والشرب والمال والولد على الطاعة والعبادة والصيام والقيام والسعى إلى الله تعالى، فليس ذلك دليلاً على محبة الله، وإنما دليل على تقديم هذه

(١) متفق عليه: البخاري [٦٥٠٧]، ومسلم [٢٦٨٣] من حديث عبادة بن الصامت رض يرفعه.

الأعراض الزائلة على محبة الله تعالى، ودليل على تقديم راحة البدن الفاني؛ فتلك العلامة تقتضي من العبد أن يلزمه نفسه مشاق العمل الذي كثُر ثوابه، وهي مشقة من العبد بغير تكُلف، يلزم نفسه العمل الذي يظهر صدق محبة الله تعالى، كما كان أهل الإيمان يقولون لله تعالى ذلك القيام الطويل وذلك الصيام الكثير الشاق ويجاهدون لله تعالى، ويؤثرون على أنفسهم وأولادهم وديارهم وأموالهم وأوطانهم؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُخْبِطُهُمْ وَسُخْبُونَهُ أَذْلَلُهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَلُهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ سُجْنُهُمْ دُورٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآيِّمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

تلك الأفعال الشاقة تبين المحبة لله تعالى؛ لأنها ليست شاقة على الحقيقة، بل هي نعيم الروح وسعادة القلب وقرة العين، ثم يجيئُ اتباعُ الهوى، ويُعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظِبًا على الطاعة، متقربًا إليه بالنواقل، طالبًا منه مزيد الدرجات العالية عنده تعالى، فإنه إذا وصل إلى هذه الحالة فإن الله تعالى يحبه ويستولاه وينصره على أعدائه - وأول أعدائه نفسه وشيطانه وهوه - كما قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَاءِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

أنت تحتاج إذن إلى أن يكفيك الله تعالى شر نفسك وشيطانك وهواك، وأن يكفيك أعداءك في الداخل والخارج، وكل ذلك لا يتحقق إلا بمحبته، ومحبته تعالى أن تقدم ما أَحَبَّ على ما تُحبُّ، حينئذٍ يتولاك:

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

### العلامة الثالثة: أن يكون مستهترًا بذكر الله تعالى

«مستهترًا» يعني: لا يفتر لسانه عن ذكر الله<sup>(١)</sup>، فهو كثير الذكر و دائم الذكر الله تعالى. وهذا علامه المحبة، ألا يخلو عنه قلبه، وعلامه حب ذكره بِكَلِّ حُبَّةِ الْقُرْآنِ; لأنه أفضل الذكر وهو كلامه بِكَلِّ لِيْلَةِ، ثم محبة رسوله بِكَلِّ لِيْلَةِ، ومحبة كل من يننسب إليه جل وعلا.

### العلامة الرابعة: أن يكون أنسه بالخلوة والمناجاة لله تعالى

أن يأنس بمناجاة الله تعالى، وأن يخلو به، وهذه علامه المحبة، أما أن يكون متشوشاً كل أنسه وخلوته بالناس والأكل والشرب والنوم والشهوات والملذات. فـأين أنسه بربه؟ وأين خلوته به؟ وأين مناجاته له؟ وأين تضرعه إياه؟ وأين دعاوه لربه؟ وأين ذكره له؟ وأين طمأننته به؟ وأين سكينته عنده؟ فـمَن يَدْعُ شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْلُكْ بَعْدَ طَرِيقَ مَحْبَةِ اللهِ تَعَالَى<sup>(٢)</sup> ..

(١) وأصل «الاستهتار»: الولوغ بالشيء والإفراط فيه حتى كأنه أهترأ أي خرف، وفي الحديث: «سبق المفردون». قالوا: وما المفردون؟ قال: الَّذِينَ أَهْتَرُوا فِي ذِكْرِ اللهِ. يَضَعُ الذَّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَلُهُمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَفَافاً». و«المفردون»: الشيوخ الهرمي، معناه: أنهم كبروا في طاعة الله وماتت لذاتهم وذهب القرن الذين كانوا بهم. ومعنى «أهتروا في ذكر الله» أي: خرفاً وهم يذكرون الله. يقال: خرف في طاعة الله، أي: خرف وهو يطيع الله. و«المفردون» يجوز أن يكون عني بهم: المترددون المتخالون لذكر الله. و«المستهترون»: المؤلعون بالذكر والتسبيح. وجاء في حديث آخر: «هُمُ الَّذِينَ اسْتَهْتَرُوا بِذِكْرِ اللهِ»، أي: أهلعوا به. يقال: «استهتر بأمر كذا وكذا» أي: أهلع به لا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره. اهـ - بتصرف - من «لسان العرب»، مادة: [هـ تـ رـ].

(٢) لا نقصد المحبة التي ثبتت أصلها بالإيمان.

لذلك قال تعالى: «وَتَبَّئِلُ إِلَيْهِ تَبَيِّلًا» [المزمول: ٨] ..

يعني: انقطع إليه انقطاعاً: أن يكون أنسه به، فيواكب حيئته على ما يكون سبباً للنجاة بالمناجاة والخلوة ويواكب على التهجد ويغتنم ساعات الليل وصفاء النفس وهدوء الناس؛ ليناجي ربه، ولتيهجد له، ويتملقه، ويتلذ آياته.

لذلك يقول أهل العلم:

«ومهما أَنْسَ بغير الله تعالى كان ساقطاً عن محبته» لأنه مهما استأنس بالخلق استوحش من ربه، مهما استأنس بالمال أو بالدنيا أو بالجاه أو بالنساء والشهوات أو بغير ذلك كان ساقطاً عن درجة المحبة؛ لأنه لا يكون محبًا إلا أن يأنس بمحبوبه وحبيبه على الحقيقة بِهِلْلَهِ.

العلامة الخامسة: أن يَعْظُمْ تأسفه على فوت حظه من ربه وألا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله

على عكس ما نحن فيه اليوم! ..

أن يفوته من ربه ما شاء فلا يتأسف ولا يندم ولا يبكي ولا يتحسر ولا تظهر عليه علامات الحزن..

أما أن يفوته شيء من الدنيا إذا به متأسف وباكٍ ومتألم ومتضجر وشاكي لما فاته!

وعلامة المحبة أنه لا يتأسف على شيء فاته مما سوى الله، فإن ذلك دليل على أنه لا يحب ربه المحبة الكافية، لأن ذلك سبيل الإصلاح وتعظيم ما يمت للرب بصلة.

### العلامة السادسة: أن ينعم بالطاعة ولا يستقلها، وأن يسقط عنه تعبها

المحب يقف لحبه ويتعب له ويقضي له حوائجه ومع ذلك لا يشعر بتعب ولا مشقة، المحب لله تعالى كذلك، ينعم بالطاعة ولا يستقلها، ويسقط عنه تعبها. والمرء إذا أحب إنساناً قد يتحدث معه بالساعة وال ساعتين لا يريد أن يتركه، بالرغم من كونه عبداً مثله، فما بالك بمن يحبه على الحقيقة وهو ربه جل وعلا؟! «ونبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطر قدماه»<sup>(١)</sup> من طول القيام.

### العلامة السابعة: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله

وهذا المعنى قد ذكرناه في معنى الودود أنه هو الذي يحب الخير لكل أحد: المسلمين لا كلام فيها، والكافرين أن يحب لهم الخير، يعني: أن يحب لهم الإيمان؛ لأنَّه يحب ربه ﷺ، فيحب للناس أن يعبدوا ربَّ جل وعلا، ويُحزنه أن يُكفرَ به أحد، أو أن يعصيه أحد، أو أن يفسق عن أمره أحد. يحزنه ويؤلمه أن يرى العاصي تقع في حقِّ ربِّ محبوبه ﷺ، لأنَّ رأيت من يضرِّب محبوبك أو أن يشتمه أو كذا أو كذا، فتشعر له وتقوم له وتفعل ما يمكن أن تفعله حتى تُحبِّنه ذلك، والله المثل الأعلى ﷺ. وأن يكون العبد رحيمًا بالمؤمنين شديداً على أعداء الله تعالى، كما قال: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِيمٌ بِإِيمَنِهِمْ» [الفتح: ٢٩].

هذا مختصر لمسألة المحبة.<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه الإمام البخاري موقعاً على السيدة عائشة رضي الله عنها [٤٨٣٧]، وقولها رضي الله عنها «تَمَقَّطَ» أي: تَسْقَقَ.

(٢) وقد ذكرنا «حبة الله تعالى» وعلماتها وما يتعلّق بها بشيء من التفصيل مع ذكر الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة عليها في رسالة: «ماذا بعد رمضان» ص ٤٦ - ٨٦. الطبعة الثانية. فارجع إليها للأهمية.

وقد ذكرنا شيئاً من معنى «الودود» الذي ينبغي أن يتبعه المؤمنون الله تعالى به، وأن يدعوا الله تعالى به. يعني: أن يدعوا الله تعالى بالودود أن يودهم وأن يحبهم وأن يُسر لهم أسباب المحبة وأن يعينهم على حبه، كما ورد في حديث النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقْرَبُ إِلَى حُبَّكَ»<sup>(۱)</sup>.

وكان من دعاء داود عليه السلام أن يكون حب الله تبارك وتعالى له أحب من كل شيء حتى من الماء البارد؛ فقد ورد عن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوِدَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُلْغِنِي حُبَّكَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»<sup>(۲)</sup>.

ينبغي إن أن يكون ذلك دعاء المؤمنين لله تعالى، وأن يكون ذلك حظهم من هذا الاسم المشرف، وأن تنقلب أحوال الناس هذه التي نحن فيهااليوم إلى أحوال أخرى جميلة، بها تصليح أحوال البلاد والعباد، ويكون الناس بها أقرب إلى الله وأحب إلى الله، وأجدر حينئذ على نيل محبة الله تعالى لهم، فإن أحбهم المولى ﷺ لا يعذبهم، كما قال جل وعلا: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَاللَّصَرَى نَحْنُ أَبْتَنَوْا أَلَّهَ وَأَحْبَبْوْهُ»، فقال رَدًا عليهم: «قُلْ فَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» [المائدah: ۱۸]، لو أحببهم ما عذبهم، وهي - أي: المحبة - الدرجة العليا في الدين

(۱) أخرجه الترمذى [۳۲۳۵، ۳۲۳۴] وقال: «هَذَا حَدِيثُ حَسَنٌ صَحِيحٌ . سَأَلَتْ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ: هَذَا حَدِيثُ حَسَنٌ صَحِيحٌ» اهـ . قوله: «محمد بن إسماعيل» أي: الإمام البخاري صاحب الصحيح رحمه الله.

(۲) رواه الترمذى [۳۴۹۰] من حديث أبي الدرداء رض مرفوعاً. قال الترمذى: «هَذَا حَدِيثُ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

التي ينبغي أن يتفقد المرء فيها قلبها وعبادته وطاعته، وأن يتفكر في فعله ومحبته لله تعالى وللمؤمنين وللخير، ويحزن ويتأسف على ما يفوته من ربه يَعْلَمُ<sup>(١)</sup>.  
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) ونذكر إخواننا الكرام أنه ينبغي على طلبة العلم ألا يخلوا أنفسهم من مذاكرة العلم، فالماء في أمور الدنيا يهتم بها، يعني: إذا كانت عنده محاضرة أو درس من دروس الدنيا يكتبه ويحاول أن يستفهمه وأن يسأل فيه وأن يعيده، ثم بعد ذلك إذا ذهب إلى البيت يذاكره، ويعيد مذاكرته، ثم بعد ذلك يحفظه ويستعد به لامتحان. أمور الآخرة ومعرفة الرب كَبِيرٌ أعظم من ذلك وأجل. من لم يهتم لها هذا الاهتمام الذي يهتم به لأمور الدنيا لا يحصل بأمور الآخرة، ولا يحصل علم الآخرة. والله تعالى عندما يجد أهله مقبلين عليه بقوة - كما ذكر يَعْلَمُ - يفتح عليهم ويشفيهم ويُجزئ لهم الثواب ويثبت لهم العلم، وينزل هذا العلم على قلوبهم علماً نافعاً.



القمر اللش

الله يس

اللطيف



## مقدمة

الحمدُ لله، والصلوة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد..

فهذا تفريغ لدرس شرح اسم الله «اللطيف» ﷺ، الذي ألقاه فضيلة الشيخ محمد الدبيسي - حفظه الله تعالى وعفا الله عنه - منذ خمس سنوات تقريباً من سلسلة «شرح الأسماء الحسنی»، التي ما يزال يلقيها حتى الآن.

وقد طبع - ب توفيق الله تعالى - عدة دروس منها، ونرجو الله تعالى أن يتم طبع بقية الأسماء، حتى يستفيد إخواننا من المعاني العالية التي تحتويها تلك الدروس من معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، ويخلّقوا - بما يليق بالعبد - منها، وأن يجتهدوا بها في توحيد الله تعالى ودعائه ومحبته والتعلق به. فندعوا الله جل وعلا أن يكون طبع شرح تلك الأسماء الحسنی عوناً على ذلك، وأن يلهمنا العلم والعمل جيئاً؛ حملأ لمسؤولية هذا الدين وبذلاً لشيء من حق الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين علينا.

وآخرًا؛ فإن محاولة الإسراع بطبع هذه الرسائل قد يُوقع في أخطاء غير مقصودة، نتمنى تلافيها بعد ذلك، مع قبول النصح تصحيحاً لخطأ أو إصلاحاً لخلل، مع طلب الدعاء من أخ صالح استناداً شيئاً من ذلك يعينه على أمر آخرته.

وهو جُهد البشر المُقل، فيما كان من صواب فِيمَن الله، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، واللهُ ورسوله بريئان منه.

اسم الله «اللطيف»

نبتهل إلى الله أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والناظر فيه، واللهُ من وراء  
القصد.

مسجد المهدى الحمدى

## الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى «اللطيف»

□ المعنى اللغوي

□ معنى «اللطيف» في حق الله تعالى

هذا الاسم المشرّف «اللطيف» من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿الله لطيف بعيادِه﴾ [الشورى: ١٩]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ اللطيفُ أَنْجِين﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وهذا الاسم سندذكر معانيه وما يتعلّق به من حق الله تعالى الذي يجب أن نُعظّمه ونؤكّده به بشكله. ثم بعد ذلك يعلّم المرء حظه منه ويدعو الله تعالى به. ثم نشير إلى معاني بعض الآيات الواردة فيه كما هو منه جنّا في شرح أسماء الله الحسنى.

### المعنى اللغوي<sup>(١)</sup>

مادة [اللام والطاء والفاء] تدل على معنيين رئيسيين:

الأول: من «اللطف، يلطف، لطفاً، ولطافة» أي: صغر ودقّ، فهو «لطيف» أي: دقيق الحجم، يعني: دقّ وصار لطيفاً في حجمه أو في حجمه.

والثاني: «لطف - به وله -، يلطف، لطفاً» أي: رفق به. نقول: «فلان لطف بفلان» يعني: رفق به. ومنه قولهم: «لأطفت العليل، ألاطفه، ملاطفة» يعني: رفقت به<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر - بتصرف كثير: «مقاييس اللغة»، و«السان العربي»، و«القاموس المحيط»، و«تاج العروس»، مادة: [ل ط ف]. و«الأنسنة في شرح أسماء الله الحسنى» للإمام القرطبي رحمه الله، [ج / ١ / ص ٢٣٠، ٢٣١].

(٢) الحالـلـ إـذـنـ أـنـ هـنـاكـ فـرـقـ بـيـنـ «ـلـطـفـ» بـضـمـ الطـاءـ وـ«ـلـطـفـ» بـفـتـحـهاـ؛ «ـلـطـفـ» بـمـعـنـىـ: دقـ، من الدـقةـ التـيـ هيـ صـغـرـ الحـجمـ، أوـ الشـفـافـيـةـ بـحـيـثـ يـكـونـ دقـيـقاـ لـاـ يـتوـصـلـ إـلـيـهـ. وـ«ـلـطـفـ» بـمـعـنـىـ: أـحـسـنـ إـلـيـهـ وـرـفـقـ بـهـ. وـالـاثـنـانـ المـضـارـعـ مـنـهـماـ: «ـيـلـطـفـ»، كـمـاـ أـنـ «ـلـطـفـ»ـ بـالـضـمـ مـصـدرـهـ: «ـلـطـفـاـ، وـلـطـافـةـ»، أـمـاـ «ـلـطـفـ»ـ بـالـفـتـحـ فـمـصـدرـهـ: «ـلـطـفـاـ»ـ فـقـطـ.

و«اللطف» يقصد به أهل اللغة: خفاء المسارك ودقة المذهب.

يقال: «فلانٌ لطيفٌ» يعني: أنه يتوصل لغرضه بالخففة ويسلك إليه الطريق المستور الذي لا يتميز الناس كثيراً.

وقد يعبر بـ«اللطائف» عما لا تدركه الحاسة.

و«اللطف»<sup>(١)</sup> في وصف الله تعالى يفيد أنه: المحسن إلى عباده في خفاء وستر من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم أسباب معيشتهم من حيث لا يحتسبون.

وقد يكون «اللطف» بمعنى: البر. يقول: «الطفه» بمعنى: أخففه، و«الطفه بكندا» يعني: برّه بكندا، أعطاه..

و«اللطف» - بفتح اللام والطاء: الهدية. نقول: «جاءتنا من فلان لطفة» يعني: جاءتنا من فلان هدية.

وكل هذه المعاني لا بد أن تعلم أن الله تعالى متصف بها كما سترى، وهي: اللطف، والبر، ووصول الهدايا، ووصول الإحسان، والرفق إلى العباد في ستر أو من حيث لا يحتسبون أو يعلمون... كل ذلك الله تعالى متصف به، بل هو من أعظم أوصافه تعالى، كما تدل الآيات الواردة في معاني اسم الله تعالى المشرف «اللطيف».

(١) على المعنى الثاني من المعاني التي ذكرناها، وهو من «لطف» به - بالفتح - لطفاً يعني: أحسن إليه ورفق به.

## معنى «اللطيف» في حق الله تعالى

«لَطْفُ اللَّهِ بِالْعَبْدِ لُطْفًا» يعني: رفق به، «وَأَلْطَافُهُ» يعني: بَرَّه. وكذلك «لَطَفٌ بِهِ لُطْفًا» يعني: وَفَقَهَ وَعَصَمَه.

فيكون اللطف من الله تعالى هو: «ال توفيق، والعصمة، وإيصال الخير». فيوصل إليهم بِكَلَّا إحسانه وبره وألطافه من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون، كما ذكرت الآيات:

قال تعالى: «وَبَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [الطلاق: ٣].

وقوله تعالى: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ إِسْرَارًا» [الشرح: ٦]، حيث ترى العسر فإذا باليسير متوطن به داخل فيه.

وقوله أيضاً: «حَتَّىٰ إِذَا أَسْتَيْغَسَ الرَّسُولَ وَظَنَّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌنَا» [يوسف: ١١٠].  
«حَتَّىٰ إِذَا أَسْتَيْغَسَ الرَّسُولَ» يعني: من إيمان قومهم، «وَظَنَّوا» أي: قومهم، «أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» يعني: ظنوا أن الرسول قد كذبوا، وأنه لن يأتيهم عذاب ولا شيء.. حيث كان الرسول يحذر ونهي وينذر ونحوهم عذاب الله تعالى، وتتأخر عنهم عذاب الله تعالى، ولكن بعد ذلك: «جَاءَهُمْ نَصْرٌنَا فَنُجِحَّ مَنْ شَاءَ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ».

وهذا الاسم - «اللطيف» بِكَلَّا - يدل صريحاً على من له لطف، ويتضمن حينئذ جميع الصفات: كـ«العليم، والقدير، والسميع، والبصير...» وغير ذلك؛ لأنه لـ«اللطاف بِكَلَّا» بعده أوصل له فضله في ستر وخفاء، فإنه حينئذ يكون علياً بما يوصل إليه من بر، وعلى ما بمن يوصل إليه هذا البر، وكذلك قديراً بِكَلَّا في توصيل ذلك من حيث لا يحتسب العبد، ولما كان كذلك فإنه سميع بصير بِكَلَّا.

و«اللطيف» أيضًا هو الذي يتناول الأمور برفق ويُقدر على إنشائهما وإتمامها برفق وحسن تناولٍ<sup>(١)</sup>.

و«اللطيف» كذلك هو العالم بدقةائق الأشياء وغواصتها. فالله أحق بهذه الأوصاف كلها، فهو الذي انفرد بالإحاطة وتربية الجميع، وهو العالم بخفي مصالحهم وتدریج أحواهم وتتنزيل كل دقيقٍ منها ابتداءً وجزاءً على موافقة حكمه، فيكون «اللطيف» على هذا المعنى الأخير اسمًا ذاتيًّا للرب تعالى.

و«اللطيف» إن اعتبرت وصفًا جارياً على «لطف» - بضم الطاء - فهي: صفة مشبهة، تدل على صفةٍ من صفات ذات الله تعالى، وهي صفةٌ تزييه تعالى عن إحاطة العقول بها هيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته.

فعلمنا إذاً عن الله تعالى من اسمه «اللطيف» هذه المعاني: الرفق، والبر، وإيصال الإحسان، والتوفيق والعصمة، والإحاطة والعلم بدقةائق الأمور وغواصتها، وحسن

(١) وإلى بعض هذه المعاني السابقة أشار العلامة ابن منظور رحمه الله في «السان العرب»، فقال: «اللطيف صفةٌ من أسماء الله تعالى واسمٌ من أسمائه. وفي التنزيل: «الله لطيفٌ بعباده» [الشوري: ١٩]، وفيه: «وهو اللطيفُ أَنْتِي» [الأنعام: ١٠٣]. ومعناه - والله أعلم: الرفيق بعباده؛ فهذا هو المعنى الأول. قال أبو عمرو» وهو المعروف بغلام ثعلب: «اللطيفُ الذي يُوصلُ إِلَيْكَ أَرْبَكَ فِي رِفْقٍ» وهذا هو المعنى الثاني، والأربُّ: هو مطلبُ الإنسان؛ يعني: اللطيف هو الذي يُوصلُ إِلَيْكَ مقصودك أو طلبك أو ما تبتغي في رفقٍ. والمعنى الثالث: أنَّ اللطفَ من الله تعالى التوفيقُ والعصمة» اهـ - بتصرف يسير -، مادة: [ل ط ف]. وقد جعلنا كلام العلامة ابن منظور رحمه الله بين تنصيص هكذا

. . .

تناول الأمور والقدرة على إنشائهما وإقامها. وكذلك علمنا تضمنه جميع الصفات: كـ«العليم، والقدير، والسميع، والبصير...». فكُل ذلك إنما هو الله تعالى<sup>(١)</sup>.

ونحن في حاجة وضرورة مُلحَّة في الظاهر والباطن مثل هذه المعاني والعطایا من الله تعالى، وقد فتح المولى لنا بآباهَا، وما علينا إلا أن ندعُو الله بها، ونُوَحِّدْه بها؛ لِنُحَصِّل هذا الفتح العظيم الذي يُحِبُ الله جل وعلا لعباده.

### رأي الإمام الغزالي في معنى اسم الله تعالى «اللطيف»

و قبل أن نخوض في شرح الآيات، نذكر رأي الإمام الغزالي رحمه الله؛ لأنَّه أقربُ في توضيح هذه المعاني السابقة، وإنْ كان اسمُ الله تعالى «اللطيف» اسمًا عظيمًا لا يستطيع المرءُ أنْ يحيط به، ولكنْ سنذكره ليعلم المرءُ كيف أنه لا يحيط الناسُ بشيءٍ من هذا الاسم المشرف<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام رحمه الله: «إنما يَسْتَحِقُ هذا الاسمَ مَنْ يَعْلَمُ دَقَائِقَ الْمَصَالِحِ وَغَوَامِضَهَا، وَمَا دَقَّ مِنْهَا وَمَا لَطْفٌ، ثُمَّ يَسْلُكُ فِي إِيصالِهَا إِلَى الْمُسْتَحِقِ سَبِيلَ الرَّفْقِ دُونَ الْعُنْفِ».

---

(١) وهذه المعانٰ ينبغي أن تحفظها لتعلم اتصافَ ربِّك عز وجل بذلك الاسم المشرف، وحتى تعلم شيئاً من عظمته؛ ليكون - أي هذا الاسم المشرف «اللطيف» - طرِيقاً لك إلى معرفةِ ربِّ جل وعلا وتوحيده.

(٢) انظر - بتصرف: «المقصيد الأَسْنَى شرح أسماء الله الحسني»، للإمام أبي حامد الغزالى رحمه الله، شرح اسمه تعالى «اللطيف» رحمه الله، [ص ٧٠-٧٢]، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية. وقد جعلنا أيضاً كلام الإمام رحمه الله بين تنسيص هكذا «...».

يعني: هو الذي يعلم مصالحك كلها من أواها إلى آخرها، وليس مصالحك أنت فقط، ولكن مصالح الدنيا والآخرة والجنة والإنسان، والطير والحيوان والجماد والنبات، ومصالح كل خلقه، ويعرف الدقائق والغوماض والظاهر والباطن.. كُل ذلك يعلمه تعالى، ثم يسلك سبيلاً الرفق - في إيصال هذه المصالح إلى مستحقها - دون العُفُّ. وانظر إلى بقية خلق الله تعالى دون الإنس ترى صدق ذلك.

فيإذا اجتمع الرفق في الفعل واجتمع معه اللطف في العلم، تمَّ معنى اللطف. ولا يتتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى، فلا يتتصور أن يعلم أحدٌ هذه الأمور وفوائدها وأن يوصلها إلى مستحقها في رفق.. إلا الله جلَّ وعلا.

أما إحاطته تعالى بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك: لا يمكن لأحدٍ أن يفصل إحاطة الله تعالى بالدقائق والخفايا! أنت مثلاً أيها المسكين.. انظر إلى دقائق نفسك وخفاياك، تعلم أنك لا تعلم من نفسك شيئاً، يعني: لا تعرف أجهزتك.. ولا ظاهرك.. ولا باطنك.. وما يجدر لك.. وفيك، ولا إنْ حَدَثَ لك شيءٌ ماذا تفعل.. إنْ حدث لك شيءٌ سارع إلى الطبيب أو إلى غيره تستعين به، والطبيب إنْ حدث له شيءٌ سارع إلى طبيب آخر مثله... وهكذا. فلا يستطيع أحدٌ أن يحيط بشيءٍ من هذه الدقائق والغوماض من تلك المصالح التي أصلح الله تبارك وتعالى بها خلقه على اختلاف أجناسهم: الإنسان والحيوان والنبات، وكل ذلك.

لذلك فالتحقِي مكشوفٌ في علمه تعالى كاجلٍ، ولا فرق! فعند الله تبارك وتعالى ليس هناك خفيٌ ولا جليٌ، بل كلهُ واحدٌ عنده تعالى، والله تبارك وتعالى مطلَعٌ عليه، لا يخفي عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؛ وهذا هو المعنى الأول الذي أشار إليه.

وأما الثاني: فهـي رـفقـه ﷺ في الأفعال التي فعلـها في الدـنيـا وصـورـها، وصـورـالـإنسـانـ والـحـيـوانـ والـنبـاتـ، وـخـلـقـ لـه رـزـقـهـ، وـخـلـقـ لـه مـا يـعـيـنـهـ، وـتـرـتـيـبـ ذـلـكـ، وـنـفـسـهـ، وـصـدـرـهـ، وـقـلـبـهـ، وـبـطـنـهـ، وـكـلـ ذـلـكـ مـا يـتـعـلـقـ بـالـإـنـسـانـ وـغـيرـهـ في الدـنيـا وـالـآخـرـةـ، وـفـي الـظـاهـرـ وـالـبـاطـنـ، وـفـي السـمـاءـ وـالـأـرـضـ، وـفـي الـبـحـارـ..

فـرـفقـهـ في الأفعال وـلـطـفـهـ فيها لا يـدـخـلـ أـيـضاـ تـحـتـ الحـضـرـ؛ إـذـ لـا يـعـرـفـ اللـطـفـ فيـ الفـعـلـ إـلـا مـنـ عـرـفـ تـفـاصـيلـ أـفـعـالـهـ ﷺ، فـمـنـ غـيـرـهـ الـذـي يـعـرـفـ هـذـهـ التـفـاصـيلـ؟ـ!ـ وـإـنـ عـرـفـ الـمـرـءـ شـيـئـاـ عـنـ نـفـسـهـ الـيـوـمـ فـمـاـ الـذـي يـعـرـفـ عـنـ بـقـيـةـ الـكـوـنـ؟ـ!ـ وـإـنـ عـرـفـ الـيـوـمـ فـمـاـذـاـ كـانـ يـعـرـفـ أـمـسـ وـقـبـلـ سـنـيـنـ؟ـ!ـ..

فـلـاـ يـعـرـفـ اللـطـفـ فيـ الفـعـلـ إـلـا مـنـ عـرـفـ تـفـاصـيلـ أـفـعـالـهـ، وـعـرـفـ دـقـائـقـ الرـفـقـ فـيـهـ، وـبـيـقـدـرـ اـتـسـاعـ الـمـعـرـفـةـ فـيـهـ تـتـسـعـ الـمـعـرـفـةـ بـمـعـنـىـ اسمـ «ـالـلـطـيفـ»ـ ﷺـ.ـ يـعـنـيـ: بـقـدـرـ ماـ تـسـعـ مـعـارـفـكـ فيـ مـعـرـفـةـ الـرـبـ ﷺـ وـتـفـاصـيلـ رـفـقـهـ فيـ أـفـعـالـهـ خـلـقـهـاـ وـدـبـرـهـاـ وـأـنـشـأـهـاـ...ـ إـلـخـ، بـقـدـرـ ذـلـكـ تـسـعـ مـعـرـفـتـكـ بـهـذـاـ الـاسـمـ المـشـرـفـ «ـالـلـطـيفـ»ـ.

وـالـمـعـنـىـ: أـنـ الـمـرـءـ فيـ نـهـاـيـةـ الـعـجـزـ، وـالـلـهـ تـعـالـىـ فيـ نـهـاـيـةـ الـلـطـفـ، وـلـطـفـهـ بـهـ هوـ الـذـيـ جـعـلـهـ عـلـىـ هـذـاـ الـحـالـ الـحـسـنـ، فـلـيـسـ لـكـ إـلـاـ أـنـ تـدـعـوـهـ ﷺـ قـائـلاـ: «ـيـاـ لـطـيفـ..ـ الـطـفـ بـنـاـ»ـ.

وـأـنـ نـشـرـ بـعـضـ رـفـقـهـ فيـ أـفـعـالـ وـلـطـفـهـ فـيـهـ يـسـتـدـعـيـ طـوـيـلـاـ، فـلـوـ فـصـلـنـاـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ فـإـنـهـ لـاـ تـسـتـطـعـ مـجـلـدـاتـ كـثـيرـةـ أـنـ تـقـيـ بـعـشـرـ مـعـشـارـ تـفـاصـيلـ رـفـقـهـ ﷺـ فيـ أـفـعـالـهـ!ـ وـإـنـاـ يـمـكـنـ التـنـبـيـهـ عـلـىـ بـعـضـ جـمـيـلـهـ الـتـيـ تـعـلـقـ بـلـطـفـهـ ﷺـ<sup>(1)</sup>ـ كـمـاـ سـيـأـقـيـ فيـ الـفـصـلـ الثـانـيـ.

(1) انظرــ بـتـصـرـفـ: الـمـصـدـرـ السـابـقـ، [صـ ٧٠ـ ٧٢ـ].

الفصل الثاني

لطف الله تعالى

نذكر في هذا الفصل بعض الأمثلة من لطف الله تعالى، وكما ذكرنا: بقدر اتساع المعرفة بلطف الله تعالى تسع المعرفة بمعنى اسمه اللطيف بِهِلَّهُ.

فِمِنْ لُطْفِهِ بِهِلَّهُ - وهذه صورة قريبة ترى فيها لطف الله تعالى - خلقه الجنين في بطن الأم في ظلماتٍ ثلاث، وحفظه فيها، وتغذيته بواسطة السرّة إلى أن ينفصل فيستقلّ بالتناول بالفم، ثم إهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليمٍ ومشاهدة.

بل فَلَقَ<sup>(١)</sup> البيضة عن الفرج وقد أهلهم التقاط الحبّ في الحال، فيخرج هذا الكائن الصغير منها وقد فتح فاه ليقطط الحبّ؛ فهذا لطفه بِهِلَّهُ.

ثم تأتي خلق السنّ - للطفل حديث الولادة - عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الأغذية بالبن عن السنّ. فأخرّ السنّ لأنّه مُستغنٌ عنه في ذلك الوقت، فمن لطفه به ألا يخلق له السنّ في أول نزوله من بطن أمّه، حيث لا يستطيع حينئذٍ أن يرضع منها ولا أن يلتقم ثديها، ولا تستطيع هي أن تُرضعه. ثم إنّباتُ السنّ له بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضي للطحن وإلى أنيابٍ للكسر وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع... إلى غير ذلك.

بل لو تذكّر لطفه بِهِلَّهُ في تيسير لقمةٍ يتناولها العبدُ من غير كلفةٍ يتَجَشّمُها<sup>(٢)</sup> ما استطعتَ. انظر إلى لقمةٍ واحدة، كيف لطفٌ فيها بِهِلَّهُ بك: في لقمة واحدة يتناولها العبدُ

(١) أي: شَقَّ. انظر: «لسان العرب»، مادة: [ف ل ق].

(٢) «تجسّم» الأمر: تكلّفه على مشقة. انظر: «المعجم الوجيز»، مادة: [ج ش م].

من غير كلفة يتجمّسها، قد تعاون على إصلاحها خلق لا يُخَصُّونَ: من مُصلح للأرض، وزارعها، وساقيها، وحاصلدها، ومنفّيها، وطاحنها، وعاجنها، وخابزها... إلى غير ذلك، حتى تصل إليك. فهذه اللقمة التي تأكلها لو تفكّرت فيها لعلمت لطفاً عظيماً.

لذلك لما قال المولى عليه السلام: «فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ» [عبس: ٢٤]، قال بعض العلماء بوجوب ذلك! لنرى كيف نحن غافلون عن الامتثال لهذه الأوامر الشرعية. كثير من المفسرين قال: واجب على المرء أن ينظر إلى طعامه ليرى فيه قدرة الله تعالى، ولطف الله تعالى، وعلم الله تعالى، وحكمة الله تعالى، وقوته الله تعالى، وتيسير الله تعالى.. «فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبَّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبَّاً وَعَنْبَانَ وَقَضَبَا» [١٧]

[عبس: ٢٤]

وكل ذلك على المعنى الظاهر لك فقط، أما بقية الأمور التي لا تُفطن إليها: مثل أن سخر لك الذي بدّرها، والذي أصلحها، والذي نقاه، والذي رواها، والذي حصادها، والذي طحنه، والذي خبزها، والذي حملها إليك... كل ذلك ما كان ليُتيسّر إلا أن يُتيسّر له الخبير عليه السلام: «فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبَّاً...» إلى آخر الآيات.

ولو أردنا شرح ذلك فقط لما استطعنا أن نستوفّي هذه الأشياء في شرحها. انظرمنذ خلق الله تعالى هؤلاء الذين يشرحون هذه الأمور لم يستوفُوا منها شيئاً، وكل يوم يتطلعون إلى جديد ويخترعون جديداً لم يكونوا يعرفونه من قبل، وكل ذلك لطفه عليه الذي استقام به حال المرء.

ولو نَظَرَ المرءُ في نفسه لِعَلِمَ كَيْفَ اسْتَقَامَ حَالَهُ: النَّظرُ، والسمعُ، والكلامُ، والشمُّ، والشيءُ، والذوقُ، والتَّفْكِيرُ، والتَّخْزِينُ فِي الْعُقْلِ، والغَضْبُ وَالرَّضَا، والمحبةُ وَالكرابحةُ، والحقدُ وَعدْمُهُ، والأمانةُ وَالصدقُ وَالإخلاصُ... يَا إِلهِي !! يَنْظُرِ المرءُ إِلَى هَذِهِ الْمَعْانِي كَيْفَ لُطْفُ اللَّهِ تَبارُكُ وَتَعَالَى بِهِ فِيهَا. وَلَوْ عَكَسَهَا فَانْظُرِ إِلَى حَالِهِ سَاعِتَهَا ! يَعْنِي : لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ هَذَا الطَّعَامُ حَتَّى تَقُومَ أَنْتَ بِهِ مِنْ أَوْلَاهُ، هَلْ كُنْتَ سَتَسْتَطِعُ أَنْ تَأْكُلَ ؟ الْجَوابُ : لَا بِالْطَّبِيعِ، فَلَوْ تُرِكْتَ أَنْتَ وَنَفْسُكَ لِتُهَيَّئَ هَذِهِ الْلَّقْمَةُ التِّي يَقُومُ بِهَا صُلْبُكَ مَا كُنْتَ مُحْصَلًا هَذِهِ حَتَّى تَمُوتَ قَبْلَهَا ! مَنْ أَيْنَ مُحْصَلُهَا ؟! هَلْ سَتَقُومُ وَتَزْرَعُ وَتَبَدُّرُ وَتَحْصُدُ وَتَعْجِنُ وَتَخْبُزُ . وَكَذَا وَكَذَا شَهْوَرًا طَوِيلَةً ؟ تَكُونُ قَدْ مِتَّ مِنَ الْجُوعِ قَبْلَ أَنْ تَصْلِي إِلَيْكَ هَذِهِ الْلَّقْمَةُ، فَانْظُرِ إِلَى التَّرْتِيبِ السَّابِقِ لِلَّهِ تَعَالَى !

يقول الإمام الغزالى رحمه الله مرأة أخرى: «وعلى الجملة فهو من حيث دَبَرَ الأمور» هذا التدبير المُحْكَم «حَكْمٌ»<sup>(١)</sup> جل وعلا. «ومن حيث أَوْجَدَهَا» أي هذه الأمور التي بها تستقيم حياتك وعقلك وعلمك وذهنك، وتسير بها حياتك في جميع نواحيها، فهو من حيث أوجدها كذلك «جَوَادٌ» رحمه الله. «ومن حيث رَتَبَهَا: مُصَوَّرٌ» فهو «المصوّر» جل وعلا. «ومن حيث وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ: عَدْلٌ» جل وعلا. «ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق: لطيفٌ».

وَهَذِهِ مَعَانٍ عَالِيَّةٌ، وَلَكِنْ نُشِيرُ إِلَيْهَا لِيَعْرُفَ الْمَرءُ شَيْئًا عَنْ رَبِّهِ جَلْ وَعَلَا الَّذِي يَعْبُدُهُ؛ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ مَدْعَاءً إِلَى تَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَدُعَائِهِ رحمه الله.

(١) وقد شرح هذا الاسم المشرف «الحاكم» في عدة دروس متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيرها من مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

حتى لا تحتاج إلى غيره ولا تدعوا غيره ولا تخاف من غيره ولا ترجو سواه بِهِمْ، كما هي معانى التوحيد التي أتى بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولن يَعْرُفَ حَقِيقَةً هَذِهِ الْأَسَامِيَّ مَنْ لَمْ يَعْرُفْ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ؛ فَلَنْ يَعْرُفْ حَقِيقَةً «الْجَوَاد» مَنْ لَمْ يَعْرُفْ مَعْنَى الْجُودِ وَفِعْلَ الْجُودِ فِي أَفْعَالِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا. ولن يَعْرُفْ حَقِيقَةً «الْمَصُورُ» حَتَّى يَعْرُفْ فِعْلَهُ وَتَصْوِيرَهُ فِي خَلْقِهِ؛ فِي الْإِنْسِنِ وَالْجِنِّ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيْوانِ، وَهَذِهِ الصُّورَ الَّتِي تَعَالَى مُصَوِّرُهَا بِهِ. وَكَذَلِكَ لَنْ يَعْرُفْ حَقِيقَةً «الْعَدْلُ» حَتَّى يَعْرُفْ كِيفَ وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَنْصِبِهِ وَفِي مَكَانِهِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِسْتِقْامَةِ... إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْأَسَامِيِّ وَالصَّفَاتِ الَّتِي أَشْرَنَا إِلَيْهَا.

وَكَذَلِكَ.. مِنْ عَظِيمِ لُطْفِهِ بِهِمْ بِعِبَادَتِهِ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ فَوْقَ الْكَفَايَةِ وَكَلَّفَهُمْ دُونَ الطَّاقَةِ. فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى مَا أَعْطَاكَ وَإِلَى مَا كَلَّفَكَ، فَإِنَّ مَا كَلَّفَكَ بِهِ أَقْلُّ مَا أَعْطَاكَ: كَلَّفَكَ صَلَواتٍ خَمْسًا مُنْجَمَّةً - يَعْنِي مُقَسَّطَةً - عَلَى الْيَوْمِ، لَمْ يَطْلُبْهَا مِنْكَ مَرَّةً وَاحِدَةً.. فِي اسْتِطَاعَتِكِ الْإِتِيَانُ بِهَا. كَلَّفَكَ مِنْ مَالِكَ أَنْ تَأْتِي رُبْعَ الْعُشْرَ مِنْهُ، فَأَعْطَاكَ فَوْقَ الْكَفَايَةِ وَكَلَّفَكَ دُونَ الطَّاقَةِ. وَأَعْطَاكَ جُهْدًا وَصَحَّةً وَبَصَرًا وَسَمْعًا وَلَمْ يَطْلُبْ مِنْكَ إِلَّا أَقْلُّ الْقَلِيلِ شَكْرًا لِهِ وَتَعْبُدُهُ وَإِقْبَالًا عَلَيْهِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَالَّذِي رَتَّبَ لَكَ ذَلِكَ وَأَمْرَكَ بِهِ وَأَعْانَكَ عَلَيْهِ أَثَابَكَ عَلَى تَنْفِيزِ أَمْرِهِ - إِنْ نَفَذَتْ هَذِهِ الْأَوْامِرُ.

فَمِنْهُ بِهِمْ الْكَفَايَةُ، وَمِنْهُ الْعَطَاءُ، وَمِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَبُولُ وَالْجَزَاءُ. فَلَهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ، وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِي مَنْهُ بِهِمْ. وَرَتَّبَ بِهِمْ كُلَّ ذَلِكَ عَلَى الْلَطْفِ، فَلَطْفٌ بِعِبَادَهِ أَنْ أَعْطَاهُمْ فَوْقَ الْكَفَايَةِ وَكَلَّفَهُمْ دُونَ الطَّاقَةِ.

وكذلك من لطفه: أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعيٍ خفيفٍ في مدةٍ قصيرة، وهي العُمر، فإنه لا نسبة لها بالإضافة إلى الأبد. فهو قد يسر لك سعادة الأبد بعمل سنتين أو سبعين سنة مثلاً، أعطاك على هذه المدة القصيرة وهذا السعي الخفيف الذي تسعاه في حياتك، أعطاك به سعادة الأبد، والتي لا نسبة لهذه المدة القصيرة إلى سعادة الأبد عليها؛ وذلك من لطفه بك بِنَيْتَكَ.

وهذه المعاني نحن نشير إليها مع أنها معلومة أمام المرء.. ولكن من الذي يتذكر وينظر ويعتبر؟ مع أن الله تعالى أمر عباده أن ينظروا في ملائكة السموات والأرض وأن يتبعصروا وأن يسيراوا في الأرض ليعرفوا عن الله تبارك وتعالى، وأمرهم أن ينظروا إلى طعامهم وأن ينظروا في الآفاق وفي أنفسهم؛ ليتبين لهم قوته وقدرته.. ليتبين لهم الحق كما ذكر المولى بِنَيْتَكَ: «سَرِّيْهُمْ إِيْتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» [فصلت: ٥٣، ٥٤]. ومع ذلك فمن الذي ينظر؟! والآيات التي دلت على الوحدانية دلت على اللطف والعلم والقدرة والإرادة والعظمة والعلو والواسع والحكمة والعدل والإيجاد والخلق والتضليل، دلت على كل هذه المعاني، هي أكثر الآيات في القرآن الكريم. أثل مثلاً قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاوَاتِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّنَاهَا وَمَا هَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدَنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسَى» [ف: ٧٢]، لا تكاد تخلو آية من هذه المعاني.

وعليه؛ فإن المرء المؤمن مطالب بأن ينظر في هذه الآيات - وهو يقرأها - وعلى أقل تقدير أنْ يعرف أنها آيات توحيد رب بِنَيْتَكَ وإظهار القدرة وتبين العظمة... إلى آخر ما ذكرنا. انظر في آية آية في آية سورة من سور القرآن الكريم تجد هذه المعاني. غالباً السور

في القرآن الكريم ثُبِّين مطالعَة الكون والنظر فيه، وأن ينظر المرء فيما كان ويكون، وفيما حوله، وفيما فوقه وتحته، وأن يرمي ببصره إلى معرفة خَلْق الله تعالى. والمرء لم يفكر يوماً أن يكون ذلك سبيلاً إلى معرفة الله تعالى وتوحيده والإقبال عليه؛ من النظر في السماء والأرض والنَّفْس والكون والزرع والمطر والبحار.. فكُلُّ ذلك ذَكْرُه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

ونكمل شيئاً من مظاهر اللطف:

فِمِنْ لُطْفِهِ إِخْرَاجُ الْبَنِ الصَّافِي مِنْ بَيْنِ الْفَرْثِ وَالدَّمِ، وَإِخْرَاجُ الْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ مِنَ الْأَحْجَارِ الصُّلْبَةِ، وَإِخْرَاجُ الْعَسَلِ مِنَ النَّحْلِ، وَإِبْرِيسَمْ - أَيِ الْحَرِيرِ - مِنَ الدُّودِ، وَإِخْرَاجُ الدُّرِّ مِنَ الصَّدَفِ.

وأعجُبُ من ذلك كُلُّهُ: خَلْقُ الإنسانَ مِنَ النُّطْفَةِ الْقَذِيرَةِ وَجَعْلُهُ مُسْتَوِدَّاً لِمَعْرِفَتِهِ وَحَامِلاً لِأَمَانَتِهِ وَمُشَاهِداً لِلْكُوْتُ سَمَا وَاهِهِ<sup>(٢)</sup>; وهذا أَيْضًا رَفْقٌ لا يُمْكِنُ إِحْصاؤُهِ<sup>(٣)</sup>.

(١) قال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِيَّلِ الْأَيْلِ وَالْأَنَهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاوَاتِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَائِبٍ وَتَصْرِيفَ الْرَّيْحَ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتُلْقُهُمْ يَعْقِلُونَ» [البقرة: ١٦٤]. والآيات في ذلك كثيرة جداً.

(٢) إلى هنا انتهى كلام الإمام الغزالي رَحْمَةُ اللَّهِ وَالْعَلِيقُ عَلَيْهِ.



### الفصل الثالث

الآيات الواردة في معانى  
اسم الله تعالى «اللطيف»

ونشير كما هي عادتنا في شرح الأسماء الحسنى إلى بعض الآيات التي ذكرت اسمَ الله تعالى «اللطيف» في القرآن الكريم، لِتَمْيِيزَ منها ما ذكره الله ﷺ عن نفسه.

### أولاً: قوله تعالى:

﴿يَبْيَنُ إِلَهًا إِنَّ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرَذَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيبٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وقد بدأنا بهذه الآية الكريمة دون غيرها لأنها - في غالب الظن - من أوضح الآيات التي تشير إلى لطف الله تعالى. وإليك تفسير هذه الآية الكريمة:

قوله تعالى: **﴿يَبْيَنُ﴾** نداء. ونلاحظ أن في بعض آيات سورة لقمان تكرير للنداء، حيث قال: **﴿يَبْيَنُ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ﴾** [لقمان: ١٣]، **﴿يَبْيَنُ أَقِمِ الصَّلَاة﴾** [لقمان: ١٧]، **﴿يَبْيَنُ...﴾** إلى آخر الآيات. وتكرير النداء هنا لتجديد نشاط السامع كي يعي الكلام، مع الحرص على تعليمه وإظهار الشفقة به بالبُنُوة.

و**«المِثْقَال»**: ما يُقدَّر به **الثَّقْل**، يعني: ما يُوزَن به الشيءُ. و**«الحَبَّة»**: واحدة الحبّ، كيدُر النبات، أو سُنبلة القمح، أو بذرة القطن أو غيره. و**«الحَرَذَلٌ»** كما هو معلوم: نبات له ساق وله أوراق، والأوراق هذه لها أزهار، والأزهار فيها حبوب صغيرة جدًا، الزهرة الواحدة تسمى **«خَرَدْلَة»** عند علماء النبات، ولها طعم حريف كان يستخدم في بعض الأدوية في الزمان الماضي.

يقول المولى عليه السلام في هذه الحبة من الخردلة التي في نهاية الدقة: لو كانت في السماءات أو في الأرض أو في صخرة؛ يأت بها الله، وهذا المعنى المتباذر. ولكن انظر في الآيات

لتُعْرِف لطفَ الله تعالى وعظمته، يقول: «يَبْنَى إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَزَدٍ»<sup>(١)</sup>، ثم عَطَفَ ~~يَبْنَى~~ على الجملة السابقة قوله: «فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ»، فعَطَفَ السَّمَاوَاتِ على الصخرة؛ لأن الصخرة من أجزاء الأرض. ولو قلت: «فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ..» لا يستقيم الأسلوب، وإنما كان الأسلوب الكريم على الاستقامة وعلى البلاغة العالية: «فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ»، ثم عاد إلى الأرض: «أَوْ فِي الْأَرْضِ».

وقوله تعالى: «فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ»، يعني: في هذه القطعة من الأرض الصلبة الصَّمَاء الشديدة الصلابة تكون هذه الخردة في داخلها. «أَوْ فِي السَّمَوَاتِ»: أو تكون هذه الخردة الصغيرة في أي مكان في السماوات. «أَوْ فِي الْأَرْضِ»: أو تكون في أي مكان في الأرض... «يَأْتِ بِهَا اللَّهُ».

وكانَ معنى الكلام: أنه لو كانت هذه الحبة في مكان عزيزٍ صُلْبٍ كالصخرة مثلاً، أو كانت في مكان أعزَّ مثلاً فَسِيَّحاً لا يُدْرِى بها فيه كالسماءات، أو كانت في الأرض في أي مكان.. يأتِ بها اللهُ، في الوقت الذي لا يستطيع العالم كُلُّه أن يأتي بها بدون مفسدة.

فكُلُّ ذلك في جنب علم الله تعالى سواءً؛ سواءً أكانت في أي مكان من العالم العلوي أم السفلي، كما قال ~~يَبْنَى~~ عن نفسه: «لَا يَعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» [سيا: ٣].

(١) و«مِثْقَالٌ» أو «مِثْقَالُ» فُرِأَ بها في القراءات المتواترة، والأولى قراءة حفص عن عاصم الشائعة في مصر وغيرها من البلاد.

وكونه يَكُونُ يأْتِي بِهَا فَذلِك دَلِيلُ التَّمْكُن، وَدَلِيلُ الْعِلْمِ التَّام؛ لِأَنَّ الإِتِيَانَ بِأَدْقَ الأَجْسَامِ مِنْ أَفْصَى الْأَمْكَنَةِ وَأَعْقَمَهَا وَأَصْلَبَهَا لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ بِكُونِهَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَعَنْ عِلْمٍ بِأَسْلُوبِ اسْتِخْرَاجِهَا سَلِيمَةً مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ.

فَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهَا إِلَّا وَهُوَ عَالِمٌ بِمَكَانِهَا، أَلِيسَ كَذَلِكَ؟ وَالْمَعْنَى الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهَا إِلَّا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الإِتِيَانِ بِهَا.

وَدَلِيلُ الْعِلْمِ وَالْقَدْرَةِ التَّامَّةِ: أَنَّ يَسْتَخْرُجَهَا - هَذِهِ الْحَبَّةُ مِنَ الْخَرْدَلَةِ - مِنَ الصَّخْرَةِ، بِحِيثُ لَا يَقْعُدُ فِي مُلْكِهِ يَكُونُ أَيُّ فَسَادٍ. فَلَوْ حَاوَلَتِ الدِّنِيَا كُلُّهَا أَنْ تَأْتِي بِهِذِهِ الْحَبَّةِ أَوْ هَذِهِ الْذَّرَّةِ الَّتِي فِي صَخْرَةٍ أَوْ السَّمَاوَاتِ أَوْ الْأَرْضِ، فَهَلْ تَسْتَطِعُ أَنْ تَأْتِي بِهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ تَأْتِي بِهَا بِغَيْرِ فَسَادٍ يُمْكِنُ أَنْ يَقْعُدُ فِي مُحَاوِلَةِ اسْتِخْرَاجِهَا؟! وَبِغَيْرِ عِلْمٍ وَقَدْرَةٍ تَامَّتِينَ عَلَى ذَلِكَ؟! وَتَأْمَلَ تَكْلِيفَةً ذَلِكَ لَوْ حَاوَلُوا أَنْ يَأْتُوا بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ تَكْلِفَتِهِ لَوْ حَاوَلُوا الإِتِيَانَ بِهَا مِنَ الْأَرْضِ؛ تُرَاهُمْ كَمْ يَيْدُلُونَ لِيُحَصِّلُوْا هَذِهِ الْخَرْدَلَةَ؟!..

فَ«اللطيفُ» - كَمَا ذَكَرْنَا - مَنْ يَعْرِفُ دَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، وَيَسْلُكُ فِي إِيصالِهَا - إِلَى مَنْ تَصْلُحُ لَهُ - مَسْلَكَ الرَّفِيقِ.

وَوَصْفُ الْلَّطِيفِ هَذَا وَصْفٌ مُؤْذِنٌ بِالْعِلْمِ وَالْقَدْرَةِ الْكَامِلَيْنِ، أَيْ: يَعْلَمُ وَيَقْدِرُ وَتَنْفُذُ قَدْرُهُ يَكُونُ. لَذَلِكَ فَالْتَّعْقِيْبُ بِوَصْفِهِ «لَطِيفٌ» بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَأْتِيْهَا اللَّهُ» كَمَا فِي الْآيَة<sup>(۱)</sup> إِشَارَةٌ إِلَى التَّمْكُنِ مِنْهَا وَامْتِلاَكِهَا بِكَيْفِيَّةٍ دَقِيقَةٍ تُنَاسِبُ فَلْقَ الصَّخْرَةِ وَاسْتِخْرَاجِ الْخَرْدَلَةِ، مَعَ سَلَامَتِهَا وَسَلَامَةِ مَا أَتَّصَلُ بِهَا، مَعَ عَدَمِ اخْتِلَالِ نَظَامِ كُونِهِ يَكُونُ وَصُنْعَهِ.

(۱) أَيْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيْهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَمِيرٌ» [الْقَهْوَانِ: ۱۶].

يعنى: يستخرج **هذا** الخردة سليمةً، وتكون الصخرة على هيئتها لا تفسد حال استخراجها منها؛ لذلك قال جل وعلا: «...يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيبٌ».

وهذا معنى جميل يُبين لك لطف الله تعالى وقدرته التامة على أصغر الأشياء، بحيث يستخرجها ويوصلها بذلك الرفق، ولا يبني على ذلك الإتيان فساد لها ولا فساد حال استخراجها مما حولها.

ويلاحظ المرء أن اسم الله تعالى «اللطيف» قد ورد في سبع آياتٍ في القرآن الكريم؛ خمس آيات منها ورد فيها مقولوناً باسمه **الخير**<sup>(١)</sup>، وأياتان فقط ورد فيها «اللطيف» مفرداً بدون **«الخير»**<sup>(٢)</sup>.

(١) وهي كالتالي:

١ - قوله تعالى: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ وَمُؤْدِرُكُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ» [الأنعام: ١٠٣].

٢ - قوله تعالى: «الْقَرَّأْنَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا مَنَّا نَضَبَ الْأَرْضُ مَخْرَجَهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيبٌ» .  
[الحج: ٦٣].

٣ - آية «لقمان» التي نشرحها هنا: «يَبْشِّرُهُ أَنَّهَا إِنْ تَأْكُلْ مِقْدَارَ حَبْقَيْنَ مِنْ حَرَقَلِ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيبٌ» [لقمان: ١٦].

٤ - قوله تعالى: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ» [الملك: ٢٤].

٥ - قوله تعالى: «وَآذْكُرْنَ مَا يُتَلَى فِي بُيُوتِكُنْ مِنْ إِيمَانِ اللَّهِ وَأَنْعِكْمَةً إِنَّ اللَّهَ كَارَ لَطِيفًا حَبِيبًا» .  
[الأحزاب: ٣٤].

(٢) وهما:

١ - قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّ لَطِيفٌ لَمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» [يوسف: ١٠٠]، وسيأتي شرحها.

٢ - قوله تعالى: «اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ» [الشورى: ١٩].

ومعنى الخبرة بعد اللطف: سعة العلم، فهي من [خبر، يَحْبُرُ، خُبْرًا]، يعني: أن الله تبارك وتعالى بعد لطفه في معرفة الأشياء ودقائقها ورقفه بها، فإنه خبيرٌ بِهَا.. مطلعٌ عليها.. عارفٌ بكل أحواها. قوله تعالى: «اللطيفُ الخَيْرُ» [الملك: ١٤]، يعني: لطيفٌ وخيرٌ بمواقع الإحسان، وبمواقع من يستحق هذا الإحسان، وبموقع إصال هذا الإحسان لِمُسْتَحْقِيقِهِ.

### (فائدة)

ينبغي على المرء المسلم أن يتعلم هذه المعاني لكي يذكر الله تعالى ويُوحّده ويُدعوه بها، وألا يفتر اللسانُ والقلبُ عن ذكره بِهَا، وكذلك أن تتجدد النفسُ إلى الله جل وعلا، وأن تخرج ما هي فيه من الرُّكون إلى الخلق والاستعانت بهم والتوكيل عليهم، وإلى المسارعة إلى من ينقذه ويُغشه ويتوَسّط له ويعطيه ويمده. وفي الوقت نفسه يتعلم مراقبة الله تعالى، وأنه ناظرٌ إليه.. مطلعٌ عليه.. مُمكِّنٌ منه، فإذا كان عالماً بالخردلة مُتمكّناً منها قادرًا عليها.. يعلم على أي الأحوال وفي أي الأماكن هي، فما بالك بِكَ أيها العبد؟!..

ولذلك كان هذا السؤال: ما هي علاقة هذه الآية الكريمة بقصة لقمان الشَّفِيلَةُ وابنه؟

والجواب: أن الله تبارك وتعالى ذكر قصة لقمان الشَّفِيلَةُ، وذكر وصاياه لولده: «يَبْيَنِي لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الْشَّرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣]، ثم قال تعالى بعد ذلك: «وَوَصَّيْنَا إِنَّ الْإِنْسَنَ بِوَالدِيهِ» [لقمان: ١٤]، ثم قال بعد ذلك: «يَبْيَنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَزَدِ لِفَتَّكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيْهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطَيْفٌ خَيْرٌ» [لقمان: ١٦]. وذلك كله قبل قوله تعالى: «يَبْيَنِي أَقِيرُ الْأَصْلَوَةَ..» [لقمان: ١٧].

وكأنَّ الله تبارك وتعالى قدَّم هذه الآية الكريمة: «يَبْيَنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ...»، على قوله: «يَبْيَنِي أَقْرِئَ الْصَّلَوةَ وَأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِيرَ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمْوَارِ وَلَا تُصْبِرَ حَدَّكَ لِلنَّاسِ...» [لقمان: ١٧، ١٨]، إلى آخر الوصايا؛ وذلك لِتُرِيَّ في ذهن الولد وقلبه الخشية من الله تعالى، وأنه ليس ثُمَّ شيءٌ في هذا العالم إلا والله تعالى مُطلِعٌ عليه: «لَا يَعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» [سيا: ٣]، مُتَمَكِّنٌ منه، قادرٌ عليه، تَفَذُّ فيه قدرُه ومشيئته. فعندما يتربى الولد على الخشية والخوف ومراقبة الله تبارك وتعالى، فإنه حينئذٍ يُسَارِعُ إلى إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وغير ذلك من الوصايا التي وَصَّى بها لقمان الطَّيَّبُ ولده كما ذكر القرآن الكريم.

وهذا سلوكٌ نتعلمه، تُرِيَّ عليه الأولاد كما ورد مثل ذلك عن السلف رحمهم الله تعالى.

ثالثاً: قوله تعالى:

«إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» [يوسف: ١٠٠].

وهذه الآية الكريمة جاءت بعد أن وَصَّلَ إلى يوسف الطَّيَّبُ أبوه وإخوته وسجدوا له وتحقَّقت رؤياه الطَّيَّبُ؛ قال الله تعالى: «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِمَّا مِنْ أَمْبَيْنِ» ٤ وَرَفَعَ أَبُوهُهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَخَرُوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَتَأْبَتْ هَذِهِ تَأْوِيلُ رُؤْيَايَيِّ مِنْ قَبْلِهِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذَا خَرَجَنِي مِنَ الْيَسْجُونِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَغَّبَ الْشَّيْطَانُ بَيْنَ إِحْوَقَتْ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» [يوسف: ٩٩، ١٠٠].

ومَنْ يَتَأْمِلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ يَفْهَمُ شَيْئًا يَفِيدُهُ جَدًّا مِنْ مَعْنَى اسْمِ اللَّهِ «اللطيف»، فَكُلُّ سُورَةِ يُوسُفَ مِنْ أُولُها إِلَى آخِرِهَا.. كُلُّهَا لُطْفٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى<sup>(١)</sup>.

وَانْظُرْ إِلَى الْأَطْفَافِ اللَّهُ تَعَالَى الْمُتَابِعَةِ عَلَى يُوسُفَ التَّكْلِيلِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ كَمَا عَلِمْنَا فِي نَهَايَةِ قَصْتَهُ. وَلَسْنَا بِصَدْدِ التَّفْسِيرِ لِلسُّورَةِ الْكَرِيمَةِ، وَإِنَّمَا نَخْتَصُرُ فَقَطْ مَوَاضِعَ الْأَطْفَافِ الْأَخْتَصَارًا يُظْهِرُ الْمَطْلُوبَ فِي الْاسْمِ الْمُشَرَّفِ:

**اللطف الأول:** أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَطَفُ يُوسُفَ التَّكْلِيلِ، فَجَعَلَ إِخْوَتَهُ هُؤُلَاءِ يَكِيدُونَ لَهُ كِيدًا:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخْوَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِمَا مِنَا وَخَنُّ عَصْبَيْهِ إِنَّ أَبَانَا لَفِي صَلَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَفَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَخُوهُ أَرْضًا تَخْلُّ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يُوسُف: ٨، ٩].

تُرِى لَوْمَ يَكِيدُوا لَهُ كِيدًا، يَعْنِي لَوْمَ يَأْخُذُوا يُوسُفَ مِنْ أَبِيهِ وَيَذْهَبُوا إِلَى «يَرْتَعَ وَيَلْعَبُ» [يُوسُف: ١٢] كَمَا يَقُولُونَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُلْقُوْهُ فِي غِيَابَاتِ الْجُبُّ<sup>(٢)</sup> وَيَرْجِعُوْهُ إِلَى أَبِيهِمْ.. تُرِى لَوْمَ يَحْدُثُ ذَلِكَ مِنْهُمْ هُلْ كَانَ سِيَحْدُثُ مَا حَدَثَ؟!..

(١) يعني من بداية قصة يُوسُفَ التَّكْلِيلِ عند قوله تعالى: «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوَافِرًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتَهُمْ لِي سَجِدِينَ ﴾ قَالَ يَأْبَى لَأَنْقَصُنَّ رَءْيَاكَ عَلَى إِخْرَاتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كِيدًا﴾ [يُوسُف: ٤، ٥]، حتَّى نَهَايَةِ هَذِهِ القَصَّةِ عَنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَرَفَعَ أَبُوئِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُوا لَهُ سُجْدَةً وَقَالَ يَأْبَى هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَيْ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذَا أَخْرَجَنِي مِنَ الْسِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَغَّبَ الشَّيْطَانُ بِيَنِي وَبَيَّنَ لِحَوْقَنَ إِنَّنِي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» [يُوسُف: ١٠٠].

(٢) «الْجُبُّ»: الْبِئْرُ الَّتِي لَمْ تُبْنَ بِالْحِجَارَةِ. وَ«غِيَابَاتِ الْجُبُّ» أي: قَعْرَهُ، وَالْمَفْرَدُ: غِيَابَةُ. انْظُرْ «مُختار الصَّاحِحَ» مَادَة: [ج ب ب]، وَمَادَة: [غ ي ب].

فأول هذا اللطف إذاً: أنهم قد أخذوا يوسف من أبيهم يعقوب عليه السلام، وأبواهم لا يريد أن يأخذوا يوسف معهم أبداً؛ لأنه لا يأنهم عليه، ولأنه يعلم أن الشيطان لن يتركهم حال أخذِهم ليوسف عليه السلام. ويأتي لطف الله تعالى على خلاف ما يريد يعقوب

عليه السلام

فجعل عليه السلام من الكيد لطفاً، وهو ما يعلم المرأة أن قضاء الله كله حَسْنٌ، وأنه مطالبٌ  
بعبودية الله تعالى في السراء والضراء، وأن ما يظنه شرّاً إذا هو الخير من حيث لا يعلم.

فلطف الله تبارك وتعالى الأول بيوسف: أن يعقوب أطاع أولاده فأخذوا يوسف منه. ولو لم يكن أول لطف كذلك لما وصلنا إلى هذه النهاية التي جاءت في آخر السورة.  
واللطف الثاني: أنه عليه السلام صرفهم عن أن يقتلوه عليه السلام أو أن يطرحوه أرضاً، لكي يجدوه هؤلاء السيارة - القافلة - ويأخذوه ويبيعوه لعزيز مصر.

فانظر إلى لطف الله تعالى في هذا السياق!

هم - إخوة يوسف عليه السلام - يقولون: «أَقْتُلُوْا يُوسُفَ أَوْ أَطْرُحُوْهُ أَرْضًا». و«أَطْرُحُوْهُ أَرْضًا» يعني: انفعوه إلى أرض بعيدة لا يمكن أن يصل فيه يوسف إلى أبيه عليه السلام بعد ذلك<sup>(١)</sup>.

(١) «وَتُكَبِّرُ (أَرْضًا) - في قوله تعالى: «أَوْ أَطْرُحُوْهُ أَرْضًا» - وإخلاؤها من الوصف: للإبهام، أي: أرضاً منكرةً مجهرةً بعيدةً من العمران. ولذلك نصيحت نصب الظروف المهمة». انظر - بتصرف يسير: تفسير «أبو السعود»، [ج ٤ / ص ١٠٩]. طبعة دار الفكر - الطبعة الأولى - سنة

ثم يقول قائلٌ منهم: «لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُنُبِ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ الْسَّيَّارَةِ»

[يوسف: ١٠].

وكان يمكن أن يقتلوه أو يطرحوه أرضاً كما اتفقوا، لكنَّ اللهَ تعالى قد قَدَرَ ليوسف الغَلِيلَةَ أن ينشأ في بيت العزيز؛ ليتحول الحال ويرجع أبوه ويرجع إخوته ليسجدوا له، كما سنرى في بقية القصة.

ترى لو أُلْقِي في أرضٍ بعيدٍ هل كانت ستتحقق هذه الأحداث؟! فكان القاوه إذا في الجب لطفاً.

والثالث: أنه كان يمكن ألا يذهب به هؤلاء السيارة - الذين وجدوه - إلى مصر. لكن هذا لطف الله تعالى به: أن ساقه شيشاً إلى مصر؛ ليتحول الملكُ له ويحييئه إخوته كما ذكرت الآيات.

والرابع: أنه كان يمكن أن يشتريه أحدُ غير العزيز وامرأته. فما الذي يجعل عزيز مصر نفسه يشتري طفلاً عبداً قد أُلْقِي به في هذا الجب؟! كان يمكن أن يشتري من أشراف الناس عبيدهم الذين يستحقون أكثر من ذلك، ولكن هذا لطف الله تبارك وتعالى.

اللطف الخامس: أخذَهُ بعد ذلك عزيز مصر، ونشأ هناك، وراودته عن نفسه امرأة العزيز.. لماذا؟! .. ليدخل السجن!

ترى لو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه، لبقي عبداً في بيتها إلى النهاية. وما تحقق أبداً هذا الذي قد تحقق له إلا لَمَّا أُخْذَ إِلَى السُّجُنِ.

ال السادس: أخذَ إلى السجن.. فجاء لطف الله تبارك وتعالى التالي:

دخل معه السجن فتىان، وكان لكلٍّ منهما رؤيا رأها؛ قال الله تعالى: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَيْتُ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الْطَّيْرُ مِنْهُ نَعْتَنًا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٣٦]. ففسر لكلٍّ منهما رؤياه: «يَصْنِعُ الْسِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيَصْلَبُ فَتَأْكُلُ الْطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانٌ» [يوسف: ٤١]، فعلم حينئذٍ معرفة يوسف عليه السلام بالتغيير<sup>(١)</sup>.

ولما رأى الملك رؤياه أخبره الذي نجا من الفتىان بمعرفة يوسف بالتعبير، ثم أورده له يوسف عليه السلام، فقال الملك: «أَتَشُوَّنِيهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيْ رَبِّكَ فَسَعَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيهِنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» [٥١] قَالَ مَا حَطَبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قَلَ حَسَنَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أُمَّرَاتُ الْغَرِيزِ الْأَقْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّدِيقِينَ» [يوسف: ٥٠]، فظهرت براءة يوسف عليه السلام، وذلك من لطف الله تعالى به.

السابع: ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام قال الملك: «أَتَشُوَّنِيهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» [٥٤]، فقال يوسف عليه السلام: «أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ» [يوسف: ٥٥]، فتحول الملك ليوسف عليه السلام حينئذٍ.

وَجَرَتِ الأَحْدَاثُ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَخْوَهُمْ، حَتَّى عَرَّفُوهُمْ فِي النَّهَايَا: «... قَالُوا أَءُنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَقِنُ وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» [٩١] قَالُوا تَالَّهُ لَقَدْ أَثْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنَّ كُلَّا لَخَطَّابِينَ» [يوسف: ٩٠].

(١) «عَبَرَ» الرُّؤْيَا: فَسَرَّهَا، وَعَبَرَهَا أَيْضًا، تَعْبِيرًا. انظر: «ختار الصحاح»، مادة: [ع ب ر].

ولو لم يكن كذلك لـَمَا كان يمكن أن يأقي بأهله: أبيه وخالته<sup>(١)</sup> - التي هي كأمه كما في الحديث<sup>(٢)</sup> - وإخواته. ولو لم يكن يوسف عليه السلام في حاشية الملك، لـَمَا كان عزيزاً لمصر أبداً، ولـَمَا جعله على خزائن الأرض. ولو لم يكن ذلك فمن أين كان سيرى إخواته؟! ومن أين سيُرُدُّ له بضاعتهم؟ ومن أين سيقول لهم: «أَئْتُونَ بِأَخِيكُمْ مَنْ أَبِيَّكُمْ» [يوسف: ٥٩]؟ .. إلى غير ذلك مما ذكر الله تبارك وتعالي في قصته عليه السلام.

فكل هذه المعاني من أو لها إلى آخرها فيها لطفُ الله تبارك وتعالي، فالله جل وعلا هو الذي قد أبدعها، يعني اخترعها على غير مثال سابق. فهذه القصة مرتبة بترتيبه هو عليه السلام، لا دخل لأحدٍ فيها البة، وكل شيء في العالم ترتيبه. كلما عرض ليوسف عليه السلام عارضاً، إذا بعناية الله تعالى تأخذه إلى الحال الأخرى التي يريد لها الله تبارك وتعالي، وهكذا.. حتى وصل إلى قوله لـَمَا خَرُوا لِهِ سُجَّداً: «يَأَبْتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَيْ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً» [يوسف: ١٠٠]. أي: بهذا اللطف الذي رتب به ربنا عزوجل هذه الأحداث لتصل إلى هذا الحق الذي وصلت إليه القصة في نهايتها.

ثم قال عليه السلام: «وَقَدْ أَحْسَنَ بِإِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ»، و«السِّجْن» هنا بمعنى: الجب، بدليل أنهم لم يروه في السجن. فيوسف عليه السلام لا يريد أن يخرج إخواته بتذكرةهم بالجب، ولكنه قال: «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِ وَبَيْنَ إِخْوَتِي»، وهذا أدب آخر من يوسف عليه السلام مع إخواته: فلم يكن بينه وبين إخواته نزغ الشيطان؛ حيث كان صغيراً وهم كبار، وهم

(١) «وقوله: «أَوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ» [يوسف: ٩٩]، قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمُه قد ماتت قدِيماً». انظر: «تفسير ابن كثير»، آية: [٩٩] من سورة يوسف عليه السلام.

(٢) قال عليه السلام: «الخَالَةُ بِمَنْزَلَةِ الْأُمِّ». رواه البخاري في صحيحه [٢٦٩٩].

الذين سَعُوا به إلى أن يقتلوه أو أن يطْرِحوه أرضاً أو أن يُلْقُوه في الجُبْ. ومع ذلك تأدّب معهم حتى لا يُخْرِجَهم، قال: «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِ وَبَيْنَ إِخْرَقَ»، فلم يَنْزِغْ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُما، وإنما كان نَزَغَ الشَّيْطَانُ فِيهِمْ، وَكَانَتِ الْمُخَالَفَةُ مِنْهُمْ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَا وَقَعَ بِأَيْمَانِهِمْ حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ.. كَانَ مِنْهُمْ كُلُّ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ مِنْ يُوسُفَ أَبْدَاً، وَلَكُنْ هَذَا هُوَ الْأَدْبُ الَّذِي رَأَيْنَا مِنْهُ اللَّهَ عَزَّ ذِلْكَ: «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِ وَبَيْنَ إِخْرَقَ»..

ولذلك في النهاية قال: «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ»، يعني: إن ربِّي لطيفٌ بما يشاءُ أن يلطِّفَ به، بِلْطُفْهِ قَدْ قَدَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَرَفَقَ فِي إِيصالِهِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ؛ لِيَتَمَّ ذَلِكَ الْمَرَادُ لِللهِ تَعَالَى: «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»؛ (الْعَلِيمُ) بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا كَانَ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَ(الْحَكِيمُ) فِي تَقْدِيرِ هَذِهِ الْأَمْوَارِ وَتَرْتِيبِهَا عَلَى مَا حَدَثَ؛ لَتَرَى قَدْرَةَ اللهِ تَعَالَى وَتَرَى تَرْبِيَةَ اللهِ تَعَالَى.. وَتَرَى تَرْتِيبَ اللهِ تَعَالَى.. وَتَرَى لَطْفَ اللهِ تَعَالَى، الَّذِي يُرِتَّبُ لَهُمْ وَيُوَصِّلُ لَهُمْ بِرْفَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

ولو رأى المرءُ ظاهراً هَذِهِ الْأَمْوَارَ كُلُّهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ لَكَانَ لَهُ تَخْيِيلٌ آخَرُ؛ يَقُولُ: «لَا يَمْكُنُ هَذَا.. وَهَذَا مَا كَانَ لِيَحْدُثُ، وَلِمَاذَا حَدَثَ هَذَا؟ وَلِمَاذَا كَانَ هَذَا التَّرْتِيبُ؟...» إِلَى آخرِ ذَلِكَ. وَإِذَا بَتَرْتِيبِ اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْلَّطْفِ مِنْ أُولَى الْقَصَصِ إِلَى نَهايَتِهَا.

وَهَذَا يُعَلَّمُ الْمَرءُ أَنَّ الْيُسْرَ كَامِنٌ فِي الْعُسْرِ، وَيَعْلَمُهُ أَنَّ يَرْضَى بِقَضَاءَ اللهِ كُلَّهُ، وَأَنَّ يُفْوَضُ وَيُسَلِّمُ لِللهِ تَعَالَى فِي اخْتِيَارِهِ، وَأَنَّ يَتَّهَمُ عَقْلَهُ الْقَاصِرُ وَفَهْمَهُ الْكَلِيلُ<sup>(۱)</sup> عَنْدَ تَقْدِيرِ حَكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ مَا لَا يَعْلَمُهُ أَوْ يَصْلِ إِلَيْهِ عِلْمُهُ.. فَضَلَّاً عَنْ أَنْ يَدْرِكَ حَكْمَتَهُ أَوْ أَنْ يُلْمَ بِعَاقِبَتِهِ.

(۱) «كَلَّ كُلُّوا»: ضَعْفَ، يَقُولُ: «كَلَّ السِّيفُ» وَنَحْوُهُ: لَمْ يَقْطَعْ. فَهُوَ كَلِيلٌ وَكَلٌّ. انظر: المعجم الوجيز، مادة [ك ل ل].

### ثالثاً: قوله تعالى:

﴿وَأَذْكُرْنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَارَبَ لَطِيفًا حَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ۳۴].

وهذا الخطاب لزوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين، رضوان الله عليهم أجمعين. قوله تعالى: **﴿وَأَذْكُرْنَّ**»، إما أن تكون من **«الذِّكْر»** وهو: عدم النسيان، أي: **الذَّكْر**. وإما أن تكون من **«الذِّكْر»** وهو: النطق باللسان والكلام.

**﴿وَأَذْكُرْنَّ**» من **«الذِّكْر»**، أي: **تَذَكَّرْنَ** ما يُتْلَىٰ في بُيُوتِكُنَّ، ولا تَغْفَلْنَ عنه من آيات الله والحكمة. يعني بأنه يقول لهنّ: **تَذَكَّرْنَ** ذلك عِلْمًا وعَمَلاً، أي: **تَذَكَّرْنَ** ما يُتْلَىٰ في بُيُوتِكُنَّ من آيات الله وما يكون من هدٍي النبي ﷺ في بُيُوتِكُنَّ، **وَأَذْكُرْنَ** ما يَنْبَيِّنِي على ذلك من العَمَلِ به والدعوة إليه وإظهارِ هذا العِلْمِ والعمل لغيرهنّ.

ولها معنى آخر جميل يُكَنِّي عنه بالشكرا، فلما قال ﷺ: **﴿وَأَذْكُرْنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾** كأنه يقول لهنّ: **تَذَكَّرْنَ** شُكْرَ الله تعالى على هذه النعمة العظيمة؛ أن اختصَّكُنَّ الله تبارك وتعالى يا نساء النبي ﷺ بهذه النعمة من آيات الله والحكمة والعمل، وأن شَرَفَكُنَّ بأن كُنْتُنَّ في بيت النبي ﷺ، فعليكنَّ أن تَكْنُنَ موارد للخير وداعياتٍ إليه ومبيناتٍ له من قرآن الله تعالى ومن هدي النبي ﷺ ومن سيرته، علاوةً على شُكْر نعمته التي اختصَّكُنَّ بها في ذلك.

**﴿وَأَذْكُرْنَّ**» من **«الذِّكْر»**، أي: **أَذْكُرْنَ** كلام الله تعالى، يعني ذِكْرًا وعَمَلاً، وسنة النبي ﷺ وهديه كذلك.

ثم في نهاية المطاف: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا حَمِيرًا».. يعني: واعلمَنَ أنَّ ذلك لُطفُ الله بِكُنَّ، ما كان ليحدث كُنَّ ذلك إلا لِلُطفِ الله تعالى. ولُطفُ الله تعالى ينبغي أن يُشكُرُ المرءُ ربَّه عليه، بأن يكون أهلاً للقرآن والحكمة والعلم به جل وعلا، وأن يكون أهلاً لتلاؤتها والعمل بها والدعوة إليها.

إذا كان هذا الخطاب لأزواج النبي ﷺ، فلا شك أن المرء يتتفق به كذلك، فيكون له حظُّه من هذه المعاني مِن تَذَكِّرِها وَذِكْرِها والشَّكِّرُ لها، ثم العمل بها والدعوة إليها. ولهنَّ - أي: أزواج النبي ﷺ - معنى زائدٌ، وهو تأييُّسُهنَّ بِأهْنَّ أزواج النبي ﷺ وفي بيته، مما يكون ذلك داعيًّا على حُسْنِ معاشرته ﷺ والقيام بحقه صلى الله عليه وآله وسلم. فكان من لطف الله تعالى بِهِنَّ - وهو لطفه بأهل الإيمان كذلك - تلك الآيات والحكمة والموعظة والعلم والعمل بها والشَّكِّرُ عليها والدعوة إليها، كما ذكر الله تعالى. وانظر إلى ذلك اللطف ليكون حظُّك منه ما يمكن أن يكون سبباً لسعادتك في الدنيا والآخرة.

#### رابعاً: قوله تعالى:

﴿الَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ۱۹].

قوله تعالى: «الَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ»؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «حَفِيْ بِهِم». وقال عكرمة رضي الله عنهما: «بَارِ بِهِم». وقال مقاتل: «لطيف بالبرّ والفاجر؛ حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم، يدل عليه قوله تعالى: «يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ».

وتنكير «لَطِيفٍ» مع مجئها على صيغة المبالغة يدل على المبالغة في اللطف.

وقوله تعالى: **﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾** أي: أن الله تعالى لطيف بعباده، يجرب لطفه على عباده في كل أمرهم، ومن جملة ذلك اللطف: الرزق الذي يعيشون به في الدنيا وهو معنى قوله: **﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾** منهم كيف يشاء، فيتوسّع على هذا ويُضيق على هذا على حساب مصلحة العباد.

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾** أي: عظيم القوة؛ قال تعالى: **﴿...أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾** [البقرة: ١٦٥]؛ **﴿الْعَزِيزُ﴾**: الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء.

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾** بعد قوله تعالى: **﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾** تذليل للاسمين الجليلين على القول بعموم الإحسان على عباده - المؤمنين والكافرين - كأنه قيل: **«لطيف بعباده، عام الإحسان بهم؛ لأنَّه تعالى القويُّ العزيز»**.

وإذا كان قوله تعالى: **﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾** أثراً من آثار لطف الله العام بعباده ورفقه بهم - كما ذكرنا لأنَّه يَسِّرُ من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدنيا - فإنَّ قوله تعالى في الآية التالية لهذه الآية: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْآخِرَةِ نَرَدْلَهُ فِي حَرَثِهِ﴾** [الشورى: ٢٠] فيه أثر آخر من لطفه، ولكن خصَّ به المؤمنين من رزق الآخرة<sup>(١)</sup>.

#### خامساً: قوله تعالى:

**﴿أَلْمَرَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيِّرٌ﴾**

[الحج: ٦٣].

(١) انظر - بتصرف كثير: **«فتح القدير»**، **«التحرير والتنوير»**، **«تفسير الألوسي»**، **«تفسير البغوي»**. تفسير الآيتين التاسعة عشرة والعشرين من سورة الشورى.

وقوله تعالى في هذه الآية يأتى بعد قوله في الآية التي قبلها مباشرة: «**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ أَعْلَمُ الْكَافِرِ**» [الحج: ٦٢]. وقوله تعالى: «**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**» أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له يَعْلَمُ، لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه. وقوله: «**أَلْمَرْتَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...**» الآية، فيه دلالة أيضاً على قدرته وعظيم سلطانه، وأنه يرسل الرياح فتشير سحاباً فتمطر على الأرض التي لا نبات فيها وهي هامدة يابسة سوداء محل<sup>(١)</sup> «**فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَرَتْ وَرَبَتْ**» [الحج: ٥]. قوله تعالى: «**فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً**» الفاء للتعليق، وقوله: «**مُخْضَرَةً**» أي: مخضرة بالنبات.

«**إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيبٌ**» أي: «**لَطِيفٌ**» بعباده في إخراج النبات بالماء، «**حَبِيبٌ**» بما في قلوبهم عند تأخير المطر. أو «**إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيبٌ**» أي: «**عَلِيمٌ**» بما في أرجاء الأرض وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه يَعْلَمُ خافية، فيوصل إلى كل منهم قسطه من الماء، فينبئ به كما قال تعالى على لسان لقمان الصلوة: «**يَبْيَغِي إِلَيْهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرَدٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيبٌ**» [لقمان: ١٦].

وقوله تعالى في الآيات بعدها: «**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفُورُ الْحَمِيدُ**» [الحج: ٦٤] «**أَلْمَرْتَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ إِنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**» [الحج: ٦٥، ٦٤]، فيه أيضاً آثار

(١) **المَحْلُ**: الجدب، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ. يقال: بلد «ماحِلٌ»، وزمان «ماحِلٌ»، وأرض «ماحِلٌ». اهـ من «مختر الصاحب»، مادة: [مح لـ].

من لطف الله تعالى بعباده؛ بأن سخر لهم ما في الأرض من حيوانٍ وجماد وزروع وثمار، وكذلك سخر لهم الفلك لتسير برفق في البحر العجاج وتلاطم الأمواج، ليحملوا فيها ما شاءوا من تجاثر وبضائع ومنافع من بلدٍ إلى بلدٍ<sup>(١)</sup>.

وقوله: «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ» أي: لو شاء لآذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته «إِلَّا بِإِذْنِهِ»<sup>(٢)</sup>.

### سادساً: قوله تعالى:

«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» [الأعراف: ١٠٣].

وقوله: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ»؛ لعظمته وجلاله وكماله، وإن كانت تراه في الآخرة وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِنُ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» [القيمة: ٢٢]، ولا منفأة بين إثبات الرؤية كما في آية سورة القيامة، ونفي الإدراك كما في آية سورة الأنعام؛ لأن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من تبني الأخص - وهو الإدراك - انتفاء الأعم - وهو الرؤية.

واختلف السلف في «الإدراك المنسفي»، فقال بعضهم: «معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رأه المؤمنون». وقال آخرون: «المراد بالإدراك الإحاطة، ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية».

(١) «العَجَّ»: رفع الصوت، وقد «عَجَّ يَعْجِجُ عَجِيجًا» و«عَجَّتِ» الريح: اشتتدت. ونهر «عَجَاجٌ». انظر: «مختر الصحاح»، مادة: [ع ج ج].

(٢) انظر - بتصرف اختصار: «تفسير ابن كثير»، و«تفسير الجلالين»، تفسير الآيات: [٦٢-٦٥].

وقوله: «وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ» أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنَّه خلقها كما قال تعالى: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ» [الملك: ١٤].

وقوله: «وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ» في آية الأنعام، أي: الذي لطف علمه وخبرته ودقّ، حتى أدرك السرائر والخبايا والباطن.

وقوله: «وَهُوَ الْلَّطِيفُ» أي: الرفيق بعباده - مشتق من «لطاف» بفتح الطاء - يسوق عبده إلى مصالح دينه ويوصلها إليها بالطريقة التي لا يشعر بها العبد.

ويجوز أيضاً أن يكون قوله: «وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ» تعليلًا لقوله تعالى: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ» على طريقة اللفّ، أي: لا تدركه الأبصار لأنَّه اللطيف، أي الذي لا يُدرك بالحسنة، ويكون «اللطيف» عندئذ مشتق من «لطاف» - بضم الطاء - أي: «دقّ»، ضد «ثقل وكثُف». «وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ» لأنَّ الخير يَعْلَمُهُ اللَّهُ.

## سابعاً: قوله تعالى:

«أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ» [الملك: ١٤].

قال تعالى قبل هذه الآية مباشرة: «وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الْأَصْدُورِ». أي: مطلع على الضمائر والسرائر، علِيمٌ بما يختُر في القلوب.

وقوله تعالى: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ» أي: «أَلَا يَعْلَمُ الْخَالقُ؟»<sup>(٢)</sup>، وقيل معناه: «أَلَا يَعْلَمُ

(١) انظر - بتصرف واختصار: «عمدة التفسير»، و«تيسير الكريم الرحمن»، و«تفسير أبي السعود»، و«التحرير والتنوير»، تفسير الآية الثانية بعد المائة من سورة الأنعام.

(٢) ويكون اسم الموصول «من» فاعل للفعل «يَعْلَمُ»، والمفعول به محنوف.

خُلُوقَه؟<sup>(١)</sup>). والأول أولى لقوله تعالى: «وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ». و«اللطيف» هو العالم بخبايا الأمور والمدبر لها برفق حكمته تَعَالَى، و«الخبر» الذي لا يَعْزُب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضاً بحُدوثها.

وبعد أنْ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَى مَنْ ظَنَّ انتفاءَ عِلْمِ اللَّهِ بِمَا يُسْرُونَ - في قوله: «وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِمَا...» الآية - أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا هُوَ أَعْمَّ مِنْ ذَلِكَ وَمَا هُوَ أَخْفَى مِنِ الإِسْرَارِ من الأحوال.

وفي الآيتين إخبارٌ من الله تعالى بِسْعَةِ عِلْمِهِ وشُمولِ لُطفِهِ تَعَالَى. ويجوز أن يكون المراد هنا بقوله «وَهُوَ الْلَّطِيفُ» أي: الذي لا تدركه الحواسُ، ويكون معنى الآية: «أَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ خُلُوقَه؟<sup>(٢)</sup>» بل.. سبحانه، وهو اللطيف الذي لا تُدركه حواسُ خُلُوقِيهِ، الخبر بأحوالهم<sup>(٣)</sup>.

## حظ العبد من اسمه تعالى «اللطيف»

حظُّ العبد من هذا الوصف: الرفقُ بعباد الله تعالى، والتلطفُ بهم في الدعوة إلى الله والهدایة إلى سعادة الآخرة، من غير ازدرايٍ وعنةٍ، ومن غير تعصُّبٍ وخصامٍ. وأحسنُ وجوه اللطف فيه هو الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسير المرضية والأعمال الصالحة، فإنها أَوْقَعُ وأَلْطَفَ من الألفاظ المُزينة<sup>(٤)</sup>.

(١) ويكون الفاعل ضمير مستتر في الفعل «يَعْلَمُ»، يعود على الله تَعَالَى، و«مَنْ» مفعول به.

(٢) انظر: تفاسير «عمدة التفسير، تيسير الكريم الرحمن، التحرير والتنوير». تفسير الآية الرابعة عشرة من سورة المُلْك. وانظر أيضاً: «التحrir والتنوير». تفسير الآية الثانية بعد المائة من سورة الأنعام.

(٣) انظر: «المقصد الأُسْنَى» [ص ٧٢].

فالحظُّ الأول مُتعلقٌ بالآخرة، وهو أَلَا تُقْصِر في أن تكون رفيقاً بالعباد، تَتَلَطَّفُ بهم في إيصال معرفة الله لهم ودعوتهم إلى طريق ربهم ﷺ، وهدايتهم إلى سعادة الآخرة.. سعادة الأبد، يعني أن لا تكون صاداً عن سبيل الله ﷺ بأقوالك وأفعالك وتصرُّفاتك السيئة، بل ينبغي أن تكون رفيقاً بعباد الله تعالى، مُتَلَطِّفاً بهم في الدعوة إلى الله تعالى والهدىية إلى سعادة الآخرة، من غير ازدراي وعُنْفٍ، ومن غير خصام وتعصُّب.

وأحسنُ وجوه اللطف أن يكون ظاهرُك و هيئتك وكل ذلك سبب جذب الناس إلى محبة النبي ﷺ ومحبة الله تعالى.

والحظُ الثاني هو أن تتلطف في إيصال البر والإحسان لهم، وقد ذكر العلماء في ذلك المعنى حديث جابر رض أنه باع جمله إلى النبي ﷺ قبل أن يدخل المدينة، فاشترط عليه جابر رض ظهره، يعني اشترط عليه أن يوصله إلى المدينة ثم يستلمه النبي ﷺ منه بعد أن يصل إلى المدينة عليه.

وانظر إلى هذا اللطف الجميل في البر! وقد ذكرنا في بداية تعريف اللطف أن «اللطفة» هي الهدىة التي تُهدي أو التُّحْفَة التي يُتَحْفَ بها المرء إخوانه ويرثُهم بها، وأن يتوصّل بكل سبيل حُسْنِ إليهم في إيصال هذه الألطاف والمَبَرَّات إليهم.

يقول جابر رض: «فَلَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ أَعْطَاهُ جَمَلًا وَأَعْطَاهُ ثَمَنَهُ»<sup>(١)</sup>.

وذلك من حُسْنِ البر واللطف منه ﷺ، أنه وجده يحتاج لهذا الجمل، ثُرَاه يُرُدُّ الجمل ويأخذ ثمنه؟ لا.. ليس ذلك من اللطف والبر به، وليس من إيصال الهدىة والصلة وتلك اللطفة - كما عرَّفناها - والمَبَرَّةُ إليه، فتركَ له جمله وثمنه ﷺ!

(١) انظر: قِصَّةُ الْجَمَلِ مُطَوَّلَةً في «صحيح البخاري» [٢٧١٨، ٢٠٩٧]، و«صحيح مسلم» [٧١٥].

فينبغي فُسُوْفُ هذه الأخلاق من صفات الله تعالى بين أهل الإيمان..

ينبغي أن تتفشى بينهم هذه الأخلاق في تحبيب الناس في الله تعالى وأخذِهم إليه سُلوكًا وقولًا وعملًا، وكذلك في هدايتهم إلى سعادتهم سعادة الأبد، وكذلك في إيصال المبرّات والهدايا والصلات واللطائف إليهم، على سبيل هذه المعاني التي يتحقق فيها المرء بهذا الاسم المشرف، وأن يأخذ حظه منه<sup>(١)</sup>.

والحظ الثالث: أن تُوحّد الله تعالى بهذا الاسم وتدعوه به، كأن يقول: «يا لطيف الطف بنا»، وأن تقبل على الله تعالى بعد ما علّمت شيئاً من لطفه يَعْلَمُهُ اللَّهُ في كونه وفي أرضه وفي سمائه وفي خلقه وفي عباده.. إلى غير ذلك من آثار عظمته يَعْلَمُهُ اللَّهُ التي أشرنا إليها.

فإنك ما عرّفتَ معنى اسم الله تعالى «اللطيف» وعرفتَ سعة لطفه يَعْلَمُهُ اللَّهُ إلا لترى حظك من ذلك، ثم تدعوه جل وعلا به، وتُوحّده به.. بهذا الاسم المشرف العظيم «اللطيف» يَعْلَمُهُ اللَّهُ.

(١) لا سيما بين أهله؛ عن أبي قلابة عن عائشة بنتِ عَائِشَةَ عن النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحَسَّنُهُمْ خُلُقًا وَأَطْفَهُمْ بِأَهْلِهِ». رواه الترمذى في سننه [٢٦١٢]، وقال: «هذا حديث حسن، ولا نعرف لأبي قلابة سباعاً من عائشة». ورواه الإمام أحمد في مسنده [٤٧/٦]، قال الشيخ شعيب في التحقيق: «حديث صحيح لغيره». قال المناوى في «الفيسير»: «وَأَطْفَهُمْ بِأَهْلِهِ، أي: أرقفهم وأبرّهم بنسائهم وأقاربه وأولاده وعشيرته المنسوبين إليه» اهـ. ولا شك أنه يَعْلَمُهُ اللَّهُ كان القدوة في ذلك، فقد قال يَعْلَمُهُ اللَّهُ: «خَيْرُكُمْ خَيْرٌ كُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرٌ كُمْ لِأَهْلِي» رواه الترمذى في سننه [٣٨٩٥]، وقال: « الحديث حسن غريب صحيح ». وقالت السيدة عائشة بنتِ عَائِشَةَ في حديث قصة الإفك الطويل: «وَيَرِيُّنِي فِي وَجْهِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ يَعْلَمُهُ اللَّهُ الْطَّفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أُمْرَضُ» رواه البخارى في صحيحه [٢٦٦١].

# القسم الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْقَدْرُونَ



## مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.. أَمَّا بَعْدُ..

إِنَّ اسْمَ اللَّهِ الْمَشْرُفَ «الْقَدُوسُ» مِنَ الْأَسْمَاءِ الْخَيْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الْأَتْقِيَاءِ مِنْهَا حَظٌ  
كَبِيرٌ، بَلْ وَلِلْأُمَّةِ كَافَةً حَتَّى تَقْدِيسُهُ وَتَكُونَ أَهْلًا لِلْعُلُوِّ وَالرَّفْعَةِ، وَتَنَزُّلُ النَّصْرِ عَلَيْهَا فِي  
الْدُّنْيَا، وَلِجَاهِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَنَّتِهِ فِي الْآخِرَةِ.

أَنْ تَسُودَ أَخْلَاقُ الطَّهَارَةِ وَالتَّنْزِيهِ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ لَنْقَلْةً عَظِيمَةً لَهُمْ  
فِي أَنْ يَعُودُوا إِلَى مَا كَانُوا فِي مُنْتَهِيَّ الْأَيَّامِ - وَهُوَ أَمْلُ كُلِّ غَيْرٍ - فَيَسْتَحْقُوا بِرَحْمَةِ  
اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَذَا قَدَّمَنَا هَذَا الْاسْمُ الْكَرِيمُ: «الْقَدُوسُ» سَبِّحَهُ وَتَعَالَى..  
نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَ بِهِ قَارئُهُ وَكَاتِبُهُ وَنَاسِرُهُ وَالنَّاظِرُ فِيهِ.

مسجد الهدي المحمدي



## الفصل الأول

### معاني اسم الله تعالى «القدوس»

- الدليل على اسم الله تعالى «القدوس»
- لطيفة حول قلة ورود اسم الله تعالى «القدوس» في القرآن الكريم
- سبب اقتران اسم الله «القدوس» مع اسمه «المَلِك» في القرآن الكريم
- المعنى اللغوي
- معنى «القدوس» في حق الله تعالى



و«القدوس» جل جلاله وتقديست أسماؤه جاء في القرآن والسنة، وأجمعَت عليه الأمة. ولا يجوز أن يقال في مخلوق «القدوس» هكذا مطلقاً من غير إضافة ولا تقيد، لا اسمًا ولا صفةً، ولا يجوز إذا أضيف أو نُكِر أنْ يقع وصفاً. ويجب على ذلك التنبيه والاحتياط<sup>(١)</sup>.

### الدليل على اسم الله تعالى «القدوس»

و«القدوس» قد ورد ذكره في القرآن الكريم مرتين فقط:

الأولى: قوله تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ» [الحشر: ٢٣].  
والثانية: قوله تعالى: «يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْكَلِيلُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [الجمعة: ١].

وبعد ذلك نذكر..

### لطيفة حول قلة وُرود اسم تعالى «القدوس» في القرآن الكريم

وهي لطيفة قد يُستغَرِّبُها المرءُ بعض الشيء؛ وهي أنه ليس في القرآن الكريم كثرة ذكرٍ لهذا الاسم «القدوس» وإنْ كان يحتوي الأسماء الحسنى كما يقول الحليمي! وظني - والله أعلم - لأنَّه ليس هناك قدوس إلا الله. فهو «القدوس» ﷺ، ليس غيره.. ولا أحد سواه، فلا يحتاج أنْ تُضربَ له الأمثلُ ولا أنْ يتكرز ذكرُه، فهو وصف الله تعالى لا كلام

(١) انظر: «الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى»، للإمام القرطبي رحمه الله، ص ٢٧٤ - مكتبة فياض، المنصورة - الطبعة الأولى - سنة ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦.

فيه ولا يمكن أن نناقش: هل هو قدوسٌ تعزلاً أم لا؟ فهو أوضح الواضحات. فإذا لم يكن الرب تعزلاً هو القدس، فمنْ ذا يكون؟ إذا كان هو القدس فقد أغلق باب الكلام وانتهى لكونه تعزلاً معلوماً من هذا الوصف الجليل أنه الله تعالى لا يشترك معه فيه أحدٌ. إذ منِ الذي تقدَّستْ أسماؤه وصفاته حتى نأخذ في التَّكَارَ في كونه تعزلاً قدوساً أم لا؟.. أو منَ الذي أدعى له ذلك؟.. وهذا يدلنا على عظمة الله وجلاله تعزلاً من هذا الاسم المشرف.

هذه نظرة قاصرة من العبد الفقير في عدم تكرار هذا الاسم المشرف في القرآن الكريم..

## سبب اقتران اسم الله «القدس» مع اسمه «المِلَك» في القرآن الكريم

ونلاحظ أن اسم الله تعالى «القدس» جاء مقترناً مع اسم الله تعالى «المِلَك».

و«المِلَك القدس» معناها: أنه تعزلاً ليس ملِكًا فقط، بل هو قدوس؛ لأنَّ المِلَك يمكن أن يُطلق على مُلُوك الدنيا، وملوکُ الدنيا ممتلئون بالكبير والغطرسة والعجب، والتباهي بالمال والسلطان، والتعالي بالقوة وبكثرة الجنود، وكلُّهم يحاول أن يعلو الآخر.. وأن يَقْهِرَه.. وأن يكون هو المِلَك الأكبر. ولكنَّ الله تعالى مُتَقدَّسٌ عن ذلك كله، فلو قلت: «السميع القدس» لا تتأتى. لو قرأت أيَّ اسم آخر من الأسماء الحسنة لا يأتي مع اسمه «القدس». إنما الذي يأتي مع القدس هو المِلَك الذي لا مِلَك فوقه تعزلاً، وهو في ذات الوقت المِلَك المقدَّس جل وعلا. وكل ملوك الدنيا ليسوا على هذا الحال من التقديس مهما كانوا مؤمنين ومهما بلغوا في درجة التَّقى والدِّين والإقبال على الله تبارك وتعالى؛ لذلك تجد هذا الاسم المشرف مقترناً باسمه «المِلَك» تعزلاً.

وكذلك ليكون علاماً ملوك الدنيا أنهم قد أعطاهم الله تبارك وتعالى الملك مع ما هم فيه من أتباع الشهوات، ومن الميل وراء النزوات والملذات، وصرف أوقاتهم في غير ما يعود بالصالح في معاش الناس ومعادهم؛ من القيام بالعدل والحق والقسط، والشهر على مصلحة رعيتهم؛ ليتقديسو وأياخذوا بحظهم من اسمه القدس تَعَالَى، فيتصنفو بتلك الصفات العليا، فتظهر عليهم آثارها الجميلة.

### المعنى اللغوي

و«القدس» مما لم يكن معلوماً قبل الإسلام، وهو يدل على الطهارة، يعني: الطهارة، ومن ذلك: «الأرض المقدسة» [المائدة: ٢١]، يعني: الأرض المطهرة. وتسمى الجنة حظيرة القدس، يعني: حظيرة الطهارة. وجبرائيل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ يسمى روح القدس، إشارة إلى طهارته في نفسه، وطهارته فيما ينقل إلى أنبياء الله تعالى ورسله من الكلام المطهر والخبر المطهر عن الله تعالى. وإنه متخصص بذلك ليدل على أن ما يوحيه رب جل وعلا إلى المختصين من عباده بالرسالة أو النبوة متخصص بهذه الطهارة.

و«القدس» من أسماء الله تعالى؛ لأنه مُنَزَّه جل وعلا عن الأضداد والأنداد والصاحبة والولد، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبعض أهل العلم يقول: «القدس» هو الظاهر المُنَزَّه عن العيوب والنقائص. والتقدیس أي: تَنْزِيه الله تَعَالَى، «يُقَدِّس ربَّه» يعني: يُنَزِّه ربَّه تَعَالَى، وفي التهذيب: «التقدیس، والقدس، والمتقدیس، والقدس، والمقدس» كل ذلك تَنْزِيه الله تعالى.

و«التَّقْدِيسُ» كذلك يُطلق على التَّبْرِيك والتَّطْهِير؛ «أَنْ يُقَدِّسْ شَيْئًا» يعني: يُبَرِّكَه، «وَأَنْ يُقَدِّسْ شَيْئًا» يعني: يُطَهِّرُه، وهذا المعنى الأخير سيأتي معنا في حديث سنذكره لاحقاً: «كَيْفَ تُقَدِّسُ أَمَّةً لَا تَأْخُذُ لِصَاعِيفَهَا مِنْ شَدِيدَهَا حَقَّهُ»<sup>(١)</sup>.

وفي التنزيل قوله تعالى: «وَخَنْ نُسْبَحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» [البقرة: ٣٠]، «يُقَدِّسُونَ» الله تعالى يعني: يُنَزِّهُونَه بِكَلَامِكَ، أو «نُقَدِّسُ لَكَ» يعني: يُطَهِّرُ أَنفُسَنَا لَكَ، وكذلك «نُقَدِّسُ لَكَ» بمعنى: نفعل بِمَنْ أطَاعَكَ؛ يعني: يُطَهِّرُ - أي: الملائكة - مَنْ أطَاعَكَ<sup>(٢)</sup>.

## معنى «القدوس» في حق الله تعالى

قال ابن الحصار<sup>(٣)</sup>: لا ينبغي أن يختلف أحد من أهل اللغة أن القدس: الطهارة، ولكن المفعول قد يراد له اسم الفاعل، بمعنى أنه المطهّر لغيره، وقد يراد به اسم المفعول بمعنى: أنه المطهّر في نفسه. وإذا كان اسم المفعول يراد به ما يراد باسم الفاعل

(١) سيأتي تخریجه.

(٢) انظر - بتصرف كثير: «الأُسْنَى» للإمام القرطبي، [ص ٢٧٤، ٢٧٥]. و«اللسان العرب»، مادة: [ق د س]. والحاصل أن مادة [ق د س] تدل على معنين رئيسيين؛ الأول: الطهر، والثاني: البركة. وعليه يأتي تفسير العلماء لهذا الاسم المشرف.

(٣) هو عليٌّ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ موسى، أبو الحسن الفقيه الحَزَّارِيُّ الإشبيليُّ الفاسيُّ المعروف بابن الحصار. كان إماماً فاضلاً كثير التصنيف في أصول الفقه، وصنف كتاباً في الناسخ والمسوخ، والبيان في تبييض البرهان، وأرجوزة في أصول الدين شَرَحَها في أربع مجلدات، وتقريب المدارك في رفع الموقف ووصل المقطوع من حديث مالك اختصر فيه بعض كتاب التمهيد لابن عبد البر. وتوفي سنة إحدى عشرة وستمائة. اهـ. من «الوافي بالوفيات» للصفدي.

فالقدوس: أولى بالله جل ثناؤه من كونه قدوساً على الإطلاق، فهو ظاهر في نفسه، مُنَزَّهٌ مُطَهَّرٌ لغيره، فهو اسمٌ يتضمن جميعَ صفات الكمال، ونفيَ كل نقىصيةٍ لا تليق بجلاله، وإيصال التطهير لغيره كملائكته وأنبيائه ومن شاء من خلقه.

فهذا الاسم يكون من صفات الذات ويكون من صفات الأفعال، فهو المُنَزَّهُ المُنَزَّهُ والمُطَهَّرُ المُطَهَّرُ وفي ضمن هذا أنْ لم يكن ظاهراً في نفسه فلا يُطَهَّرُ غيره. والشيطانُ رِجْسٌ نَجِّسٌ، وكذلك حزبُه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الظُّنُونُ نَجَّسٌ﴾ [التوبه: ٢٨].

قال ابن العربي<sup>(١)</sup>: وَتَعْتَهُ تَعْلَى «القدوس» وَتَعْيِينُ التَّقْدِيسِ لَهُ يُوجَبُ لَهُ أَوْصَافًا

عشرة:

(١) الإمام، العلامة، الحافظ، القاضي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، ابن العربي الأندلسى، الإشبيلي، المالكى، صاحب التصانيف. ولد في سنة ثمان وستين وأربع مائة. ارتحل مع أبيه لطلب العلم فسمعَا الحديث ببغداد ودمشق وبيت المقدس والحرم الشريف ومصر. وتفقه بالإمام أبي حامد الغزالى، والفقىئه أبي بكر الشاشى، والعلامة الأديب أبي زكريا التبريزى، وجامعة. ورجع إلى الأندلس بعد أن دفن أبوه في رحلته وصنفَ وجمعَ، وفي فنون العلم بَعْدَ، وكان فصيحاً، بليغاً، خطيباً. صنف كتاباً «عارضه الأحوذى في شرح جامع أبي عيسى الترمذى»، وفسر القرآن المجيد، فأتى بكل بديع، و«العواصم من القواصم» وأشياء سوى ذلك. صنف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب وال نحو والتاريخ، واتسع حَالُهُ، واشتهر اسمُهُ، وكان رئيساً محتشماً، وكثُر إفصاله، وأنشأ على إشبيلية سُوراً من ماله! أدخل الأندلس إسناداً عالياً، وعلمَ جمّاً. وكان ثاقب الذهن، عَذْب المنطق، كريم الشمائل، كامل السُّؤُدد. ولَي قضاء إشبيلية، فحُمِّدت سياساته، وكان ذا شدة وسطوة، فعُزل، وأقبل على تَشْرُّف العلم وتدوينه. توفي / سنة ثلاثة وأربعين وخمس مائة. انظر - بتصرف: «سir أعلام النبلاء» للذهبي.

الأول: تقديسه عن الشركاء.

الثاني: تقديسه عن النُّظَرَاءِ.

الثالث: تقديسه عن الأَضْدَادِ.

الرابع: تقديسه عن الأَوْلَادِ.

الخامس: تقديسه عن الأَوْهَامِ.

السادس: تقديسه عن التَّحْدِيدِ (وهو التَّحْدِيدُ الذي نفاه أَهْلُ الْإِسْلَامَ جَمِيعًا وَأَهْلَ السَّنَةِ خَصْوصًا).

السابع: أَنَّهُ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ بِالْتَّصْوِيرِ.

الثامن: تقديسه عن الحاجة إلى الخلقِ.

التاسع: أَنَّ تَطْهِيرَهُ غَيْرُهُ إِلَيْهِ.

العاشر - وهو فائدتها - : أَنَّ لَهُ الْكَمَالَ فِي كُلِّ وَصْفٍ لَا سَتْحَالَةَ لِتَقْصِيصِهِ<sup>(١)</sup>.

(١) وَقَسَّمَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمَ حَفَظَهُ اللَّهُ تَوْحِيدَ الْأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ - أَوَ التَّوْحِيدَ الْقَوْلِيَّ كَمَا سَمَّاهُ فِي النُّونِيَّةِ - إِلَى قَسْمَيْنِ. الْقَسْمُ الْأَوَّلُ: سَلْبٌ - أَيْ: نَفِيَ - النَّاقَصُ وَالْعِيُوبُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وَالْقَسْمُ الثَّانِي: إِثْبَاتُ صَفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ تَعَالَى. وَالْقَسْمُ الْأَوَّلُ - وَهُوَ سَلْبُ النَّاقَصِ وَالْعِيُوبِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى - يَتَكَوَّنُ مِنْ نَوْعَيْنِ: النَّوْعُ الْأُولُ - وَهُوَ سَلْبٌ لِتَصْلِي، وَضَابِطُهُ: نَفِيَ كُلُّ مَا يَنْاقِضُ صَفَةً مِنْ صَفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ حَفَظَهُ اللَّهُ:

وَالْأَوَّلُ التَّنْتَرِيَّةُ لِلرَّحْمَنِ، عَنْ كَالْمُوتِ وَالْإِعْيَاءِ وَالْعَبْرِ  
وَصَفِّ الْعِيُوبِ وَكُلِّ ذِي الذِّي يَنْفِي اقْتِدارَ الْخَالِقِ

ولقد أحسن من قال:

وَعَمَّ جَمِيعَ الْعَالَمَيْنَ نَوَالُهُ  
هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُوسُ جَلَّ جَلَالُهُ  
يُقَدِّسُهُ قَبْلَ الْعِبَادِ كَمَالُهُ

تَبَارَكَ مَنْ أَنْحَفَى الْقَبِيحَ بِفَضْلِهِ  
هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ فَاسْمَعْ  
تَعَاظَمَ عَنْ ذِكْرِ الْعِبَادِ وَلَمْ يَرْزَلْ

وَعُزُوبٌ شَيْءٌ عَنْهُ فِي الْأَكْوَانِ  
سَمْهُ وَحْمَدَ اللَّهُ ذِي الْإِتْقَانِ  
لَا يَعْثُونَ إِلَى مَعَادِ ثَانٍ  
لَهُمْ مِنْ إِلَهٍ قَادِرٌ دِيَانٌ  
سَيِّفُهُمْ وَالظُّلْمُ لِلنَّاسِ  
سَلَامُ الْغَيُوبِ فَظَاهِرُ الْبَطْلَانِ  
لَا يَعْرِيْهُ قَطْ مِنْ نَسْيَانِ

وَالنَّوْمُ وَالسَّنَةُ التِّي، هِيَ أَصْلُهُ  
وَكَذَلِكَ الْعَبْثُ الَّذِي تَنْفِيهِ حِكْمَتُ  
وَكَذَلِكَ تَرْكُ الْخَلْقِ إِهْمَالًا سُدِّيَّ  
كَلَا وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ عَلَيْهِ  
وَكَذَلِكَ ظُلْمٌ عَبَادِهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ  
وَكَذَلِكَ غَفْلَتُهُ تَعَالَى وَهُوَ عَلَى  
وَكَذَلِكَ النَّسِيَانُ جَلَّ إِلَهُنَا

وَالنَّوْعُ الثَّانِي - وَهُوَ سَلْبٌ لِنَفْسِهِ، وَضَابِطُهُ تَنْزِيهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُشارِكَهُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ فِي  
خَصَائِصِهِ الَّتِي لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، وَتَنْزِيهُهُ عَنِ الشَّرِيكِ وَالظَّهِيرِ - أَيِّ الْمَعَاوِنِ - وَالشَّفِيعِ إِلَّا بِإِذْنِهِ  
وَالْخَادِ الْصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالْكُفَّاءِ وَالْوَلِيِّ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

نَوْعَانِ مَعْرُوفٌ فَانْ أَمَا الثَّانِي:  
عَبْدُونَ إِذْنَ الْخَالِقِ الدِّيَانِ  
نَسْبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ  
سَيِّلَنَا سُوِّيُ الرَّحْمَنُ ذِي الْغُفرَانِ

سَلْبٌ لِتَصْلِي وَمِنْفَصِلٌ هَمَا  
سَلْبُ الشَّرِيكِ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيفِ  
وَكَذَلِكَ سَلْبُ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ الَّذِي  
وَكَذَلِكَ نَفِيُ الْكُفَّاءِ أَيْضًا وَالْوَلِيِّ

وَمِنَ النَّوْعِ الثَّانِي أَيْضًا تَنْزِيهُ أَوْصَافُ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لَهُ تَعَالَى عَنْ مَمَاثِلَةِ صَفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ لَهُ. وَسِيَّاتِي  
الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي التَّعْلِيقِ عَلَى كَلَامِ الْإِمَامِ الغَزَالِيِّ تَعَالَى. انْظُرْ - بِتَصْرِفِ كَثِيرٍ: «الْقَصِيدَةُ التُّونِيَّةُ» مَعْ

شَرِحَهَا لِلشِّيخِ مُحَمَّدِ خَلِيلِ هَرَّاسِ [٢/٥٧-٦٥].

قال الحليمي<sup>(١)</sup>: وما قَدَّسَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ بْنَى آدَمَ مَا أَنْزَلَهُ فِي كِتَبِهِ وَأَوْدَعَ قُلُوبَ رُسُلِهِ مِنْ حِكْمَتِهِ، وَمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنْ الطَّهَارَةِ بِمَا لَمْ يَطَهُرُوا، وَمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنْ مُنَاجَاتِهِ فِي صَلَاتِهِمْ. ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ كُلَّ شَيْءٍ يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ، فَهُوَ «السُّبُّوحُ الْقَدُوسُ» بِكُلِّ اعْتِبارٍ، وَ«الظَّاهِرُ الْمَطَهَّرُ» لِكُلِّ ظَاهِرٍ، وَكُلِّ طَهَارَةٍ وَطَهُورٍ فِيهِ مِنْهُ وَإِلَيْهِ، تَعُودُ فِي جِنْتَهُ وَحْظِيرَةِ قَدْسِهِ.

فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ طَهَارَةً وَنَزَاهَةً وَقَدْسٍ مِنْ قَدِيسِهِ وَطَهَارَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ، فَكَذَّلِكَ كُلَّ نُورٍ مِنْ نُورِهِ، وَكُلَّ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِهِ، وَكُلَّ قُوَّةٍ مِنْ عَزَّتِهِ.. إِلَى مُنْتَهِي أَسْمَائِهِ الْحَسَنَةِ وَصَفَاتِهِ الْعَلِيِّ. فَلَا مُنَاقِضَةَ بَيْنَ هَذَا الْاسْمِ وَبَيْنَ سَائرِ الْأَسْمَاءِ لَا حَتَّوَائِهِ عَلَيْهَا<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر ترجمته في شرح اسم الله «الودود» [ص ٢٠] الطبعة الثانية.

(٢) انظر - بتصرف واختصار - : «الأسمى» للإمام القرطبي، ص ٢٧٥-٢٧٨. ومن قال من التابعين أن «القدوس» بمعنى [الظاهر] التابعيُّ الحليل وَهُبُّ بْنُ مُنْبِهِ رحمه الله، وقال مجاهد وقاتدة رحمهما الله: «القدوس» أي: «المبارك»؛ ذكره ابن كثير في تفسيره. ولعل قول مجاهد وقاتدة أنه [القدوس] أي: المبارك، مرجعه إلى أن «القدس» مِنْ معانيه «البركة»، و«القدس» مِنْ معانيه «التبريك» كما مر. وحاصل ما ذكرناه في اسمه تعالى «القدوس» ثلاثة أوجه. الأولى: أنه المبارك. الثانية: أنه الظاهر في نفسه والمطهّر المنزه عن القبائح والعيوب والنقائص رحمه الله. الثالث: أنه المنزه المطهّر لغيره. وقال ابن القيم رحمه الله في النونية:

هذا وفي أوصافه القدس ذو التُّ  
تَنْزِيْرِهِ بِالْتَّعْظِيْمِ لِلرَّحْمَنِ

فَأَصْفَافُ التَّعْظِيْمِ إِلَى التَّنْزِيْرِ، وَلَعِلَّهُ اسْتَبْنَيْتُ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي جَعْفَرِ الطَّبَرِيِّ رحمه الله فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «قَاتُلُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِخَمْدَكَ وَنُنَقْدِسُ لَكَ» [البَقْرَةَ: ٣٠]، قَالَ الْإِمَامُ الطَّبَرِيُّ رحمه الله: «وَالْقَدِيسُ هُوَ التَّطْهِيرُ وَالْتَّعْظِيْمُ». وَمِنْ قَوْلِهِمْ: «سَبُّوحُ قدُوسُ»، يَعْنِي بِقَوْلِهِمْ «سَبُّوحٌ»: تَنْزِيْهُ لِللهِ، وَبِقَوْلِهِمْ «قَدُوسٌ»: طَهَارَةٌ لِللهِ وَتَعْظِيْمٌ. اهـ. وَأَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ - مُولَى أَمْ هَانِي رضي الله عنهما: [وَ«وَنُنَقْدِسُ لَكَ»: نُعَظِّمُكَ وَنُمَجَّدُكَ]، وَعَنْ مجاهد:

«نُعَظِّمُكَ وَنُكَبِّرُكَ».

## رأى الإمام الغزالي في اسم الله تعالى «القدوس»

وننتقل إلى كلام الإمام الغزالي رحمه الله، فإنه لفتَ الأنظار إلى شيءٍ - وهو شيءٌ قلما يلتفتُ المرءُ إليه في كلام العلماء وغيرهم، وهو أنَّ «القدوس» يعني: «المُتنَزَّهُ عن النَّقائصِ والعيوب... وكذا وكذا» وفقط.

و قبل أن نذكر ذلك نُورِدُ تعريفَ الغزالي لاسمِه تعالى «القدوس»، حيث يقول رحمه الله: «هو المُتنَزَّهُ عن كل وصفٍ يُدرِكُه الحِسْنُ، أو يَتَصَوَّرُهُ الْخَيْالُ، أو يَسْبِقُ إِلَيْهِ الْوَهْمُ، أو يَقْتَرِنُ بِهِ الضَّمِيرُ، أو يَقْضِي بِهِ التَّفْكِيرُ...». سبحانه وتعالى.

فهو المُتنَزَّهُ عن كل وصفٍ يُدرِكُهُ الحِسْنُ ولا شك أنه لا يدركه شيءٌ رحمه الله. «أو يَتَصَوَّرُهُ الْخَيْالُ» أي: لا يُدرِكُ خيالُ المرءِ تصوّرَ ربه.. فهو مُتقَدِّسٌ عن ذلك رحمه الله. «أو يَسْبِقُ إِلَيْهِ الْوَهْمُ» أنَّ المرءَ يتَوَهَّمُ الْرَّبَّ رحمه الله على أسماءٍ أو صفاتٍ معينة؛ كُلُّ ذلك متقدَّسٌ عنه رحمه الله. «أو يَقْتَرِنُ بِهِ الضَّمِيرُ» يعني: أن يأتي في ضميرِ المرءِ شيءٌ يتخيلُ أنه يُشَبِّهُ رَبَّهُ رحمه الله; فكل ذلك يتقدَّسُ عنه رحمه الله. «أو يَقْضِي بِهِ التَّفْكِيرُ» أي: أن يُفْكِرُ المرءُ في شيءٍ يقضي به أن ربه كذلك، فيتقدَّسُ اللهُ رحمه الله عن أن يقتضي التفكير القاصر - من الناس عموماً - أن يصلوا إلى شيءٍ يُكَيِّفُونَ به رَبَّهُم رحمه الله، أو أن يتَوَهَّمُونَ به.. أو غير ذلك.

والكلمةُ التي يَوْدُعُ أنْ يقولها ويَلْفِتُ النَّظرَ إِلَيْها الإمامُ الغزالي رحمه الله هي قوله: «ولستُ أقولُ: مُتنَزَّهٌ عن العيوبِ والنَّقائصِ؛ فإنَّ ذِكْرَ ذلك يَكادُ يَقْرُبُ من تَرْكِ الْأَدَبِ»،

(١) انظر: «المقصد الأنسني»، للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، [ص ٥٢، ٥١]، مطبعة الصباح - دمشق، الطبعة الأولى وقد جعلنا كلام الإمام الغزالي بين تنصيص، هكذا «...». وانظر ترجمته رحمه الله في

شرح اسم الله تعالى «الودود» رحمه الله [ص ٤٦] الطبعة الثانية.

فليس من الأدب أن يقول القائل: مَلِكُ الْبَلْدِ لِيُسْ بِحَائِلٍ وَلَا حَجَامٌ. فإنَّ نَفْيَ الوجود يكاد يُوهم إمكانَ الوجود، وفي ذلك الإيهام نَقْصٌ.

فكأنه يقول: مَنْ نَحْنُ حَتَّى نُنْزَهُ الرَّبُّ عَنِ الْعِيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، «فإنَّ ذِكْرَ ذَلِكَ» اللفظ لا أَدَبَ فيه، أو يقرُبُ أَلَا يكون فيه أَدَبٌ؛ أن تقول: مُنْزَهٌ عن العيوبِ والنَّقَائِصِ! فعندما تقول: «هذا الْمَلِكُ لِيُسْ بِحَائِلٍ». فهذا ليس مَدْحَى وَلَا تَمْيِيزًا له، «فإنَّ نَفْيَ الوجود يكاد يُوهم إمكانَ الوجود» فإذا نَفَيْتَ النَّقْصَ - كمثل أن تقول: هو ليس حَجَامًا! - كأنك توهم إمكانَ أن يكون كذلك، «وفي ذلك الإيهام نَقْصٌ» يعني: في إيهام إمكان الوجود هذا النَّقْصُ.

بل ينبغي أن تقول: إنَّ الله عَزَّلَ مُتَصِّفٌ بكل صفات الكمال - وهو كذلك غَنِيٌّ عن أن يقولها أحدٌ - لأنَّ له الأسماء الحسنَى والصفاتُ العليا، وهو متصف بها قبل خلق الخلق، وله عَزَّل الشَّاءُ الحسنُ الجميلُ.

ثم يصحح الإمام الغزالى التعريف الذي يذهب إليه فيقول عَزَّلَه: «القدوسُ هو المُنْزَهُ عن كُلِّ وَصْفٍ مِنْ أوصافِ الْكَمَالِ الَّذِي يَظْنُهُ أَكْثُرُ الْخُلُقِ»؛ لأنَّ الْخُلُقَ قد وَصَفُوا أنفسَهُم بهذه الأوصاف، وعندما أرادوا أن يُقدِّسوا رَبَّهُمْ ويُمدِّحوه مدحوه بكونه موصوفاً بهذه الأوصاف التي هي صفات كمال، ولكن في حقهم، مثل: عِلْمُهُمْ وَقُدرَتُهُمْ وَسَمْعُهُمْ وبَصَرِّهُمْ وَكَلَامُهُمْ وَإِرَادَتُهُمْ وَاحْتِيَارُهُمْ. حيث وضعوا ألفاظاً بإيذاء هذه المعاني وقالوا: إنَّ هذه أسماءُ كمالٍ، وقالوا (ثناءً عليه): إنَّ الله سَمِيعٌ.. بصيرٌ.. كذا كذا، ونفوا عنه ما هو نَقْصٌ في حَقِّهِم مثل: الجهل والعَجْزُ والعَمَى والصَّمَمُ والحرس.

أي كان غايتها في الثناء على الله تبارك وتعالى هو وصفه أن وصفوه بما هو أوصاف  
كما لهم، من العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك، وإن نفوا عنه أوصاف  
نقيصهم.. لا هو مُنَزَّهٌ عن أوصاف كما لهم هذه.

ترى هل هو مُنَزَّهٌ إذاً عن صفات كما لهم أو منزه عن صفات نقصهم؟

الجواب: أنه منزه عن صفات كما لهم، فإذا وصفوه بالعلم، فالعلم مرد إليه بِهِ،  
وكذلك السمع والبصر مرد إليه؛ وهذه الأولى.

والثانية: أن عِلْمَهُم وسَمْعَهُم وَبَصَرُهُمْ وَكَلَامُهُمْ وَإِرَادَتُهُمْ وَمُلْكُهُمْ... كُلُّ ذلك  
هل يُشَبِّهُ ما يَتَصِّفُ به الربُّ؟ أو أن هذا من جهة اللغة وما يُقْرَبُ للأفهام فقط؟ فالسمعُ  
غير السمع، والبصر غير البصر، والمُلْكُ غير الملك، بل كُلُّ ذلك فضل الله تعالى، فلا  
يشبه خلق الله تعالى الرب بِهِ، وفي الوقت نفسه: الله تعالى مُنَزَّهٌ عن أن يُشَبِّهَ خَلْقَهُ في  
ذلك، يعني في علمهم وسمعهم وكلامهم وفي أوصاف كما لهم، فهو مُنَزَّهٌ عن أن يشارك  
عباده؛ إذ كُلُّ أحدٍ مُخْتَصٌ بصفاته، والله من باب الأولى له صفاته التي تليق بالذات لا  
يشبهه فيها أحدٌ، ولا يشارك هو بِهِ فيها أحداً.. مُنَزَّهٌ عن ذلك بِهِ. كما أن ذاته المقدسة  
لا تشتبه الذوات ولا يشبهها ذات.

أما أوصاف النقص فهذه ليست لها علاقة بنا، فإذا كانت أوصاف الكمال هو مُنَزَّهٌ  
عنها، فلا مكان لذكر أوصاف النقص التي هي للخلق الناقص؛ لذلك يقول: «مُنَزَّهٌ عن  
أوصاف كما لهم»، فمن باب الأولى ليس هناك أوصاف نقص <sup>(١)</sup>.

(١) راجع لما سبق «المقصد الأنسى» [ص ٥٢، ٥١].

هذه نظرة من الإمام محل تأمل لنظر أهل العلم، ذكرناها للأمانة العلمية ومحاولة البحث فيها.

وخلاصة ما سبق: أنَّ أوصاف الكمال الثابتة لله تعالى مُقدَّسةٌ ومحبَّةٌ عن ماثلة صفات المخلوقين لها، فلا يقال علْمُه كعلمهم ولا قدرته وقدرتهم ولا رحمته كرحمتهم... ونحو ذلك، فمَنْ شبَّهَ صفاتِ الله تعالى بصفات خلقه لم يكن عابداً لله في الحقيقة، وإنما يعبد وثنا صوره له خياله ونَحَّتَهُ فَكُرُّهُ. وأئمَّةُ ربِّ العالمين عليهم السلام فهو فوق ما يظنو و أعلى مما يتَّوهُون؛ فإنه كما أنَّ ذاته لا تُشَبهُ ذاتُ المخلوقين فصفاته لا تُشَبهُ صفاتُهم. ولكي يكتمل هذا التنزيه عند أهل السنة والجماعة - وهم سلفنا الصالحون والتَّابعون لهم بِإحسان إلى يوم الدين - فانهم يُتَّزَّهُون صفاتِ الله تعالى عن التعطيل والجحد لها - على عكس الجهميَّة وَمَنْ تَبعَهُمْ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ - فإنَّ مَنْ نَفَى ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه في الحقيقة لا يعبد شيئاً موجوداً وإنما يعبد عدماً مفقوداً، لما تَوَهَّمَ أنَّ ظاهر النصوص يدل على التشبيه أَخْذَ يَنْفِيَها بِوَهْمِهِ الفاسد. وبالجملة؛ فالناسُ في هذا المقام ثلاثة أقسام: «مؤمنٌ مُوحَّدٌ، وَمُشَبِّهٌ، وَمُعَطَّلٌ». فـ«المؤمن المُوحَّد» يَصِفُ الله تعالى بما وصفَ به نفسه ووصفه به رسوله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، من غير تمثيلٍ ولا تشبيهٍ، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ لشيءٍ من أوصاف الله تعالى. والقسم الثاني هو «المُشَبِّه» الذي يُشَبِّهُ صفاتِ الله بصفات المخلوقين أو يتعرَّضُ لعرفة كُنْهِها وحقيقةتها التي لا يعلمهَا غَيْرُ الله تعالى. والقسم الثالث هو «المُعَطَّلُ» وهو مَنْ نَفَى شيئاً من صفات الله تعالى، لذلك قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

هَذَا وَتَانِي نَوْعَيِ السَّلْبِ	هُوَ أَوْلُ الْأَنْواعِ فِي الْأَوْرَانِ
تَنْزِيهُ أَوْ صَافِي الْكَمَالِ لَهُ	تَشْبِهُ وَالْتَّمَثِيلُ وَالنُّكْرَانِ
لَسْنَا تُشَبِّهُ وَصَفَهُ بِصَفَاتِنَا	إِنَّ الْمُشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ
كَلَّا وَلَا نُخْلِيَهُ مِنْ أَوْصَافِهِ	إِنَّ الْمُعَطَّلَ عَابِدُ الْبُهَّانِ

وانظر - بتصرف: «القصيدة النونية» للإمام ابن القيم مع شرحها للشيخ محمد خليل هرَّاس - رحمة الله تعالى. [٢/٦٥-٦٧] طبعة دار الشريعة - سنة ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م - الطبعة الأولى. وقد شرح المؤلف هذه الجزئية بتفصيل أكثر من هذا في دروس «توضيح شرح العقيدة الطحاوية»، فارجع إليها.

## الفصل الثاني

حظر العبد من اسم الله تعالى «القدوس»

□ الحظ الأول: تنزيه العبد لعلمه وإرادته

□ الحظ الثاني: تقدس العبد نفسه ليكون أهلاً لجاورة القدس

في حظيرة قدس سبيحانه وتعالى

□ الحظ الثالث: الدعاء باسم الله تعالى «القدوس».

وَحَظُّ الْعَبْدُ مِنْ اسْمِهِ الْمَقْدَسِ بَعْلًا مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُهِمَّةِ؛ وَهُوَ عَلَاقَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِذَا الْاسْمِ الْمَبَارِكِ: كَيْفَ يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِكُونِهِ قُدُّوسًا؟ وَكَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ حَظُّهُمْ مِنَ التَّخْلُقِ - بِمَا يَلِيقُ بِالْعَبْدِ - بِهِذَا الْاسْمِ الْمَشْرُفِ؟ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَرْءَ لَا بَدْ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَظٌّ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى كَـ«الرَّحِيمُ، وَالرَّزَّاقُ، وَالوَهَّابُ، وَالسَّلامُ، وَالْمُؤْمِنُ...» إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ مِنَ الْأَسْمَاءِ: أَنْ يَتَصَافَّ - بِمَا يَلِيقُ بِالْعَبْدِ - بِصَفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ حَتَّى يَتَرَقَّى إِلَى هَذِهِ الْدَّرَجَاتِ الْعَالِيَّةِ فِي تَوْحِيدِ الرَّبِّ بَعْلًا وَمَعْرِفَتِهِ وَمَحْبَبَتِهِ وَالْمُتَعَلِّقِ بِهِ.

### الخط الأول: تنزيه العبد لعلمه وإرادته

فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَأْخُذَ حَظَّهُ مِنْ هَذَا الْاسْمِ الْمَشْرُفِ «الْقُدُّوسُ»، فَعَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّسَ - أَيْ: يُطَهِّرَ أَوْ يُنْزِهَ - إِرَادَتَهُ وَعِلْمَهُ أَوْلًا .  
ولكن كَيْفَ يُنْزِهُ الْعَبْدُ إِرَادَتَهُ وَعِلْمَهُ؟ ..

### أولاً: تنزيه العلم:

يُنْزِهُ الْعَبْدُ عِلْمَهُ بِأَنْ يُحْصِلَ مِنَ الْعِلُومِ مَا لَوْ سُلِّبَ هَذَا فِي حِسْبِهِ وَتَخْيِيلِهِ بَقِيَ رَيَانًا بِالْعِلُومِ الْشَّرِيفَةِ الْكُلِّيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَمَحْبَبَتِهِ.

وَأَنْ يَنْزِهَ فِي عِلْمِهِ عَنْ كُلِّ الْعِلُومِ الَّتِي لَا يَكُونُ لَهَا حَظٌّ فِي مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ بَعْلًا وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ. وَبِقَاءُ هَذِهِ الْعِلُومِ الْشَّرِيفَةِ الْكُلِّيَّةِ الإِلَهِيَّةِ أَنْ يَكُونَ رَيَانًا مِنْهَا، مُمْتَلِئًا مِنْهَا. وَهِيَ الْعِلُومُ الَّتِي لَا حَدُودَ لِمَحْمُودِيَّتِهَا؛ فَهِيَ مَحْمُودَةٌ إِلَى أَقْصَى دَرْجَةِ مُكْنَةٍ وَلَا غَايَةَ لِحَمْدِهَا لِأَنَّهَا الْعِلُومَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَاهُ وَصَفَاتِهِ بَعْلًا؛ إِذْ كُلُّمَا ازْدَادَ الْمَرْءُ مِنْهَا ازْدَادَ مُحْبَبَتِهِ لِرَبِّهِ .. وَتَعْلِقًا بِهِ .. وَتَوْحِيدًا لَهُ.. كُلُّمَا ازْدَادَ مِنْهَا ازْدَادَ قُلُّهُ نُورًا وَطَمَانِيَّةً وَسَكِينَةً وَيُقِنَّا

وإِخْبَاتًا وَتُوكِلًا وَخُوفًا وَخُشْيَةً وَرَجَاءً وَمِيلًا إِلَيْهِ تَبَّاعًا وَزَهْدًا فِي الدُّنْيَا وَإِقْبَالًا عَلَى الْآخِرَةِ  
وَاسْتِقْامَةً عَلَى طَرِيقِ اللَّهِ تَعَالَى. فَهَذِهِ هِيَ الْعِلُومُ الَّتِي لَا حَدَّ لِحَمْوَدِيَّتِهَا، وَلَا غَايَةَ لِهَا  
فِي قِبْلِ الْمَرْءِ عَلَيْهَا وَيَتَزَوَّدُ مِنْهَا.

فَالْمَرْءُ يَبْحَثُ عَنْ أَيِّ عِلْمٍ إِذَا حَتَّى يَكُونَ مُتَقدِّسًا؟

الجواب: يبحث عن العلم الشريف المتعلق بالرب ﷺ وتوحيده ومحبته ومعرفته  
والإقبال عليه والتعلق به وحسن التوكل عليه واليقين فيه... إلى آخر ما ذكرنا من هذه  
العلوم المحمودة المتعلقة بالرب ﷺ وأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

### ثانيًا: تنزيه الإرادة:

وَكَيْفَ يُقَدِّسُ الْمَرْءُ إِرَادَتَهُ؟ .. يَعْنِي كَيْفَ يُقَدِّسُ قَصْدَهُ وَتَوْجُّهَهُ وَنِيَّتِهِ وَطَلْبَهُ؟

الجواب: أنه يتقدس له ذلك بأن تكون إرادته منزهةً أن تدور حول الحظوظ  
البشرية التي ترجع إلى لذات الشهوة والغضب ومتاعة الطعام والمنكح والملبس والملمس  
والمنظار، وما لا يصل إليه من اللذات إلا بواسطة الحسن والقلب، فيقدس إراداته بألا  
يريد إلا الله تعالى، ولا يبقى له حظ إلا في الله تعالى، ولا يكون له شوق إلا إلى لقاء الله  
تعالى، ولا فرج إلا بالقرب من الله تعالى.

وعلى الجملة: فينبغي أن يخرج المرء من أن يشارك البهائم في حظوظها<sup>(۱)</sup>؛ لأن هذه  
الحظوظ التي ذكرنا من لذة الشهوة ومتاعة المأكل والمشرب والملابس والملمس والنظر...  
كل ذلك يشارك المرء فيه البهائم، فينبغي على المرء أن يتأنزه في إراداته عن أن يشارك

(۱) راجع لما سبق «المقصد الأسمى»: [ص ۵۱ - ۵۳].

البهائم فيها، وأن تكون حظوظه في أن يُقدّس إرادته عن غير الله تعالى، فلا يريد إلا الله جل وعلا، ولا يبقى له حظٌ إلا حظه من الله تعالى.

فإن حَصَلَ هَذَا الْحَظْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ حَصَلَ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَبُّهُ فَمَنْ يَكُنْ لَهُ؟! وَإِذَا فَاتَهُ حَظُّهُ مِنْ رَبِّهِ فَمَاذَا حَصَلَ؟! حَصَلَ الزَّائِلُ الَّذِي يُشَارِكُ فِيهِ الْبَهَائِمُ!!

وفي ذلك الكلام عبرةٌ تطلع المرأة على حاله، وتؤكد عليه أن حظوظه وإرادته غير مقدسة لأن كل ذلك متوجّه إلى تحصيل شهواته التي يُشارك فيها البهائم، ويُضيّع فيها وقته وجهده، ويُفْنِي فيها عمره وصحته. وإذا تيقن المرأة من نفسه هذا الحال السيئ فليسارع إلى التوبة من ذلك والاجتهد في تطهير إرادته؛ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: ألا يكون له شوقٌ إلا إلى لقاء الله تعالى، ولا فرحة إلا بالقرب من الله تعالى. يعني: ليس له شوق إلى امرأة جميلة، ولا إلى مأكل شهيٍّ، ولا إلى ملبس كذا ولا في كذا.. وإنما شوقه إلى لقاء الله تعالى. ولا يفرح بتحصيل الزائل من الدنيا مهما كان، إنما فرحة بالله؛ إن امتلاً قلبه بالفرح بربه حاز كل الأفراح في الدنيا والآخرة، وإن فاته ربُّ فهو في الغم والنكد الذي يعيش فيه المرأة اليوم..

قال تعالى: «فَلَنْ يَفْضُلَ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلَيَفْرُحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» [يونس: ٥٨].

فجلالة المرشد على قدر جلاله مراده. يعني: من كان مراده ونيته الإخلاص لله تعالى وتحصيل رضا ربِّه جل وعلا، فدرجته عند الله جليلة كقدر مراده ذلك. ومن همته ما يدخل في بطنه فقيمتُه ما يخرجُ منه، لذلك ضرب النبي ﷺ ما يخرجُ من المرأة مثلاً

للدنيا... الحديث. أكلوا وشَرِبُوا وشَبِعُوا وجامَعُوا وحَصَّلُوا كُلَّ الشهوات، وبعد ذلك خَرَجُوا كُلَّ هذا في الحُشوش<sup>(١)</sup>، فضرَبَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ذلك كله مثلاً للدنيا التي يَتَعَارَكُونَ عَلَيْها.. هي في النهاية ما يَخْرُجُ مِنْهُمْ.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ هِمَةٌ سُوِيَ اللَّهُ فَدَرَجَتْهُ عَلَى قَدْرِ هِمَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: «هُمْ دَرَجَتْهُ عِنْدَ

أَلَّاهُ [آل عمران: ١٦٣].

وَمَنْ تَرَقَّى فِي عِلْمِهِ فِي مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَقَدَّسَ إِرَادَتَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ نَزَلَ بِحُبُوحَةَ<sup>(٢)</sup> حَظِيرَةِ الْقُدُسِ، وَكَانَ أَهْلًا لِمُجاوِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَنَّتِهِ.

### الخط الثاني:

تَدِيسُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ لِيَكُونَ أَهْلًا لِمُجاوِرَةِ «الْقُدُسِ» فِي حَظِيرَةِ قُدُسِهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا سُتْكِمَالُ الْمَعْانِي الْمُتَعَلِّقَةُ بِأَنْ يَأْخُذَ الْمَرءُ حَظَّهُ مِنْ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى «الْقُدُسِ» - بَعْدَ أَنْ يَقْدِّسَ إِرَادَتَهُ وَعِلْمَهُ - نَذْكُرُ الْكَلَامَ الْأَتَى لِلإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى<sup>(٣)</sup>:

(١) «الْحُشوش» يعني: الْكُنْتُفُ وَمَوَاضِعُ قَضَاءِ الْحَاجَةِ، الْوَاحِدُ: حَشْ - بِالْفَتْحِ. وَأَصْلُهُ مِنْ «الْحَشْ»: الْبُسْتَان؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَتَغَوَّطُونَ فِي الْبُسْتَانِ. اهـ مِنْ «النَّهَايَةِ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ»، مَادَة: [ح ش ش ش].

(٢) «بِحُبُوحَةِ الدَّارِ»: وَسْطُهَا - بضم الباءين. انظر: «مختار الصَّحَاحِ»، مَادَة: [ب ح ح].

(٣) انظر: «إِغَاثَةُ الْلَّهَفَانِ»، لِلإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، «الْبَابُ السَّابِعُ»: فِي طهارةِ الْقَلْبِ مِنْ أَدْرَانِهِ وَأَنْجَاسِهِ» [ص ٥٩ - ٥٢]. طبعة مكتبة عاطف، بتحقيق وتصحيح: فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

يقول عليه السلام: «أن يُداوم» المرأة «على تقديس نفسه» .. يعني: على تطهير نفسه «للملك القدوس عليه السلام؛ فیُظہر نفسَه ظاهراً وباطناً.

وليعلم أن جنة القدس» التي قدّسها الله تبارك وتعالى وهي حظيرة القدس «لا يسكنها إلا من قدّس نفسه لله تعالى؛ لأن الله تعالى هو القدس، ولا يمكن أن يجاوره في جنته إلا من كان قدوساً كذلك» يعني: مُتطهراً .. كما قال الله تعالى: «سَلَامٌ عَلَيْكُم طَبِيعَتُمْ فَادْخُلُوهَا خَلِيلِينَ» [الزمر: ٧٣]، وقال أيضاً عليه السلام: «الَّذِينَ تَوَفَّنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ» [الحل: ٣]، فلا يدخل الجنة إلا من كان طيباً متطهراً متقدساً يليق بمجاورة القدس عليه السلام.

فكيف يكون هو القدس ويجاوره في جنته من فيه خبث في إرادته وعلمه ونفسه ظاهراً وباطناً؟! ومن كان فيه هذه الشهوات التي يُشارك فيها البهائم كيف يجاور ربّه القدس عليه السلام؟!

لذلك قال: «وَهَذِهِ الْجَنَّةُ لَا يَسْكُنُهَا إِلَّا مَنْ قَدَّسَ نَفْسَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا يَدْخُلُهَا حَيْثُ وَلَا مَنْ فِيهِ شَيْءٌ مِّنَ الْخَبَثِ» فمن تطهّر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاسته دخل الجنة بغير مُعوّقة. ومن لم يتّطهّر في الدنيا، فإنّ كانت نجاسته عينيه كالكافر - لأن الله تعالى سمي المشركيين «نجس» [التوبه: ٢٨] - لا يدخل الجنة بحالٍ. وأما من كان فيه نجس، أي: فيه خبث من خبث الدنيا من أهل الإيمان، فإنّ كانت نجاسته كسبيةً عارضةً دخل الجنة بعدما يتّطهّر في النار من تلك النجاست.

حتى إنّ أهل الإيمان إذا جاؤوا الصراطَ حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهذبون وينتفون من بقايا بقائِت عليهم؛ فصُرِّتْ بهم عن الجنة ولم تُوَهِّبْ لهم دخولَ

النار، حتى إذا هُدِّبوا ونُقُوا و كانوا أهلاً لمحاورة الله تعالى أَذْنَ لهم في دخول الجنة<sup>(١)</sup> وهذا ينبغي أن يُحْيِفَ المرأة وأن يُطْلِعَه على مَوْقِفِه الذي يلاقى به رَبَّهُ في الآخرة، فيسارع في تقدیس نفسه على سنة الرسول ﷺ وأصحابه المُكَرَّمين.

وحتى في الدنيا فإن الله تعالى لا يدخل عليه إلا أن يكون مقدّساً.

فاللهُ بِحِكْمَتِه جَعَلَ الدُخُولَ عَلَيْهِ فِي الدُنْيَا مَوْقُوفًا عَلَى الطَّهَارَةِ، فَلَا يَدْخُلُ الْمُصْلِي عَلَيْهِ حَتَّى يَتَطَهَّرَ. وَكَذَلِكَ جَعَلَ دُخُولَ الْجَنَّةِ مَوْقُوفًا عَلَى هَذِهِ الطَّهَارَةِ، فَلَا يَدْخُلُهَا إِلَّا طَيِّبٌ طَاهِرٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «سَلَّمُ عَلَيْكُمْ طَيْبَتُمْ...» [الزمر: ٧٣]، فَهَمَا طَهَارَتَانِ: «طَهَارَةُ الْبَدْنِ» و«طَهَارَةُ الْقَلْبِ»، وَهَذَا شُرُعٌ لِلْمُتَوَضِّعِ الَّذِي يَتَطَهَّرُ لِيَقْفَأْ أَمَامَ رَبِّهِ بِعَقِيبَ وُضُوئِهِ أَنْ يَقُولَ: «أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّاينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»<sup>(٢)</sup>.

فإذا تَطَهَّرَ في ظاهرِه وبُدنِه فإنه لا يستطيع أن يَقْفَأْ بين يَدَيْ رَبِّهِ بِعَقِيبَ وُضُوئِهِ أَنْ يَكُونَ طَاهِرَ الْقَلْبِ كَذَلِكَ؛ قد تَطَهَّرَ قَلْبُهُ مِنَ الْأَرْجَاسِ وَالْأَنْجَاسِ وَالآفَاتِ السَّيِّئَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْذَمِيمَةِ وَالصَّفَاتِ الْمَرْذُولَةِ الَّتِي لَا يَلِيقُ بِالمرءِ أَنْ يَقْفَأْ بِهَا أَمَامَ اللهِ بِعَقِيبَهِ.

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْحَدَّادِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِّنُوا بِقَنْطَرَةٍ يَبْيَنُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، فَيَنَّاصُونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُوا وَهُدِّبُوا أَذْنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ: لَا يَحْدُثُمْ بِمَسْكِنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدْلُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا». أَخْرَجَهُ الإِمامُ البَخَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي صَحِيحِهِ: [٢٤٠].

(٢) أَخْرَجَهُ الإِمامُ مُسْلِمُ [٢٣٤] دُونَ قَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّاينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ». وَأَخْرَجَهُ بِتَهَامَهِ التَّرمذِيِّ [٥٥]. كَلَامًا مِنْ رِوَايَةِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ إِلَيْهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لذلك أمرك الله تعالى إذا أرادك أن تقف بين يديه أن تكون مُتطهراً بالطهارتين؛ مُتقدساً في بدنك وقلبك حتى يقبلك يَقْبِلَكَ اللَّهُ، وحتى يقبل منك ما تقبل عليه به من العبادة ومن الذكر، وحتى يفتح عليك يَفْتَحَ عَلَيْكَ اللَّهُ - بِإِقْبَالِهِ عَلَيْكَ - باب التدبر والتأمل والتفكير في كلامه تعالى، وبذا ترقي درجتك عنده تبارك وتعالى. لذلك ذكر أن الصلاة لا يقبل إلا نصفها.. ربها.. ثلثها.. إلى عشرها، كما ورد في الأثر<sup>(١)</sup>.

فلما اجتمع له الطهران - الظاهر والباطن - صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته؛ ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في بداية الصلاة: «اللَّهُمَّ طَهُّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالشَّلْجِ وَالْبَرَدِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) عن عَمَّارِ بْنِ يَاسِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْعَبْدَ لِيَصْلِي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عَشْرُهَا.. تُسْعُهَا.. ثُمَّنُهَا.. سُبْعُهَا.. سُدُّسُهَا.. حُسْنُهَا.. رُبْعُهَا.. ثُلُثُهَا.. نِصْفُهَا». رواه الإمام أحمد بْنُ حَنْبَلَ [٤ / ٣٢١] الطبعة الميمنية. قال الشيخ شعيب في التحقيق: «حديث صحيح». وبنحوه أبو داود [٧٩٦]. قال المناوي بْنُ حَنْبَلَ في «الفيفي»: «أراد أن ذلك مختلف باختلاف الأشخاص بحسب الحشو والتذير ونحو ذلك، مما يقتضي الكمال. وفي بعض الروايات: «إنَّ الْعَبْدَ لَيُسَرِّ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ» أي: فُيكتب له منها ما عَقَلَ فقط، وذلك فضل عظيم عند الله؛ لأن صلاته كانت في موجب الأدب أسع إلى العقوبة منها إلى أن يكتب له ما عَقَلَ، إذ لا يدرى بين يدي من هو حتى يلتفت إلى غيره بقلبه وهو واقف راكع ساجد بجسده!» اهـ من «الفيفي»: [٤٣٢ / ٢] طبعة مكتبة مصر - الطبعة الثانية - سنة ١٤٢٤ هـ، ٢٠٣ م.

(٢) متفق عليه من رواية علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: البخاري [٦٣٦٨]، ومسلم [٥٨].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «سألتُ شيخ الإسلام ابنَ تيمية<sup>(١)</sup>: كيف يُطهّرُ الخطايا بالبارد؟ وما فائدة التخصيص بذلك - يعني: بماء البارد - والحاوٌ أبلغُ في النظافة؟».

يعني: هل الماء البارد هو الذي سُيُطهّرُ الخبث والنجلة والأدران أم الماء الحار هو الذي يُدْهِبُها؟!

(١) هو أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ... الْحَرَانِيُّ الْأَصْلُ وَالْمُولَدُ، الدمشقيُّ الدارِيُّ الْحَنَفِيُّ، المعروضُ بابن تيمية - «وتيمية» لقب جده الأعلى - الإمام العلامة، الحافظ الحجّة، فريدُ دَهْرِه، ووحيدُ عَصْرِه، وشهرته تُغْنِي عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره. ولد بحران سنة ٦٦١هـ، وقدّم به والده وبأخوه إلى دمشق عند استيلاء التتر على البلاد سنة ٦٦٧هـ، فسمع بها من الشيخ ابن عبد الدائم، وابن عساكر، وابن الصيرفي، وابن علان، وخلق كثیر.قرأ وبرع في علوم الحديث، ودرس وأتقى، وفاق الأقران وصار عجباً في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتلوّس في المنقول والمعقول والإطالة على مذاهب السلف والخلف، وتتصدّر للإقراء والإفادة عدة سنين، وفسّر، وصنّف التصانيف المفيدة. وانتهت إليه الرئاسة في مذهب الإمام أحمد رض. أثني عليه جماعة من أعيان علماء عصره، مثل الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد وغيره. قال الشيخ شمس الدين: «ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشدّ استحضاراً للتون الأحاديث وعزّوها إلى الصحيح أو المسند أو السنن، كان ذلك نصب عينه وعلى طرف لسانه». ومصنفاته أكثر من مائتي مجلد، منها: «مجموعة فتاويه»، و«السياسية الشرعية»، و«اقتضاء الضراط المستقيم»... وغير ذلك. وقد امتحن، وأوذى مرات، وحبس بقلعة القاهرة والإسكندرية، وبقلعة دمشق مرتين، وتوفي بها في سنة ٧٢٨هـ، ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر من الدواة والورق. انظر: «ذيل طبقات الحنابلة»، «الوافي بالوفيات»، «الدرر الكامنة»، «العبر في خبر من غير»، «المنهل الصافي»، «معجم المؤلفين».

يقول: «قال» يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية «الخطايا تُوَهِّبُ للقلب حرارةً ونجاسةً وضعفًا» أي: حرارة الشهوات والإقبال عليها ومحبتها والانتظار لها والسعى إليها، فكلما أخطأ المرء وجدتَه قد اشتعل قلبه بمزيد الخطايا والنظر والشهوة وسماع السوء... وغير ذلك، وفي نفس الوقت تُوَهِّبُ له ضعفًا لا شك؛ لأنَّه لَمَّا كانت هذه الخطايا قد عَلَّتِ القلب أضعفَته، ولَمَّا عَلَّتِه علاهُ هذا الرَّأْنُ؛ أي تلك النجاسة التي يتتجس منها القلب؛ لأن نجاسة القلب إنما هي في هذه الخطايا التي يَتَابَّسُ بها.

لذلك يقول: «فَإِنْ تَخْيِي الْقَلْبُ وَتَضْطَرِّمْ بِهِ نَارُ الشَّهْوَةِ وَتُنْجِسْهُ؛ فَإِنَّ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ لَهُمْ بِمِنْزَلَةِ الْحَطَبِ الَّذِي يَمْدُدُ النَّارَ وَيُوقِدُهَا، وَلَهُذَا كُلَّمَا كَثُرَتِ الْخَطَايَا اسْتَدَدَّتِ نَارُ الْقَلْبِ بِبَقِيَّةِ الْخَطَايَا وَضَعُفَ الْقَلْبُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ عَنْ مَقَوْمَةِ الشَّهْوَةِ، وَالْمَاءُ يَغْسِلُ الْخَبَثَ وَيُطْفِئُ النَّارَ». لذلك قال: «بِالْمَاءِ الْبَارِدِ» حتى يطفئ هذا الماء البارد هذه النار من نار الشهوات، ويغسل هذا الخبث الذي عَلَّ على القلب، «فَإِنْ كَانَ بَارِدًا أَوْرَثَ الْجَسْمَ صَلَابَةً» أي: عندما يكون الماء بارداً يورث الجسم صلابةً وقوهً، «فَإِنْ كَانَ مَعَهُ ثَلْجٌ وَبَرَدٌ كَانَ أَقْوَى فِي التَّبَرِيدِ وَصَلَابَةِ الْجَسْمِ وَشَدَّتْهُ فَكَانَ أَذْهَبَ لِأَثْرِ الْخَطَايَا» وهذا معنى كلامه رحمه الله تعالى.

والربُّ جلَّ وعلا أمر المؤمنين أن يتظروا بهذا الماء ليدخلوا على الله تعالى مُتَقَدِّسين به، وإن لم يجدوا ذلك الماء، أمرهم بالصعيد الطيب الطهور، كما قال تعالى: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَكَبَّمُوا صَعِيدًا طَيْبًا» [المائدah: ٦]، وقال ﷺ: «وَجَعَلْتُ لَنَا الْأَرْضَ مَسْجِدًا، وَجَعَلْتُ تُرْبَتَهَا لَنَا طَهُورًا»<sup>(١)</sup>. فلم يقبلهم حتى يتظروا ويتقىدوا ليدخلوا عليه تبارك وتعالى، ولا

(١) رواه مسلم [٥٢٢] من رواية حذيفة رض.

يمكن الدخول عليه إلا بالطهارة؛ ثم ماذا تغنى طهارة البدن في الظاهر عن طهارة القلب المتسخ بأدران السيئات والذنوب والخطايا، لذلك كانت الطهاراتان مطلوبتين حتى يُقبل المرء ويدخل على الله تعالى.

ومن ثمَّ كان من الإيمان لزوم المرء هذه الطهارة وذلك التقديس، حتى إنه نهَا ﷺ أن يصلِّي إلا على مكان طاهر، وألَا يصلِّي في الأماكن النجسة: في المزبلة والحمام والمقبرة؛ لأنها لا ينبغي أن تكون محلاً لوقوف المرء بين يدي الله تبارك وتعالى، بل كل ما يتعلق بوقوف المرء بين يدي الله لا بد أن يكون متطرهراً متقدساً ليليق بمقام المؤْلَى ﷺ، يعني: بمقام المرء في وقوفه بين يدي مولاه.

وفي نهاية المطاف في الآخرة: هؤلاء الذين عليهم هذا الخبر يدخلون النار «حتى إذا احتمشوا وصاروا همّا يخرجون بشفاعة الله ﷺ ويُلْقَوْنَ - كما يقول الحديث - على باب الجنة يُصْبَبُ عليهم من نهر الحياة، فَيَنْبَتُونَ كَمَا تَبَنِّتِ الْحَبَّةُ فِي مَسِيلِ السَّيْلِ» حتى يتظهروا ثم يدخلوا الجنة. يعني: لا يدخل الجنة أبداً من كان عليه شيءٌ من الخبر؛ حتى إذا أتى الله تعالى بشيءٍ من ذلك فإنه ساعتها لا بد أن يُتَطَهَّرَ.

وهذا ما يجعل همَّ المرء اليوم قبل الغد؛ كيف يتظهَر في كل شيءٍ من أمره؟ فهذه الطهارة التي أمر الله تعالى بها ليست للصلوة والوقوف بين يديه فقط، ولكن - كما أشرنا - لا بد أن يتظهَر في كل حظ من حظوظه في الدنيا، وكذلك أن يتظهَر في بدنِه؛ أن يُطَهَّر لسانَه عما لا يليق إلا بالله تعالى.. فيظهر لسانَه عن السبِّ والشتِم والغيبة، فليس متظهراً مَنْ كان سبَّاباً لعاناً شتماً ساخراً مستهزءاً، فلم يتقرب ولم يأخذ حظه من الله تبارك وتعالى من اسمه «القدوس» جلَّ وعلا. وكذلك أن يظهر سمعَه وبصرَه ويدَه

ورِجْلَه كَمَا طَهَر إِرَادَتَه وَعِلْمَه وَفَوَادَه. لَذُلُك يَقُول النَّبِي ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»<sup>(١)</sup>. يَعْنِي: مِنْ أَمْرِ النِّجَاسَةِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَقَدَّسَ مِنْهَا وَأَنْ يَطَهَّرَ مِنْهَا، فَلِئِسَ الْمُؤْمِنُ - كَمَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ - لَعَانًا أَوْ سَبَابًا أَوْ فَاحِشًا أَوْ بَذِيَّاً<sup>(٢)</sup>.

وَعَلَى ذَلِكَ؛ لَكِي يُقَدِّسَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ لِيَكُونَ أَهْلًا لِلقاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ يُطَهَّرَ بِدَنَّهُ وَجُوارِحَهُ كَامِلَةً، وَأَنْ يَطَهَّرَ قَلْبُهُ وَإِرَادَتُهُ وَعِلْمُهُ. فَإِذَا مَا يَطَهَّرَ مِنْ ذَلِكَ وَبَقِيَ عَلَيْهِ الْخَبْثُ وَذَهَبَ إِلَى الْآخِرَةِ بِهَذَا الْحَبْثِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا بُدَّ أَنْ يُهْذَبَ وَيُنَقَّى قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

عِلْمَ الْمَرْءِ مَا تَقْدِيمُ فَدْخُلُ قَلْبَهُ الْخُوفُ وَالرَّجَاءُ، فَعَقَدَ العِزَّمَ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ بِحَظْهِ مِنْ هَذَا الْاسْمِ الْمُشَرَّفِ؛ لِيَكُونَ سَبَابًا لِلْدُخُولِهِ عَلَى اللَّهِ تَبارَكُ وَتَعَالَى، وَأَهْلًا لِمُجاوِرَتِهِ فِي جَنَّتِهِ نَعَمَّالَهُ، وَأَنْ يَكُونَ قَدوْسًا مُنْتَهَرًا فِي الدُّنْيَا، طَيِّبًا كَمَا ذُكِرَ اللَّهُ تَعَالَى: نَزَّلَتْ عَلَيْهِ وَبِهِ بَرَكَةُ اللَّهِ حِيثَ حَلَّ.. حَفَّتْ هِمَّتْهُ إِلَى الْمُجَاهِدَةِ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَمَّتْ نَفْسَهُ إِلَى مُحْبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَاسْتَهَانَتْ بِهَا تَبْذِيلُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ.

(١) متفق عليه من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: البخاري [٤٨]، ومسلم [٦٤].

(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالْطَّعَانِ وَلَا اللَّعَانِ وَلَا الْفَحَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ». أَخْرَجَهُ التَّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ [١٩٧٧]، وَالحاكمُ وَصَحَّحَهُ [ح: ٢٩] الْطَّبْعَةُ الْعِلْمِيَّةُ. [وَ«الْطَّعَانُ» أَي: الْعِيَابُ لِلنَّاسِ أَوِ الْوَاقِعُ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ بِنَحْوِ ذَمٍّ أَوْ غِيَّبَةٍ، وَ«اللَّعَانُ» أَي: فَاعِلُ الْفَحْشَ أَوْ قَاتِلُهُ، وَ«الْبَذِيءُ» هُوَ الَّذِي لَا حِيَاءَ لَهُ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الشَّارِحَاتِ]. اهـ - بِتَصْرِيفِ - مِنْ «الْفَيْضِ» لِلْمَنَاوِيِّ، وَ«الْحَفَّةِ الْأَحْوَذِيِّ» لِلْمَبَارِكَفُوريِّ.

### الخط الثالث: الدعاء باسم الله تعالى «القدوس»

وهو من حظ المؤمن من اسمه تعالى «القدوس»؛ أن يدعوه بِنَامِهِ به كما ذكر: «وَلَهُ  
الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا» [الأعراف: ۱۸۰]. ولدينا في الدعاء: دعاء الثناء، ودعاء المسألة، ودعاء  
العبادة.

#### أولاً: دعاء المسألة:

ودعاء الثناء ودعاء المسألة يدخلان بعضهما في بعض، يعني: أن يُثني على الله تعالى  
بهذا الاسم المشرف، وأن يدعوه به بِنَامِهِ أن يُهين له أمور طهارته وتقديسه.

معنى أنك إذا أردت أن تصير على هذا الحال من التقديس والتبريك والتطهير، أن  
تدعوا الله تعالى باسمه «القدوس». فإذا كان لسانك فيه شيء من النجاسة، ونظرك  
وسمعك وبصرك كذلك فيهم هذه الحظوظ من حظوظ الشهوات التي تنجس العين  
وتُتوقع القلب في هذا الرّآن وهذه النجاسات، فإنك بدعاء الله تعالى باسمه «القدوس»  
يوشك أن يرفع عنك هذا النجس، ويُطهرك بِنَامِهِ من هذه القاذورات. فإذا ما داومت على  
دعاء الله تعالى - دعاء المسألة والثناء - باسمه «القدوس»: أن يُقدسك ويطهرك من  
أمراضك وعليلك التي أنت فيها، فإنه إذا رأوك مُقْبلاً مُهتمناً خائفاً على آخرتك وخائفاً أن  
تُطهّر في النار.. بسبب ذلك يوشك أن يفتح عليك في الدنيا، وأن يُطهرك من ذلك، وأن  
يُعينك عليه بِنَامِهِ، فيُطهّر إرادتك وقلبك وعلمك وبدنك وجوارحك.

وقد ورد الدعاء بهذا الاسم «القدوس» بِنَامِهِ في حديث عائشة حَدَّثَنَا أَنَّهُ بِنَامِهِ أثني  
على الله تعالى به عشر مرات، يُكرّر فيها هذا الاسم بِنَامِهِ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ

الملِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ...» عشر مرات. ثم بعد ذلك دعا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فقال:  
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا وَضِيقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

فهذا الدعاء، أن تقول: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ...» فتذكر هذا الاسم كثيراً ثم تدعوا الله تبارك وتعالى بما شئت من تقديس وتطهير وتبريك، تريده من الله تعالى أن يُكرنك به.

### ثانية: دعاء الثناء والمدح:

وأمام دعاء الثناء والمدح؛ فورد ذلك في الركوع في قوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: «سُبُّوحُ قُدُّوسُ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود [٥٠٨٥]. والحديث حسن الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار، [١/١٢٠]، دار ابن كثير، الطبعة الأولى - سنة ١٤٢١ هـ. ونذكر تمام الحديث للفائدة: عن شرقي الموزري قال: «ذَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ كَفَسَأَلَتْهَا: يَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَفْتَحُ إِذَا هَبَّ مِنَ اللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلْنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ، كَانَ إِذَا هَبَّ مِنَ اللَّيْلِ كَبَرَ عَشْرًا وَحَمَدَ عَشْرًا وَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» عَشْرًا، وَقَالَ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ» عَشْرًا، وَاسْتغَرَ عَشْرًا، وَهَلَّ عَشْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا وَضِيقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» عَشْرًا، ثُمَّ يَفْتَحُ الصَّلَاةَ». وانظر للفائدة شرح الملا علي القاري لهذا الحديث في «مرقة المفاتيح».

(٢) أخرجه الإمام مسلم [٤٨٧]، وأبو داود [٨٧٢]؛ كلاهما من روایة السيدة عائشة بِنْتُ عَائِشَةَ مرفوعاً إلى النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كما ورد أيضاً اسم الله تعالى «القدوس» في دعاء الثناء والمدح بعد الفراغ من صلاة الوتر: عن عبد الرحمن بن أبي زرعة قال: «كَانَ النَّبِيُّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُوتَرُ بِسَجَّعِ أَسْمَرَيَّةِ الْأَعْغَى» و«قُلْ يَتَائِبُ الْكَافِرُونَ» و«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُنْصَرِفَ مِنَ الْوَتْرِ قَالَ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ» ثَلَاثَ مَرَاتٍ، ثُمَّ يَرْفَعُ إِلَيْهَا صَوْتَهُ فِي الثَّالِثَةِ». أخرجه الإمام أحمد [٣/٤٠٦] الطبعة الميمنية. قال

وهذا الدعاء يمكن أن يكون من دعاء المسألة أيضاً؛ لأن المرأة إذا أراد من الله تعالى شيئاً: أن يُثني عليه أولاً بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأن يصلى على النبي ﷺ، وأن يتأدب بآداب الدعاء، ويقول: «سُبُّوحٌ قدُوسٌ ربُّ الملائكة والروح»، وبعد أن يذكرها أعداداً ما شاء الله له أن يذكرها، يدعوه بكونه السُّبُّوح القدُوس ربُّ الملائكة والروح ﷺ، أن يُقضِي له كذا، وأن يُطهِّرَه من كذا، وأن يبارك عليه في كذا وكذا مما يحتاجه المرأة، وهو لا يزال محتاجاً وسيظل محتاجاً إليه ﷺ.

### ثالثاً: دعاء العبادة:

و«سُبُّوحٌ قدُوسٌ» كذلك من دعاء العبادة الذي يذكره المرأة.. يتبعه ربَّه به كما ورد عن النبي ﷺ في ركوعه<sup>(١)</sup>.

### الدعاء بالوصف الذي تضمنه الاسم

وما ورد في الدعاء بالوصف الذي تضمنه هذا الاسم هذا الحديث الجميل المعانى:

الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده صحيح على شرط الشيفين». وأخرجه أيضاً بنحوه النسائي<sup>(٢)</sup> [١٧٣٣].

(١) وعن الصحابية يُسْيِرَة بنت ياسر رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُنَّ أَنْ يُرَايِنَ بِالنَّكِيرِ وَالْتَّقْدِيسِ وَالْتَّهْلِيلِ وَأَنْ يَعْقِدُنَّ بِالْأَنَاءِ مَسْئُولَاتٍ مُسْتَنْطَفَاتٍ». أخرجه أبو داود [١٥٠١]، وبنحوه الترمذى [٣٥٨٣] واستغربه، والإمام أحمد في مسنده [٦/ ٣٧٠] الطبعة اليمنية. قال صاحب «عون العبود»: [والتقديس، أي: قول «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ» أو «سُبُّوحٌ قدُوسٌ ربُّ الملائكة والروح»] اهـ.

«لَمَّا قَدِمَ جَعْفُرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِّنْ أَرْضِ الْجَبَشَةِ لِقَيْهُ النَّبِيُّ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (أَخْبِرْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ بِأَرْضِ الْجَبَشَةِ)». قَالَ: مَرَأَتِ امْرَأَةٌ عَلَى رَأْسِهَا مِكْتَلٌ فِيهِ طَعَامٌ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ فَأَصَابَهَا فَرْمَى بِهَا. فَجَعَلَتُ أَنْظُرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تُعِيدُهُ فِي مِكْتَلِهَا وَهِيَ تَقُولُ: «وَيْلٌ لَكَ يَوْمَ يَضَعُ الْمَلِكُ كُرْسِيَّهُ فَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ». فَصَحَّكَ النَّبِيُّ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَأْتُ نَوَاجِدُهُ<sup>(١)</sup>، فَقَالَ: (كَيْفَ تُقَدِّسُ أُمَّةً لَا تَأْخُذُ لِصَعِيفَهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعَنِّعٍ؟)<sup>(٢)</sup>، وَوَرَدَ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى؛ قَالَ بُرْجِدٌ: (كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يَأْخُذُ صَعِيفَهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيَّهَا؟)<sup>(٣)</sup>.

وَنُلْقِي بَعْضَ الضَّوءِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ:

لَمَّا قَدِمَ جَعْفُرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِّنْ أَرْضِ الْجَبَشَةِ - وَكَانَ قَدْ هَاجَرَ فِي اللَّهِ تَعَالَى، تَارِكًا أَهْلَهُ وَوَطْنَهُ فَرَارًا بِدِينِهِ - لِقَيْهُ النَّبِيُّ وَسَلَّمَ. وَالنَّبِيُّ وَسَلَّمَ كَانَ يُحِبُّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ حُبًّا جَمَّا<sup>(٤)</sup>؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُشَبِّهُهُ خَلْقًا وَخُلُقًا، حَتَّى قَالَ وَسَلَّمَ: «بِأَيْمَانِهَا أَفْرَحُ بِفَتْحِ خَيْرٍ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟<sup>(٥)</sup>»، وَكَانَ وَافِي النَّبِيِّ وَسَلَّمَ بَعْدَ فَتْحِ خَيْرٍ.

(١) (النَّاِجِدُ): آخر الأَصْرَاسِ، وللإِنْسَانِ أَرْبَعَةُ «نَوَاجِدُ» في أَقْصَى الْأَسْنَانِ.. يَقَالُ: «صَحَّكَ حَتَّى بَدَأْتُ نَوَاجِدُهُ» إِذَا اسْتَغْرَبَ. انْظُرْ - بِتَصْرِفِ يَسِيرٍ: «خَتَارُ الصَّحَّاحِ»، مَادَةٌ: [نَجْذُ].

(٢) قَالَ الْمَنَاوِيُّ فِي (الْفَيْضِ): «غَيْرُ مُتَعَنِّعٍ - بِفَتْحِ التَّاءِ، أَيِّ: مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصْبِيَهُ وَيُزَعِّجَهُ».

(٣) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي (الْسُّنْنَ الْكَبْرِيِّ) [٦/٩٥] طَبْعَةُ دَارِ الْفَكْرِ، وَقَالَ الْذَّهَبِيُّ فِي الْمَهْذَبِ: (إِسْنَادُ صَالِحٍ) [٨/٤٠٧].

(٤) جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيُّ السَّيِّدُ، الشَّهِيدُ، الْكَبِيرُ الشَّائِئُ، عَلَمُ الْمُجَاهِدِينَ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، أَبْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ وَسَلَّمَ، أَخُو عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. هَاجَرَ الْمُهْجَرَتَيْنِ، وَهَاجَرَ مِنَ الْجَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَافَى

فقال ﷺ: «أَخْبِرْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ بِأَرْضِ الْجَبَشَةِ». وهذا من تواضع النبي ﷺ ومحبته لأصحابه وإيناسهم بإقباله عليهم، والسؤال عن أحوال الناس وما ينفع في دين الله والدعوة إليه.

فقال جعفر عليه السلام: «مَرَّت امرأةٌ على رأسها مِكْتَلٌ» أي: امرأة فقيرة، ساعية على رزقها ورزق أولادها، أو غير ذلك. والمِكْتَلُ ما يشبه المقطف «فيه طعام، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَى سَبِيلِ فَرَسٍ» رجلٌ غني متكبر يختال بما هو فيه على خلق الله «فَأَصَابَهَا فَرَمَى بِهَا» على سبيل الكبر والتضاحك بالفقراء والتلاعب بهم. يقول جعفر عليه السلام: «فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تُعِيدُهُ» أي: الطعام، ولا حول لها ولا قوة، تجمعه «في مِكْتَلِهَا وَهِيَ تَقُولُ» أي لهذا الراكب صاحب الفرس: «وَيْلٌ لَكَ يَوْمَ يَضْعِفُ الْمَلِكُ كُرْسِيهِ فَيَأْخُذُ لِلْمُظْلومِ مِنَ الظَّالِمِ». فضحك النبي ﷺ حتى بدأ نواجذه، فقال: «كَيْفَ تُقَدِّسُ أَمَّةً؟» أي: كيف يُبارك عليها؟.. كيف تُطهّر أمةً؟.. «لَا تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ سَدِيدِهَا حَقَّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْنِعٍ» يعني: هذا الضعيف يأخذ حقه، ولا يتَّعْنَى في أخيه، أي: لا يتلجلج ولا يخشى شيئاً.

ال المسلمين وهم على خيرٍ إثْرَ أَخْذِهَا، فَاقْتَامَ بِالْمَدِينَةِ أَشْهُرًا، ثُمَّ أَمْرَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى جَيْشٍ عَزْوَةً مُؤْتَهَةً بِنَاحِيَةِ الْكَرَكِ، فَاسْتُشْهِدَ. وَقَدْ سَرَّ رَسُولُ الله ﷺ كَثِيرًا بِقُدُورِهِ، وَحَزَنَ - وَالله - لِوَفَائِهِ. قَالَ جعفر عليه السلام: «أَشْبَهْتَ حَلْقِيَ وَحَلْقُونِي». أخرجه البخاري [٢٦٩٩]. وعن أبي هريرة عليه السلام قال: «وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ لِلْمُسْكِينِ جَعْفُرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ». أخرجه البخاري موقوفاً [٣٧٠٨]. وانظر ترجمة هذا الصحابي الجليل ومناقبه الحسنة وقصة استشهاده في «سير أعلام النبلاء» [٢١٨ - ٢٠٦]، طبعة الرسالة.

(١) الحديث أخرجه الحاكم [ح: ٤٢٤٩] الطبعة العلمية، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخر جاه». قال الذهبي في «التلخيص»: « صحيح».

وهذا دليلٌ على العكس المفهوم من الكلام؛ «كَيْفَ تُقَدِّسُ أُمَّةً؟» يعني: ستبقى الأمة في انحطاطها وفي نجاستها وفي خستها، طالما لا تأخذ لضعفها حقَّه من قوَّتها. ستبقى أمةً ضعيفةً منكوبةً لا قيمة لها ولا وزن في ميزان الأمم.

وهناك رواية أخرى بالتصريح بالبناء للمعلوم؛ قال بريدة<sup>(١)</sup>: «كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً

لَا يَأْخُذُ ضَعِيفَهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِّيهَا؟».

لعل المرء بهذا الموجز يكون قد عرف اسمًا من أسماء ربه يعرفه بها، وعرف طريقاً يوصله به إليه، ولم ييقَ إلا أن يستعينه على المجاهدة لتحقيق ذلك.

(١) بُرِيَّةُ بْنُ الْحُصَيْبِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَسْلَمِيِّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَقِيلَ: أَبُو سَهْلٍ، وَأَبُو سَاسَانَ، وَأَبُو الْحُصَيْبِ شَهِيدٍ قَالَ الْحَاكِمُ: أَسْلَمَ بَعْدَ اِنْصَارَتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَدْرٍ اهـ. شَهِيدَ غَزْوَةَ خَيْرٍ - وَأَبْلَى فِيهَا بَلَاءَ حَسَنًا - وَفَتَحَ مَكَّةَ، وَكَانَ مَعَهُ الْلَّوَاءَ، وَاسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى صَدَقَةِ قَوْمِهِ. غَزَ خَرَاسَانَ زَمْنَ عَثَمَانَ شَهِيدًا وَنَزَلَ مَرْوَ وَنَشَرَ الْعِلْمَ بِهَا. تَوَفَّى سَنَةُ ٦٢ هـ وَقِيلَ: ٦٣ هـ بِمَرْوَ. اَنْتَهَى مِنْ «سِيرِ الْأَعْلَامِ» [٤٦٩-٤٧١/٢]، وَ«تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ».

# القسم النامس

بِسْمِ اللَّهِ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ

الْوَكِيلُ



## مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعده..

والوکيل من الأسماء الحسنى التي تتعلق بالقلب، فيظهر أثرها على الجوارح، من الرکون إلى الله تعالى، والاستمداد بمدده وقوته، والانخلاع عن كل ثقة ویقين إلا في الله تعالى وقدرته، فيعتصم المؤمن بالله تعالى، آخذًا بالأسباب، غير ناظر إليها، ولا متکل في تحقيق شيء عليها، مجرّدًا قلبه من السکون لغير قضائه وقدره سبحانه وتعالى، وهو محض الإیمان، حيث ذكر صفات المؤمن الحق، فأورد منها التوکل، فقال تعالى: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُقْيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا» (الأنفال: ٤-٢)، ومن ثم أمر بالتوکل عليه، رابطاً ذلك بالإیمان، والحدث به على التوکل فقال تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ» (المائدة: ٢٣).

والتوکل أن تتخذ ربک وکيلاً، يقوم لك بكل حواچنك، ومطلوباتك في الدنيا والآخرة، بل هو يأمرک به ويطلبک منک، أن یتوكل عنك قائمًا لك بكل ذلك، والمرء مسکین ضعيف، لا یستقل بأمور نفسه، وأشغالها، وإن استقل في الدنيا بشيء، فلا يمكن أن یقوم بباقي الأشياء، بل لا بد من معین ومساعد، وإن تحقق له ذلك في الدنيا شيئاً، فلا یستطيع ذلك في أمور الآخرة.

وإن توكل عنك أحد، فيمكن أن تركن إليه، أو أن تثق فيه فيخونك، أو يجهل شيئاً من مطلوباتك وأمورك، وقطعاً لا يقوم بكل الأمور، بل يمكن أن تعتمد عليه فيصبح ميتاً، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْنَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَّعُ بِحَمْدِهِ﴾ (الفرقان: ٥٨)، لا توكل على الضعيف الزائل.

لهذا كان التوكل على الله في إقامة كل شئونك، واستقامة قلبك، وأحوالك وثباتك، في السير إلى الله، والقيام بأعباء الدين، والدنيا، والآخرة، من أهم دعائم الإيمان، وثوابت العقيدة، والأمن على حاضرك ومستقبلك، وهو المدد الذي به يقوم المؤمنون في رفع راية الله تعالى، بقوة وعزم وهمة، إذ هم يقومون بالله تعالى.

كان ما سبق، السبب في أن نُعَجِّل بطبع رسالة هذا الاسم المشرف، داعين الله تعالى أن تكون زاداً لنا ولإخواننا، في حسن السير ومواصلة.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَ بِهِ، إِنَّهُ نَعَمُ الْمَوْلَى وَنَعَمُ النَّصِيرُ.

## الفصل الأول

### معانی اسم الله تعالى «الوکیل»

- أهمیة اسم الله تعالى «الوکیل» واتخاذ الله وکیلاً
- الصفات التي يجب توافرها في الوکیل
- الله تعالى هو الوکیل المطلق الحق
- الدلیل على اسم الله تعالى المشرف «الوکیل»
- أصل کلمة الوکیل واشتقاقاتها في اللغة
- تعريف التوکل
- أقوال العلماء في معنی اسم الله «الوکیل»
- «الوکیل» من حيث كونه وصفاً ذاتیاً لله جل وعلا
- «الوکیل» من حيث كونه وصفاً فعلیاً لله عجل

## أهمية اسم الله تعالى «الوکیل» واتخاذ الله وکیلاً

واسمه «الوکیل» ﴿وَكِيلٌ﴾ من الأسماء ذات المعانى الجميلة التي ينبغي أن تظهر آثارها على المؤمنين، وهي: كيف يُوكِّلُ المرءُ رَبَّهُ تعالى في أن يقوم بحوارئه وأن يقوم بأحواله في الدنيا والآخرة. أنت في الدنيا مسکین تحتاج أن تُوكِّلَ عنك من يقوم بأشغالك ولا تستطيع أن تقوم بكل الأشغال أو كل الأعمال؛ سواء كنت مُقيماً، أو مريضاً، أو مسافراً، أو غير ذلك، فينبعي أن يكون هناك من يقوم عنك ببعض الأشغال. المرء لا يقوم بكل أعماله في العمل، والبيت، والسفر، والشراء، والبيع، والتجارة؛ لذلك فإن هناك في عمله: من يقوم له ببعض أعماله، في سفره: مَنْ يَقُومُ لَهُ ببعض أعماله، في دراسته: مَنْ يَعِينُهُ عَلَيْهَا، في بيته: من يقوم له بأشغال البيت أو يساعده في إصلاحه، أو يقوم له ببعض الأعمال، أو في أولاده: من يقوم على تدريسهم.. إلى غير ذلك. لذلك فإنه ينبغي على المرء أن يوْكِلَ عنه من يقوم له ببعض أعماله أو بكل أعماله إذا لم يستطع القيام بها لعجزٍ أو لرفاهيةٍ.

## الصفات التي يجب توافرها في الوکیل

وهذا الوکیل ينبغي أن تتوفّر فيه صفاتٌ معينةٌ حتى يقوم بمصالح مَنْ وَكَلَهُ، ومن هذه الصفات: العلم، والقدرة، والشفقة، والبراءة من النصيب - يعني: أن يفعل ذلك لا يتضرر منه شيئاً - فلا يمكن أن تُوكِّل جاهلاً يقوم لك بأعمالك، أو توكل عاجزاً يعجز عنها، أو لا يكون شفيراً عليك؛ فإنه لا يُمهِّدُهُ أن تقوم هذه الأعمال أم لا، كذلك أن يكون بريئاً من أن يكون متظراً شيئاً من ورائك، وإلا قدّم مصلحته أو مصلحة المال على مصلحتك، فإن قدمت له المال قام لك بالعمل وإنما لا يقوم به.

الله ﷺ متصف بالعلم والقدرة، بل هو القادر على كل شيء، والعليم جلّ وعلا بكل ذرة وما أصغر من الذرة، وهو الرحيم والرءوف بعباده، وهو الذي لا يريد من عباده جزاءً ولا شكوراً، وإنما يفعل ما يفعل لصلحتهم، ولسعادتهم في الأولى والآخرة. لذلك: فهذه الوكالة مهمة لأنّ يتعلّمها المرء. يعني: أنت مسكون لا تجد من يقوم لك بأحوالك في الدنيا، وإن وجدت من يقوم لك بها في الدنيا فإنه عاجز عن القيام بكل هذه الأحوال، وقد يقع منه غش أو غدر أو خيانة أو تفريط أو تقدير، أو أن يموت فلا تُحصل منه شيئاً، لذلك قال تعالى: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» [الفرقان: ٥٨]. أي: عندما تريد أن تتوكّل، فتوكل على الحي الذي لا يموت؛ لأنّ الحي فقط إذا توكلت عليه في تدبّير أمورك أو قضاء أشيائك، فإنه قد يُصبح ميتاً، وضاع عليك كل ما تريده، وسقط عنك كل ما أردت أن تُحصل عليه منه.

إذا أراد المرء أن يوكل أحداً، فلا بد له حينئذ أن يوكل ربه ﷺ؛ لأنّه يقوم له بأعماله في الدنيا والآخرة، ويقوم له بهذه الأعمال على كمالها، وتمامها، وإحسانها، والشفقة عليه، وكذلك يقوم له بها على قيام الإحسان والفضل واللطف والعطاء، فإذا ما توكل المرء على الله تعالى، وأسند أموره إليه، واعتمد قلبه عليه، ولم يتلفت إلى الأسباب - كما سُنذكر في قضية التوكل، وما يتعلّق بها<sup>(١)</sup> - فإنه حينئذ يتوكّل فعلاً على من يقوم له بأسبابه.

هذه الكلمة قصيرة في معّرض هذا الكلام الذي نسوقه الآن؛ وهو قول بعضهم في هذه المسألة: «إِنَّ مَنْ لَهُ وَكِيلٌ يَتَوَلّ أَشْغَالَهُ فَيُسَأَّلُهُ الْأَجْرَةُ عَلَى أَعْمَالِهِ رَبِّهِ مَنْ يَخْوِنُهُ فِي مَالِهِ، ثُمَّ يَنْخُطُهُ فِي كَثِيرٍ مِّنْ أَحْوَالِهِ»، وربما لا يهتمي لكل الأحوال التي يكون فيها وكيلاً.

(١) انظر الفصل الرابع.

«والحق يَعْلَمُ يأخذ من يرضي به وكيلًا»، فإن رضي به العبد وكيلًا يُتَمَّ له كِيلَةً، «ثم يتحقق له تأميله»، يعني: يتحقق له أمله المرجو من هذه الوكالة، «ويُثْنِي عليه جميلاً»، فإذا وكلَ ربك كِيلَةً أثني عليك كما قال: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبُهُ» [الطلاق: ٣]. والله تبارك وتعالى يُثْنِي على هؤلاء المتكلمين، ويمدحهم، ويحبهم جل وعلا - كما ذكر، وكما سند ذكر لاحقاً إن شاء الله تعالى الآيات الواردة في هذا المعنى <sup>(١)</sup>.

«فالحق يَعْلَمُ إذن يأخذ من يرضي به وكيلًا، ثم يتحقق له تأميله، ويُثْنِي عليه جميلاً، ويعطيه جزيلاً، ولا يسأل الْعَبْدَ على ما يتولاه من أموره عوضاً، بل يضاعف له فضله ونعمه يَعْلَمُ، ويلطف به جل وعلا»، أي: يلطف بالعبد الم وكل عليه <sup>(٢)</sup> - «في دقائق أموره وأشغاله لطفاً لا ترتقي إليه آماله، ولا يأتي على تفضيله سؤاله، وهذا المعنى الجميل سُنَّةَ من الله يَعْلَمُ أمصاها وعادَةً كريمةً بين عباده أجرها».

هذا هو المعنى الذي نقدم به لهذا الاسم المشرف، فإذا علمت أنك قد وكلَ الله تعالى في أمورك، واستندت إليه، وفوضت إليه، ورثقت فيما عنده؛ ثبتَ قلبك، علاوة على ما ذكرنا من هذه الألطف والعطایا التي يفتحها المولى كِيلَةً على العبد. فإنه يَعْلَمُ إذا توكلت عليه إليه ورثقت فيه، فإنه يُثْبِتْ قلبك و يجعل قلبك مرتکناً إليه ساكناً غير مضطرب، فالماء تجده خائفاً على مستقبله، خائفاً على حاله، خائفاً على ماله، خائفاً على ولده، خائفاً أن يمرض، خائفاً أن يحدث له كذا.. فإن توكل على الله تعالى كفاه كل ذلك، كما قال يَعْلَمُ: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبُهُ» أي: كافيه كِيلَةً، وهذه من أخطر القضايا التي

(١) انظر الفصل الثالث.

(٢) انظر معنى اللطف في شرح اسمي الله تعالى «اللطيف» و «القدوس».

يعانىها المؤمنون اليوم، وهي أَهْمَمُ لا يتحققون في الله تعالى، ولا يتوكلون عليه!! وقد أشار الإمام ابن القيم إلى ذلك بأن هناك فارقاً أن يعلم المرءُ التوكلَ ودرجاتِ التوكلِ وحدودَ التوكل.. وكذا وكذا عن التوكل، وأن يتحقق بالتوكل نفسه، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً  
إِن شاء الله تعالى<sup>(١)</sup>.

### اللهُ تعالى هو الوكيل المطلق الحق<sup>(٢)</sup>

فهو الموكول إليه الأمور، وهو الذي قد وَكَلَّتْ إليه الأمور كلها كما ذكر المولى عليه السلام في قوله جل وعلا: «فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَأَيْتَ بِغَيْرِهِ عَمَّا تَعْمَلُونَ» [هود: ١٢٣]. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «الدين نصفان: نصف توكل، ونصف إِنابة»، والإِنابة: هي العبادة. والتوكل: هو الاستعانة بالله تعالى.

### أقسام الموكول إليه<sup>(٣)</sup>

المَوْكُولُ إِلَيْهِ ينقسم إلى:

١ - مَنْ وُكِلَّ إِلَيْهِ بعْضُ الْأَمْوَارِ: وذلِكَ ناقص، لأنَّه لو كان كاملاً لَوَكَلَّتْ إِلَيْهِ أمورَكَ كلها.

(١) انظر الفصل الرابع.

(٢) انظر: «المقصد الأسمى» للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، ص ٧، ط ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م، مطبعة الصباح.

(٣) انظر المصدر السابق، بتصرف كثير جداً.

٢- مَنْ وُكِلَ إِلَيْهِ كُلُّ الْأَمْوَرِ: وليس ذلك إلا لله تعالى، فلا يستطيع أحد أن يقوم بكل الأمور لك، فأنت نفسك أيتها العبد المسكين ناقص؛ لا تستطيع أن تقوم بكل الأمور لنفسك، وإن استطعت أن تقوم ببعض أمور الدنيا فلا تستطيع أن تقوم بها كلها. وإن استطعت أن تقوم بأمور الدنيا لم تستطع أن تقوم بأمور الآخرة؛ فمثلاً: إِنْ حَرَمَكَ اللَّهُ رَكْعَيِ السَّنَةِ فَلَنْ تَسْتَطِعَ أَنْ تَصْلِيهِمَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ فليس للمرء من نفسه لا قدرة ولا وكالة ولا شيء...، فغيره من باب أولى لا شك أضعف.

وينقسم الموكول إليه كذلك إلى:

١- من يستحق أن يكون موكولاً إليه لا بذاته: أي أنه توكله لا بذاته؛ لأنه ليس بذاته هو الوكيل، ولكنك أنت الذي توكله، وتفوضه، يعني أنه ليس هو الوكيل عن كل أحد، لا.. بل هو مخلوق ضعيف يفتقر إلى التفويض والتوكيل. إذا لم تُوكِلْه أنت، لا يستطيع أن يقول لك: «أنا وكيل لك رغمًا عنك»، ولكن الله تعالى هو الوكيل عن عباده، شاءوا أم أبيوا.

٢- ومن يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه: كل الأمور مُوكولة إليه، والقلوب متوكلة عليه لا بتَوْلِيَةٍ وتفويضٍ من جهة غيره. وذلك هو الوكيل المطلق، قال تعالى: «وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا» [الأحزاب: ٣].

وينقسم الموكول إليه كذلك إلى:

١- مَنْ يَقِي بِمَا يُوَكِّلُ إِلَيْهِ وفَاءً تَامًا، من غير قصور.

٢- ومن لا يقي بالجميع.

والوکيل المطلق: هو الذي کل الأمور موكولة إليه، وهو ملي بالقيام بها، يعني ممتلىء من أن يقوم بذلك، لا يعجزه شيء، وفي إتمامها، لا ينقصه من الوفاء بإتمامها شيء، وليس ذلك إلا لله تعالى فقط. وقد فهمت من هذا مقدار مدخل العبد في هذا الاسم.

### الدليل على اسم الله تعالى المشرف «الوکيل»<sup>(١)</sup>

«فمن أسماء الله الحسنى «الوکيل» جل جلاله، وتقديست أسماؤه، نطق به التنزيل، يعني: جاء به ونطق به القرآن الكريم، فقال مخبراً عن الملاكريم من أصحاب النبي ﷺ الذين اشترکوا معه في غزوة أحد، وعندما علموا أن أبا سفيان يريد أن يرجع مرة أخرى إلى المدينة ليستأصل شأفتهم كما يقال - فلم يخافوا منهم ولم يخشوهم، قال تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فَرَادُهُمْ إِيمَنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ فَأَنْقَلُوا بِعِصْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَلَ لَمْ يَمْسِسْهُمْ سُوءٌ وَأَتَبْعَوْهُ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ» [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وقال تعالى: «وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا» [الأحزاب: ٣]، قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وجاء في حديث أبي هريرة<sup>(٢)</sup> [١] الذي رواه الإمام الترمذى رحمه الله تعالى وسرد فيه الأسماء

(١) انظر: «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للإمام أبي عبد الله القرطبي رحمه الله، بتصرف كثير جداً، [ج ١، ص ٥٠٤ وما بعدها]، دار الصحابة للتراجم - طنطا، الطبعة الأولى - سنة ١٩٩٥.

(٢) أبو هُرَيْرَةَ الدَّوْبَيُّ الْيَمَانِيُّ، عَبْدُ الرَّحْمَنَ بْنُ صَخْرِ الْإِمَامُ، الْفَقِيهُ، الْمُجْتَهِدُ، الْحَافِظُ، صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سَيِّدُ الْحَفَاظِ الْأَثْبَاتِ ﷺ. حَمَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِلْمًا كَثِيرًا طَبَيَّا مُبَارِكًا فِيهِ لَمْ يُلْحَقْ فِي كُثُرَتِهِ، وَعَنْهُ: أَبِيٌّ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَسَامَةَ، وَعَائِشَةَ، وَالْفَضْلِ، وَبَصَرَةَ بْنِ أَبِي بَصَرَةَ، وَكَعْبَ الْخَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَحَدَّثَ عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِّنَ الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ. فَقَيْلَ: (بَلَغَ عَدْدُ أَصْحَابِهِ ثَمَانِي

الحسنى، وهذا الحديث حديث ضعيف. أما الحديث الصحيح: فهو في البخاري<sup>(٢)</sup> وغيره بدون سرد للأسماء الحسنى، والذي فيه: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ويجوز إجراء اسم «الوَكِيل» على المخلوق.

## أصل كلمة الوَكِيل واشتقاقاتها في اللغة

«وَكِيل» على وزن «فَعِيل»، من الوكالة، تقول: «وَكَلْتُ» - بتخفيف الكاف - أمري إليه، أَكَلْهُ، و«وَكَلْتُ» - بتشديد الكاف - فلاناً، أَوْكَلْهُ أي: صيرته وكيلًا. و«التوكل»: الاعتماد على الوكيل. و«الوَكَلْ، وَالْوَكِيل»: الضعيف العاجز، تقول: «فَلَانُ وَكِيلُ أو وَكَلْ» أي: ضعيف عاجز. و«وَكَلَةُ» مثل «هُمْزَة». و«تُكَلُّ» يعني: عاجز بكل أمره إلى غيره ويتكل عليه.

مائة)! كان مقدمه وإسلامه في أول سنة سبع، عام خير. وكان حفظ أبي هريرة رض المخالف من معيزات النبوة، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه [٢٤٩٢] عن أبي هريرة رض أنه قال: «إِنَّكُم ترمعون أنَّ أبا هريرة يُكثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ! وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ: كُنْتُ رَجُلًا مِسْكِينًا أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ عَلَى مُلْءِ بَطْنِي، وَكَانَ الْمَهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكَانَتِ الْأَصَارُ يَشْغَلُهُمُ الْقِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ: «مَنْ يَسْطُطُ تَوْبَةً فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي». فَبَسَطَتْ ثَوِيَ حَتَّى قَضَى حَدِيثَهُ، ثُمَّ صَمَمْتُهُ إِلَيَّ، فَمَا نَسِيَتْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ». انظر - بتصريف: «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي رحمه الله، [٢/٥٧٩-٦٣٣]. ومناقبه رض كثيرة مشهورة في الصحاح وغيرها. توفي سنة ٥٧، وقيل ٥٨، وقيل ٥٩ هـ، رض.

(٢) رواه الترمذى: [٣٥٠٧]. والحديث عن أبي هريرة رض، قال: قال رسول الله صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً غَيْرَ وَاحِدَةٍ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ثم ذكر تسعًا وتسعين اسمًا من أسماء الله تعالى وصفاته.

(٣) رواه الإمام البخاري: [٧٣٩٢].

هذا هو اشتقاد الكلمة، ولا بد من ذكره حتى يعرف طالب العلم أصل الكلمة ومعناها، فأصل كلمة «وكيل» من «وَكَلَ» أو «وَكَلَّ»، وـ«التوكل»: الاعتماد على الوكيل، ولذلك أقام الوكيل مقامه إما لعجز أو لرفاهية نفس.

إذا قلت: «وَكَلْتُ أَمْرِي لِفَلَانَ»، أَشْعَرَ ذَلِك بعجزك عن الأمر، ويتفوظك الأمر إليه لإقامة.

وإذا قلت: «وَكَلْتُ فَلَانًا»، فإنما معناه: أقمته مقامي، ولم يُشعر ذلك بعجز.

وإذا قلت: «توكَلْتُ عَلَى فَلَانَ»، أَشْعَرَ ذَلِك بالاستسلام التام في الحال، وبما لا يبلغه علمك في المال، وهي إشارة إلى عدم استقلال المرء من حيث التقدير والتدبير. يعني لو قلت: «توكَلْتُ عَلَى فَلَانَ»، أَشْعَرَ بأنك قد استسلمت له في الحال في قيامه بهذه الأمور، وأَشْعَرَ كذلك: بعدم علمك إلى ما يؤول إليه هذا الأمر من التوكيل، وذلك إشارة إلى عدم استقلالك لا بالتقدير ولا بالتدبير لنفسك.

والعبد المسكين يحتاج إلى الاعتماد على غيره في كثير من شؤونه، وإذا كان كذلك، فعلى مَنْ يعتمد؟ أو على مَنْ يتوكَل؟ أَعْلَى ناقصٍ يمكن أن يموت؟ أو على عاجز يمكن ألا يقوم بأمره؟ أو على خائن يمكن أن يخونه ولا يوفي له؟ أو على غير مُشفق عليه يمكن أن يضيع أمره؟ لذلك فالمرء إذا أراد أن يُشعر قلبه التوكيل والاعتماد والتقويض والثقة.. إنما كل ذلك يكون لله تعالى ليثبت له نصف دينه، كما ذكرنا أن الدين نصفه عبادة: وهو الإنابة، ونصفه توكيل: وهو الاستعانة.

## تعريف التوكيل

الـتوكـلـ هو تـفـويـضـ فـيـ الـمـحـسـوسـ وـالـمـعـقـولـ لـلـوـكـيلـ الـحـقـ المـسـتـقلـ بـجـمـيـعـ مـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ جـمـيـعـ الـخـلـقـ؛ـ منـ الـكـفـاـيـةـ وـالـوـقـاـيـةـ<sup>(١)</sup>.

وـ«ـالـتـفـويـضـ فـيـ الـمـحـسـوسـ»ـ يـعـنـيـ:ـ أـنـ يـفـوـضـ الـمـرـءـ فـيـ الـمـحـسـوسـ،ـ أـيـ الشـيـءـ الـذـيـ يـحـسـهـ،ـ وـتـرـيدـ أـنـ يـقـومـ لـكـ بـهـ؛ـ فـيـ أـكـلـكـ..ـ فـيـ شـرـبـكـ..ـ فـيـ مـالـكـ..ـ فـيـ صـحـتـكـ..ـ كـلـ ذـلـكـ فـيـ الـمـحـسـوسـ.

وـ«ـفـيـ الـمـعـقـولـ»ـ يـعـنـيـ:ـ مـاـ يـتـعـلـقـ بـأـمـوـرـ الـعـقـلـ وـالـفـهـمـ وـالـعـلـمـ وـالـدـرـايـةـ وـالـضـلـالـ وـالـهـدـايـةـ..ـ وـغـيرـ ذـلـكـ،ـ مـاـ تـفـوضـ فـيـهـ أـمـرـكـ إـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ،ـ وـتـرـتـكـ فـيـهـ إـلـيـهـ جـلـ وـعـلاـ؛ـ لـيـأـخـذـ بـيـدـكـ،ـ وـلـيـقـومـ لـكـ بـهـذـهـ الـهـدـايـاتـ،ـ وـلـيـقـومـ لـكـ بـهـذـهـ الـحـفـظـ،ـ وـلـيـقـومـ لـكـ بـهـذـهـ الـفـرـقـانـ،ـ الـذـيـ تـمـيـزـ بـهـ بـيـنـ الـضـلـالـ وـالـحـقـ،ـ وـلـيـكـونـ سـبـبـاـ فـيـ أـنـ يـلـقـيـ إـلـيـكـ بـهـذـهـ الـفـتوـحـاتـ الـتـيـ تـثـبـتـ الـقـلـبـ،ـ وـتـهـدـيـ الـمـرـءـ إـلـيـهـ جـلـ وـعـلاـ،ـ وـالـتـيـ تـعـيـنـ الـقـلـبـ عـلـىـ مـحـبـةـ الـرـبـ،ـ وـالـتـيـ تـطـمـئـنـ الـقـلـبـ وـتـسـكـنـهـ إـلـىـ مـقـدـورـ اللـهـ تـعـالـىـ..ـ إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـمـعـانـيـ الـتـيـ سـنـشـيـرـ إـلـىـ بـعـضـهـاـ إـنـ شـاءـ اللـهـ تـعـالـىـ.

فـهـوـ تـفـويـضـ فـيـ الـمـحـسـوسـ وـالـمـعـقـولـ إـلـىـ الـوـكـيلـ الـحـقـ المـسـتـقلـ،ـ الـذـيـ يـسـتـقلـ -ـ هـوـ بـهـذـهـ -ـ بـجـمـيـعـ مـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ جـمـيـعـ الـخـلـقـ؛ـ مـنـ الـكـفـاـيـةـ،ـ وـالـوـقـاـيـةـ،ـ وـالـغـيـاثـ -ـ يـعـنـيـ أـنـ

(١) انظر: «الأسنى» للإمام القرطبي رحمه الله، [ج ١، ص ٥٠٥]. وهذا التعريف الذي ذكره الإمام القرطبي رحمه الله هو التعريف الذي ينبغي أن يحفظه طلبة العلم وأن يعملوا بمقتضاه. وفي الفصل الرابع أقوالً ومعانٍ أخرى في تعريف التوكيل وحقيقةه للعلماء والصالحين لمن أراد الاستزادة من هذه المعاني العالية، وفقك الله لما يحب ويرضى.

يغىّبهم بِهِمْ - والنصرة، والرزق، والإقامة، والحفظ، والرعاية.. إلى غير ذلك من معانٍ التدبر، فإذا وكلت أحداً في المحسوس فمن لك بالمعقول؟!

### أقوال العلماء في معنى اسم الله «الوَكيل»

قال الإمام القرطبي رحمه الله<sup>(١)</sup>: «قال الإمام ابن العربي رحمه الله تعالى: اختلف أهل اللغة في العبارة عن معنى الوكيل إلى أربعة أقوال؛ فحكى الفراء<sup>(٢)</sup> أنه: الكفيل، وحكى عنه أيضاً أنه: الحفيظ. والقول الثالث: أنه المقطسط؛ قاله ابن عرفة<sup>(٣)</sup>، والقول الرابع: أنه

(١) انظر: «الأسنن» للإمام القرطبي رحمه الله، بتصرف يسير، ج ١، ص ٥٠٦.

(٢) الفراء أبو زكريٰ، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدى مولاهُم، الكوفى، النحوى، صاحب الكسانى العلام، صاحب التصانيف، وكان ثقةً. وردَ عن ثعلبٍ أنه قال: «لولا الفراء لما كانت عربيةً ولستقطعت، لانه خلصها، ولأنما كانت تتنازع ويديعها كُل أحدي». ولما أمل الفراء كتابه «معاني القرآن»، اجتمع له الحلق، فكان من جملتهم شهانون قاضياً، وأمل «الحمد» في مائة ورقة! وقال بعضهم: «الفراء أمير المؤمنين في النحو». وعن ثماة بن أشرس: «رأيت الفراء، ففاقتته عن اللغة، فوجده بحراً، وعن النحو فشاهده تسيّح وحده، وعن الفقه فوجده عارفاً باختلاف القوم، وبالطلب خبيراً وب أيام العرب والشعر والتنجوم، فأعلمت به أمير المؤمنين، فطلبه»! اهـ . قال سلمة: «أمل الفراء كتبه كلها حفظاً»! وفيه: «عرف بالفراء لأنك كان يفري الكلام». مات الفراء بطريق الحج، سنة سبعين ومائتين، وله ثلاثة وسبعين سنة، رحمه الله تعالى. انظر - بتصرف: «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي رحمه الله [١١٩ / ١٠ - ١٢١].

(٣) الإمام، الحافظ، النحوى، العلام، الأخبارى، أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكى، الأزدى، الواسطي، المشهور بـ«نقطويه»، صاحب التصانيف. ولد سنة أربعين وأربعين ومائتين، وسكن بغداد، وحدث عن إسحاق بن وهب العلafi، وعدها. وأحد العربية عن محمد بن

الكافى، قلت<sup>(١)</sup>: وذكر البيهقى<sup>(٢)</sup> عن الفراء في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا تَتَخَذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]. يقال: ربّاً، ويقال: كافياً.

الجهم وَثَعْلَبُ وَالْمَرْدَ، وَنَفَقَهُ عَلَى دَاؤُدَ الظَّاهِرِيِّ. وَكَانَ مُتَضَلِّعًا مِنَ الْعِلْمِ. خَلَطَ نَحْوَ الْكُوفَيْنِ بِنَحْوِ الْبَصْرَيْنِ، وَصَارَ رَأْسًا فِي رَأْيِ أَهْلِ الظَّاهِرِ. وَكَانَ ذَا سُنَّةً وَدِينٍ وَقُنُوْنَةً وَمُرُوعَةً، وَحُسْنَ حُلْقُ، وَكَيْسٍ، وَلَهُ نَظْمٌ وَنَثْرٌ. صَنَفَ: «غَرِيبُ الْقُرْآن»، وَكِتَابٌ «الْمَقْنُعُ» فِي النَّسْخَةِ، وَأَشْيَاءِ مَاتَ سَنَّةً ثَلَاثَةً وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِ مائَةٍ. انظر - بتصرف: السير للإمام الذهبي رحمه الله [٧٦ / ١٥].

(١) القائل هو: الإمام القرطبي رحمه الله.

(٢) هُوَ أَبُو بَكْرٍ، أَحْمَدُ بْنُ الْحُسْنِيْنِ بْنِ عَلَىٰ بْنِ مُوسَى الْخَسْرَوْجَرْدِيِّ، الْخَرَاسَانِيُّ الْفَقِيهُ، الْعَلَامُ، الشَّيْخُ الْإِسْلَامُ، الْحَافِظُ الْأَصْوَلِيُّ، الدَّيْنُ الْوَرَعُ، وَاحِدُ زَمَانِهِ فِي الْحِفْظِ، وَفَرْدُ أَقْرَانِهِ فِي الْإِنْقَانِ وَالضَّبْطِ. وَ«بَيْهَقٌ»: عَدَّةُ قُرْيَى مِنْ أَعْمَالِ نَيْسَابُورِ عَلَى يَوْمَيْنِ مِنْهَا. وُلِّدَ فِي سَنَّةِ أَرْبَعٍ وَتَمَانِينَ وَثَلَاثَةَ مائَةٍ. مِنْ كِبَارِ أَصْحَابِ الْحَاكِمِ، وَيَرِيدُ عَلَى الْحَاكِمِ بِأَنْوَاعِ الْعِلْمِ. كَتَبَ الْحِدِيثَ، وَحَفِظَهُ مِنْ صِبَاهُ، وَنَفَقَهُ وَبَرَعَ، وَأَخْدَى فَنَّ الْأَصْوَلِ، وَأَرْتَحَ إِلَى الْعِرَاقِ وَالْجَبَالِ وَالْحِجَازِ، ثُمَّ صَنَفَ. وَتَوَالِيفُهُ تُقَارِبُ الْأَفْ جُزْءٍ إِمَّا مِسْبِقَةً إِلَيْهِ أَحَدُ. جَعَلَ يَيْنَ عِلْمَ الْحِدِيثِ وَالْفَقِيهِ، وَبَيَانَ عَلَلِ الْحِدِيثِ، وَوَجْهِ الْجَمِيعِ يَيْنَ الْأَحَادِيثِ، ثُمَّ انْقَطَعَ بِقِرِينِهِ مُقْبِلًا عَلَى الْجَمْعِ وَالْتَّأْلِيفِ، فَعَمِلَ «السُّنْنَ الْكَبِيرَ» فِي عَشْرِ مجلَّداتٍ، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِثْلُهُ، وَالْأَفْلَفُ: «السُّنْنَ وَالآثَارُ» وَ«الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ» وَ«الْمُعْتَدَدُ» وَ«الْبَعْثُ» وَ«الْتَّرَغِيبُ وَالْتَّرَهِيبُ» وَ«الدَّعَوَاتُ» وَ«الرُّهْدُ» وَ«الْخِلَافَاتُ» وَ«نَصْوصُ الشَّافِعِيِّ» وَ«دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ» وَ«السُّنْنَ الصَّغِيرَ» وَ«شُعَبُ الْإِيمَانِ»، وَأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ. قَالَ الإِمامُ الْذَهَبِيُّ رَحْمَهُ اللَّهُ: «تَصَانِيفُ الْبَيْهَقِيِّ عَظِيمَةُ الْقَدْرِ، غَزِيرَةُ الْفَوَائِدِ، قَلَّ مَنْ جَوَدَ تَوَالِيفَهُ مُثْلِ الْإِيمَانِ أَبِي بَكْرٍ، فَيَنْبَغِي لِلْعَالَمِ أَنْ يَعْتَنِي بِهَؤُلَاءِ سِيَّمَ سَنَّتَهُ الْكَبِيرِ». وَقَالَ أَيْضًا: «لَوْ شَاءَ الْبَيْهَقِيُّ أَنْ يَعْمَلَ لِنَفْسِهِ مَذْهَبًا يَجْتَهِدُ فِيهِ؛ لَكَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ، لِسَعْيِهِ عُلُومَهُ، وَمَعْرِفَتِهِ بِالْاِخْتِلَافِ، وَلِهَذَا تَرَاهُ يُلْوِحُ بِنَصْرٍ مَسَائِلِ مَا صَحَّ فِيهَا الْحِدِيثُ». وَكَانَ الْبَيْهَقِيُّ عَلَى سِيرَةِ الْعُلَمَاءِ: قَانِعًا بِالْيَسِيرِ، مُسْتَجْمَلًا فِي زُهْدِهِ وَوَرَعِهِ. تُوْفِيَ سَنَّةَ تَمَانِ وَحَمْسِينَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ، وَعَاشَ أَرْبَعًا وَسَبْعِينَ سَنَّةً.. رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. انظر - بتصرف كثير - «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي.

القول الأول: الله تعالى الوکيل، أي: الكفیل بكل ما وکلتَه فيه من أمور الدنيا والآخرة، يتکفل لك بها جل وعلا، ويقوم بهذه الكفالة على حقها.

القول الثاني: الحفیظ، فإذا قلتَ: «توكلتُ على الله»، فمعناه: توکلت على الحفیظ الذي يحفظ لك أعمالك وأشغالك في الدنيا والآخرة، التي وکلتَه فيها، فهو يحفظها عليك إن رکنَ قلبك إليه، واعتمد عليه، ولم يعتمد على البشر والأسباب، وقوى تفویضه وثقته فيه بِهِ، فإنه يحفظها بعد أن يکفُلها، يعني كأنه يقول: فهذه المعانی أنك إذا اعتمدت على الله تعالى، وفوضت أمرك إليه، واستسلمت له جل وعلا، وانقطعت عن الاستسلام للأسباب، والنظر إليها، مع القيام بها، فتقوم بالأسباب بيدنك، ولكنَّ قلبك متعلقٌ بربك بِهِ.. فإن الله تعالى يحفظها عليك. ولا بد أن تأخذ بالأسباب، لأنَّ ترك السبب من الحق والزندقة، أما التعلق بالأسباب فهو خروج عن التوحيد؛ أن يتعلق بالبشر في أن يقوموا به، وأن يقضوا له حاجته، وأنَّه لو لا فلان هلك، ولو لا وساطة وشفاعة فلان، ولو لا المال، ولو لا الجاه، ولو لا ولو لا... كل ذلك خروجٌ عن مقتضى التوحيد الله تعالى، وخروج عن مقتضى التوکل عليه جل وعلا، وعن إفراده بِهِ في القيام بشئون خلقه.

المعنى الثالث: المقتسط، يعني: الذي يقوم بالقسط، أي بالعدل. وهو وصفٌ مطلوب في الوکيل.

المعنى الرابع: أنه الكافی بِهِ، والكافی: هو الذي يکفي عبده کل شيء، فلو علم المرء أنه إذا كان مع الله تعالى فإن الله تعالى يکفيه، وإذا كان في شغل الله كان الله تعالى في شغله، وأنه إذا اعتمد على الله فإنه جل وعلا يحفظه، ولا يكون مضطرباً، ولكن يدخل في شغل

الله تعالى وهو مطمئن أن الله يَعْلَمُ سيقوم له بشغله، وأن الله تعالى سيدفع عنه، وأن الله تعالى سيكفله، وأن الله تعالى سيحفظه.

ونحن نريد أن نتعلم هذه القضايا، لأن نتعلمها على سبيل المعرفة فقط وانتهى، بل على سبيل أن تكون المعرفة طريقاً للتحقق بها، فنحن على الحقيقة لسنا مُتوكلين على الله تعالى، وأقرب الأمثلة التي تدل على ذلك أنك تقول: «لو صليت بضع ركعات لن أستطيع الذهاب إلى العمل، فبدلًا من أصلي ثانية ركعات سأصلي أربع ركعات فقط..»!. وهذا مُناٍف لهذا المعنى من معاني التوكل، فلو صليت هذه الركعات الثانية الله تعالى فإن الله تعالى يكفيك؛ لأن في الصلاة استعانة بالله تعالى، وفي الصلاة توكلًا على الله تعالى، وفي الصلاة إقبالًا على الله تعالى، فإذا ما أقبلت عليه واستغلت به يَعْلَمُ، فإنه يحفظك مما تخافه، ويعطيك ما ترجو - كما ذكرنا من قبل: يعطيك تأملاً، ويتحقق لك جمالاً.. وكل هذه المعاني التي أشرنا إليها.

وقس كل أمورك على هذا الأمر: في الصلاة، في القيام، في الصيام؛ يخاف المرء أن يتعب من الصيام، وأنه لن يستطيع الذهاب لمكان كذا، ولا أن يقوم بعمل كذا. فنقول له: ذلك تحريف الشيطان لك، ألا تقوم، فإن توكلت على الله تعالى، وقمت بشغل الله تعالى، وانتهزت فرصة العمر القصيرة في تحقيق هذا الصيام، إذا كل هذه الأمور تقلب في حرقك إلى هذه المعاني الجميلة، وتتجدد حلاوة الإيمان، وتتجدد حفظ الله، وتتجدد كفالة الله يَعْلَمُ لك، فإنه متى قدم المرء ما عند الله قدّمه الله تعالى على غيره؛ أنت تقدم ربّك وتحفظه وهو لا يحفظك، ولا يقدّمك جل وعلا على غيرك؟!

لو كان المرء متوكلاً على الله تعالى لعلم أنَّ في القيام لله فرج الله تعالى، ومدد الله تعالى.. لعلم أنَّ في القيام له قوَّة الله تعالى له.. وأنَّ في القيام له أن يُصْبِرَه الله تعالى، وأن يعينه، وأن يفتح عليه، وأن يجد راحته في إقباله على ربِّه، وأن يجد نعيمه وسروره في إقباله عليه، والوقوف بين يديه، لا في النوم عنه والغفلة عن ذِكْرِه. فعلى المرء أن يتحلل من هذه العقد التي هي فيه: من الإقبال على الدنيا، والخوف عليها، ولا يخاف أنه عندما يصوم ويقوم ويذكر ويبدل مالاً وجهداً سيفضي عليه ذلك!

يقول النبي ﷺ: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدُهُ اللَّهُ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»<sup>(١)</sup>، ويقول المرء: «أنا لو تواضعْت لفلان لظنَّ أن ذلك ضعفاً أو خوفاً، وهذا ليس بكرامة»!! وفي قول النبي ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»<sup>(٢)</sup> رأينا الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وإن كانوا متفاوتين في هذه الدرجة - قد تحققوا بمعنى هذا الحديث، فوجدنا أنَّه لما حثَّ النبي ﷺ على الصدقة جاء أبو بكر رض بهاله كُلَّه، فقال له النبي ﷺ: «مَاذَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ؟» قال: «تَرَكْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»<sup>(٣)</sup>!! فهل افتقرُوا؟ أو حدث لهم ما يظنه أحذنا؟!

أمَّا اليوم فإنَّ المرء يأبى لنفسه تحصيلَ الكرامة والفضل من الله تعالى، فيجادل في الحسنات التي سيأخذها، ويفاصل - كما يقول أصحاب التجارات. يُقال له: «إذا فعلت

(١) صحيح الإمام مسلم [٢٥٨٨] من رواية أبي هريرة رض.

(٢) صحيح الإمام مسلم [٢٥٨٨] من رواية أبي هريرة رض.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في فضائل الصحابة: [ج ١ / ص ٦٠ / ح ٥٢٧]، وبنحوه أبو داود [١٦٧٨]، والترمذى [٣٦٧٥] وقال: حسن صحيح؛ كلهم يرويه عن عمر بن الخطاب رض.

كذا وكذا سُتُّحَصِّل حسناً كثيرةً». يقول: «لا، أنا لا أريد كل ذلك، أريد الأقل»!، وذلك بسبب خوفه من فقدان ماله، أو ضياع جُهْدِه، أو فقدان صحته، أو بعضها، وكل ذلك مُنافٍ لهذه القضية من قضايا التوكل.

لذلك نحن واقفون لا نتحرك في طريق الله تعالى بسبب هذا العجز، بل نتأخر بسبب ضعف توكلنا على الله تعالى؛ ذلك التوكل الذي قال فيه الربُّ جل وعلا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

وذكر البيهقي عن الفراء في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]، وسنأتي على شرحها بالتفصيل إن شاء الله تعالى فيما بعد. فيقال: ربّا، ويقال: كافيًا، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ﴾ [القصص: ٢٨]، أي: كفيل.

وهذه المعاني كلها التي أشرنا إليها: من الكفيل، والمقطط، والحفظ، والكافِي.. كل هذه المعاني صحيحة في وصف معنى الوكيل؛ لأن الله تعالى تسمى بالوكيل، لأنه وَكَلَ أمورَ خلقه إلى نفسه.

وهذا - يعني: كونه وَكَلَ أمورَ خلقه إليه - غير كونك قد وَكَلتَ أمورك إليه، وهذا نذكره حتى نعلم أن الله تعالى وكيل بذاته، لا يحتاج إلى تفويض منك، ولا إلى توكييل منك، بل هو وَكَلَ أمورَ خلقه كَلَّها إلى نفسه، فـ«الوَكِيل» على وزن «فعيل» بمعنى «مفعول». فيكون هو وَكَلَ قد وَكَلَ جميع أمور عباده إليه - إلى نفسه - وعباده المتوكلون وَكَلُوا أمورهم كلها إلى الله تعالى، فكان هو وَكَلَ وكيلهم، وهؤلاء هم الذين وَصَفَهم المولى ﷺ في كتابه الكريم حيث قالوا: ﴿حَسَبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فطَوْرًا يكون «الوَكِيل» وصفًا ذاتيًّا، وطَوْرًا يكون وصفًا فعليًّا.

## «الوَكِيل» من حيث كونه وصفاً ذاتياً لله جل وعلا

فإذا كان «الوَكِيل» بمعنى أَنَّه الذي وَكَلَ العَبِيدُ أَمْوَاهُم إِلَيْهِ، واعتمدوا في حوائجهم عليه، فهو وصفٌ ذاتيٌّ لأنَّه بلا شكٍ توكلاً عليه لذاته بِعِلَّةٍ لأنَّه موصوفٌ بهذا المعنى في ذاته هو بِعِلَّةٍ؛ إذ لا يَكُلُّ أمرَه إِلَيْهِ من عباده إِلَّا قومٌ خاصَّة، وهم أهل الإِيقان، وذوو العرفان.

وهذه المسألة المهمة: وهي أَنَّه لا يَكُلُّ أمرَه إِلَى الله، ولا يَكُلُّ من الناس أَمْوَاهُم إِلَى الله تعالى إِلَّا أَهْلُ الإِيقان.

وذوو العرفان، يعني: إِلَّا أَهْلُ الثقة في الله تعالى، وأصحاب اليقين فيه جل وعلا.

وذوو العرفان: يعني أصحاب المعرفة بربهم والأنس به؛ فهم يعرفون أنَّ الله تعالى إِذَا وَكَلَوا أَمْوَاهُم إِلَيْهِ وَكَلُوا هُنَّا إِلَى الْقَوِيِّ الْقَادِرِ الَّذِي يَقُولُ بِهَا.. إِلَى الْكَافِي الْخَفِيْظِ الَّذِي يَكْفُلُهُمْ وَيَحْفَظُهُمْ جل وعلا.. إِلَى الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرْحَمُهُمْ وَيَرَأْفُهُمْ.. إِلَى الْعَلِيمِ الَّذِي يَقُولُ بِذَلِكَ عَلَى تَمَامِ الْعِلْمِ بِهِ.. إِلَى الَّذِي لَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ عِوَضًا.. إِلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ. فَهُؤُلَاءِ هُمْ ذُووُ الْعِرْفَانِ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ أَسْمَاءَ بِعِلَّةٍ الْحَسَنِي وَصَفَاتِهِ الْعَلِيَّةِ.

كَهُذِهِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي نَعْرِفُهَا نَحْنُ الْيَوْمَ، نَعْرِفُ أَنَّهُ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ الْبَرُّ.. وَكُلُّ ذَلِكَ، وَلَا نَجِدُ أَثْرًا يُذَكَّرُ فِي تَعْلُقِ الْقَلْبِ بِاللهِ، وَمَحْبَبَتِهِ اللهُ تَعَالَى، أَوْ أَثْرًا يُذَكَّرُ فِي أَنْ يَأْخُذَ الْمَرْءُ حَظَهُ مِنْ هَذَا الْاسْمِ؛ فِي أَنْ يَتَسَمَّ بِهَذِهِ الصَّفَاتِ مِنْ صَفَاتِ اللهِ تَعَالَى.

## «الوَكِيل» من حيث كونه وصفاً فعلياً لله عَزَّلَه

وإذا كان «الوَكِيل» بمعنى أنه الذي وكَلَ أمورَ عباده إلى نفسه، وقام بها، وتتكلف بالقيام بها، كان وصفاً فعلياً مضافاً إلى الوجود كله، لأن هذا الوصف لا يليق بغيره عَزَّلَه، وعلى هذا أتي شرح العلماء - الفراء وابن عرفة وغيرهما - لهذا الاسم.

## اسم الله «الوَكِيل» يتضمن أوصافاً عظيمة من أوصاف الله تعالى

وهذا الاسم يتضمن أوصافاً عظيمة من أوصاف الله تعالى، لذلك قُلْنَا: لا يَكُلُ أمرَه إلى الله تعالى إلا ذُوُ العِرْفَان والإِيْقَان؛ لأنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ مَعْرِفَةً بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ العظيمة من أوصاف الله تعالى..

- كَحِيَاتِهِ: فلا يَتَوَكِّلُ المرءُ عَلَى الْمَيْتِ.
- وَعِلْمُهُ: فلا يَتَوَكِّلُ عَلَى الْجَاهِلِ.
- وَقُدْرَتِهِ: فلا يَتَوَكِّلُ عَلَى الْعَاجِزِ.
- وَوَفَاءِ عَهْدِهِ وَصَدِيقِ وَعْدِهِ: فلو كَانَ يَخْلُفُ وَعْدَهُ مَعَكَ لَمَّا تَوَكَّلَتْ عَلَيْهِ عَزَّلَه.
- وَأَنَّهُ الْكَفِيلُ بِأَرْزَاقِ عَبَادِهِ الْقَائِمُ عَلَيْهِمْ بِمَصَالِحِهِمْ لِعِجْزِهِمْ: فَالْعَابِدُ عَاجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِمَصَالِحِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ لَهُمْ هُمْ عَلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ، وَيُقْوِيُّهُمْ عَلَيْهَا جَلْ وَعَلَا، وَيُمْدِدُهُمْ بِمَدَدِهِ. وَمَنْ رَأَى فِيهِ إِخْلَاصًا وَصَدَقاً قَوَاهُ وَأَقَامَهُ فِي خَدْمَتِهِ وَاصْطَفَاهُ لِعِبَادَتِهِ جَلْ وَعَلَا.

(مسألة)

إذا كان الله تعالى هو الوكيل، فلِمْ يموت البعض جوعاً وعطشاً؟!

وهذا استطراد يمكن أن يأتي من خواطر الشيطان: إذا كان الله تعالى قد توكل  
وتکفل بأرزاق عباده وإقامة خلقه، فما بال مَنْ يموت جوعاً وعطشاً؟!

والجواب: أنَّ الله تعالى لم يقبض روح أحد حتى يستوفي رزقه الذي كُتب له وتکفل  
له به، وفي الحديث: «أَئِهَا النَّاسُ أَتَقْوَا اللَّهَ وَأَجْلِلُوا فِي الظَّلَّابِ؛ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتْ حَتَّى  
تَسْتَوِي رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا»<sup>(١)</sup>. فإن قال: «ولكنه يموت عطشاً أو جوعاً!»، فيقال له:  
نعم؛ لأنَّه انتهى أجله عند الله، وانتهى طعامه وشرابه عند الله تعالى من الحياة عند هذه  
اللحظة، فاستوفي رزقه، ومات على الحال التي قد قضى الله تعالى أن يموت هذا العبد  
عليها عندما يستوفي رزقه وأجله، وهذا أبين من أن يُحتاج فيه إلى إكثار.

(١) أخرجه ابن ماجه في سنته [٢١٤٤] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم مرفوعاً إلى النبي ﷺ.  
وصححه الشيخ ناصر في «صحيح الترغيب» [١٦٩٨]. قال المناوي رحمه الله في شرح رواية لأبي  
إمام الباهلي رحمه الله لهذا الحديث: «إِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتْ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا» الذي كتبه لها المَلَكُ  
وهي في بطنه أمها، فلا وجه للرَّوْلَه والتعب والحرص والنصب إلا عن شَكٍ في الْوَعْدِ.  
(وَتَسْتَوِعَ بِرِزْقَهَا) كذلك فإنه رحمه الله قسم الرزق وقدره لكل أحد بحسب إرادته، لا يتقدم ولا  
يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، بحسب علمه القديم الأزلي، ولهذا سُئل حكيمٌ عن الرزق فقال: «إِنْ  
قُسْمٌ فَلَا تَعْجَلْ، وَإِنْ لَمْ يُقْسِمْ فَلَا تَتَعَبْ». (فَاتَّقُوا اللَّهَ) أي: ثُقُوا بضمائه، لكنه أمرنا تعبدًا بطلبِه  
من حِلْه فلهذا قال: (وَأَجْلِلُوا فِي الظَّلَّابِ) بأن تطلبوه بالطرق الجميلة المُحلَّلة بغير كُدُّ ولا حِرْصٍ  
ولا تهافت على الحرام» انتهى - بتصرف - من «فيض القدير».

فيجب على كل مؤمن بعد ذلك - بعد الإشارة إلى هذه المعاني - أن يعلم أن كل ما لا مَفْرَّ للمؤمن منه في الدنيا والآخرة، فَاللهُ عَزَّ ذِلْكَ هو الوكيل - أي الموكِل - والكافِل بِإيصاله إلى العبد: إما بنفسه؛ فَيَخْلُقُ له الشَّيْعَ وَالرَّيْ كَمَا يَخْلُقُ لَهُ الْهَدَايَةَ فِي الْقُلُوبِ، أَوْ عن طريق سبب ما يسوقه له.

فإذا علمتَ ذلك، علمتَ أنك إذا وَكَلْتَ اللهَ تَعَالَى كفاكَ، وأوصلَ لكَ هذه الكفاية.

### الأحكام التي يختص بها «الوكيل» (١)

فإذا علمتَ معنى «الوكيل»، فلله تمام الوكالة، وله أحكامٌ أربعة يختص بها:

- ١ - انفراده بِحَفْظِ الْخَلْقِ.
- ٢ - انفراده بِكَفَايَتِهِمْ.
- ٣ - قدرته عَلَى ذَلِكَ: فلا يستطيع أحدٌ أن يقوم بخلق الخلق، أو أن يكفي الخلق كلهم، أو أن يقدر على ذلك.
- ٤ - أن جميع الأمر من خيرٍ وشَرٍّ، ونفعٍ وضر.. كل ذلك حادثٌ بيده بِيَدِهِ.

### الأحكام التي يختص بها العبد (٢)

ومنزلة العبد في ذلك أنَّ له ثلاثة أحكام:

(١) انظر - بتصرف: «الأنسى» للإمام القرطبي. ج ١، ص ٥٠٧.

(٢) انظر - بتصرف كثير: «الأنسى» للإمام القرطبي. ج ١، ص ٥٠٧، ٥٠٨.

الأول: أن يتبرأ من الأمور إليه، ليحصل له حقيقة التوحيد، ويرفع عن نفسه شرّ مشقة الوجود..

فيتبرأ من الأمور إليه، أي يتبرأ من نفسه، يعني ليس له من أمره شيء، وليس له من نفسه إلا العَدْمُ، والفَقْرُ الذاتي. والله تعالى له الغَنَى الذاتي، ولو أخذ الله تعالى منه سمعه وبصره لم يكن له - أي لهذا العبد - شيء؛ لو أَخَذَ منه مَا لَهْ لم يستطع شيئاً، ولو أخذ رُوْحَه لم يستطع أن يرَّدها. لذلك على المرء أن يتبرأ - وهذه حقيقة التوحيد - من كل شيء إلا الموصول بالله تعالى: أن يتبرأ من قوته، وماله، وعقله، وعلمه، وفهمه، وجاهه، وسلطانه، وعِزْوَتَه، وولده.. وكل شيء، وأن يكمل كل ذلك إلى ربِّه ليحصل له حقيقة التوحيد، فلا يحصل له حقيقة التوحيد إلا أن يكون فقيراً في هذه الأمور.

فإنْ قالَ المرءُ: «أنا أفهم كذا، اترك لي هذا العمل، أنا أقوم لك به خير قيام، وإن شاء الله سأحصل لك الموضوع الفلاني، كُنْ أنتَ في كذا فقط وسأقوم لك بكلـاً وكمـاً، وأسأني لك كذا...»، ففي هذا دليل على أنه نظر إلى عقله وفهمه وماله وجاهه وسلطانه ومعارفه، وأنه يستطيع أن يفعل أو لا يفعل، وأنه لم يتبرأ بعد من حَوْله وقوته إلى حول الله تعالى وقوته، والرسول ﷺ يقول: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»<sup>(١)</sup>، فـ«لَا حَوْلَ للمرءِ»

(١) وردت في أحاديث كثيرة وأهاكَتْ من كنوز الجنة، ومنها في صحيح البخاري [٧٣٨٦]: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَرَنَا فَقَالَ: ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصْمَمَ وَلَا غَائِبَةَ، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا. ثُمَّ أَتَى عَلَيَّ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. فَقَالَ لِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْمِسٍ، قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ». أَوْ قَالَ: «أَلَا أَذْلِكَ بِهِ». وفي العدد الرابع من سلسلة شرح أسماء الله الحسنى - شرح اسم الله تعالى «القوى» - إشارات لبعض المعانى المهمة المتعلقة بهذه العبارة النبوية الكريمة، فارجع إليها إن شئت [ص ١١-١٣، ط ١، ١٤٢٨ هـ].

أي: لا تَحُول له، ولا قوة له، ولا قدرة له على هذا التحول إلا بالله تعالى: التحول من الطاعة إلى المعصية أو من المعصية إلى الطاعة، من الفقر إلى الغنى أو من الغنى إلى الفقر.. في كل الأحوال لا يستطيع المرء الانتقال من حال إلى حال إلا بإذن الله تعالى، ولا تكون حقيقة التوحيد متحققة في قلبه إلا بتجرده من رؤية نفسه.

فمن فعل ذلكرأى نفسه فقيراً لله تعالى، مُتبرّئاً من أحواله كلها.. ليس به شيء، وليس منه شيء، ولا له شيء.. لا به يستطيع، ولا له يملك، ولا منه ليتمكن.. كُل ذلك لله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا به بِهِ; وهذه هي حقيقة العبودية، وتجريد التوحيد لله تعالى.

حقيقة العبودية: أن يكون العبد عبداً، وأن يكون الرب ربّاً، وأن يرى العبد ربّه هو الذي يقويه، ويكتفه، ويحفظه، ويمده، وأنه بغير رب لا حول له ولا قوة، ولا مال له ولا سلطان؛ لأن كُل ذلك مخصوص وَهُبِّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وفضل اللَّهُ بِهِ عليه.

عندما يتَّمَّلُ المرء هذا المعنى يعلم هل هو مُقبل على ربه؟ حقاً هل هو محب له؟ هل هو فقير إليه؟ فإذا كان ذلك متحققاً فيه فإنَّ الربَ جل وعلا يحبه، ويُقبل عليه، ويُعنيه، ويُعلمه بِهِ. عندما يرى المرء أن لا قوة له فإنَّ الله بِهِ يقويه، وتَصِير كُل أحواله إلى هذا الحال الحسن. وهذا يُورثُ المرء التواضعَ لله بِهِ، والتواضعَ للمؤمنين، فلا يرى نفسه شيئاً، ولا يرى لنفسه قدرًا ولا حالاً ولا مقاماً، وإنما يدخل على الله تعالى بالإفلاس المخصوص والفقير الصَّرف.

الحكم الثاني الذي يختص به العبد في تلك المنزلة: ألا يستكثر العبد شيئاً بسؤاله

الله تعالى..

عندما تعلم أن الله تعالى هو «الوَكِيلُ» لا تستكثِر أَيّ شَيْءٍ تَسْأَلُهُ إِيَاهُ. إِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ الْوَكِيلُ، وَأَنَّهُ الْحَفِظَ، وَأَنَّ مَلْكَوَتَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهِ تَبَّاعَةٌ، فَلَا تَسْتَكْثِرْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا.

وَعَكْسُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نَرَاهَا عَنْدَمَا تَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: «إِفْعَلْ كَذَا». فَيَقُولُ لَكَ: «كَيْفَ؟... وَمِنْ أَيْنَ؟ وَمَاذَا سَأَفْعَلُ؟ لَيْسَ هُنَاكَ وَقْتٌ وَلَا مَالٌ وَلَا جَهْدٌ وَلَا صَحَّةٌ؟...». لَكِنَّ الْمَرْءَ الْمُتَوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ حَقًّا لَا يَقُولُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ إِذَا تَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ عَلِمْتَ أَنَّكَ بِاللَّهِ تَعَالَى، أَيْ أَنَّكَ صَرْتَ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا بِنَفْسِكَ، وَبِعِلْمِهِ لَا بِعِلْمِكَ، وَبِقَدْرِهِ لَا بِقَدْرِكَ، وَبِمَا لَهُ لَا بِمَا لَكَ. فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّمَا تَأْخُذُ مِنْ مَالِ اللَّهِ، وَمِنْ قَدْرَةِ اللَّهِ، وَمِنْ قُوَّةِ اللَّهِ تَبَّاعَةٌ. وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَنْفَدِ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَقُولَ: «اللَّهُ الْمُسْتَعْنَى، هُوَ تَبَّاعَةُ الْذِي يُقَوِّيُّنَا»، وَتَجَاهِدْ نَفْسَكَ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى سَيُمْدِكَ وَيَكْفُلُكَ وَيَحْفَظُكَ وَيُغْنِيُكَ، فَلَا تَقُولُ: «مِنْ أَيْنَ؟ وَكَيْفَ؟ وَأَنَا أَرِيدُ السَّفَرَ، وَأَنَا لَا أُمْلِكُ مَالًا، وَلَا أُمْلِكُ صَحَّةً، وَلَا أُمْلِكُ... إِلَخَ».

وَمِثْلُ هَذَا يَحْدُثُ أَيْضًا: إِذَا مَا أَرْشَدَهُ أَحَدٌ لِأَمْرٍ مِنْ أَمْرَوْنَا، وَمَصْلَحَةٌ مِنْ مَصَالِحِ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ، وَجَدْهُ يَتَعَلَّلُ بِأَنَّهُ لَا وَقْتٌ لَهُ وَلَا جَهْدٌ وَلَا صَحَّةٌ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ التَّوْكِلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ مُتَوَكِّلٌ عَلَى صَحَّتِهِ الْمُضَعِّفَةِ.. فَلَمْ يَسْتَطِعْ، وَعَلَى مَالِهِ الْقَلِيلِ.. فَلَمْ يَسْتَطِعْ، وَعَلَى قُوَّتِهِ.. فَلَمْ يَسْتَطِعْ. أَمَا إِذَا تَوَكَّلَ عَلَى الْقَوِيِّ الْقَادِرِ الْعَالَمِ تَبَّاعَةً، فَهِيَنَّى يَسْتَطِعُ بِذَلِكَ أَنْ يَفْعُلَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَفْعُلُ بِنَفْسِهِ، بَلْ هُوَ يَفْعُلُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَسْتَمدُ مِنْ عَنْدِهِ جَلَّ وَعَلا.

انظُرْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ وَجَرِيْبِهَا، فَسَتَجِدُ نَفْسَكَ قَدْ تَغَيَّرَتْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَخْذَتْ بِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالْمُسْتَعْنَى بِاللَّهِ تَعَالَى، وَانْتَقَلَتْ مِنَ الْعَجَزِ وَالْكُسْلِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، إِلَى

المسارعة إلى الله تعالى، والقيام بالأعمال؛ لأنها ستكون بقدرة الله وقوته، لا بقدرتك  
وْقُوَّتَكَ أَيْهَا الْمُسْكِنُ الْعَاجِزُ.. وتأمل أحوال الصحابة ﷺ.

الحكم الثالث الذي يختص به العبد: أَنَّكَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ وَكِيلَكَ غَنِيٌّ وَفِي قَادِرٍ  
مَلِيٌّ<sup>(١)</sup>، فَأَعْرِضْ عَنْ دُنْيَاكَ، وَأَقْبِلْ عَلَى عِبَادَةِ مِنْ يَتَوَلَّكَ..

تُعَرِّضُ عن الدنيا لا بمعنى أن تترك الدنيا - ولن يتركها أحد! - ولكن المقصود  
بالإعراض عنها: الإعراض بقلبه عنها، وألا يُقبل عليها، وألا يكون انها كُبُرَ بها وسعيه  
فيها بحيث ينسى رَبَّه ويغفل عنه ﷺ وينسى آخرته. بل إذا علمت أن الله تعالى هو  
القادر، وهو القوي، وهو المَلِيُّ، وهو الولي<sup>(٢)</sup>، وأنت متوكِّل عليه.. إذا علمت هذا،  
فأَقْبِلْ عَلَى عِبَادَتِهِ، لا تخف من ذي العرش إِقْلَالًا<sup>(٣)</sup>، ولا تخف مغبة هذه العبادة وهذا

(١) «مَلِيٌّ» يعني: مَلِيٌّ.

(٢) انظر شرح اسم الله تعالى «الولي»، وقد طبع منه درسان والحمد لله تعالى.

(٣) إشارة للحديث النبوى الذى رواه أبو هريرة رض عن النبي ﷺ: «أَنْفَقْ بِلَالُ، وَلَا تَخَافَنَّ مِنْ ذِي  
الْعَرْشِ إِقْلَالًا». قال المنذري رحمه الله: «رواه أبو يعلى [٤٣٠ / ١٠]، والطبراني في «الكبير» [ح:  
٤٠٢٤]، مكتبة العلوم والحكم - الموصل]. و«الأوسط» [ح: ٢٥٧٢، دار الحرمين - القاهرة -  
١٤١٥هـ]. بإسناد حسن». اهـ من «الترغيب والترهيب» [ح: ١٣٦٣]، دار الكتب العلمية -  
الطبعة الأولى - ١٤١٧هـ. قال المناوى رحمه الله: «إِقْلَالًا» يعني: فَقْرًا، من «قَلَّ» بمعنى: افتقرَ،  
وهو في الأصل بمعنى صار ذا قلة. وما أحسن قوله: (مِنْ ذِي الْعَرْشِ) في هذا المقام! أي: أَخْفَافُ  
أَنْ يُصْبِحَ مِثْلَكَ مَنْ هُوَ مُدَبِّرُ الْأَمْرِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ؟!! كلا.. وقال الطبىسى رحمه الله: وإنما  
أمره بذلك لأنه تعالى وَعَدَ على الإنفاق خَلَفًا في الدنيا وثوابًا في العقبى فمن أمسكَ عن الإنفاق  
خوفَ الفقر فكأنه لم يُصَدِّقَ اللهَ ورسولَه» اهـ. انظر - باختصار وتصرف كثير: «فيض القدر»،

شرح حديث رقم: [٢٧٤٦].

الإقبال عليه.. لا تظن أنك عندما تبعد إلى الله تعالى ستتعب، أو سينقص مالك، أو ستضعف صحتك، أو ست فقد وقتاً وجهداً، ولكن إذا أقبلت عليه تعالى، فأغرض عن هذه الدنيا التي قطعتك عن الله تعالى وشغلتك عنه، وأقبل عليه، فإنه سيتولاك ويمدك حينئذ؛ لأن نعيمك وسرور نفسك وقرة عينك وراحتك وسكيتك وطمأن يتك في إقبالك عليه، فكيف يكون تعبك وذهب بركتك في قيامك بحقه وتلذذك بخدمته؟!

إذا أعرضت عن الدنيا بقلبك، ولم تتتسابق فيها ذلك السباق على الخطام الفاني الذي تسعى إليه، وأقبلت عليه تعالى فإنه سيعطيك هذه الدنيا. قال رسول الله ﷺ: «من كانت الدنيا همة فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، وهم يائاه من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيتها جموع الله له أمره، وجعل غناه في قبله، وأنتهى الدنيا وهي راغمة»<sup>(١)</sup>.

فينبغي أن تتغير هذه السلوكيات مع الله تعالى في الفهم والعبادة على هذه الأحكام الثلاثة التي يختص بها العبد: فمن عرف ربّه حقّ له أن يتوكّل عليه في جميع أموره، وأن يفوض إليه جميع شؤونه؛ قال تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ» [المائدة: ٢٢]، وقال تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ» [آل عمران: ١٢٢].

(١) أخرجه ابن ماجه [٤١٠٥] من رواية زيد بن ثابت مرفوعاً. قال الحافظ العراقي رحمه الله في تحرير «الإحياء»: «أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسنده جيد»، دار صادر - الطبعة الأولى - سنة ٢٠٠٢ م.



الفصل الثاني

نظرة إجمالية في الآيات الكريمة الواردة

في معاني اسم الله «الوَكِيل»

وبالتأمل في الآيات التي ذكرت اسم الله «الوَكِيل» وذكرت التوكل على الله تعالى، وجدناها تدور على هذه المحاور الأربع، وهي:

أولاً: الله تعالى هو «الوَكِيل»..

وعليه فقد بيّنت كذلك: الأمر بالتوكل، أسباب الأمر بالتوكل، مظاهر التوكل.

ثانياً: التوكل هو حَالُ الرَّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

ثالثاً: التوكل متعلّق بالإيمان.

رابعاً: العاقبة الحسنة للتوكل.

وكما هو منهجنا سنحصر الآيات ثم نشير إجمالاً إلى بعض معانيها تحت كل عنوان من تلك العناوين، لنبين ترابطها، وإفادتها للمعنى، ثم نتبعها بتفسير بعض تلك الآيات<sup>(١)</sup>؛ إذ التفصيل في ذلك خارج عن حدود الدرس.

أولاً: الله تعالى هو «الوَكِيل»<sup>(٢)</sup>

فإذا وَكَلَوا اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يَكْفِيهِمْ وَيَحْفَظُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ وَيَحْمِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا كُلُّهَا، وَمِنْ كُلِّ أَحَدٍ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلُّهُ بِيَدِهِ، وَإِذَا شَاءَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ «كُنْ» فَيَكُونُ: «مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»<sup>(٣)</sup>..

(١) انظر الفصل الثالث، وفيه شرح تفصيلي بعض الشيء لبعض الآيات التي أجمل ذكرها في هذا الفصل الذي نحن بصدده الآن.

(٢) انظر الفصلين الأول والرابع من هذا المبحث.

(٣) وردت هذه العبارة في حديث مرفوع لكنه في سنته مقال في «سنن أبي داود»، برقم: [٥٠٧٥].

وفيما يلي نستعرض الآيات التي تبيّن أسباب توكل المتكلمين على الله تعالى.

## أسباب توكل المتكلمين على الله تعالى

لماذا يتوكّل المرءُ على الله؟ ..

السبب الأول: لأنَّه يَعْلَمُ هو رب المشرق والمغرب: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فَأَنْتَ خَيْرُهُ وَكَيْلَاهُ» [الزلزال: ٩].

فبسبب أنَّه يَعْلَمُ هو رب المشرق والمغرب، المُتَصَرِّفُ فيهما، والمتصرف في كل شيء، فلا يجوز التوكل على غيره؛ لأنَّه لا يملك شيئاً، فكيف يدفع عن غيره إن كان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه هو؟ ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حيَاةً ولا نشوراً، وكيف ينوب عن غيره في قضاء مصالحة، وهو محتاج إلى ذلك، وليس له ذرة في المشرق أو المغرب، أو في أي شيء، فأنَّى يتوكّل عليه؟! لذلك قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ خَيْرُهُ وَكَيْلَاهُ».

لماذا يتوكّل المرءُ على الله؟ ..

السبب الثاني: لأنَّه يَعْلَمُ هو الهدادي وهو الذي هداهم..

قال تعالى: «وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبُّلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَا أَدِيمْتُمُونَا وَعَلَى

اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلَ الْمُتَوَكِّلُونَ» [ Ibrahim: ١٢].

فإلهادايةُ بيده يَعْلَمُ، وهو الذي هداهم إلى سبيله وطريقه. فكيف يهدِّيهم إلى سبيله وطريقه، ثم يتوكّلون على غيره من ليس بهادٍ ولا مهتديٍ ولا يستطيع لهم الهداية؟! لو كان هذا - الذي يتوكّلون عليه من دون الله - يستطيع هدايتهم إلى صراط الله تعالى،

ويدخلهم جنة الله تعالى، كان يمكن أن يقال: إن لهم شريكًا في التوكل على الله تعالى، ولكنه كما قال تعالى: «وَقَدْ هَدَنَا سُبُّلَنَا»<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر المولى عليه هذه الهدایة في سورة يونس، قال تعالى: «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَاءِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» [يونس: ٣٥].

هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟! من هذا الذي يجوز أن يكون نظيرًا لله تعالى؟! ومن الذي يمكنه أن يعلم الجنة والنار والدنيا والآخرة والضلال والصواب والحق والباطل والحساب والعقاب والكتب والرسائل حتى يتبعه الناس ويهدوا بهديه، إلا أن يكون الله تعالى، وأن يكون ذلك عن طريق رسالته الدينية هداهم إلى طريقه. لا يمكن ذلك لأحد غير الله أبداً.. فهل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ «قُلِ اللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ»، ثم يقول تعالى: «أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي».. يعني: هذا الذي لا يهدي إلا أن يهدي، أي يحتاج إلى أن يهديه غيره، كيف يكون من هذه حالة هو الهدای؟!.. لذلك قال تعالى: «قُلِ اللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ».

فهم يتوكلون على الله تعالى: لأنّه هو «الوکیل».. من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنّه هداهم سُبُّلَهُمْ، فهداهم إلى الحق والصواب في الدنيا، وإلى الصراط المستقيم في الآخرة. وغيره لا يتوكل عليه؛ لأنّه لا يستحق ذلك أحد، والهدایة أعظم شيء وأجلّه لأنّها سعادة الدنيا والآخرة<sup>(٢)</sup>.

(١) لمعرفة المزيد من معانٍ لهذه الآية الكريمة انظر: الفصل الثالث - ثالثاً.

(٢) لمعرفة المزيد من معانٍ لهذه الآية الكريمة انظر: الفصل الثالث - ثانياً.

لماذا يتوكل المرء على الله؟ ..

السبب الثالث: لأنه **عزيز حكيم**، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأفال: ٤٩].

فلمَّاذا يتوكلون على الله؟ لأنَّه عزيز حكيم، ومن صفات «الوَكيل» التي سبق أن ذكرناها: أنه لا يأخذ على وَكالته أجرًا. وأنَّ يكون قوياً قادرًا، فيُحْمِي ويحفظ ويدفع عنَّهم يتوكلاً عليه. وأنَّ يتصرف له في الوكالة بالحكمة والتي هي وَضْع الشيء في موضعه المناسب فيخرج عن الحمق والجهل الذي يمكن أن يتصرف به الوكيل عن مُوكليه، فَيَتَصَرَّف له بالحكمة والعزة، فيستطيع أن يُوصَّله إلى ما وَكَلَه فيه بالحكمة والعلم والقدرة وتمام الكفاية له ب تمام القوة والمنعة. فأنت تقول: «هذا فلانٌ عزيزٌ»، أي: لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليه أو يتمكن منه؛ لأنَّه قويٌ مُمْتنع قادر والله المثل الأعلى.

وكذلك فإنَّ المولى **عزَّاللهُ عَزَّاللهُ** هو الحكيم، فيكون قضاوه وتصرُّفه ليس بالطيش، ولا بالجهل، ولا بالحمق، ولا عدم العلم، ولا عدم تقدير الأمور، ولا تقدير عواقبها.. بل هو **عزَّاللهُ القائم** بذلك كله، فمنْ أَجْدَرُ منه بالتوكل إِذَا؟

لماذا يتوكل المرء على الله؟ ..

السبب الرابع: لأنَّ الْحُكْمُ لِهِ **عزَّاللهُ عَزَّاللهُ**، بل هو مقصور عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

فإذا توكل المرء على منْ لا يحكم فيمكن أن يمنعه الحاكمُ الحقيقِيُّ. أي: إذا توكلَ المرء على المحكوم الذي ليس أمرُه بيده بل بِيَدِ غَيْرِه، وناصيَتُه بِيَدِ غَيْرِه، فإنه يُمْكِنُ أن يقع عليه مِنْ غَيْرِه الحبسُ والمنعُ والوقفُ عن التصرف.

وكذلك فإن الحكم مقصور على الله ﷺ لا لأحد غيره، ومن كان له شيء من الحكم فهو ما أعطاه اللهُ و وهبه إِيَّاه، لذلك قال: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ».. أي له وحده جل وعلا، لذلك فقد توكلتُ عليه. وكذلك فإن الم وكلين إذا أرادوا أن يتوكلا فعليه سبحانه لا على غيره، ودل النفي والاستثناء على الاختصاص، أي: له الحكمُ سبحانه لا لأحدٍ غيره.

فلمَ علمَ أنه الحَكَمُ والحاكم وأن له الحَكْمَ ﷺ، فمن الجهل والحمق أن تتوكل على غيره، من لا يملك شيئاً ولا يستطيع شيئاً؛ لأن هذا المحكوم لا يتصرف في نفسه فضلاً أن يتصرف في غيره، بل كله بيد غيره: يُحرّكه، ويمنعه من التصرف، ويُوقّعه، ويُطْرُدُه، ويُخْرِمُه، ويُجْرِدُه ماله وحياته أيضاً. فإذا أردتَ أن تتوكل، فتوَكّل عليه هو صاحب الحُكْمُ والأَمْرِ والنهي ﷺ.

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟ ..

السبب الخامس: لأن الأمر كله راجع إليه، وذلك في قوله سبحانه: «وَلَلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبِّكَ يُغَيِّلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ»

[مود: ١٢٣]

فله الأمرُ كله، وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّه. إن كان الأمر يرجع لأحد، أو التصريف يرجع لأحد، أو الشأن يرجع لأحد، إن كان أي شيء من ذلك يرجع لأحد غيره فتوَكّل على هذا الغير. ولكن إِلَيْهِ لا إلى غيره يُرجَعُ الْأَمْرُ؛ فلذلك فاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عليه.

وكذلك الغَيْبُ كله له، وغيره لا يعلم ما سيحدث في غِدٍ، بل لا يعلم ما سيحدث بعد قليل في محيطه المحدود. فلا شك أن مقصور علمه سبب لوقوع الخلل في عمله وتدبيره، وأنه ليس له بَصَرٌ مِّنْ ثَمَّ بعواقب الأمور ونتائج الأعمال، فمن له الغَيْبُ وتمام

العلم، هو الذي يحكم أحسن الأحكام للأعمال، ويُدبرها أفضل التدبير حالاً وما لا..  
فأعْبُدُه وتوَكّلْ عليه.

لماذا يتوكّل المرء على الله؟ ..

السبب السادس: لأنَّه سبحانه هو الحيُّ الذي لا يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَّرْ بِخَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عَبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكان يمكن أن يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ﴾ فقط، فيفتح لك باب التوكل على أيٍّ حيٍّ تذهب إليه وتوكل عليه، ولكن خَصَّص ذلك التوكل منك بأن يكون على ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وهو الله سبحانه. فقيَّدها بأنَّ هذا الحي الذي تتوكل عليه ينبغي ألا يكون معَرَّضاً للفناء، فالذي يموت حياته يُدَبَّرُ غيره. فإنْ توكلت عليه وأصبح ميتاً، ضاع عليك ما قصدْته لأجله، أو ما طلبته منه، أو توجّهت به إليه.. إلى غير ذلك مما ذكرنا.

فلا تتوكل حينَدِ على أحدٍ في الدنيا ولا في غيرها إلا على الله، لا على نفسك، ولا على غيرها: حاكِماً كان.. أميراً كان.. عظيماً كان.. حقيراً كان.. قويماً كان.. ضعيفاً كان؛ لأن كل ذلك فان، لأنَّه سبحانه أمرك بالتوكل عليه فقط، لأنَّه هو الحي، وهو الذي لا يموت. كما نهاك أن تتوكل على أيٍّ أحدٍ بعده أو غيره؛ لأنَّ هذا الغير يموت ويفنى ويتهيي، فالجُنُون والإنس يموتون<sup>(١)</sup>، فيخرج بذلك من قلبك كُلُّ ركونٍ إلى غيره أو الثقة في ذلك الغير أو الاعتماد على هذا الزائل.

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه [٢٧١٧]، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلتُ، وَإِلَيْكَ أَتَبَتُ، وَبِكَ خَاصَّمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ تُضْلِلُنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجُنُونُ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ».

لماذا يتوكل المرء على الله؟ ..

**السبب السابع:** لأنّه سبحانه هو العزيزُ الرحيمُ، قال تعالى: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ

الرَّحِيمِ» [الشعراء: ٢١٨].

«العزيز» كما سبق أن ذكرنا: هو القوي الممتنع القادر، يصل إلى كل شيء، ولا يصل إلى جنابه شيء، والذي تستند إليه حاجة كل مخلوق.

و«الرحيم» مشتقٌ من الرحمة، وهي من الصفات التي ينبغي توافرها في الوكيل؛ لأنّه لا يستطيع أن يقوم بأمرك إلا الرحيم بك؛ لأنّه لو لم يكن رحيمًا بك لفَرَطَ في أمرك، ولم يقم لك بأشغالك على تمام الرحمة، ولا يُهمه ما يقع بك: يذهب ليقيم لك هذا الشيء، فإنْ أقامه لك كان بها، وإنْ لم يُقْمِه لك لم يكن لِيُهْمِه ما يقع بك.. ليس رحيمًا أو رعوفًا أو مشفِقًا.. لا يحاول أن يأتي لك بكل خير وأن يمنع عنك كل شر، ولا يحاول أن يحصل لك كل المصلحة، ولا يحاول أن يدفع عنك المفسدة أو المضرة.. لا يستطيع ذلك إلا الرحيم. لذلك تجد هذه الصفة في الأب؛ فهو يكافح من أجل أولاده، ويُهمه مصلحتهم، ويقوم على تحصيل سعادتهم، فيقوم بأشغالهم، ويتحمل أعباءهم، ويدفع عنهم السوء، كل ذلك وهو غير حزين، ولا مُتضايِق، ولا مُتأفِفٌ منْ أن يقوم لهم بذلك، بل سعيدٌ أن يراهم على أحسن حال. فإن كان الأب كذلك، فما بالك بالرب الرحيم سبحانه، وقد وسعت رحمته كل شيء.

لماذا يتوكل المرء على الله؟ ..

**السبب الثامن:** لأنَّ النبي ﷺ على الحق المبين، قال تعالى: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى

الْحَقِّ الْمُبِينِ» [النمل: ٧٩].

ويكون «الحقُّ المَبِينُ» مستفادةً من الله تعالى: فتوكل على الله؛ لأنَّ الله تعالى هو الحقُّ، وأنَّ على الحقِّ الذي وَهَبَكَ سُبْحَانَهُ إِيَّاهُ، فَلَا تَخَشَّ مِنْ شَيْءٍ، لأنَّكَ مَتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَأَنْتَ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي هُوَ مِنْهُ جَلٌ وَعَلَا.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ لَأَنَّكَ مُتَّبِعٌ لِّرَسُولِ ﷺ فِي أَحْوَالِكَ وَأَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَالرَّسُولُ ﷺ عَلَى الْحَقِّ الْمَبِينِ، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ هَذَا الْحَقَّ وَيُعْلِيهِ، وَيُخْفِضُ الْبَاطِلَ وَيُمْحِقُهُ، فَلَا تَخَشَّ شَيْئًا، لأنَّكَ مَتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ.

والتعبير هنا بالإلزام، أي: توكل على الله وتعليله لأنك على الحق المبين. وكل أحد يظن أنه على الحق، ولكنَّ الحق المبين لا يكون إلا من عند الله. والرسول ﷺ على هذا الحق، وليس أي حق، بل الحق المبين الواضح، فلا تخش شيئاً. فكما اتبعت الرسول ﷺ قررت من هذا الحق، وبالتالي من هذا التوكل العظيم.

لماذا يتوكَّلُ المرءُ عَلَى اللهِ؟ ..

السبب التاسع: لأنَّه هو الله الواحد المعبد الذي لا إله إِلَّا هُوَ، قال تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلَ الْمُؤْمِنُونَ» [التغابن: ١٣].

لأنَّه لا إله إِلَّا هُوَ.. لا معبد بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ جَلٌ وَعَلَا، فهو الذي تُؤْلَهُ الْقُلُوبُ وَتُعَظَّمُهُ، وَتَعْبُدُهُ وَتُحِبُّهُ، وَتَخَافُهُ وَتَرْجُوهُ. فإذا كان هذا المعبد بِحَقٍّ هو الله تَعَالَى، فلا بد أن يقف جل وعلا لعيده، ويُدْفع عنهم، وهو الذي يُقوِّيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ وَيَحْفَظُهُمْ، إذا كان هو الرازقُ الْخَالِقُ الْمَحِيُّ الْمَمِيتُ، فلا بد أن يكون هو الإله المعبد، الذي لا إله إِلَّا هُوَ. وإذا كان هو المعبد الذي يعبد الناسُ، ويدعونه، وينبئون إِلَيْهِ، ويتضررون إِلَيْهِ؛ فلا بد أنه

هو الذي يعطيهم ويعطيهم ويرزقهم، ويحييهم ويميتهم، ويحفظهم ويرعاهم ويتولاهم بعانته. لذلك قال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

إذا كان لا إله إلا هو، فكيف يتوكّل المرء على غيره؟! إذ ليس ثمَّ غيره إلَّا. لا إله إلا هو الواحد الحق ﷺ، فكيف يلْوِي على غيره، ويرجو غيره! وغيره ليسوا بالآلة؟.. لا يستحقون عبادةً ولا دعاءً ولا إنابةً ولا خوفاً ولا خشيةً ولا رجاءً؛ لأنهم لا يملكون ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ولا شيئاً. فالإله الحق هو الذي يجب أن يتوكّل عليه العبد.. لماذا؟ لأنَّه يدعوه ويتضرع إليه ويطلب منه، ووصلَّى له ويسجد ويركع، ويصوم ويحج ويُزكي، وبقية العبادات التي يقوم بها المرء له سبحانه. ألا يكون ذلك مَدعاةً لأنَّ تتوَكَّل عليه هو لا على غيره، فكيف تدعوه وتتضرع إليه وتطلب منه، ووصلَّى له وتسجد وترکع، وتصوم وتحجج وتزكي.. ثمَّ أنتَ تتوَكَّل في أمورك على غيره الذي هو عبدٌ مثلك يدعوه ويتضرع إليه، ويسجد له، ويتوكّل عليه.

لماذا يتوكّل المرء على الله؟..

السبب العاشر: لأنَّه سبحانه هو الحسيب والكافِي، قال تعالى: «قُلْ حَسِّنِ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» [الزمر: ۳۸].

فالمتوكلون إذا أرادوا أن يتوكّلوا، فإنَّهم يتوكّلون على مَن يكفيهم. «حسبي الله» تعني: الله يكفيه يكفيوني.

«قُلْ حَسِّنِ اللَّهُ..» وهي الآية التي شرحتها في الآية الأخرى: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبُهُ» [الطلاق: ۲]. فالله يكفيك، وإذا كان هو سبحانه الذي يكفيك فعليه توَكُّل

- «وَعَلَى اللَّهِ فُلْيَتَوْكِلَ الْمُؤْمِنُونَ» [آل عمران: ١٢٢] - كُفُكَ أمور الدنيا وأمور الآخرة، وأمور نفسك وأمور الشيطان، يكْفُكَ أمور الهوى والعباد والخلق والرزق والتدبير.. وكل الأمور حتى أمور العبادة والتوكيل والإنابة.

فيكفيك أن تعلم أنك عندما تقول: «حسبي الله»، أنه هو الذي يكفيك، ولا يكفيك أحد غيره، ولا يغفر لك أحد غيره، ولا يقوم بشئونك في الدنيا والآخرة أحد غيره، ولا يصلاح في الدنيا والآخرة غيره، ولا يدفع عنك الضر في الدنيا والآخرة غيره. من الذي يدفع عن أحد في الدنيا؟.. فإن دفع في الدنيا فمن الذي يدفع عنه في الآخرة؟ من الذي يغفر؟ من الذي تُنِيب إليه؟ من الذي يَرْزَق؟ من الذي يُحْيِي؟ من الذي يُمِيت؟ من الذي يُوفِّق ويَهْدِي؟ من الذي يُعْطِي ويَشْفِي ويُفْكِرُ الكرب وَيُقْبِلُ العَثَرَاتَ غَيْرُه؟.. لذلك تتعلم حينها تقول هذه الكلمة أن الله تعالى هو الكافي. وستأتي هذه الآية معنا إن شاء الله تعالى في قوله سبحانه في عاقبة التوكيل: «فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْنَ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» [آل عمران: ١٥٩].

لماذا يتوكل المرء على الله؟..

السبب الحادى عشر: لأنه سبحانه أعظم وكيل، قال تعالى: «وَتَوَكَّلْنَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» [الأحزاب: ٣].

في هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتوكل، حيث إنه ليس هناك وكيل يكفي إلا هو ﷺ، وهي - أي هذه الآية - لا تحتاج إلى كلام، ولكن ضعف الإيمان الذي جلّ بما وَعَدَهُمْ فَهُمْ قضية الإيمان والتوكيل هما السبيان في أن المرء يَهْلِعُ ويَجْزِعُ إذا نُزِّلَ به شيء، ونبي أن ذلك كله من الله، وأن الله تعالى هو الذي يرفع هذا الذي نَزَّلَ، وأن الله ﷺ هو

الذى يكفيه. فعندما يقول المرء: «حسبى الله»، ينبغى أن يمتلىء قلبه إيماناً ويقيناً، وطمأنينةً ورضاً، وتسلیماً وتفويضاً واعتماداً واستناداً على الله تبارك وتعالى، ويُخرج من قلبه سوء الظن بربه، ويثبت قلبه عند ملاقاة ذلك، وينشرح صدره لقضاءه وقدره ﷺ. لذلك قال: **﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾** [الأعراف: ١٠٢].

إذن.. فلماذا يتوكى المرء على الله؟

السبب الثاني عشر: لأنه خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل، قال تعالى: **﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾**

[الأعراف: ١٠٢].

لذلك فقد قال المولى ﷺ أيضاً: **«وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا»** [النساء: ١٤٢]. فالسماءات والأرض له سبحانه: هل لأحد في الأرض شيء؟ وإن كان لأحد في الأرض شيء، فمن الذي له في السماءات شيء.. ومن كان فيها وما كان ويكون، وما يمكن أن يحدث إلى أن تقوم الساعة.. كل ذلك له ﷺ.. فعليه فتوكل، لا على غيره، وحينئذ تتعلم أنه لا كافي إلا الله. وكذلك الآية الأخرى: **«لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا»** [النساء: ١٧١].

لما تحقق المؤمنون بتلك الأسباب من أسباب التوكل وصل بهم إلى هذه الحالة الحسنة، فقال ﷺ: **«إِنَّ عَبْدِي لَيْسَ لِكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا»** [الإسراء: ٦٥].

وهي تلك الحالة الجميلة التي يحتاجها المؤمنون، وهي: كيف لا يكون للشيطان عليهم سلطان؟ ولا يكون ذلك إلا بالله تعالى، أي بالتوكل عليه سبحانه، لماذا؟ قال:

لأنه «كفى بالله وكيلًا»، فإذا توكل المرء على الله تعالى كان جزاؤه: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ».. لماذا؟ لأنهم متوكّلون على الله تعالى.

ويظن المرء أن سياق الآية ينبغي أن يكون مثلاً في غير القرآن الكريم: «إن الله كان غفوراً رحيمًا»، أو «قوياً عزيزاً»؛ لأنه ليس للشيطان عليهم سلطان. ويفاجأ المرء عندما يجد سياق الآية يتهمي بقوله تعالى: «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا».. فلماذا كان خاتمة هذه الآية هكذا؟

والإجابة على هذا السؤال في آية سورة النحل؛ حيث يقول المولى جل وعلا: «إِنَّمَا لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» [النحل: ٩٩].

والمقصود في هذه الآية الإيتان بالتوكل وليس الإيمان؛ لأنه يخاطب المؤمنين، فالمولى سبحانه يوضح لعباده صفةً من صفات المؤمنين، والتي هي من أهم صفاتهم والتي لا يستطيع الشيطان بسبب وجودها أن يكون له عليهم سلطان، وهي صفة التوكل. إذن ما الذي يجعل الشيطان يفقد سلطاته على المؤمنين؟ إنها تلك المنزلة العالية، وهي منزلة التوكل والتي يتفاوت فيها المؤمنون، والسر في هذا المعنى قوله تعالى: «إِنَّمَا لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا».

وفي المقابل يبين الله تعالى عكس هذه المنزلة العالية فقال في آيات سورة الحجر:

«قَالَ رَبِّي مَا أَغْوَيْتَنِي لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦﴾ إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصُونَ ﴿٧﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مِنْ

**أَتَبْعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** [الحجر: ٤٢-٣٩]. فهؤلاء الذين لم يتحققوا بتلك المنزلة وتسليط عليهم الشيطان أولئك الذين أتبعوا الشيطان من الغاوين.

أما في الآية التي تناولها فقال فيها سبحانه: «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا» لماذا؟ لأن هؤلاء المتوكلين قال فيهم المولى ﷺ: إن الشيطان ليس له عليهم سلطان، «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»..

فهو لم يتسلط عليهم لأنهم عباد الله المتوكلون عليه ﷺ، ولما كانوا عباداً له مخلصين وكان توكلهم عليه سبحانه كفافاته.. «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا».

### ثانياً: التوكل هو حال الرسل وأتباعهم

#### (أ) توكل النبي ﷺ:

وقد وضحته الآيات الكريمة والأحاديث، فنبداً بها ورد عن صفة النبي ﷺ، فهو إمام المتوكلين وسيدهم علىٰهَا وحالاً حتى سماه المولى ﷺ: «المتوكل»..

عن عطاء بن يسارٍ قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة.

قال: أجل، والله إنه لم يوصوف في التوراة ببعض صفاتيه في القرآن: يا أئيمها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولي، سميتك المتوكلاً، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ول يكن يعفو

وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَةُ الْعَوْجَاءُ؛ بِأَنَّ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَآذَانًا صُمُّاً، وَقُلُوبًا غُلْفًا»<sup>(١)</sup>.

وأما الآيات، فقوله تعالى:

(١) «فَإِنْ تَوَلُوا فَقُلْ حَسِيبٌ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»

[التوبة: ١٢٩].

(٢) «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَنَابٍ» [الرعد: ٣٠].

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم [٢١٢٥]، وأخرجه أيضاً بنحوه [٤٨٣٨]. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح هذا الحديث ما حاصله: «(وَحْرَزاً) أَيْ: حَصْنَا، وَالْأُمَيَّنَ هُمُ الْعَرَبُ، قَوْلُهُ: (سَمَيْنُكَ الْمَوْكِلُ) أَيْ: عَلَى اللهِ لِقَنَاعِيهِ بِالْيَسِيرِ وَالصَّبِرْ عَلَى مَا كَانَ يَكْرَهُ، قَوْلُهُ: (يُفَظٌّ وَلَا غَلِظٌ) هُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «فِيمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِنَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَأَ غَلِظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران: ١٥٩]. قَوْلُهُ: (وَلَا سَخَابٌ) كَذَا فِيهِ بِالسِّينِ الْمُهَمَّةِ، وَهِيَ لُغَةُ أَثْبَتَهَا الْفَرَاءُ وَغَيْرُهُ، وَبِالصَّادِ أَشْهَرُ. وَ«السَّخَبُ» (وَالصَّخَبُ) وَهُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْخَصَامِ. قَوْلُهُ: (وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ) هُوَ مُثْلٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحَسَنُ» [فصلت: ٣٤]. قَوْلُهُ: (وَلَنْ يَقْبِضَهُ) أَيْ: يُمْيِتُهُ، قَوْلُهُ: (حَتَّى يُقِيمَ بِهِ) أَيْ: حَتَّى يَنْفِي الشَّرِكَ وَيُؤْتِي التَّوْحِيدَ وَالْمِلَةَ الْعَوْجَاءَ مِلَةَ الْكُفْرِ. قَوْلُهُ: (فَيَفْتَحُ بِهَا) أَيْ: يَكْلِمُهُ التَّوْحِيدَ (أَعْيُنًا عُمِيًّا) أَيْ: عَنِ الْحَقِّ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى حَقِيقَتِهِ... وَكَذَا الْكَلَامُ فِي الْأَذَانِ وَالْقُلُوبِ» اهـ. انظر - باختصار وتصريف: «فتح الباري»، شرح الحديدين [٢١٢٥]، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله. قال ابن منظور رحمه الله في اللسان: «الغَلَظُ: الْخَشِنُ الْكَلَامُ، وَقِيلَ الْفَظُ: الغَلِظُ» اهـ من مادة: [ف ظ ظ]. وقال أيضاً: «الغَلَظُ: ضَدُ الرَّقَّةِ فِي الْخُلُقِ وَالْطَّبِيعِ وَالْفَعْلِ وَالْمَطْقَ وَالْعَيْشِ.. وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَغَلَظٌ، يَغْلُظُ، غَلَظًا: صَارَ غَلِظًا» انتهى من مادة: [غ ل ظ].

(٣) «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّنَا عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» [الشورى: ١٠].

(٤) «قُلْ هُوَ الْرَّحْمَنُ إِمَانًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا» [الملك: ٢٩].

(٥) «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشُوهُمْ فَرَأَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا  
اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ» [آل عمران: ١٧٣].

وفي الحديث من قول ابن عباس رضي الله عنهم: ««حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ» قالا  
إِبْرَاهِيمُ السَّلَطَةُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَا مُحَمَّدُ ﷺ حِينَ قَالُوا: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ  
النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشُوهُمْ فَرَأَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ» [آل عمران:  
١٧٣]». <sup>(١)</sup>

### (ب) توكل الأنبياء عليهم السلام:

عن نوح عليه السلام جاء قوله تعالى: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأً نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ أَكْبَرُ عَلَيْكُمْ  
مَّقَامٍ وَتَذَكَّرِي بِعَائِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةٌ  
ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْيَ وَلَا تُنْظِرُونِ» [يونس: ٧١].

فقد واجه نوح عليه السلام قوةً غاشمةً؛ كثيرة العدد والعدة، وهو على العكس من قلة  
العدد وضعف العدة، ومع ذلك يقول لهم: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ  
غُمَّةٌ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْيَ وَلَا تُنْظِرُونِ».

وعن هود عليه السلام: «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّنِي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ ذَاكِرٍ إِلَّا هُوَ أَخْدُ بِنَا صِرَاطَهُ إِنَّ رَبِّي  
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [هود: ٥٦].

(١) آخر جه الإمام البخاري في صحيحه: [٤٥٦٣] موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهم.

وهذه الآية من أعظم الآيات الدالة على صدق الرسل. كيف يقوم رجل واحد أمام هذه الأمة العظيمة لِيُسْفَهَ أحلامهم، ويُسْبَّ أصنامهم، وليتخدواهم جميعاً أن يكيدوه ولا يُنظروه، ولا يمهلوه، بل يعاجلونه العقوبة ولا يمنعهم عن ذلك مانع، ولكنه متصرّ عليهم، ومنع بالله تعالى ومنع بحسن توكله عليه. وفي ذلك أعظم الدليل أن قائل ذلك الكلام - هود الكتاب - نبیٌّ مرسلاً من عند الله تعالى. وقد سبق أن تناولناها بالتفصيل في دروس توضيح شرح العقيدة الطحاوية<sup>(١)</sup>.

وعن شعيب الكتاب: «قَالَ يَنْقُومُ أَرْءَى يُمْثِدُ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّي وَرَزْقِنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَتَهْنِكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا إِلَصْلَاحَ مَا أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوَفَّقُنِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكِّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» [هود: ٨٨]. وذلك لما قالوا: «قَالُوا يَنْقُومُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمِنْكَ أَنْ نَتَرَكَ مَا يَعْبُدُ إِبَابُونَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الْرَّشِيدُ» [هود: ٨٧]. فهو الكتاب ليس خائفاً منهم، بل هو يريد الإصلاح. وفيها كذلك الافتقار إلى الله تعالى: «وَمَا تَوَفَّقُنِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكِّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

فينبغي أن تكون هذه الآيات كلها هي حال أهل الإيمان؛ في الدعوة، والتوكل، ونصرة الدين الله جل وعلا. وينبغي عليهم أن يعلموا أنهم:

أولاً: ي يريدون الإصلاح.

ثانياً: لا يخافون الظلم ولا الظالمين.

(١) في الدرس الخامس من هذه السلسة، والدرس متوفّر صوتيّاً على موقع طريق الإسلام وموقع أخرى على الشبكة العالمية (الإنترنت).

ثالثاً: أنهم لا جئون إلى الله، وتوفيقهم به سبحانه، لا يُهمهم سوى القيام بما أمرهم به الله، ويقومون بكل ذلك توكلًا على الله، ويكون ذلك سببًا لنصرتهم وكفایتهم وتأييدهم وتوفيقهم وكفایتهم وكفافهم عنهم، ولا يقوم لهم أحد؛ لأن العاقبة في نهاية المطاف للقوى وللمتقين.

رابعاً: أنهم لا يتحزرون عن إرادة الإصلاح، ولا يُقصرون في طلب هذا الإصلاح دعوةً إلى الله تعالى، وسلوگاً إليه، ونصرةً لدینه بكل ما يستطيعون، وما توفيقهم في هذا الأمر إلا بالله سبحانه كما قال شعيب الشعيب: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

ويقول لهم شعيب الشعيب كذلك فيما ورد عنه: «قَدْ آفَرْتَنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَدْنَا فِي مِلْتَكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّلْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسَعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَتَّاحِينَ» [الأعراف: ٨٩].

وسيدنا شعيب الشعيب هو خطيب الأنبياء؛ وهذه الكلمات الجميلة القوية التي قالها تُبيّن ملامح الدين والدعوة إلى الله تعالى وعواقبها، وتبيّن ما يتعلّق بها من أوها إلى آخرها، وقد اكتملت فيها كل ملامح وأصول الدعوة إلى الله تعالى: سواء أكانت في الداعي أم في من يدعوه إلى الله تعالى، أم في وسائل الدعوة، أم في الدعوة نفسها والثبات عليها؛ إذ هي دعوة التوحيد.

وهذه الآية تثير التساؤل من يقرأها: وهل كان سيدينا شعيب الشعيب على مِلْتِهِم؟ أم يقول: «قَدْ آفَرْتَنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَدْنَا فِي مِلْتَكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّلْنَا اللَّهَ مِنْهَا»؟ وإلا فكيف يقول سيدينا شعيب الشعيب هذه المُقولَة؟

الجواب: لا.. لم يكن شعيب الصلوة في ملتهم، بل كان خطيب قومه، فهو يتكلم بلسانهم. فلم يكن شعيب الصلوة كافراً، ولم يبعث الله نبياً كان على الكفر أبداً، ولكنه الصلوة كان المتحدث باسم الذين آمنوا؛ يتحدث بلسانهم، فيقول للكفار: لا يجوز لهؤلاء أن يعودوا في ملتهم وقد نجاهم الله منها.

التوكل هو حال الرسل وأتباعهم، ويجب أن يكون حال المؤمنين اليوم، وعليهم أن يتفكروا في هذه الآيات التي ذكرها رسول الله عليهم الصلاة والسلام حال إعلانهم التوكل على الله، وتجاهرتهم للظلمة والكفرة بأنهم متوكلون على الله، وأنهم لا يخافون منهم شيئاً.

وعن يعقوب الصلوة: «وقال يسألي لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقةٍ وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتكىلون» [يوسف: ٦٧]. وذلك في قصة يوسف الصلوة، في سورة يوسف لما فقد يوسف الصلوة وأخذ ابن يعقوب الصلوة الآخر، وسيشار إليها في الأمر بالتوكل والكلام عن الوكيل سبحانه.

أما قوله تعالى: «وعليه فليتوكل المتكىلون» فمعناه: أنه من أراد أن يتوكلاً فليتوكل على الله سبحانه، وقد أشرنا إلى ذلك في الجزء الخاص بأسباب التوكل على الله.

وعن إبراهيم الصلوة: قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهم: «(حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم الصلوة حين أُقْيِي في النار، وقالها محمد صلوة حين قالوا: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهُم فزادُهم إيماناً و قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» [آل عمران: ١٢٣]»<sup>(١)</sup>.

(١) سبق تخرجه.

و كذلك ذكر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام وأتباعه في مواجهة قومه قوله تعالى: «قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنما براءة منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرونا بهم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء رأينا عليك توكلنا وإليك أنتنا وإليك المصير رأينا لا نجعلنا فتنة للذين كفروا وأغفر لنا إنك أنت العزيز الحكيم» [المتحدة: ٤، ٥].

وعن موسى عليه السلام وقومه، وذلك في قول الله تعالى: «وقال موسى ينقوم إن كتم ءامنتكم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين» [٢] فقالوا على الله توكلنا رأينا لا نجعلنا فتنة للقوم الطالبين ونحيتنا برحمتك من القوم الكافرين» [يونس: ٨٤-٨٦].

فبين ذلك أن التوكل هو حال الرسل عليهم الصلاة والسلام، وحال أتباعهم المؤمنين الكرام، فكان موسى عليه السلام هو إمام قومه وأسوتهم في التوكل.

والآية الجامعة في توكل الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة، قال تعالى: «قالت لهم ربُّهم إن تحزن إلا بشرٍ مثلكم ولديكم الله يمُّن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» [إبراهيم: ١١].

وهذا قول الرسل وحدهم كافة - وإن ذكر عن بعضهم - ثم قال تعالى: «وما كان إلا نَتَوَكِّلَ عَلَى الله وقد هدانا سُبُّلنا ولنضيرنَّ عَلَى مَا اذْتَمُونَا وَعَلَى الله فليتوكل كل المؤمنون» [إبراهيم: ١٢].

وقد ذكر المولى سبحانه التوكل عن النبي عليه السلام وأتباعه في قوله تعالى: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاختشوه فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» [آل عمران: ١٧٣].

كان العكس ينبغي أن يحدث، أي أنه عندما يشتد الحال ويقسوا الكفار والظالمون على المسلمين، وتضيق الدنيا عليهم، كان السياق يستدعي أن يقول أمرهم إلى الدمار أو ال�لاكة، أو الخوف، ولكن جاءت الإجابة: «فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهُ وَنَعَمْ أَلَوْكِيلُ»، وذلك لحسن توكيلهم، ويقينهم على مولاهم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

قالوا: إن الله جل وعلا يكفينا ولو اجتمعت علينا الدنيا والآخرة والجنة والإنس وكل أحد. لهذا جاء هذا المعنى في أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه دعوة القرآن الكريم. فينبغي أن يكون أتباع الرسل على هذه الحالة الحسنة التي أشارت إليها الآيات. لماذا؟ الإجابة في الجزء الأول أو العنوان الأول من هذا الموضوع وهو أن الوكيل هو الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

### ثالثاً: التوكل متعلق بالإيمان:

الإيمان من ثمراته التوكل، وعلى قدر الإيمان على قدر ما يكون التوكل على الله تعالى أو الملح والجزع الذي نراه في أحوالنا، لذلك قال تعالى:

١ - «وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ» [آل عمران: ١٢٢]، [التغابن: ١٣].

٢ - «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ» [المائدah: ٢٣].

٣ - «إِن كُنْتُمْ أَمْنَتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» [يونس: ٨٤].

فهذه الآيات تبين علاقة الإيمان بالتوكل، وأنه عندما حضهم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ على التوكل أثار فيهم قضية الإيمان، يعني بأنه يقول لهم: «إن كنتم آمنتم بالله فتوكلوا عليه؛ لأنَّ التوكل دليل الإيمان ومرتبط به»، وأنَّ الضعف الذي نحن فيه إنما هو ضعفُ التوكل على الله، والاستناد، والتفسير، وتسليم الأمر إليه. فمقتضى التوكل أنْ تُسلِّم إرادتك إلى إرادته

نَفْعًا، وتصرفك إلى تصرفه بِهِ، وأن يدبر هو جل وعلا لك شأنك، وأن يقوم على أمروك وأحوالك، وأن تعتقد في ذلك الاعتقاد الجازم، وأن تعتقد أنه يُدبر لك ويقضي لك ويفيئ لك أفضل ما يمكن أن يكون لك، وأن يقوم لك بأشغالك... إلى آخر ذلك، وذلك دليل الإيمان. فضعف التوكل دليل ضعف الإيمان، وأننا في درجات الإيمان الدنيا، والتي لا يصدر منها حُسن التوكل، ولا التفويض، ولا التسليم، بل التي يصدر منها الاعتراض على الله تعالى، وعدم الرضا بقضائه، ويقول المرء منا: «أنا متوكلاً على الله»، وكذب! فلو تَوَكَّلْتَ على الله لرضي بما فعل الله، كما ذكرنا من قبل.

#### رابعاً: عاقبة التوكل:

وأشار القرآن الكريم إلى عاقبة التوكل حتى يحتمل المؤمنين على التوكل والإيمان بالله تعالى، فذكر هذه العواقب:

العاقبة الأولى: الكفاية من الله تعالى للممتهنين: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» [الطلاق: ٣]. فأعظم بالكفاية من شيء، ولكن القلوب لم تصل بعد إلى هذا المعنى.

العاقبة الثانية: محنة الله تعالى للممتهنين: «فَإِذَا عَرَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» [آل عمران: ١٥٩].

العاقبة الثالثة: ما عند الله خير وأبقى لهم: «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» [الشورى: ٣٦].

العاقبة الرابعة: أنَّ أجراً لهم أعظم الأجرا بإضافة الصبر لهم: «نَعَمْ أَجْرُ الْعَمَلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

العاقبة الخامسة: أنَّ الشَّيْطَانَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رِبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» [النَّحْل: ٩٩]، فلا سلطان للشيطان على المتكلين من المؤمنين.

إذا نظرت لهذه الآيات وجدت تكميل العاقبة الحسنة من الله تعالى للمؤمنين، فكلُّ الخيرات والعواقب الحسنة قد جمعها الله تعالى لهم: فليس للشيطان عليهم سلطان، وإذا توكلوا على الله في الدنيا كفاهم همومهم من أوالها إلى آخرها، وإذا توكلوا عليه في العبادة وفي أمور الآخرة كذلك كفاهم أمور الآخرة، ثم رزقهم محبته بِهِ جزاء توكلهم عليه، وأعظم الأجر لهم في الأولى والآخرة؛ فلا للشيطان عليهم سبيل، والله حسيبهم وكافيهم في الدنيا والآخرة.



الفصل الثالث

الشرح التفصيلي لبعض الآيات الواردة في

معاني اسم الله «الوَكِيل»

وبعد هذا العرض الإجمالي للآيات نورد تفسير بعض الآيات بشيء من التوضيح والتفصيل.

أولاً: قوله تعالى:

﴿فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ..

الملاحظ يجد أن «فتوكلاً» ليست جواب الشرط لـ«فإذا عزمت»، ولكن جواب الشرط مخدوف، والتقدير: «إذا عزمت على أمرٍ فبادرْ ولا تتردد حتى لا يفوّت الوقت ولا يفوّت الخير، وكن في مبادرتك هذه متوكلاً على الله تعالى»، وهنا يظهر معنian:  
الأول: المبادرة للأمر مع الأخذ بالأسباب.

الثاني: التوكيل على الله سبحانه مع الأخذ بالأسباب، والدليل على أن «فتوكلاً» ليست جواباً لـ«فإذا عزمت»: أنها لو كانت جواباً لها لما كان للشوري المأمور بها في الآية فائدة، قال تعالى:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٣] ..

ولأنَّ التوكيل علامٌ صدق الإيمان.

وفي التوكيل ملاحظة عظمة الله وقدرته، لذلك فالعبد يتوكيل عليه يَعْلَمُ، ويعتقد في نفس الوقت ضرورة الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، فهو يتوكيل على الله سبحانه لأن:

• العبد يحتاج إلى الله تعالى.

• الله سبحانه عظيم قادر، إذا توكيل عليه العبد كفاه يَعْلَمُ.

وهذا أدبٌ عظيم مع الخالق جل وعلا، يدل على محبة العبد لربه، فكان جزاؤه محبة الله له، فالمتوكلون أحبو الله تعالى لأنهم لجئوا إليه وعلموا أنهم غير مستغنين عنه سبحانه، وفي نفس الوقت علموا عظمَة الله تعالى وقدرته تعالى ورحمته تعالى بهم، واستيقنوا من ذلك؛ فدل ذلك كله على صدق إيمانهم به: أي دل على محبتهم له، وأنهم توجّهوا إليه بهذا التوكل لمحبتهم له، واعتقادهم في ربهم أنه هو قوي قادرٌ، وسيكون لصلحتهم، مع صدق إيمانهم في كونه يمكن أن يقوم لهم بذلك كله، فكان جزاؤهم من الله تعالى على هذه المحبة التي أحبوها لربهم أن الله تعالى أحبهم: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ»

[آل عمران: ١٥٩]

ثانيًا: قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَسْأَوْمٰ إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكُّلُّا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾  
﴿تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾  
﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَفِرِينَ﴾

[يونس: ٨٤ - ٨٦]

وهذه الآية اختصناها بمزيد من التفصيل لأنها تجمع كثيراً من المعاني التي أشرنا إليها في قضية التوكل، فهي تبيّن الأمر بالتوكل، وتبيّن كذلك أنَّ التوكل متعلق بالإيمان والإسلام، وتبيّن ثالثاً عاقبة التوكل الحسنة..

ونشرع إن شاء الله في تفصيل شرح الآية<sup>(١)</sup>:

(١) انظر - بتصرف كثير جداً: تفسير «التحرير والتنوير» للعلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله، تفسير الآيات من الرابعة والثانين حتى السادسة والثانين من سورة يونس.

لَمَّا أَرْسَلَ الْمُولَى ﷺ مُوسَى السَّلَّيْلَةُ لِقَوْمِهِ وَلِفَرْعَوْنَ وَلِمَلَئِهِمْ، فَمَا آمَنَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى - كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَّا ذُرِيَّةً مِنْ قَوْمِهِ، وَآمَنُوا كَذَلِكَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فَرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَنُهُمْ، لِمَاذَا؟ قَالَ: «وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِيٌّ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَعَنِ الْمُسْتَرِفِينَ» [يوس: ٨٣]، فَلِمَا حَدَثَ هَذِهِ الْقَصَّةُ وَآمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْ ذُرِيَّةِ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَاطَبَهُمْ مُوسَى السَّلَّيْلَةُ قَائِلًا: «يَقُولُ إِنَّكُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ».

وَالغَرْضُ مِنْ هَذَا الْخَطَابِ الَّذِي خَاطَبَ بِهِ مُوسَى السَّلَّيْلَةُ هُؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ: تَبَيِّنُ الَّذِينَ آمَنُوا فِي حَضُورِ فَرْعَوْنَ عَلَى تَوْكِلِهِمْ، وَأَمْرُ مَنْ عَادَهُمْ - الَّذِينَ خَافُوا ذُرِيَّتَهُمْ أَنْ يُؤْبَلُوُهُمْ عَلَى إِظْهَارِ الْإِيمَانِ - بِأَلَا يُجْبِبُنَّا أَبْنَاءُهُمْ، وَأَلَا يَخْشُوا فَرْعَوْنَ، وَيَسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ:

## أولاً: تَبَيِّنُ الَّذِينَ آمَنُوا فِي حَضُورِ فَرْعَوْنَ

فَعِنْدَمَا قَامَتْ دَلَائِلُ صَحَّةِ نَبَوَةِ مُوسَى السَّلَّيْلَةِ أَمَامَ فَرْعَوْنَ آمَنَ بَعْضُ قَوْمِهِ، وَلَكِنْهُمْ آمَنُوا وَفِي قُلُوبِهِمْ خَوْفٌ مِنْ فَرْعَوْنَ أَنْ يَفْتَنُهُمْ..

وَالْفَتْنَةُ فِي الدِّينِ تَعْنِي: أَنْ يَكْفِرُوا مَرَّةً أُخْرَى، أَوْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ عَلَى الإِشْرَاكِ وَالرَّجُوعِ بِالْتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، كَمَا فَعَلَ فِي السَّمَّاَرَةِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا آمَنُوا وَتَوَكَّلُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالُوا لِفَرْعَوْنَ: «فَاقْتُلْ مَا أَنْتَ قَاضٍ» أي: لَا يُهُمُّنَا مَا تَفْعَلُ بِنَا، فَكَانُوا كَفِرَةً فِي أُولَى النَّهَارِ، وَكَانُوا شَهَدَاءَ فِي آخرِ النَّهَارِ، لَا صَلَبَهُمْ فِي جَذْوَ النَّخْلِ! فَالغَرْضُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ «يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا»: تَبَيِّنُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهَذَا الْمَعْنَى نَذْكُرُهُ حَتَّى يَفْهَمُ النَّاسُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُشَبِّهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ إِلَّا التَّوَكُّلُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ هِيَ الْفَائِدَةُ الْأُولَى.

## والثانية: أنَّ التوكل ينزع الخوف

فقد أَمْرَ مَنْ عادا هُمْ - وهم الذين خافوا أن تؤنبهم ذريتهم على إظهار الإيمان - أَلَا يُجِبِّنُوا أَبْنَاءَهُمْ أَوْ يخسروا فرعون، فالخطابُ للطائفتين: الطائفة التي آمنت، والطائفة الخائفة، والتي قال فيها المولى ﷺ: «عَلَىٰ حَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنِيهِمْ أَنْ يَفْتَنُهُمْ».

هذه الذريعة آمنت بموسى، ولكن على خوفِ من فرعون وملئهم أن يُؤَنِّبُوهُمْ: لماذا أَظْهَرْتُمْ هذا الإيمان أَمَامَ فرعون؟ لماذا أَشْهَرْتُمْ إِسْلَامَكُمْ أَمَامَهُ؟ فإن ذلك سببُ في قتلُكم، وسبباً في أن يزيد عليكم العذاب، وأن يزيد عليكم كذا وكذا مما تعرضتم له من الأذى - كما ذكر الله تعالى - كان يمكن أن تؤمنوا، ولكن أَخْفُوا هذا الإيمان حتى لا يكون سبباً للإيذاء، وسبباً للتعذيب، وسبباً للمشاكل.

فوجَّهَ موسى عليه السلام خطاباً للطائفتين - الذين آمنوا، والذين حاولوا أن يُجِبِّنُوا أَبْنَاءَهُمْ: يعني أن يكون أبناءُهُمْ هُؤُلَاءِ جُبَّنَاءَ - بأن يُظْهِرُوا إيمانهم: «يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ»، يعني: إن كنتم آمنتم، فدليلُ هذا الإيمان هو التوكل على الله، أي: إن كنتم آمنتم بالله حقاً - وهذا الذي أَظْهَرَتُهُ أقوالُكم - فعليه اعتمدوا في نصِّركم، وفي دفعِ الضر عنكم، ولا تعتمدوا في ذلك على أنفسكم بأن تُصَانِعوا فرعونَ وأن تُدَاهِنُوهُ، ولا تعتمدوا على إظهار الولاء لهذا الفرعون. فأراد موسى عليه السلام بهذا القول أن يُثِيرَ فيهم حمَّةً صدق الإيمان، وأن يُلْهِبَ قلوبَهُمْ بِجَعْلِ إيمانهم مُعْلَقاً بهذا الشرط: وهو الإيمان، ثم بشرطِ محتملٍ وقوعه.. لماذا؟ لأنَّهُمْ تخوفوا من فرعون وملئهم أن يفتنهُم، فأرادوا أن يكتُمُوا إيمانهم تقيةً من فرعون وملئهم، ولذلك أمرُهم موسى عليه السلام بالتوكل، وجَعَلَ عَدَمَ اكْتِرَاثِهِمْ بِيَطْشُ فرعون علامَةً على إيمانهم، يعني كأنه قال لهم:

«لا.. تَوَكّلُوا، وَأَظْهِرُوا إِيمَانَكُمْ، وَأَنْتُم.. لَا تُجْبِنُوهُمْ فِي أَنْ يُحْكِمُوا إِيمَانَهُمْ تَقْيَةً مِنْ فَرْعَوْنَ، وَخُوفًا مِنْهُ، وَأَظْهِرُوا عَدَمَ الْاِكْتِرَاث بِفَرْعَوْنَ، وَعَدَمَ الْاِكْتِرَاث بِالْخُوفِ مِنْهُ، وَبِإِيَادِهِ، وَبِتَعْذِيبِهِ؛ وَهَذَا عَلَامَةٌ عَلَى إِيمَانِكُمْ..». وَذَلِكَ لِأَنَّ الدُّعَوَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا تَتَقَوَّى إِلَّا بِأَنْ يُظْهِرَ مُتَّبِعُوهَا هَذَا الإِيمَانَ، فَلَا تُعْتَنِرُ فِيهَا التَّقْيَةُ.

وَقُولُهُ تَعَالَى: «إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكّلُوا» قَدَّمَ الْمُجْرُورُ وَهُوَ: «فَعَلَيْهِ»، وَلَمْ يُقَلْ: «تَوَكّلُوا عَلَى اللَّهِ» أَوْ «فَتَوَكّلُوا عَلَيْهِ»؛ لِإِفَادَةِ الْقَصْرِ، يَعْنِي: «تَوَكّلُوا عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، لَا عَلَى غَيْرِهِ، لَا تَخَافُوا»، وَذَلِكَ لَمَّا قَالُوا: «نَحْنُ خَائِفُونَ»، وَالآخَرُونَ يُؤْنِبُونَهُمْ لِإِظْهارِهِمِ الْإِيمَانَ كَمَا أَشَرْنَا فِي قُولِهِ تَعَالَى: «فَمَمَّا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرَيْةً مِنْ قَوْمِهِ، عَلَى حَوْفِي». فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى الْعَلِيُّ: «لَا، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكّلُوا»، يَعْنِي: لَا تَخَافُوا. وَهَذَا مَعْنَى سِيَاقِ الْكَلَامِ، فَلَمْ يُقَلْ لَهُمْ: «لَا تَخَافُوا» مُبَاشِرَةً، وَلَكِنْ قَالَ لَهُمْ: «تَوَكّلُوا عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى غَيْرِهِ»؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبُ عَدَمِ الْخُوفِ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ لَهُمْ: «لَا تَخَافُوا» فَقَطْ، لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ فَائِدَة، فَالْخَائِفُ خَائِفٌ فَلَنْ تَؤْثِرْ فِيهِ، وَإِنَّمَا لَمَّا أَهْبَبُوهُمْ بِصِدْقِ الْإِيمَانِ، وَأَظْهَرُوهُمْ أَنَّ التَّوْكِلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ فِي النَّجَاهِ، وَسَبَبٌ فِي الْلَّجْوَءِ إِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي لَا تُقْهِرُ، كَانَ ذَلِكَ تَقوِيَّةً لِإِيمَانِهِمْ، وَإِثَارَةً لِذَلِكَ الْإِيمَانِ فِيهِمْ، وَيُلْهِبُ عَاطِفَتِهِمْ فِي أَنْ يَسْتَمِسُوكُوا بِأَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُمْ مُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى غَيْرِهِ، لِذَلِكَ قَالَ: فَعَلَى اللَّهِ تَوَكّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

وَلَكِنْ مَاذَا جَاءَ قُولُهُ سَبِّحَانَهُ فِي خَتَامِ هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» فِي قُولِهِ: «يَقُولُونَ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ»؟

الْجَوابُ: «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» شَرْطٌ ثَانٌ مُؤَكَّدٌ لِلشُّرُطِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ: «إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُتُمْ

بِاللَّهِ».

يعنى: إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، مُسْلِمِينَ لَهُ حَقًّا، قَدْ اسْتَسْلَمْتُمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا.. هُوَ يَقِيْكُمْ وَهُوَ يَحْفَظُكُمْ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا.. لَا تَخَافُوا مِنْ غَيْرِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا.. هُوَ الْقَوِيُّ الْقَاهِرُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

فَحَصَّلَ مِنْ مَجْمُوعِ الْجَمْلَتَيْنِ: أَنَّ حَصُولَ هَذَا التَّوْكِلَ مُتَوَقِّفٌ عَلَى حَصُولِ إِيمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ. لِمَاذَا الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ مَعًا حَتَّى يَحْدُثَ التَّوْكِلُ؟! الْجَوابُ: حَتَّى يَحْدُثَ الْإِهْتِمَامُ بِقَضِيَّةِ التَّوْكِلِ، فَلَمَّا قَالَ تَعَالَى: «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» بَيْنَهُمْ خَطَرَ التَّوْكِلُ وَقِيمَتُهُ إِيمَانًا وَإِسْلَامًا: إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ.. إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؛ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا. وَلِيَبْيَانِهِمْ فِي نَفْسِهِمْ إِيمَانًا وَإِسْلَامًا: إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ.. إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؛ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا. وَلِيَبْيَانِهِمْ فِي نَفْسِهِمْ الْوَقْتُ عَاقِبَةُ هَذَا التَّوْكِلِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْفِيهِمْ. فَهَلْ كَفَاهُمْ رَبُّهُمْ أَمْ لَا؟ وَهَلْ حَصَّلَتْ لَهُمْ عَاقِبَةُ التَّوْكِلِ أَمْ لَا؟

وَلِتَعْرِفَ جَوَابَ هَذَا تَأْمَلِ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَهَا:

قَالَ تَعَالَى: «وَجَلَّ زَنْبُقُنَا بِيَنِي إِسْرَئِيلَ الْبَخْرَ فَأَتَبْعَثُهُمْ فِرْعَوْنُ وَجَنْوُدُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرْقَ قَالَ إِيمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي أَمْتَنْتُ بِهِ بَتُّو إِسْرَئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [يوس: ٩٠] الَّذِينَ ذَكَرْهُمْ سَيِّدُنَا مُوسَى السَّلَّيْلَةُ فِي بَدَائِيَّةِ الْآيَاتِ قَائِلًا: «يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَنْتُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ». وَفِي آخِرِ الْآيَاتِ تَمْنَى فَرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ! وَذَلِكَ لِيَبْيَانِهِمْ الْرَّبُّ جَلَّ وَعَلَا هَذِهِ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ.

وَقَدْ أَشْرَنَا إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِيَّا سَبَقَ، وَعَرَفْنَا لِمَاذَا قَالَ لَهُمْ: «مُؤْمِنِينَ»، وَ«مُسْلِمِينَ»؟ وَذَلِكَ لِزِيدِ الاعْتِنَاءِ بِالتَّوْكِلِ، وَأَنَّ التَّوْكِلَ مَلَازِمٌ لِلْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ. وَلَا يَكُونُ الْمَرءُ قَدْ اسْتَسْلَمَ لِلَّهِ وَآمَنَ بِهِ إِلَّا وَهُوَ مَتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ.. يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ قَدْرِ رَبِّهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي قُوَّتِهِ وَقُدرَتِهِ وَمِنْعَتِهِ وَعَزَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.. إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرْنَا.

إذن قوله تعالى: «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» أي: إن كان إيمانكم إيمان مُسلمٍ لله تعالى.. إيمان مُخلصٍ له، غير شائب هذا الإسلام ولا يُشوّبه ترددٌ في قدرة الله تعالى، ولا ترددٌ في أن وعد الله حق، وأنه سينصرهم. إنْ كنتم كذلك فعليه توكلوا.

والآن هذا الكلام كما كان لهم فهو لنا أيضاً: هم توكلوا فنجّاهم المولى ﷺ، وواجب علينا أن نتعلم التوكل حتى يكون سبباً للنجاة، ونتعلم التوكل حتى يكون سبب الثبات على دين الله تعالى، ونتعلم التوكل ليكون سبب محبة الله جلّ وعلا.

قالوا في هذه الآية: «فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا». وتجد هذه الآية مُعَقَّبةً بالفاء للتعليق على سرعة استجابتهم لأمر موسى عليه السلام.. لم يتربدوا، فبمجرد أن قال لهم: «إِنْ كُنْتُمْ أَمْنَأْتُمْ بِيَ اللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلْوَا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» قالوا: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» مباشرةً، وهي الجملة الجميلة التي ينبغي أن تكون لنا بعد أن كانت لهم، وقد كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوى الذى واجههم به نبيهم ﷺ، مُسِرِّعاً بهم إلى التجرد عن الخوف والمصانعة وإلى عقد العزم على التوكل على الله تعالى.

فكان إذاً السبب الذي أسرع بهم إلى التوكل:

أولاً: صدق إيمانهم مع نور الأمر النبوى. يعني: كان صدق الإيمان منهم، ونورُ أمر النبوة لهم بالتوكل على الله، كان ذلك مسرعاً بهم إلى التجرد عن الخوف والمصانعة، ومسرعاً بهم إلى عقد العزم على التوكل على الله تعالى. لذلك بادروا بجوابه قائلاً: «فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»، أي: على الله لا على غيره توكلنا، وخرج التجرد والمصانعة والخوف، وظهرت المسارعة والمبادرة إلى التوكل عليه.

وبعد ذلك ذيّلوا قولهم ذلك - هؤلاء المؤمنون - بعد أن قالوا: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»، باللجوء إلى الله لا إلى أنفسهم، فقالوا: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

وهنا عدة معانٍ جميلة في الآية:

المعنى الأول: أنهم ذيّلوا كلمتهم بالتوجه إلى الله تعالى بسؤالهم منه أن يقيّهم ضرر فرعون. لم يعتمدوا على أنفسهم، ولا على قوتهم، ولا على علمهم، ولا على فهمهم، ولا عدّهم ولا عدّتهم، ولكن تجبردوا إلى الله تعالى: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»، فكان النصر حليفهم.

والمعنى الثاني: أنهم أَعْقَبُوا هذه المقوله بهذا السؤال الله تعالى بأن يقيّهم ضرر فرعون ناظرين - وهذه المسألة المهمة التي ينبغي أن ينظر فيها المسلم - إلى مصلحة الدين لا مصلحة أنفسهم؛ لأنهم إنْ تَمَكَّنَ الكفرة من إهلاكهم أو تعذيبهم قَوِيَّتْ شوكةُ أنصار الكفار، فيقولوا: «لو كانوا هؤلاء مسلمين لم يحدث لهم ما حدث، ولو كانوا مؤمنين على الحقيقة لم يكن ليُفعل ذلك بهم، لو كانوا كذلك، لو كانوا كذلك..»، فيكونوا سبباً في فتنه الناس، فَيُفْتَنُونَ بذلك عامة الكفرة، ويظنو أن دينهم هو الحق؛ لذلك نظروا إلى مصلحة الدين.

والمعنى الثالث في قوله تعالى: «وَنَجَّنَا بِرَحْمَتِكَ»، أي: نَجَّنا برحمتك لا شيء آخر، فهذا تبرؤًّ منهم أن يُمْنُوا على الله تعالى بالإيمان، كأن يقولوا: نَجَّنا بسبب الإيمان والتحمل والتعذيب والثبات.. لا لم يقولوا ذلك، بل قالوا: «وَنَجَّنَا بِرَحْمَتِكَ» تَبرُّءًا من الإدلال بإيمانهم؛ لأن المنة لله تعالى عليهم، قال تعالى: «بَلَّ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [الحجرات: 17].

وهناك من يظن أن الفتنة بمعنى أن فلانًا يُفْتَنَ على فلان!! لا، بل الفتنة المذكورة في الآيات المقصود بها الكفر، لذلك قال تعالى: «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» [البقرة: ١٩١]. وليس المقصود منها أنَّ الناس ينقلون الأقوال والأفعال عن بعضهم كما يحتج الناس على بعضهم بهذه الآية، وإنما المقصود بها: أن الفتنة في الدين أشدُّ من القتل؛ لأنَّه لو قُتِلَ وهو مسلم أخفُّ من أنْ يُفْتَنَ في دينه فيموت كافراً.

ونشرح آية أخرى من آيات التوكل، في نفس السياق أيضًا وفيها كثير من المعاني المتعلقة بها أشرنا إليها.

### ثالثاً: قوله تعالى:

«قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِنَّنَا لَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّنْكُمْ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَمْنُنُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۚ ۝ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبْلَنَا ۖ وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا أَذَّيْمُوْنَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۚ» [إبراهيم: ١٢، ١١] ..

ونبدأ بجملة التوكل التي هي مقصودنا من هذه الآية، وهي في قوله تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». فهذه الآية كذلك تُبيّن أن التوكل هو حال الرسل عليهم السلام وأتباعهم، وأنه - أي: هذا التوكل الذي نتكلم عليه في أحوال الرسل وأتباعهم - هو ما يعنيها في أن يكون الوكيل لنا هو الله جلَّ وعلا، وكيف ندعوه بذلك؟ وكيف نُوحِّدُه به؟ وكيف يأخذ المرأة حظَّه من هذا التوكل؟ كما هي العادة التي نسير عليها في شرح الأسماء الحسنی.

وجملة: «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّنَا لَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكُنَّ اللَّهَ يَمْنُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»،  
أي: المِنْهُ من الله تعالى على عباده وليس متوقفة على شيء.

ولكن لِمَّا قال الكافرون:

- أَيْبُعْثُ اللَّهُ رَسَلًا بَشَرًا مِّنَ النَّاسِ يَكُونُونَ رَسَلًا لِهِ إِلَى النَّاسِ لِيؤْمِنُوا بِهِ؟

قالت لهم الرسل:

- نعم، نحن بشر، ولكن الله يمْنُ على مَنْ يشاء بالنبوة والرسالة؛ لأنَّه لا حدَّ لفضله  
جَلَّ وعلا، وأنَّه لا رادٌّ لقدرته وقوته.

وهذه الأولى..

والثانية، لِمَّا قال الكافرون:

- كَيْفَ تَكُونُونَ بَشَرًا مِثْلَنَا وَرَسَلًا فِي نَفْسِ الْوَقْتِ؟ فَأَتَوْنَا لَنَا بِسُلْطَانٍ وَبِحُجَّةٍ، أَوْ  
بَيِّنَاتٍ وَآيَاتٍ حَتَّى نُؤْمِنَ لَكُمْ.

قالت الرسل عليهم السلام:

- لا؛ نحن لا نأتي بآياتٍ بأهوائنا، بل لا نتمكن من أن نأتي بآية واحدة.

وقومٌ ثمود وقوم عاد تَعَنَّتُوا في طلب الآيات من رُسلهم، حتى كفار قريش تعنتوا مع النبي ﷺ كما ذكر الله تعالى: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ حَتَّىٰ تَفْجِرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَتَبَوَّعًا ۝ أَوْ  
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ خَيْلٍ وَعِنْبٍ فَتُفْجِرَ الْأَنْهَرَ خِلَانَاهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا  
إِكْسَفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ رُخْبَرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ  
لِرُقْبِكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَئُهُ ۝ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً» [الإسراء: ۹۰-۹۳].

فقالوا: «أو ترقى في السماء»، وبعد أن تصعد إلى السماء: فلن نؤمن حتى تصعد وتعود  
وتُلقي إلينا كتاباً نقرؤه !!

قال الرسول - عليهم السلام - في الرد على هؤلاء: «إِنَّنَا لَا يَشْرُكُونَا بِمَا أَنَا أَنَا بِهِ مُتَّكِّلٌ وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَمْنُونَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَارَ لَنَا أَنْ نَاتِيَّكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» وهي الجملة التي نبدأ الشرح فيها.

يقول المولى رحمه الله: «وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»، هذا أمر للمؤمنين بأن يتوكلا  
على الله تعالى، أي: توكلوا على الله أيها المؤمنون.

فهو أمر لمن آمن من قومهم - أي: من قوم الرسول - بالتوكل على الله سبحانه. والرسُلُ  
مقصودون بذلك قصدًا أولىًّا، في قوله تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»، لأن  
الرسُلُ هُم أَوَّلَ المؤمنين بقرينة قوله تعالى: «وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبْلَنَا».

ولما كان حصول إِذْنِ الله تعالى بتأييد الرسُلِ بالحجَّةِ غير معلوم الميقات ولا مُتَعَيَّنُ  
الواقع، وكانت مدة ترقُب ذلك مظنةً تكذيب الذين كفروا رُسُلَهم تكذيبًا قاطعاً،  
وتوقع الرسُلُ أذاة قومهم شأن القاطع بكذب من زعم أنه مرسل من عند الله، ولأنهم  
بدُؤُوهم بالأذى كما دل عليه قوله تعالى: «وَلَنَصِيرُنَّ عَلَىٰ مَاٰءَذَيْتُمُونَا». ونفصل شيئاً ما  
سبق من المعاني.

المعنى الأول: الرسُلُ يَدْعُونَ إِلَى الله تعالى، ثم يأتي الكفارُ من قومهم فيقولون لهم:  
«نَحْنُ نَرِيدُ آيَةً تدل على صدق هذه الرسالة التي تدعونا أنكم مرسلون بها من عند الله».  
والرسُلُ - عليهم السلام - ليس في أيديهم شيء.. لا يستطيعون أن يأتوا بالآيات  
من عند أنفسهم، ولا أن يأتوا بها على حسب أهواء أقوامهم، وهم - عليهم السلام -

لا يعلمون أن الآيات آتیة أم لا، وكذلك إن كانت آتیة فهم لا يعلمون متى تأتي هذه الآيات؛ لأن هذه الآيات عند الله تعالى، كما قال: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشَعِّرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» [الأنعام: ١٠٩].

فقد تأتي الآيات ولا يؤمن بها قومهم ويظلّون على كفرهم كما كانوا قبل مجيء الآيات. لذلك، فليس بأهوائهم وطلبهم أن يؤتیهم الله الآيات: كُلُّمَا طلبوا منه آیةً أن يعطيها إیاهم، إنما يأتي الله تعالى بهذه الآيات على قدر المصلحة التي يعلمها ويفقدّرها لهم، ويأتي بالآيات في المیقات المحدّد الذي تكون فيه الآیات صالحةً لذلك؛ وهذا هو المعنى الأول.

والمعنى الثاني: قد أشرنا في المعنى الأول أن میقات إثبات هذه الآيات غير معلوم، ولا هي متعینة الوقع: الكفار يريدون آيات، والموالی لهم لن ينزل عليهم آيات! فإن آمنوا فلأنفسهم، وإن كفروا فعليهما.

ووهذه الفترة التي بين سؤال الكفار لرسلهم بإثبات الآيات وبين مجيء الآيات فترة ترقب، ومدة الترقب لهذه الآيات هي مدة الأذى التي يؤذى فيها الكفرة الرسل وأتباعهم؛ يسألونهم بسخرية وتهكم: «أين الآيات؟»، فيتظرون بهذه الآيات، فلا تأتي الآيات، فيقولون: «هذا كذب»! كما قال تعالى:

«حَتَّىٰ إِذَا أَسْتَيْغَسَ الرُّسُلُ وَطَئُوا أَنْهَمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءُهُمْ نَصْرُنَا فَنَجَحُوا مِنْ كُشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَاسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» [يوسف: ١١٠].

فمن الذين استيغسوا؟ الجواب: الرسل.

وَمَمْ أَسْتَيْسُوا؟ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ .. «وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا»، أَيْ: الْكُفَّارُ أَنفُسُهُمْ هُمُ الَّذِينَ ظَنُوا أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ كُذِبُوا، أَيْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: «أَيْنَ الْآيَاتُ؟..» وَلَا تَأْتِي الْآيَاتُ! فَأَنْتُمْ كَذَّابُونَ.. لَا يَوْجِدُ آيَاتٍ، وَلَا هُنَّا كَرَّاسٌ لَا شَيْءٌ. «وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» أَيْ: ظَنَّ الْكُفَّارُ ذَلِكَ. «جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ».

وَقُولُهُ تَعَالَى: «حَتَّىٰ إِذَا آسَتَيْسَنَ الرُّسُلُ» .. يَعْنِي أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلَوْا إِلَى الْيَأسِ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ، وَظَنَّ قَوْمِهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ آيَاتٌ وَلَا شَيْءٌ سَيِّئٌ.. وَلَا إِنذِارٌ لِمَنْ أَنذَرَهُمُ الرَّسُولُ سَتَّقَ.. وَلَا الْهَلاْكُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ الرَّسُولُ أَنَّهُ سَيَقُولُ لَهُمْ.. وَأَنَّ كُلَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِنَّمَا هُوَ كَذَّبٌ عَلَيْهِمْ. فَفِي مَدَةِ التَّرْقُبِ هَذِهِ الَّتِي يَتَنَظَّرُ فِيهَا الْكُفَّارُ يَقُولُونَ ذَلِكَ، وَيَؤَذُّونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَرَسُلَّهُمْ.

فَكَانَتْ مَدَةً تَرْقُبَ ذَلِكَ الْعَذَابِ هِيَ مَظِنَّةً تَكْذِيبَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَسُلَّهُمْ تَكْذِيبًا قَاطِعًا. يَقُولُ الْكُفَّارُ: «لَيْسَ هُنَاكَ آيَاتٌ، وَلَسْتُمْ رَسُلًا، وَلَمْ يَسْتَجِبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَلَمْ يُنَزِّلْ شَيْئًا..»، وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ - مَدَةِ التَّرْقُبِ - يَتَوَقَّعُ الرَّسُولُ زِيادةً الْأَذى مِنْ قَوْمِهِمْ. كُلُّ مَدَةٍ بَسيِطَةٌ يَسْأَلُهُمُ الْكَافِرُونَ: «أَيْنَ الْآيَاتُ؟.. أَنْتُمْ كَذَّابُونَ»، وَيَقُولُونَ عَلَيْهِمْ، كَمَا هُوَ حَالُ الْكَافِرِينَ مَعَ الْمَرْسِلِينَ وَأَتَبَاعِهِمْ مِنَ الْإِيَّادِ وَالْتَّعْذِيبِ وَالتَّشْرِيدِ وَالْخُرُّاجِ مِنْ دِيَارِهِمْ. وَفَعَلًا قَدْ بَدَأُوهُمْ بِالْأَذى فِي قُولِهِ تَعَالَى: «وَلَتَنْصِرَنَّ عَلَىٰ مَاًءَادِيَتُمُونَ»». فَأَظَاهَرَ الرَّسُولُ لِقَوْمِهِمْ أَنَّهُمْ غَيْرُ غَافِلِينَ عَنْ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ سَيَقُولُ، وَأَنَّهُمْ يَتَلَقَّوْنَ مَا عَسَىَ أَنْ يَوْجَهَهُمْ بِهِ الْمَكْذُوبُونَ مِنْ أَذًى بِتَوْكِلِهِمْ عَلَىِ اللَّهِ.

وَلَمَا كَانَ حَصُولُ إِذْنِ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى بِتَأْيِيدِ الرَّسُولِ غَيْرَ مَعْلُومِ الْمِيقَاتِ وَغَيْرَ مُتَعَيْنِ الْوَقْعَ، وَكَانَتْ مَدَةً تَرْقُبَ ذَلِكَ مَظِنَّةً الَّذِينَ كَفَرُوا رَسُلَّهُمْ أَنْ يَكْذِبُوهُمْ، وَتَوَقَّعَ الرَّسُولُ

أذآة قومهم في هذه المدة، قالوا لهم: «وَلَنْصِبِرَنَّ عَلَىٰ مَا إَذَيْتُمُونَا» .. لأنهم - أي: الرسل وأتباعهم - يتلقون ما عسى أن يكذبوا من أذى في هذه الفترة بتوكلهم على الله، هم ومن آمن معهم.

فاببدأ الرسُلُ - عليهم السلام - الكلام بأن أمرـوا المؤمنين بالتوكل، تذكيراً لهم؛ لئلا يتعرض إيمـانـهم إلى زعزعة الشـكـ، وحرـصـاً على ثبات المؤمنـينـ. فأظهر الرسـلـ عليهم السلام - لما قالـوا ذلكـ لـقومـهمـ - أنـهمـ هـمـ وـمـنـ آـمـنـ معـهـمـ يـواجهـونـ تـكـذـيبـ وـأـذـىـ الكـفـرةـ بـتـوـكـلـهـمـ عـلـىـ اللهـ تعـالـىـ.

وفي ذلك الأمر - أي: الأمر بالتوكل - إـيـذـانـ لهمـ أنـهـمـ لاـ يـعـبـشـونـ وـلـاـ يـهـتمـونـ بـمـاـ يـضـمـرـهـ لـهـمـ الـكـافـرـونـ منـ الـأـذـىـ، كـماـ قـالـ السـحـرـةـ لـفـرـعـوـنـ لـمـ آـمـنـواـ: «قـالـوـاـ لـأـصـيـرـ إـنـاـ إـلـىـ رـيـتـاـ مـنـقـلـيـوـنـ إـنـاـ نـطـمـعـ أـنـ يـغـفـرـ لـنـارـيـنـاـ حـطـيـنـاـ أـنـ كـنـاـ أـوـلـ الـمـؤـمـنـيـنـ» [الـشـعـرـاءـ: ٥٠]. وـذـلـكـ لـمـ قـالـ لـهـمـ فـرـعـوـنـ بـعـدـ أـنـ آـمـنـواـ: «إـمـنـتـمـ لـهـ قـبـلـ أـنـ إـذـنـ لـكـمـ إـنـهـ لـكـبـيرـكـمـ الـذـيـ عـلـمـكـمـ الـسـخـرـ فـلـأـقـطـعـنـ أـقـطـعـنـ أـيـدـيـكـمـ وـأـرـجـلـكـمـ مـنـ خـلـفـ وـلـأـصـلـبـنـكـمـ أـجـمـعـيـنـ». فـرـدوـاـ عـلـيـهـمـ: «قـالـوـاـ لـأـصـيـرـ إـنـاـ إـلـىـ رـيـتـاـ مـنـقـلـيـوـنـ».

وـآـيـةـ سـوـرـةـ طـهـ:

«قـالـ إـمـنـتـمـ لـهـ قـبـلـ أـنـ إـذـنـ لـكـمـ إـنـهـ لـكـبـيرـكـمـ الـذـيـ عـلـمـكـمـ الـسـخـرـ فـلـأـقـطـعـنـ أـقـطـعـنـ أـيـدـيـكـمـ وـأـرـجـلـكـمـ مـنـ خـلـفـ وـلـأـصـلـبـنـكـمـ فـيـ جـدـوـعـ الـتـخـلـ وـلـتـعـلـمـنـ أـيـتـاـ أـشـدـ عـذـابـ وـأـبـقـيـ قـالـوـاـ لـنـ نـؤـرـكـ إـلـىـ مـاـ جـاءـنـاـ مـنـ الـبـيـنـتـ وـالـذـيـ فـطـرـنـاـ فـاقـضـ مـاـ أـنـتـ قـاضـ إـنـتـ تـقـضـيـ هـذـهـ الـحـيـةـ الـدـنـيـاـ إـنـاـ إـمـنـاـ بـرـيـتـاـ لـيـغـفـرـ لـنـاـ حـطـيـنـاـ وـمـاـ أـكـرـهـتـنـاـ عـلـيـهـ مـنـ الـسـخـرـ وـالـلـهـ خـمـرـ وـأـبـقـيـ [طـهـ: ٧٣ـ٧١].

واية سورة الشعراة: ﴿قَالُوا لَا صَيْرٌ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي: ليس هناك ضرر، فافعل ما شئت، واقض ما أنت قاض.

ونعود إلى الكلام على آية سورة إبراهيم:

وتقديم المجرور في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مُؤْذِنٌ أنهم لا يرجون نصراً من غير الله تعالى؛ لضعفهم وقلة ناصرهم، وكأنهم يقولون: «نحن منصورون إن شاء الله».

ففي قولهم هذا إيمانٌ إلى أنهم واثقون بنصر الله، فلما قالوا: ﴿وَلَنَصِيرُنَّ عَلَى مَا إِذَا يَتَمُّمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فالمعنى: أننا سنصل على الأذى لأننا واثقون من نصر الله تعالى. وهم لم يصبروا على الأذى إلا وهم يعلمون موعد الله تعالى، وأنَّ وعده حق، وأنه ينصر رسليه والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ولم يقتصروا على قولهم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وإنما أردفوا ذلك بقولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبُّلَنَا﴾، وذلك استدلالاً على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله، موضعين سبباً ذلك من هدايته لهم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

﴿وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكارٌ، يعني: «كيف لا تتوكل على الله؟!». وجاء الاستفهام في صورة الإنكار لأن الكفراهم: «ستتوكلون على الله.. وعلى الله فليتوكل المؤمنون.. حسناً، لن ترك تعذيبكم، بل ستزيدكم منه.. لن ندع قتلكم وصليبكم وتشريدهم وكلَّ ما تتوقعون وما لا تتوقعون من العذاب وصُورَه المختلفة وأشكاله الصعبة، فأين هذا التوكُلُ الذي يُنْقِذُكم مِنَّا أو يُكْفِيكُم ما يقع بكم؟!».

وهذا دليلٌ على ما هو معروف من استِحْمَاق<sup>(١)</sup> الكفار إِيَّاهُم في توكلهم على الله. فلما قال المؤمنون: «نَحْنُ مُتوكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ لَا نَنْهَا مَوْنُونَ»، قام الكفار بالاستهزاء بهم، واستِحْمَاقُهم، و قالوا: «انظروا هؤلاء الحمقى والجهلة المتكلمين على الله.. أَلَا يَحْدُثُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُتوكِّلُونَ كَذَّا وَكَذَا؟!». فرد المتكلمون عليهم: «أَنْتُمْ تَسْتَحْمِقُونَ التَّوْكِلَ، وَتَعْجِبُونَ مِنْهُ، وَتَسْخِرُونَ مِنْنَا لَا نَنْهَا مُتوكِّلُونَ.. لَا؛ هَذِهِ عِنْيَةُ اللَّهِ بَنَا فِي الْأُولَى، وَسَتَرُونَ النَّتِيْجَةَ فِي النَّهَايَةِ».

وفي الآية كذلك عدم اكترات المؤمنين بأذى الكافرين؛ فلا يُهمُّهم الأذى الذي وقع عليهم، بدليل قولهم: «وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبُّلَنَا»، كأنهم يقولون لهم هذا المعنى استدلاً على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله؛ لأنهم رأوا بوارق عنایته بهم، يعني: رأوا بداعيات العناية من الله تعالى بهم، وذلك دليل على أن النهاية لهم سعيدة وأن العاقبة حسنة.

وبوارق العناية بهم: أنه قد هداهم إلى طرائق النجاة والخير في قوله تعالى: «وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبُّلَنَا»، لِمَ لَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبُّلَنَا؟ وهذه السبل التي هداها إليها دليل العناية في أوصالها، ودليل الرعاية والنصر في آخرها. فقد رأوا أن الله تعالى قد هداهم إلى طرائق الخير والحق، فعلموا من عناية الله بهم في بداياتهم أنه سيغتنى بهم في نهاياتهم، وأن عاقبتهم هي العاقبة الحسنة. فهذه البداية من عناية الله دليلٌ على العاقبة الحسنة منه تعالى، لذلك استدلوا بها على صحة توكلهم على الله تعالى، وتفويضهم الأمر إليه جلَّ وعلا. فزادوهم تَبَيَّنَسًا من التأثر بالأذى، فأقسموا على أنَّ صبرهم على أذى قومهم سيَسْتَمرُ.

(١) «استِحْمَاقُهُ»، يعني: عَدَّهُ أَحْمَقًا. انظر مختار الصحاح بتصرف، مادة: [ح م ق].

وقوله تعالى: «وَمَا لَنَا أَلَا تَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبْلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَا إِذَا تُمُونَا» يعني: «والله لننصر على هذا الإيذاء». وهذه من الجمل البليغة جداً في العربية لـما فيها من الإيجاز الجميل، فقولهم: «ولَنَصِيرَنَّ» دليل على الاستقبال.. دليل على أنهم سيصبرون على إيذاء متوقع في المستقبل، فصيغة الاستقبال مستفادة من الفعل المضارع المؤكّد بنون التوكيد في قوله تعالى: «ولَنَصِيرَنَّ»، يعني: «سنَصْرِرُ على ما سيَكُونُ». ودللت أيضاً على أذى مستقبل. ودللت صيغة الماضي المتَّزع منها المصدر في قوله: «مَا إِذَا تُمُونَا» على إيذاء قد وقع في الماضي، فجاءت الآية لـتبين الصبر على الإيذاءين معًا في جملة واحدة، ومعنى الآية: «والله لنَصِيرَنَّ على أذى متوقع كما صبرنا على أذى مضى». وهذا من الإيجاز البديع.

«وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» وهو تذليل لهذه الآية، فيُحتمل أن يكون من بقية كلام الرسُل - عليهم السلام، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى. فإنْ كان من كلام الرسُل يكون تأكيداً للجملة، يعني: تأكيداً لأنَّ المتكلمين من جملة المؤمنين، والمعنى: أنَّ مَنْ كان متوكلاً في أمره على غيره فليتوكل على الله.

وكذلك فإنَّ قوله تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» تنويهٌ بشأن المتكلمين على الله تعالى، وتعظيمٌ لأمرهم، ورفعه لمقامهم ومنتزليتهم؛ لأنَّ المتكلمين على الله هم الذين توكلوا عليه لا على غيره، ومن أراد التوكل فـ<sup>لَا</sup> تتوكل على الله كان هو المتكلف حقاً.

الفصل الرابع

التوكل

## المبحث الأول

### التوكل متعلق بالإيمان<sup>(١)</sup>

لذلك قال تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [المائدة: ٢٣]، أي: إنْ كنتم مؤمنين فعلى الله توكّلوا. وقال عليه السلام: «وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلَ الْمُؤْمِنُونَ» [آل عمران: ١٢٢].

وهذه الأولى: وهي أن المؤمنين مطالبون بالتوكل على الله تعالى، وأنَّ التوكل دليل الإيمان وملازمُ له، وأنه لا يكون المرءَ مؤمناً حتى يكون متوكلاً على الله تعالى. فمن خفت إيمانه خفت توكّله. ولذلك تجد ضعيفَ الإيمان ضعيفَ التوكل، خائفًا مما سيحدث له، نقول له: «أنت في شُغُلِ الله فلا تخفَّفْ شيئاً».

فإن قال: «إني أخاف على مالي»!! نقول له: «لا ينقص مالٌ من صدقة»<sup>(٢)</sup>.

يقول: «هل أدفع كُلَّ هذا المال لله تعالى؟! هكذا سأفتر.. ومن أين يأكل الأولاد؟!..». نقول له: «لَمَّا حَثَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الصَّدَقَةِ، جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهِ الْكُلُّ، قَالَ لِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ؟ قَالَ: تَرَكْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». فلم يفتقر رضي الله عنه، ولم يحدث له حادث، ولم يقع في مواجهة المرءُ اليوم.

وهكذا في كل أمور المرء: في العبادة، في الصلاة، في القيام، في الصيام.

(١) انظر - بتصرف كثير جداً: «مدارج السالكين» للإمام العلامة ابن القيم رحمه الله، [ج١ / ص ٩٤]، طبعة دار الحديث.

(٢) سبق تحريره: الفصل الأول - أقوال العلماء في معنى اسم الله «الوكيل» - المعنى الرابع.

يقول: «لن أصوم اليوم مخافة أن يحدث لي مكررٌ أو تعب»! ولا يدرى أنه عندما يتوكّل على الله فإن الله سبحانه سيكفيه هذا الذي يخافه وهذا الذي يخشاه: في الصحة، وفي الوقت، والجهاد.

يقول: «لو قرأتُ الورَدَ سأتأخر عن كذا، وسيحدثُ لي كذا»! ولو قرأ ورْدَهُ لبارك اللهُ له في وقته، وسهَّل له أشغاله.

وذلك الأمر قد ذكره الله تعالى في قوله: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ». حتى يقوم المرءُ بأعمال الإيمان ونصرة الدين وواجبات الناس وحقوق الخلق على أكمل وجهٍ، ويعتقد تمام الاعتقاد والثقة أنَّ الله سيعطيه أكثر من ذلك، وسيتكلف له بأحسن من ذلك، وسيبارك له بأفضل من ذلك، فلا يخاف شيئاً بعد ذلك. وبين لهم ذلك بقوله ﷺ: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفِي بِاللَّهِ وَكِيلًا» [الأحزاب: ٣]. فاصدق مع ربك في التوكل عليه، وسترى النتيجة.

لذلك قال ﷺ عن أئبيائه ورسله: «وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبْلًا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَا إِذَا دَيْمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» [إبراهيم: ١٢].

وقال أولياؤه: «رَبُّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَتَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» [المتحنة: ٤].

وفي نهاية المطاف ذكرهم ﷺ وأثنى عليهم فقال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» [آل عمران:

. ١٥٩]

فإذا ما توكلوا على الله تعالى، وخرجوا من نَظَرِهم لكُلّ ما يميل إليه القلبُ وتحدُث به النفس: من المال والجاه والسلطان والمنصب والوقت والجهد.. وفي كل شيء؛ فإنَّ الله

تعالى يحبّهم، وما دام أحّبّهم يُحِبُّهُ اللَّهُ فلا يتظرون شيئاً بعد ذلك في الدنيا ولا في الآخرة: قد تحققوا بالمرتبة العليا من مراتب الدين التي هي رحمة الله بهم في الدنيا والآخرة.

### الأحاديث الواردة في هذه المعاني:

- ١ - في الصحيحين في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الَّذِينَ لَا يَتَطَهَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرُّونَ، وَلَا يَكْتُوْنَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»<sup>(١)</sup>.
- ٢ - وفي صحيح البخاري ما يبيّن هذه القضية الخطيرة في التوكيل على الله تعالى، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين القيء في النار، وقالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالوا: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ» [سورة آل عمران: ١٧٣]<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الإمام البخاري: [٥٧٥٢]، وقامه: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرج علينا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً، فقال: عرضت على الأمم؛ فجعل يأمر النبي معه الرجل، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد. ورأيت سواداً كثيراً سداً الأفق فرجوت أن يكون أمتي، فقيل: هذا موسى وقومه. ثم قيل لي: انظر. فرأيت سواداً كثيراً سداً الأفق. فقيل لي: انظر هكذا واهكذا. فرأيت سواداً كثيراً سداً الأفق. فقيل: هولاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. فتفرق الناس ولم يبيّن لهم، فتداكن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك، ولكننا آمنا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء هم أبناءنا. فبلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: هم الذين لا يتطهرون، ولا يستردون، ولا يكترون، وعلى ربهم يتوكلون. فقام عكاشة بن محصن فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم. فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ فقال: سبقك بها عكاشة».

(٢) أخرجه الإمام البخاري [٤٥٦٣] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه.

وهذه المسألة أخطر مما يتصور المرء، لِمَا قاها إبراهيم عليه السلام: «حسبنا الله ونعم الوكيل» أي: نعم الوكيل الله تبارك وتعالى، وله ملکوت كُلّ شيء، قال تعالى: «قُلْنَا يَنْتَرُّ كُونَيْ بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ» [الأبيات: ٦٩].

الواثق في الله تعالى لا يُسيء الظن بربه جل وعلا، ويعلم أن ربّه بيده ملکوت كل شيء عليه السلام، وأنه عندما يقول لأي شيء: «كن» فيكون، وأن الله تعالى يخرق نواميس الكون لعباده المؤمنين.

ولا يوجد أكثر من الإلقاء في النار، لكن لِمَا وَثَقَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بربه عليه السلام وتوكيل عليه إذا بالله تعالى يقول: «قُلْنَا يَنْتَرُّ كُونَيْ بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ».

إذن فكل شيء يمكن أن يكون برداً وسلاماً على المرء إذا قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وجعل يقينه على الله تعالى، ووجد العاقبة الحسنة من الله تعالى، كما قال سبحانه عن أصحاب النبي عليه السلام: «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَأَتَبْعَوْا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ» [آل عمران: ١٧٤].

٣ - وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنْبَتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُنُ يَمُوتُونَ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه [٢٧١٧]. قوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ» أي: لك انقدت وبك صدقت... (وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ) أي: عليك لا على غيرك اعتمدت في تفويض

٤ - وفي الترمذى عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «لَوْ أَنْ كُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكِّلِهِ لَرَزْقُكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ: تَغْدُوا حِمَاصًا وَتَرْوُحُ بَطَانًا»<sup>(١)</sup>.

وهذه المسألة هي الشُّغل الشاغل للمؤمنين، يقول المرء: «لا أحد عملاً، والأموال التي أملِكُها قد نَفَدَتْ، والأحوال صعبة... إلخ». قضيته في حل هذه المشكلة في التوكل على الله تعالى: لو توكلوا على الله تعالى كما يقول النبي صلوات الله عليه وسلم لرزقهم كما يرزق الطير.

قضية التوكل من القضايا التي يُضطرب لها القلب عند حدوث الفاقة - كما سيدرك بعض العلماء في معاني التوكل - لمَ لا يضطرب القلب؟ لأنَّه متوكِل على الله، وخزائن السماوات والأرض بيد الله تعالى، فلا يضطرب.. لأنَّ التوكل على الله تعالى دلَّه على اليقين فيها عند الله، وأنَّه لن يخرج من الدنيا إلا وقد استكمَل رزقه وأجله.. توكلُه على

أمورِي. (وَإِلَيْكَ أَنْبَتُ) أي: رَجَعْتُ وَأَقْبَلْتُ بِهِمْتِي. (وَبِكَ خَاصَّمْتُ) أي: بِكَ أَخْتَجَّ وَأَدْفَعَ وأَخَاصِّمُ.. (أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) أي: الْحَيُّ الْحَقِيقَيَّةِ الَّتِي لَا يُجَامِعُهَا الْمَوْتُ بِحَالٍ. (وَالْحِنْعُونَ وَالإِنْسُنُ يَمُوتُونَ) عندما تُقْضِي آجَالَهُمْ. وكلمة (تُضَلِّنِي) متعلقة بـ(أَعُوذُ)، أي: أَعُوذُ مِنْ أَنْ تُضَلِّنِي. وكلمة التوحيد (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) مُعْتَرِضَةٌ لِتَأكِيدِ العِزَّةِ». انظر - باختصار وتصريف كثير: «فيض القدير»، شرح الحديث رقم [١٥٠٢].

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده [١/ ٣٠] بهذا اللفظ، وصححه الشيخ أحمد شاكر في التحقيق. والترمذى: [٢٣٤٤] وقال: «حديث حسن صحيح». وابن ماجه: [٤٦٤]. وقال الإمام النسووي في «رياض الصالحين»: «معناه: تذهب أول النهار (حماصاً) أي: ضامرَةَ البطون من الجموع، وترجع آخر النهار (بطاناً) أي: مُتَلَئَّةَ البُطُون». انظر: «نَزَهَةُ المُتَقِّينَ شَرَحُ رِيَاض الصالحين»، [ج ١ / ص ٩٢].

الله تبارك وتعالى أخرجَ من قلبه التعلقُ بغيرِ الله تعالى، فكان ذلك سبباً في أن يرزقه المولى بِهِ وأن يعطيه وأن يجود عليه، لذلك قال هنا هذا المعنى.

و الحديثُ آخرُ يبينُ هذا المعنى:

٥ - في السنن عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيَتْ وَكُفِيتْ وَوُقِيتْ، فَتَنَّحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ وَوُقِيَ؟!»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود: [٥٠٩٥] وصححه ابن القيم في «زاد المعاد» [٣٣٥ / ٢]، والحافظ ابن حجر كما في «الفتوحات الربانية» [٣٣١ / ١].

## المبحث الثاني

### منازل المُتوكّلين<sup>(١)</sup> على الله تعالى

نستكمّل ما بدأنا من كلام الإمام ابن القيم رحمه الله، والذي كان ملخصه: أن التوكل نصف الدين - كما أشرنا في الفصل الأول - والنصف الثاني: الإنابة، فإن الدين: استعانة، وعبادة.

فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة. ومنزلة التوكل أوسع المنازل وأجمعها. فكل الناس - مسلمين وشركين وكفراً - كلهم في منزلة التوكل، ولا تزال هذه المنزلة - منزلة التوكل - معمورةً بالنازلين؛ لسعة متعلق<sup>(٢)</sup> التوكل، وكثرة حوايج العالمين، ولعموم التوكل.

ومنزلة التوكل واسعة لأن متعلق التوكل واسع جداً: يتوكّل المرء في كذا وكذا وكذا، والعالَمون<sup>(٣)</sup> حوايجهم كثيرة، فالكلُّ يتوكّل على الله تعالى في قضاء هذه الحوايج: هذا له مشكلة في المال، هذا له مشكلة مع الناس، هذا له مشكلة في الصحة، هذا له مشكلة في العمل، هذا له مشكلة في العبادة، هذا له مشكلة في نصرة الدين، هذا له.. هذا له.. إلى غير ذلك، فكُلُّ امرئ يسعى في التوكل.

(١) انظر: «مدارج السالكين» [٢/ ص ٩٥ وما بعدها].

(٢) لأن التوكل متعلق بالإيّان.

(٣) «العالَمون» جمع عالَم، أي: الْخَلْقُ كله، وكُلُّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ، كعَالَمُ الْحَيَاةِ وَعَالَمُ النَّبَاتِ. انظر: المعجم الوجيز، مادة: [ع ل م].

و عموم التوكل: أنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَتَوَكَّلُ؛ لِأَنَّ التَّوْكِلَ عَامٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَيَقُولُ التَّوْكِلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ وَالْأَبْرَارِ وَالْفَجَارِ، وَالْطَّيْرِ وَالْوَحْشِ وَالْبَهَائِمِ. فَأَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمَكْلُوفُونَ وَغَيْرُهُمْ فِي مَقَامِ التَّوْكِلِ: الْطَّيْرُ تَغْدو - كَمَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ - خِصَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا<sup>(١)</sup>، وَإِنْ تَبَيَّنَ مَتَعَلِّقٌ تَوْكِلُهُمْ. وَتَدَبَّرُ هَذَا الْكَلَامُ وَمَا يَلِيهِ حَتَّى تَفَهَّمَ التَّوْكِلَ:

### المنزلة الأولى: توكل أولياء الله تعالى وخاصته

فَأَوْلِيَاؤُهُ وَخَاصَّتِهِ ﷺ يَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ فِي الْإِيمَانِ وَنُصْرَةِ الدِّينِ وَإِعْلَاءِ كَلْمَتِهِ وَجَهَادِ أَعْدَائِهِ، وَفِي مَحَابَّهِ وَتَنْفِيذِ أَوْامِرِهِ. وَهَذَا التَّوْكِلُ هُمْ فِيهِ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ؛ يَعْنِي: هَذَا تَوْكِلُ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - يَرِثُهُ مِنْهُمْ الْأَوْلِيَاءُ وَخَاصَّةُ اللَّهِ تَعَالَى، لِذَلِكَ فَهُؤُلَاءِ فِي الْدَّرْجَةِ الْعَالِيَّةِ.

### المنزلة الثانية: التوكل للاستقامة في النفس

وَدُونَ هُؤُلَاءِ - مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فِي اسْتِقَامَتِهِ هُوَ نَفْسُهُ؛ أَيْ: يَبْذِلُ تَوْكِيلَهُ وَتَضْرُبُ عَهْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَثُقَّتْهُ فِيهِ فِي أَنْ يَحْفَظَ حَالَهُ مَعَ رَبِّهِ، وَأَنْ تَسْتَقِيمَ نَفْسُهُ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنْ تَتَهَيَّأْ نَفْسُهُ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ وَالِإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فَارِغًا مِنَ النَّاسِ. فَهَذَا أَقْلُّ مِنَ الْدَّرْجَةِ الْأُولَى فِي أَنَّهُ لَا يَقُولُ بِجَهَادِ أَعْدَائِهِ وَلَا بِنَسْرَ دِينِهِ وَلَا بِنُصْرَةِ إِلْسَامِ وَرَفِعِ رَأْيِهِ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَوَرَثَتْهُمْ.

(١) سبق تخریجه قریباً: الفصل الرابع - المبحث الأول.

### المنزلة الثالثة: التوكل لتأييل معلوم

ومن دون هؤلاء من يتوكّل على الله تعالى في معلوم يناله. والمعلوم يعني: الرزق أو العافية أو الزوجة أو الولد.. أو نحو ذلك.

### المنزلة الرابعة: التوكل في تحصيل الآثام والفواحش

ونذكر ذلك حتى تعرف - أيها القارئ الكريم - سعة التوكل، ولتعرف المنزلة التي ينبغي أن تنزلها في هذه المعانٍ، والثقة التي ينبغي أن تكون بينك وبين الله تعالى. فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا بالاستعانة بالله تعالى وتوكلهم عليهم؛ بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يلقون بأنفسهم في المتألف والمهالك، معتمدين على الله تعالى أن يسلّمهم. فتتجد اللص - مثلاً - يرمي نفسه في المتألف والمهالك، وهو عارف أنه متوكّل على الله بأنه سيُنجيه، يقول مثلاً: «استعننا على الشقاء بالله»!! فيتوكّل على الله، ويذهب يقتل أو ينصب أو يسرق. وهم في توكلهم على هذا الحال معتمدين على الله أن يسلّمهم ويظفرهم بمطالبهم!

### أفضل التوكل

فأفضل التوكل: التوكل في الواجب، أعني واجب الحق بِهِ، وواجب الخلق، وواجب النفس. وأوسعه وأنفعه في الدنيا والآخرة: التوكل للتأثير في الخارج؛ يعني: التوكل لتحقيق مصلحة دينية، أو دفع مفسدة دينية؛ وهو توكل الأنبياء - عليهم السلام - في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم بقية ذلك على حسب نيتهم ومقاصدهم.

فمن كان مقصدُه ربَّه وما عند الله جل وعلا يزداد توكله، ومن كان مقصدُه الدنيا الخسيسة قللَ توكله. وقد يعلو توكله في تحصيل الدنيا ولكن لا يكون له عاقبة حسنة في الآخرة على هذا التوكل. فمن الناس من يتوكُل على الله في حصول الملك، ومن الناس من يتوكُل عليه في حصول رغيف! فهو لاء على حسب الهمم والمقاصد. وكأنَّ هذا السابق تَعَيَّنَ على المؤمنين أنه ينبغي أن تكون مقاصدهم وهمهم عاليٌّ لتحصيل هذه الرُّتب العالية عند الله تبارك وتعالى؛ في أن يكونوا من ورثة الأنبياء في تحصيل العلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، ودفع المفاسد، وتحقيق المصالح، وجهاد أعداء الله، ورفع رأية الدين، والدعوة إلى الله تعالى. ويتحقق المرءُ في نفس الوقت واجبَ التوكل في حق الله تعالى والخلق والنفس، فكل ذلك إنما يَصْلُح بالعلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

فمن لم يُحَصِّل على نافعاً ينفعه في الأولى والآخرة، لم يُحقِّق عملاً صالحًا ينفعه في الأولى والآخرة، وبالتالي يكون دعوته وبالألا علىه في الأولى والآخرة؛ لأنَّه إذا لم يُحقق العلم النافع والعمل الصالح، فكيف يدعو إلى الله تعالى؟! وكيف يجاهد أعداء الله تعالى؟!

والخلاصة: أنَّ مَن صَدَقَ توكله على الله في حصول شيءٍ ناله..

يعني: لو صدقَ توكلَ المرء على الله تعالى في حصول شيءٍ نال هذا الشيء؛ فإنَّ كان محبوبًا لله تعالى مَرْضِيًّا عنده، كانت للعبد فيه العاقبة المحمودة، وإنَّ كان مسخوطًا، مبغوضًا، كان ما حَصَل له بِتَوْكِلِه مَضَارًا عليه، وإنَّ كان مُبَاحًا حَصَلَت له مصلحة التوكل وإنَّ لم يستعن بها على الطاعة.

## أقوال العلماء في معنى التوكل:

التوكل عمل القلب<sup>(١)</sup>

ونريد أن نشير إلى معندين في هذه الجزئية:

المعنى الأول: أن التوكل عمل قلبي وليس قوله باللسان أو عملاً بالجوارح..

فلا يجوز أن يقول أحد: «توكلي على الله.. فأنا متوكّل»، بل لا بد أن تكونحقيقة التوكل قد استقررت في قلب المرء: التوكل، والتسليم، والتفسير لله تعالى. وغير ذلك يكون كلاماً فقط لا قيمة له، لأنه عند المحكّ يقول: «توكلي على الله»، فإن حدث له مشكلة كان أول ما يفزع يفزع لغير الله تعالى، وأول ما يلجأ يلجأ إلى غير الله تعالى.

المعنى الثاني: أن التوكل يعني التسليم لله تعالى..

فإذا توكل المرء على الله تعالى وحدث له شيء لم تجده مستسلاماً لله تعالى.. وجدته متسخطاً مُعْتَرِضاً، يقول: «كنت متوكلاً على الله وحدث حادث كذا! فهل كان هذا وقته؟! وهل أنا ناقص؟!». فدل ذلك على أنه ليس متوكلاً ولا شيئاً، لأنه لو كان متوكلاً على الله تعالى لراضي بقضائه. ألم يجعله وكيلًا لك يقوم لك بأعمالك وأشغالك؟! فهل يقوم لك بها ثم تعترض عليه ولا ترضى بوقوع قدره! ففي هذا دليل على عدم صدق التوكل في قلبك!!

(١) وتب الإمام ابن القيم رحمه الله هذا القول إلى الإمام أحمد رحمه الله. انظر: «مدارج السالكين»

. [٩٦/٢]

وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أقوالاً كثيرة للمتكلمين في التوكل وأحواله،  
ونذكر هذه الأقوال على سبيل معرفة ما قاله أهل العلم في التوكل<sup>(١)</sup>:

### التوكل على القلب بكميّة الرب للعبد

ومن الناس من يجعل التوكل من باب المعرفة والعلوم؛ فيقول: «هو علم القلب  
بكفاية الرب للعبد»، يعني: أن يعلم قلبه أن ربَّه كافيه بِهِ.

### التوكل هو خمود حركة القلب

ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب؛ فالمتوكل ساكن مع الله تعالى،  
حركة قلبه قد خدمت؛ لأنَّه انطرب قلبه بين يدي ربِّه، كانطرب الميت بين يدي الغاسل،  
يُقْلِّبُهُ كيف يشاء. وملخص ذلك أنه ترك اختياره لاختيار الله تعالى، واسترسل مع مجال  
الأقدار.

فأنت وكَلَّتْ ربِّكَ، أي: تركت له الاختيار أن يعمل لك هذا، ويقوم لك بذلك،  
ويترك لك ذلك، ويعينك على هذا، فلا تقل له بعدها: «لا.. أنا لا أريد هذا، وكنت أريد  
ذلك».

(١) وقد ذكرنا في الفصل الأول تعريف التوكل الذي ينبغي أن يحفظه طلبة العلم، وفي هذا الفصل  
نذكر أقوال أهل العلم في التوكل وذلك للاستزادة من تلك المعانى العالية التي ذكرها هؤلاء  
الكرام، ثم في البحث القادم - إن شاء الله تعالى - نذكر تحقيق الإمام ابن القيم رحمه الله في حقيقة  
التوكل ودرجاته.

فأنتَ وَكَلْتَ: القادر، القويّ، الوفيّ، المليء، الغنيّ بِهِمْ، العليم السَّفِيقُ بِكَ بِهِمْ، الذي لا يريده لك إلا مصلحتك في الأولى والآخرة، وقد علمت أنه يعلم عين المصلحة، وموضع المصلحة والمفسدة، وقد علمت أنه قادر على القيام بذلك، وعاليٌّ بِهَا يُصلحُك وما يفسدك، وأنه يبعد عنك ما يفسدك، ويقوم لك بما يصلاحك. بعض النظر عن أن يقع لك في الظاهر ما تَقْصُرُ فيه عقول الناس، وتخيل أنه مضرٌّ عليها. لكنه بِهِمْ لَمْ وَكَلَتْه علمت أنه عالم بهذه المصلحة، وعالم بعاقبتها، وعالم أنه إن فتح لك هذا الباب الذي تُريد فتح لك باب المفسدة، ولو فتح هذا الباب الذي تظنه هو المفسدة إذا به هو المصلحة، فهو العليم بِهِمْ.

فإِنْ ترَكْتَ اخْتِيَارَكَ لِمَوْلَاكَ وَتَوَكَّلْتَ عَلَيْهِ، عَلِمْتَ أَنَّهُ إِذَا اخْتَارَ اخْتِيَارَكَ الْخَيْرَ، وَاخْتَارَ لَكَ أَفْضَلَ مَا يُصْلِحُكَ. وَإِذَا اخْتَارَ فَإِنَّ اخْتِيَارَهُ أَفْضَلُ مِنْ اخْتِيَارَكَ، وَإِذَا اخْتَارَ لَكَ كَانَتِ السَّعَادَةُ فِي هَذَا الْخَيْرَ لَكَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، فَكَيْفَ تَعْتَرِضُ إِذْنَ؟! وَكَيْفَ لَا تَسْكُنَ لَهُذَا الْمَقْدُورِ؟! وَكَيْفَ لَا تَرْضِي بِهِ؟! وَكَيْفَ لَا تُحِبَّهُ مِنْهُ وَهُوَ قَائِمٌ لَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ بِهِمْ، كَمَا قَالَ: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُونُهُمْ أَمْ تُنْتَهُونُهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرِ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ الْسَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِ» [الرعد: ٣٣].

وعلى عكس ذلك ترى أحدهم يقول: «كنتُ أود السفر ولم أسافر، لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد ضاع كذا وكذا»، فيقال له: «أَلسْتَ مُتوكلاً على الله تعالى؟»، يقول: «بلى»، يُقال له: «إذن فلم يُضِعْ شَيْءٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ عَطَلَ لَكَ هَذَا الْأَمْرُ لَأَنَّهُ لَيْسُ فِي مَصْلِحَتِكَ، فَتَسْكُنْ تَحْتَ الْمَقْدُورِ. لَا تَقُلْ: لَا.. وَكَيْفَ؟.. كَنْتُ أَوْدَ..!! أَنْتَ تَرَكْتَ لَهُ الْخَيْرَ

ليُصرِّفك ~~نَفْعًا~~، ولِيُقدِّرَ لكَ أمورَكَ، ولِيقومَ على مصلحتكَ، ولِيحققَ لكَ أشغالَكَ، ولِيَكْفُلَها لكَ، ولِيحفظَها لكَ، ولِيقومَ عليها بالقسطَ، وهذا معنى الوَكالةُ الذي سبقَ وأشرنا إِلَيهِ؛ كَيْفَ تترددُ حِينَئِذٍ؟ وَكَيْفَ لا تَقْبِلُ بِهَا فَعْلًا؟ وَكَيْفَ تتخيلَ أَنْ عَقْلَكَ القاًصِرُ يُدْرِكُ المصلحةَ وَلَا يَدْرِكُهَا «الوَكيل» ~~نَفْعًا؟!~~ !!

فلا تقل: «لم يأتِ السفر، ولم تأتِ الأموال...»، فهذا هو اختياره سبحانه، وهو الاختيار الأصلح، والرضا ينبغي أن يكون به، والسكون تحت المقدور له. ونحوه القلب: ألا يضطرب في الحركة بهذا الأمر، وأن يسترسل مع الأقدار، فهي التي تذهب به يمينًا وشمالًا؛ لذلك قال سهل<sup>(١)</sup>: «التوكل هو الاسترسال مع الله تعالى مع ما يريد».

## التوكل هو الرضا بالمقدور

ومنهم من يفسر التوكل بالرضا فيقول: «هو الرضا بالمقدور»، وإنما الرضا هو ثمرة التوكل..

(١) سهل بن عبد الله بن يوئس أبو محمد التستيري، شيخ العارفين، الصوفي الراهن. ومن كلامه: «لَا مُعِينٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا دَلِيلٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ، وَلَا زَادٌ إِلَّا التَّقْوَى، وَلَا عَمَلٌ إِلَّا الصَّبْرُ عَلَيْهِ». وعنده: «أَصْوَلُنَا سَيْنَةُ التَّمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ، وَالْإِقْتَداءُ بِالسُّنْنَةِ، وَأَكْلُ الْحَلَالِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَاجْتِنَابُ الْأَثَامِ، وَالْتَّوْبَةُ، وَأَدَاءُ الْحُجُّوْقِ». وعنده أيضًا: «مَنْ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْلَمُ حُرِمَ الصَّدْقَ، وَمَنْ اشْتَغَلَ بِالْفُضُولِ حُرِمَ الْوَرَعَ، وَمَنْ ظَنَّ ظَنًّا سَوْءًا حُرِمَ الْيَقِينَ، وَمَنْ حُرِمَ هَذِهِ الْثَّلَاثَةِ هَلَكَ». وعنده قال: «مَنْ أَخْلَاقَ الصَّدِيقِينَ أَنْ لَا يَحْلِفُوا بِاللَّهِ، وَأَنْ لَا يَعْتَابُوا وَلَا يُغْتَابَ عِنْدَهُمْ، وَأَنْ لَا يَشْبَعُوا، وَإِذَا وَعَدُوا مَمْلُوكِيْا، وَلَا يَمْزُحُونَ أَصْلًا». تُوفِيَ سَنَةَ ثَلَاثَةِ وَتَمَانِيْنَ وَمَا تَيْمَنِيْنَ. انظر - بتصرف: «سير

لذلك قال بشر<sup>(١)</sup>: «يقول أحدهم: «توكلتُ على الله»، يكذبُ على الله! لتوَكَّلْ على الله لرَضِيَ بما يفعل الله». فمن تَوَكَّلَ على الله، رَضِيَ بما قَسَمه، ورضي بما أقامه فيه، وبما حَرَّكه إِلَيْهِ، وبما منعه منه، وبما أوقعه فيه.. وهكذا.

وقد يقول المرء: «لقد حدث لي في صحتي كذا..»، فيقال له: «أَلَسْتَ متوكلاً على الله يَعْلَمُ وهو يعلم ما يُقيمه وما يُصلِحُها، ويعلم ما يحدث لك عندما تكون صحيحاً، وعندما تكون مريضاً، ويعلم متى تكون مصلحتك في هذا الأمر أو لا تكون». فوفقاً للمقدور - حتى وإنْ كان على خلاف رغبة العبد - يستدعي الرضا من النفس؛ لأنَّه متى توَكَّلَ على الله، اختار المولى سبحانه له ما يُصلِحُه.

(١) يَشْرُبُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَطَاءِ الْمَرْوَزِيِّ، الْإِمَامُ، الْعَالِمُ، الْمُحَدِّثُ، الزَّاهِدُ، الرَّبَّابِيُّ، الْقُدُوْرُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ، أَبُو نَصْرِ الْمَرْوَزِيُّ، ثُمَّ الْبَغْدَادِيُّ، الْمَسْهُورُ: بـ«الْحَافِي». وُلِّدَ سَنَةً اثْتَتِينَ وَحَمْسِيْنَ وَمَا تَاهَ. وَأَرْجَلَ فِي الْعِلْمِ، فَأَخَذَ عَنْ: مَالِكٍ، وَأَبْنِ الْمُبَارِكِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ.. وَعِدَّةٌ. قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ فِيهِ: «زَاهِدٌ، جَبَلٌ، ثَقَةٌ، لَيْسَ يَرْوِي إِلَّا حَدِيثًا صَحِيحًا». قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ: «مَا أَخْرَجْتُ بَعْدَ أَنَّمَ عَقْلًا مِنْ يَشْرُبُ، وَلَا أَحْفَظَ لِلْسَّانِه... كَانَ فِي كُلِّ شَعَرَةٍ مِنْهُ عَقْلٌ... وَطَيَ النَّاسُ عَقْبَهُ حَمْسِيْنَ سَنَةً... مَا عُرِفَ لَهُ غَيْرَهُ لِمُسْلِمٍ... مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْهُ! كَانَ رَأْسًا فِي الْوَرَعِ وَالْإِخْلَاصِ، قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْخَطِيبِ: «كَانَ مِنْ فاقِ أَهْلِ عَصْرِهِ فِي الْوَرَعِ وَالرَّهَدِ. وَتَفَرَّدَ بِوُفُورِ الْعِقْلِ، وَأَنْواعِ الْفَضْلِ، وَحُسْنِ الْطَّرِيقَةِ، وَاسْتِقَامَةِ الْمَذَهَبِ، وَعَزَوْفِ النَّفْسِ، وَإِسْقَاطِ الْفَضْلِ. وَكَانَ كَثِيرُ الْحَدِيثِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُنَصِّبْ نَفْسَهُ لِلرِّوَايَةِ». مَاتَ يَشْرُبُ الْحَافِي - رَحْمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - سَنَةَ سَبْعِ عَشَرِيْنَ وَمَا تَاهَيْنَ، وَعَاشَ حَمْسًا وَسَبْعِيْنَ سَنَةً. وَقَدْ أَفْرَدَ أَبْنُ الْجَوْزِيِّ مَنَاقِبَهُ فِي كِتَابٍ. وَانْظُرْ قَصَّةَ تَوْبَتِهِ وَأَقْوَالَهُ الْحَكِيمَةِ وَالْمُزِيدَ مِنْ أَحْوَالِهِ الْحَسَنَةِ جَدًّا لِلَاِقْتِداءِ بِهِذَا الْإِمَامِ الْجَلِيلِ فِي «سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» لِلْحَافِظِ الْذَّهَبِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ [١٠ / ٤٧٨ - ٤٧٠]، وَ«تَهْذِيبِ الْكِتَابِ» لِلْحَافِظِ الْمَزْرِيِّ.

التوكل هو الثقة بالله تعالى، والطمأنينة إليه، والسكون إليه جل وعلا

ومنهم من يقول: «التوكل هو الثقة بالله تعالى، والطمأنينة إليه، والسكون إليه جل وعلا».

لذلك قال ابن عطاء رحمه الله<sup>(١)</sup>: «التوكل أَلَا يَظْهُرَ فِيكَ انزِعاجٌ لِّاَسْبَابٍ مَعَ شَدَّةٍ فَاقْتَلَكَ إِلَيْهَا».

وهذا كلام طيب: أَلَا يَظْهُرَ فِيكَ انزِعاجٌ لِّاَسْبَابٍ مَعَ شَدَّةٍ فَاقْتَلَكَ إِلَيْهَا فَأَنْتَ افْتَقَرْتَ إِلَى السَّبِبِ؛ فَلَا يَظْهُرَ فِيكَ انزِعاجٌ إِلَيْهِ، وَتَعْلُقٌ بِهِ، وَمَسَارِعَةٌ إِلَيْهِ مَعَ نُسْيَانِ الْحَقِّ فَأَنْتَ افْتَقَرْتَ إِلَى فَلَانٍ، أَوْ إِلَى الْمَالِ وَالْوَاسْطَةِ، أَوْ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، فَلَا يَنْزَعُجُ قَلْبُكَ إِلَيْهِ نَاسِيًّا مُتَعَلِّكًا أَصْلِيًّا؛ وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا.

وقال ابن عطاء أيضًا: «التوكل هو أَلَا تَرْزُولَ عَنْ حَقِيقَةِ السَّكُونِ اللَّهُ تَعَالَى وَالرَّضَا بِمَا قَسَمَ مِنَ الْحَقِّ مَعَ وَقْوِفِكَ عَلَى الْأَسْبَابِ».

أي: أَلَا يَنْزَعُجُ إِلَى الْأَسْبَابِ مَعَ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا، وَأَلَا يَرْزُولَ عَنْ حَقِيقَةِ السَّكُونِ إِلَى اللَّهِ مَعَ وَقْوِفِهِ عَلَيْهَا. يعني: وَقَفَ عَلَى الْأَسْبَابِ وَلَمْ يَرْزُلْ سَاكِنًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَلَوْ احْتَاجَ

(١) الرَّاهِدُ، الْعَابِدُ، الْمَتَّالُ، أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ سَهْلٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ سَهْلٍ بْنُ عَطَاءِ الْأَدْمِيِّ الْبَغْدَادِيُّ. حَدَّثَ عَنْ يُوسُفَ بْنِ مُوسَى الْقَطَّانَ. وَعَنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلَيٍّ بْنِ حُبَيْشٍ، وَقَالَ: «كَانَ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَتْمَة، وَفِي رَمَضَانَ تِسْعُونَ خَتْمَة، وَبَقِيَ فِي خَتْمَةٍ مُفْرَدَةٍ بِضُعْعَ عَشْرَةَ سَنَةً يَتَفَهَّمُ وَيَتَدَبَّرُ». وَقَالَ حُسَيْنُ بْنُ خَاقَانَ: «كَانَ يَنَامُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَاعَتَيْنِ». قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ: «لَكِنَّهُ رَاجَ عَلَيْهِ حَالُ الْحَلَاجَ، وَصَحَّحَهُ». مَاتَ فِي سَنَةِ تِسْعَ وَثَلَاثَ مائَةٍ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ. اَنْظُرْ: «السِّير» [١٤] / ٢٥٦.

الأسباب وافقر إليها، لم ينزعج ويضطرب قلبه إلى هذه الأسباب، بل هو واقفٌ مع الله تعالى في كلا الحالين، راضٍ به في كلا الحالين، فلا ينزعج إلى السبب إذا افتقر إليه، ولا يزول عن سكونه إلى الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ لو وقف على السبب.

وقال أبو تراب رحمه الله<sup>(١)</sup>: «هو طرُحُ الْبَدْنِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَتَعْلُقُ الْقَلْبُ بِالرَّبُوبِيَّةِ، وَالظُّمَانِيَّةِ إِلَى الْكَفَايَةِ: إِنْ أُعْطِيَ شَكَرًا، وَإِنْ مُنْعَى صَبَرًا».

فجعل التوكل مركباً من خمسة أمور:

الأمر الأول: القيام بحركات العبودية.

الأمر الثاني: تعلق القلب بتدبير الربوبية.

الأمر الثالث: السكون إلى قصائه وقدره.

الأمر الرابع: الطمأنينة إلى الكفاية - أي: كفايته له بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ.

الأمر الخامس: إنْ أُعْطِيَ شَكَرًا وَإِنْ مُنْعَى صَبَرًا.

(١) النَّخْشَبِيُّ أَبُو تُرَابٍ عَسْكَرُ بْنُ الْحُصَيْنِ، الْإِمَامُ، الْقُدُوْرُ، شَيْخُ الطَّائِفَةِ. وَمَدِيْنَةُ نَخْشَبٍ مِنْ تَوَاحِي  
بَلْخٍ، تُسَمَّى أَيْضًا: نَسَفٌ. صَاحِبٌ حَاتِمًا الْأَصْمَمِ. وَحَدَّثَ عَنْ: عُيْنِيْمَ بْنَ حَمَادٍ، وَمُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ  
عُمَيْرٍ، وَغَيْرِهِمَا. حَدَّثَ عَنْهُ: الْفَتْحُ بْنُ شَحْرَفَ، وَرَفِيقُهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي عَاصِمٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ  
بْنِ حَنْبَلٍ، وَيُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ الرَّازِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْجَلَاءِ، وَطَائِفَةُ. وَكَتَبَ الْعِلْمَ، وَفَقَّهَهُ، ثُمَّ تَأَلَّهَ  
وَتَعَبَّدَ، وَسَأَحَ وَجَهَهَدَ. وَعَنْهُ: ثَلَاثٌ مِنْ مَنَاقِبِ الْإِيمَانِ: الْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ، وَالرَّضَى بِالْكَفَافِ،  
وَالنَّفْوُيُّضُ إِلَى اللَّهِ. وَثَلَاثٌ مِنْ مَنَاقِبِ الْكُفَرِ: طُولُ الْعَقْلَةِ عَنِ اللَّهِ، وَالْطَّيْرَةُ، وَالْحَسَدُ». ماتَ أَبُو  
تُرَابٍ بِطَرِيقِ الْحَجَّ فِي سَنَةِ حَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَمَائَيْنِ. انتهى - بتصرف - من «سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ»

فالمتوكلُ بذنه في عبادة الله، وقلبه متعلقٌ بتدبير الله.. هو مُنشغلٌ بما لله تعالى عليه، وقلبه متعلق بتدبيره بِهِ له، لا بتدبير نفسه. ساكنٌ إلى قضايه وقدره، غير مُضطرب؛ كلما نزل عليه أمرٌ سَكَنَ إلى هذا القضاء، وعلِمَ أن ذلك محض تدبير الله تعالى - كما أشرنا - ثم يطمئن إلى كفاية الله له، أي: مطمئن إلى أن الله تعالى يكفيه، ليس مضطرباً، وليس سيئاً لظن برره، بل كُلُّ ما يطلبه يكفيه فيه بِهِ، وكلما توكل عليه أعطاه أكثر من هذه الكفاية. فلا يكون المرء إذا خائفًا، بل وصل إلى الطمأنينة بهذا المعنى إلى الله تعالى، فأيُّ شيء في الدنيا أنت مطمئن إلى كفاية الله بِهِ لك فيها. فإنْ أُعطيَ بعد ذلك شَكْرًا وإنْ مُنْعَ صبر.

وهذا مُلخصه: أن البدن في العبادة، والقلب متعلق بتدبير رب، وهو مطمئن إلى كفاية الله له بِهِ، وساكن إلى قضايه وقدره، إنْ أُعطي شكر وإنْ مُنْعَ صبر. وبذلك انتهت قصة مع الله تعالى: قلبه متعلق به، وبذنه منشغل بعبادته، وساكن إلى قضايه وقدره، ومطمئن إليه.. مرتكن عليه.. واثق فيما عنده.

والمسألة التالية التي يخاف الناس منها هي: هل التوكل معناه ترك الأسباب؟ ..

## التوكل لا ينافي القيام بالأسباب

وهو إجماع من علماء الدين كافة: أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، بل لا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

فمن ترك الأسباب في اكتساب الرزق مثلاً نقول له: هل يترك المرء الأسباب ويرزق بولده؟! أو يترك الأسباب وينحرج الزرع وحده دون أن يُنظفها - أي الأرض - ويلقي الحبَّ فيها، ويحرثها ويرويها ويعهدها وينقيها من الحشائش الضارة؟!

فأجمعَ الْقَوْمُ عَلَى أَنَّ التَّوْكِلَ لَا يَنْافِي الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ، فَلَا يَصْحُ التَّوْكِلُ إِلَّا مَعَ الْقِيَامِ بِهَا، وَإِلَّا فَهُوَ بَطَالَةٌ، كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُتَقْدِمًا لِلنَّاسِ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَلَا يَذَاكِرُ الْعِلْمَ، وَلَا يَسْعَى إِلَى الْآخِرَةِ، وَلَا يَسْعَى سَعْيَ الصَّالِحِينَ فِي الْبَذْلِ وَالْجُهْدِ فِي تَحْقِيقِ هَذِهِ الْدَّرْجَةِ الْعُلْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَقْعُدُ عَنِ الْعَمَلِ وَيَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ طَيِّبًا، وَسِيقُومُ بِعَمَلٍ مِنْهُجٍ لِلتَّعْلِيمِ وَالْعِبَادَةِ، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ يَحْفَظُ غَدًا، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ يَعْمَلُ كَذَا... وَهَذِهِ هِيَ الْأَمَانِيُّ الْكَاذِبَةُ. فَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَصُلِّ إِلَى هَذِهِ الْدَّرْجَةِ فَلَا بُدُّ أَنْ يَبْذُلَ لَهَا مَا يَصُلِّ بِهِ إِلَيْهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ - بَعْدَ أَنْ يَبْذُلَ جَهْدَهُ وَوقْتَهُ - فَإِنْ مَا سُوِيَ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ لَهُ، وَالنَّهايَةُ وَالْعَاقِبَةُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى يُكَرِّمُهُ عَلَى حَسْبِ نِيَّتِهِ، وَإِخْلَاصِهِ، وَوَقْتِهِ، وَجَهْدِهِ، وَبِذَلِكِ الَّذِي يَبْذُلُ.

## التَّوْكِلُ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ . هُوَ سِيدُ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَالْكَسْبُ سُنْنَةُ

فَالْتَّوْكِلُ هُوَ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ . هُوَ سِيدُ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَالْكَسْبُ سُنْنَةُ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ<sup>(۱)</sup> فَلَا يَرْكَنُ سُنْنَتَهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ أَبِي سَعِيدٍ<sup>(۲)</sup>: «الْتَّوْكِلُ: هُوَ اضْطِرَابٌ بِلَا سُكُونٍ، وَسُكُونٌ بِلَا اضْطِرَابٍ». يَعْنِي: أَنَّ ظَاهِرَ الْعَبْدِ مُتَحَرِّكٌ فِي تَحْصِيلِ الْأَسْبَابِ، وَبِإِنْدَارِهِ سَاكِنٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى مُتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ. هَذَا مَعْنَى الاضْطِرَابِ: فِي ظَاهِرِهِ يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ الْمُطْلُوبَةِ، وَبِإِنْدَارِهِ سَاكِنٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لَا يُضْطَرِبُ، وَلَا يَتَقلَّلُ، وَلَا يَتَمَلَّلُ.

(۱) «مِنْ عَمَلِ عَلَى حَالِ النَّبِيِّ ﷺ» أَيْ: مِنْ عَمَلٍ يُرْجَوُ بِهِ أَنْ يَتَأَسَّسَ بِحَالِ الْمَصْطَفِي ﷺ.

(۲) شَيْخُ الصُّوفِيَّةِ، الْقُدُّوْسُ، أَبُو سَعِيدٍ، أَحْمَدُ بْنُ عِيسَى الْبَغْدَادِيُّ، الْحَرَازُ. وَقَدْ صَاحَبَ سَرِّيًّا السَّقَطِيَّ، وَذَا النُّونِ الْمِصْرِيَّ. قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ: «وَيُقَالُ: إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي عِلْمِ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ، فَأَيُّ سَكْتَةٍ فَاتَّهَهُ قَصْدَ خَيْرًا، فَوَلَدَ أَمْرًا كَبِيرًا، تَشَبَّثَ بِهِ كُلُّ اتَّخَادِيٍّ ضَالٌّ بِهِ». وَتُوْقِيَّ سَنَةُ سِتٍّ وَّتَّبَاعَيْنِ - أَوْ سَبْعَ وَسَبْعِينَ - وَمَائَيْنِ. انْظُرْ: «سِيرُ أَعْلَامِ الْبَلَاءِ».

### المبحث الثالث

#### حقيقة التوكل ودرجاته<sup>(١)</sup>

حقيقة التوكل أنَّه حال مركبة من مجموعة أمور، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، وكلُّ من سبق ذكره من العلماء في المبحث الثاني أشار إلى واحدٍ من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر، فأوَّل ذلك:

#### الدرجة الأولى: معرفة بالرب وصفاته

أي: معرفةُ بالرب وصفاته بِهِ تَعْلَمُ، وكفايته، وقيوميَّته، وانتهاءُ الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمَه في مقام التوكل، وهذه هي الدرجة الأولى إجمالاً، ونفصل بعض الشيء:

«أن يَعْرِفَ الْعَبْدُ رَبَّهُ بِهِ تَعْلَمُ وأن يَعْرِفَ صفاتِه»: فإذا عرف ذلك علم قدرته بِهِ تَعْلَمُ، وعلم أنه قادر على أن يقُول له بكل شيء.

«وَعْرَفَ كِفَايَتَهُ» أي: عرف أنه بِهِ تَعْلَمُ يكفيه كل شيء يحتاجه، ويقوم بالكفاية له فيها<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر - بتصرف كثير جدًا - : «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم رحمه الله.

(٢) قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدَهُ﴾ [آل عمران: ٣٦]. وهذه الكفاية من الله للعبد تكون على قدر عبودية العبد لله. ولمزيد من التفصيل فارجع إلى شرح اسم الله «الحسيب» للمؤلف، وهو متوفَّر على هيئة خمس محاضرات صوتية على موقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

«وَقَيْوِمَتَهُ» يعني: علم قيومية الله تعالى، أي علم أنَّ الله تعالى قائم على كل شيء، وأنَّ الله تعالى قائم على كل نفس. قال تعالى: «أَفَمَنْ هُوَ قَابِلٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» [الرعد: ٣٣]، وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذْهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ» [البقرة: ٢٥٥].

«وَعَلِمَ انتهاءَ الْأَمْرِ إِلَى عِلْمِهِ» أي: علم أنَّه عالم بِكُلِّ شَيْءٍ، وكلُّ أمور الدنيا والآخرة والناسُ ظاهرُهم وباطنُهم وما كان وما يكون.. كلُّ ذلك بعلمه بِكُلِّ شَيْءٍ. فإذا علمت أنه عالم بكل ذلك فإنك لا تشک لحظةً واحدةً أنَّ ما يقوم عن علمه بِكُلِّ شَيْءٍ يقوم على المصلحة؛ لأنَّه عالم بما تؤول إليه الأمور، وعلم مقاصدَها ومصالحها ومقاصدها، وشرها وخيرها، وضرها ونفعها، وما ينفع لك وما لا ينفع لك، وكلَّ ما يتعلق بك، وكلَّ ما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة والإنسِ والجَنْ، والظاهر والباطن، وما كان وما يكون وما يمكن أن يكون.. فاطمأنَت إلى علم الله تعالى بك، وإلى أنَّ ما يكون من صلاح لك يعلمه فيُقدرُه بِكُلِّ شَيْءٍ، ومن فسادٍ فيَدْفعُه عنك جل وعلا.

و«صُدُورَهَا عَنْ مَشِيَّتِهِ وَقَدْرِتِهِ» أي: ويعلم كذلك من صفات الرب أنَّ كلَّ الأمور تصدر عن مشيَّته وقلْرته.

فأنت أية الإنسان المسكين عندما تقع بعض الأمور لك تقول: «أَنَّى هذَا؟! لَقدْ كنْتُ متوكلاً على الله تعالى، وكنتُ أريد كذا، وهذا الأمر سيُعَطِّلني !!». أنت إذن بحالك هذا قد فقدت المرحلة الأولى من مراحل التوكل؛ وهي أنْ تعلم أنَّ كُلَّ أميرٍ صادرٌ عن مشيَّة الله تعالى، فلا يصدر شيءٌ في الكون ولا يقع ولا يمكن أن يقع إلا بمشيَّته بِكُلِّ شَيْءٍ. فليس هناك ما يصدر عن غير مشيَّة الله تعالى. فإذا علمت أنه صادرٌ عن الله تعالى وتبينَتْه علمت أنه هو الأصلح، فينبغي لك أن تُسْكُنَ له وترضى به وتسترسل معه أينما كان؛ لِتَرَكَ اختيارَك لاختيارِ الله تعالى.

وهذه المعانى مهمة حتى يُفَيِّقُ النَّاسُ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ رُكُونِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا، قَوْتُهُمْ وَعِلْمُهُمْ وَالخُوفُ مِنَ الْوَاقِعِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَالخُوفُ مِنْ فَلَانٍ وَعَلَانٍ.. كُلُّ ذَلِكَ يُنْفِيهِ التَّوْكِلَ عَلَى اللَّهِ.

### الدرجة الثانية: إثباتٌ في الأسباب والمسبابات، فإنَّ مَنْ نَفَاهَا فَتَوَكَّلَهُ مَدْخُولٌ

فَمَنْ نَفَى الأسبابَ فَتَوَكَّلَهُ مَدْخُولٌ؛ أي غير صحيح. وهذا ردٌ على من يقول أنَ التَّوْكِلَ هُوَ التَّوَكِلُ. وَتَوْكِلُ هُؤُلَاءِ مَدْخُولٌ؛ لأنَ نَفَاهَا الأسبابُ لَا يُسْتَقِيمُ لَهُمْ تَوْكِلٌ الْبَتَةُ، لَأَنَ التَّوْكِلَ مِنْ أَقْوَى الأسبابِ فِي حِصُولِ التَّوْكِلِ فِيهِ، فَهُوَ كَالْدُعَاءِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى سَبِيلًا فِي حِصُولِ الْمَدْعُوِّ بِهِ. فَإِذَا اعْتَقَدَ الْعَبْدُ أَنَ تَوَكَّلَهُ لَمْ يَنْصِبْهُ اللَّهُ سَبِيلًا، وَلَمْ يَجْعَلْ دُعَاءَهُ سَبِيلًا، وَسَوَاءً دُعَا أَمْ لَمْ يَدْعُ كَانَ سَيْحَدَثُ مَا حَدَثَ، وَإِنْ ذَهَبَ أَوْ لَمْ يَذْهَبْ فَسَيْحَدَثُ لَهُ مَا حَدَثَ، فَتَوَكَّلَهُ مَدْخُولٌ<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: «سَوَاءَ أَسَافَرْتُ أَمْ لَمْ أَسَافِرْ كَانَ هَذَا الَّذِي حَدَثَ هُوَ الَّذِي سَيْحَدَثُ»، نَقُولُ لَهُ: «لَا.. وَلَكِنَ هَذَا الَّذِي حَدَثَ قَدْ يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِهَذَا السَّبِيلِ، فَقَدْرُ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالسَّبِيلِ الَّذِي نَصَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، كَالزَّوْاجِ مَثَلًا، فَمِنْ أَينْ يَأْتِي الرَّءُءُ بِالْوَلَدِ مِنْ دُونِ أَنْ يَتَزَوَّجَ؟!».

يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنْ كَانَ الْمَوْلَى يَعْلَمُ قَدْ كَتَبَ لِي الْوَلَدَ فَسِيَّاتِي»!! كَيْفَ وَأَنْتَ لَمْ تَأْخُذْ بِالْأَسْبَابِ؟! هَذَا مِنْ نَاحِيَةِ، وَالثَّانِيَةُ: أَنْكَ لَا تَعْلَمُ هَلَ اللَّهُ يَعْلَمُ كَتَبَ لَكَ هَذَا أَمْ لَا. فَلَيْسَ هَنَاكَ أَفْسَدُ مِنْ ذَلِكَ.

(١) وَحَاصِلٌ مَا ذُكِرَ أَنَّ التَّوْكِلَ نَفَسَهُ يُعَدُّ مِنْ قَبْلِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، بَلْ هُوَ مِنْ أَقْوَى الأَسْبَابِ كَمَا ذَكَرْنَا عَالِيَّهُ لِتَحْصِيلِ مُرَادِ الرَّءُءِ وَمُطْلُوبِهِ.

ومثال آخر: عندما يقول قائل: «والله إنْ كتب الله لي النجاح فسأنجح، وإن لم يكتبه لي فلن أنجح، ولن أذاكر»!! يقال له: «لا.. كتب لك أن تنجح بالسبب؛ وهو المذاكرة، وكتب لك أن تُرْسَب بترك السبب؛ وهو ترك المذاكرة». وهذه الأقدار إنما هي مرتبطة بأسبابها، يعني هناك أقدار مرتبطة بالأسباب لا ينبغي للمرء أن يترك السبب فيها ويظن أنْ يحدث له ما يريد.

فقد قضى عَلَيْهِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بحصول الشَّيْءِ إذا أَكَلَ العَبْدُ، والرَّيْيِّ إذا شرب، والحجّ إذا أخذ في مناسكه وذهب إليه، والوليد إذا تزوج ولم يكن هناك مانع من أن يُنْجِب.. وهكذا، فهذه الأمور متعلقة بأسبابها لا تقع بلا سبب، وقضى عَلَيْهِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بانضاج الطعام بإيقاد النار تحته، فقضى الله تعالى أن تكون هذه الأمور مرتبطة بأسبابها. فلا بد من حدوث السبب لحدوث النتيجة أو المسَبَب.

وقد لا تحصل النتيجة لأي مانع من الله تعالى؛ فالناس قد تَرْزَعُ وتتعب ثم تأتيجائحة<sup>(١)</sup> من الله تعالى من السماء تأخذ ذلك كله؛ لماذا؟ حتى لا يرتكن الناس إلى السبب. يقول المرء: «قد ذاكرتُ ثم رَسَبْتُ في الامتحان! فلِمَ ذلك؟!»، والجواب: أن ذلك حدث حتى لا ترَكَنَ للسبب، فَخُذْ بالسبب وقلْبُكَ مُرْتَكِنٌ لله تعالى.

فـ«اضطراب بلا سُكُون» معناه إذاً: أن يأخذ المرء بالسبب، ولكنَّ ساكِنَ مع الله تعالى، يعلم أنَّه يأخذ بالسبب الذي أمره الله به، ولكن لا يرتكن إليه، فقد لا يأتي السبب

(١) «جَاهَ الشَّيْءَ»: اسْتَأْصَلَهُ، ومنه «الجائحة»، وهي: الشَّدَّةُ التَّيْ تَجْتَاهُ الْمَالَ مِنْ سَنَةٍ أَوْ فِتْنَةٍ. يقال: «جَاهَتْهُمُ الْجَاهِيَّةُ، واجْتَاهَتْهُمُ». وـ«جَاهَ اللَّهُ مَالَهُ» وـ«أَجَاهَهُ» بمعنى، أي: أَهْلَكَهُ بالجائحة.

انظر - بتصرف: «مختر الصحاح»، مادة: [ج و ح].

بالعاقبة المطلوبة. وقد يتغىي السببُ نفسه ولا يقع له شيءٌ<sup>(١)</sup>. وعلى عكس هذا: شخصٌ قلبه متعلق بالسبب، يقول: «فلانٌ سيقضي لي المصلحةَ الفلانية»، فيذهب إلى فلانٍ هذا فيجده قد مات!! وهكذا، فلا بد أن يكون المرءُ قلبه متعلقاً بالله تعالى في حصول كلّ شيءٍ، وألا يضطرب هذا السكونُ، وأن يرضي بالواقع.

### الدرجة الثالثة: رُسوخ القلب في مقام توحيد التوكل

يعني لا يستقيم توكلُ العبد حتى يصِحَّ له توحيده، بل حقيقةُ التوكل توحيدُ القلب، فما دامت فيه - أي في القلب - علائقُ الشرك، فتوكلُه معلولٌ؛ أي به علة، وعلى قدرٍ تجريد التوحيد لله تعالى - يعني على قدر ما توحَّد ربُّك بِعْنَانَكَ بأنه الكافي والقادر والقوى والعليم والحافظ والغني والوفي، وأنه يقوم لك ويقوم معك على قدر هذا التوحيد والتعلق بالله تعالى، يكون قدرُ التوكل في القلب.

«إِنَّ الْعَبْدَ مَتَى التَّفَتَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، أَخْذَ ذَلِكَ الالْتِفَاتُ شُعْبَةً مِنْ شُعْبِ قَلْبِه». يعني: إذا التفتَ العبدُ إلى غير الله تعالى أخذ ذلك الالتفاتُ شُعْبَةً من شعب التوحيد من هذا

(١) وهذا واقعٌ ومشاهدٌ؛ فقد يمْرض العبدُ ولا يأخذ بالأسباب من الذهاب إلى الطبيب وأخذ الدواء، وبالرغم من ذلك يشفى الله تعالى بغير سبب. وقد يكون الزوجان عقيمين قد جزم الأطباء باستحالة إنجابهما فيهب الله لها الولدًا وقد ذكر الله تعالى شبهة ذلك في قصة نبي الله زكريا عليه السلام: كانت امرأته عاقراً وبَلَغَ هُوَ الْكِبِيرُ عِتِيًّا، وبالرغم من ذلك وهب الله لها الولد. ومثال آخر لحرق الله تعالى نواميس الكون - فتَحدُثُ التَّتِيْجَة بِدُونِ السَّبَب - قصة مريم عليها السلام، كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَا المحرابَ وَجَدَ عَنْهَا رَزْقًا لَمْ يَسْعَ مَخْلوقٌ فِي تَحْصِيلِهِ لَهَا. وقد يَنْعَنِي المؤلف كثِيرًا من المعاني المهمة المتعلقة بما سبق في رسالة: «يا زكريا إننا نشرك بغلام» فارجع إليها للأهمية.

القلب، فنَفَّصَ من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة. وهذه مسألة مهمة! ينبغي أن يجُرُّد فيها المرأة توحيدَ ربه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وأن يكون غناه به وافتقاره إليه جل وعلا، وأن يعلم أنه القادر كما ذكرنا في الدرجة الأولى وهي: «معرفته بربه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وبصفاته.. من القدرة والكافية والقيومية، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدور الأمور عن مشيئته وقدرته جل وعلا».

فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب: فافهمْ هذه المسألة حتى تعلم كيف يُترك السبب. فالقلبُ يرفضها، أي لا يتوكَّل عليها، ولا يعتمد عليها، وتعلق الجوارح بالأسباب، فيكون المرأة منقطعاً منها: أي منقطع القلب من الأسباب، متصلًا بها: أي متصل الجوارح بهذه الأسباب، ومتصل بالله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها: فعندما يكون في قلبك شيءٌ من الأعمال المتعلقة بالجوارح دل ذلك على ذهاب شعبَةٍ من شعب القلب في التوكل، وشعبَةٍ من شعب الإيمان، وعدم تحرير التوحيد لله تعالى في كل أمورك.

هذه المسألة نتعلمها ونبداً في تحقيقها من هذه اللحظة في وقتنا.. في علمنا.. في مالنا.. في جاهنا.. في سعينا.. في كُل شيءٍ.

#### الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله تعالى واستناده إليه وسكنونه إليه

كيف يكون ذلك بحيث لا يبقى في القلب اضطراب من آثار الأسباب؟ فالأسباب تُشوش على القلب، يقول قائل: «وماذا أفعل؟ ليس معنِّي نقود؟» يُقال له: «توكل على الله تعالى»، يقول: «نحن متوكلون على الله، فأين النقود والأموال؟». وهذا من عدم السكون، وهو ما يُسمى بتشويش الأسباب على القلب.

وعلامة هذا - أي علامه اعتماد القلب، واستناده إلى الله تعالى - ألا يُبالي بإقبال الدنيا، ولا بإدبارها، ولا يضطرب قلبه ويختنق<sup>(١)</sup> عند إدبار ما يحب منها. فأول ما يذهب منه شيء يريده المرء يضطرب قلبه، ويحدث له هذا الاضطراب والتشویش الذي يراه المرء من نفسه، فتجده متضايقاً وحزيناً، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! وهذا هو معنى اضطراب القلب وخفقانه عند إدبار ما يحب أو عند إقبال ما يكره.

فحال المعتمد على الله تعالى المستند إليه هو حاًل من خرج عليه عدو عظيم، لا طاقة له به، فرأى حصناً مفتوحاً، فأدخله ربّه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له !!

أي إن التوكل على الله كهذا المعنى: أنَّ العدو قد خرج عليك، فأدْخِلْكَ المولى ﷺ الحصن، وأغلق عليك الباب، وأمِنْكَ ﷺ بهذا التوكل والاستناد عليه، وأنه هو القوة الدافعة لك، وهو المؤمل لك في ذلك كله .. فحيثُ إنْ خَفَقَ قلْبُكَ واضطرب فيكون ذلك لا معنى له .

ومثال ذلك: مَنْ أَعْطَاهُ الْمَلِكُ دَرَهَمًا فُسِّرَقَ مِنْهُ، فقال له الملك: «عندِي أَصْعَافُهُ، فَلَا تَهْتَمْ، مَتَى جَئْتَ إِلَيَّ أَعْطِيْتُكَ مِنْ خَزَائِنِي أَصْعَافًا»، فإنْ عَلِمْ صَحَّةَ قول الملك، ووثق به، واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك، لم يُحزِّنه فوته.

وكذلك الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بشدي أمه، لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفاتٌ .. كما قال بعض العارفين: التوكل كالطفل مع ربه تعالى، لا يعرف الطفل شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه. كذلك المتوكّل؛ لا يأوي إلا إلى ربه ﷺ.

(١) خَفَقَ الشيءُ، يَخْفَقُ وَيَخْفُقُ، خُفْوًا وَخَفْقَانًا: اضطراب وتحرك. انظر: «المعجم الوجيز»، مادة: [خ ف ق].

## الدرجة الخامسة: حُسن الظن بالله ﷺ

وعَكْسُ حُسن الظن هو سوء الظن الذي يقع فيه الكثيرون من الناس، ومثال سوء الظن أن تقول لأحدهم: «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ سَيَمْنَعُكَ»، فيقول: «كيف؟!».

يقال له: «المولى غنيٌّ، لا تخفتْ، سيعطيك»، يقول: «مِنْ أَينْ؟!».

يقال له: «المولى يقوم لك بهذا الأمر»، يقول: «وَكَيْفَ يَحْدُثُ هَذَا؟!».

وهذا هو سوء الظن بالله تعالى، لذلك فهذه الدرجة التي أشرنا إليها من الأمور المهمة في التوكل: «حسن الظن في الله ﷺ». وهذا - أي سوء الظن - قادرٌ في توحيد المرء: في أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ، وَأَنَّهُ قَوِيٌّ، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ مَلِئٌ، وَأَنَّهُ يُوْفَى لِعَبَادِهِ، وَأَنَّهُ الْحَفِيظُ، وَالْكَفِيلُ.. إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى وَالصَّفَاتِ الْعَلِيَّاً.

فعلَ قَدْرٍ حُسنَ ظنِكَ بربِكَ ﷺ ورجائِكَ فيهِ، يكونَ توَكِّلُكَ عَلَيْهِ. ولذلك فسَرَ بعضُهُمُ التوَكِّلَ بحسنِ الظنِ باللهِ تَعَالَى، والتحقِيقُ في هذهِ المسألةِ: أَنَّ حُسنَ الظنِ باللهِ يدعُو العَبْدَ إِلَى التوَكِّلِ عَلَيْهِ، إِذَا لَا يُتَصَوِّرُ أَنْ تتوَكِّلَ عَلَى مَنْ سَاءَ ظُنُونُكَ بِهِ. فَيَنْبَغِي عَلَى المرءِ أَنْ يُحْسِنَ ظَنَّهُ بِاللهِ تَعَالَى، وَأَنْ يَدْعُوهُ أَنْ يُوفِّقَهُ إِلَى التوَكِّلِ عَلَيْهِ، وَكَمَا لَا يُتَصَوِّرُ التوَكِّلُ عَلَى مَنْ لَا تَرْجُوهُ.

## الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجداب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته

استسلام القلب لله تعالى، وانجداب دواعي القلب إلى ربه ﷺ. أي ليس هناك ما يدعو القلب إِلَّا إلى الله تعالى، فلا تنجدبُ هذه البواعث في القلب إِلَّا لله تعالى؛ لا للدنيا والهوى والمال والأسباب والجاه والسلطان والنظر إلى الصور، ولا للواسطة والعلم

والفهم والعقل... إلخ. وإنما كُلُّ دواعي القلب يميناً وشمالاً إنما تنجدب الله تعالى، وتتعلق به بعد استسلام القلب له.

وهذا معنى القلب السليم في بعض التفاسير: وهو القلب السالِم لله تعالى من كل ما سوى الله تعالى.

ومعنى «وقفَّع منازعَتِه»: أن يقطع العبدُ عن القلب منازعَتَه لله تعالى، فلا يُنَازِعُ الله تعالى فيها فعل؛ لا في ظاهرِه وباطنه، ولا بالكلام ولا غيره، يقول: «الحمد لله على ما حَدَث» وهو في قلبه حزينٌ ومتضايقٌ على ما وَقَعَ به، ومُتَأْفِفٌ من ذلك الحادث الذي أَنْزَلَه الله تعالى به، ومن هذا الْحُكْمُ الذي قضى الله تعالى عليه، ويقول: «الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله» بأسلوب التأفُّف! وهذا دليلٌ على أنه لم يقطع منازعَتَه لربِّه، ولم يستسلم له ~~بِه~~ استسلامَ المحبِّ.. استسلامَ المُوحَّد.. استسلامَ المتعلقِ بالله.. استسلامَ المفوَّض له أمره.. استسلامَ الواثق فيه.. استسلامَ المُتَوَكِّل عليه.

فعلى المرء أن يقطع منازعَتَه لله تعالى: فأول ما يَنْزَلُ به شيءٌ من البلاء يكون فرحاً به؛ لأنَّه وَكَلَّ رَبَّه فيه، وعلِمَ أنه قضى له بأحسن القضاء، حتى ولو كان هذا القضاء - في ظاهره - مُرّاً، أو كان في ظاهره كذلك مصيبةً أو محنَّةً أو سُوءاً، وإنما كُلُّ ذلك للعبد، وإنما يقضي له ~~بِه~~ الخير. لذلك فعلَ العبد أن يقطع منازعَتَه لربِّه.. أنت مُتَوَكِّلٌ فلا تُنَازِعُ مولاكَ إِذَا في شيءٍ من هذه الأمور، وبهذا فسرَه من قال: «الْتَوْكِلُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدِي اللهِ تَعَالَى كَالْمِلَيْتِ بَيْنَ يَدِي الْغَاسِلِ يُتَقْبَلُه كَيْفَ أَرَادَ».

وهذا معنى أيضاً قول بعضهم: «الْتَوْكِلُ إِسْقَاطُ التَّدْبِيرِ»، يعني: الاستسلامُ لتدبيرِ الربِّ لك.

وقد يسأل امرؤ: «هل معنى ذلك أن ترك الأسباب؟».

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «هذا في غير باب الأمر والنهي»، أي: هذا فيما يفعله بك بِكَ، لا فيها يأمرك به. فاستسلامك لله تعالى يعني: الاستسلام لتدبير رب لك فيما يفعله بك، لا فيها يأمرك به. فما يأمرك به ليس فيه هُزل، قال لك: «افعل»، فعليك أن تفعل، قال لك: «لا تفعل»، انتهى.. لا تفعل. فإذا قصرت في الواجبات وأعمال الإيمان والطاعات، هل هذا من باب الاستسلام لتدبير الله؟ لا، تدبيره فيها يفعله بك لا فيها يأمرك به - كما ذكرنا - ولذلك: فأنت مُسْتَسْلِمٌ فيها ينزل بك من الله تعالى، ومجتهدٌ فيها أمرك به أن تأيه، ومجتهدٌ فيها نهاك عنه أن تجتنبه.

وهذه المسألة عالية، ونحن نتكلّم على قدر أهل العلم في الماضي، فقد كانوا يتكلّمون بهذا الكلام وهم متتحقّقون به، فلم يكونوا يَخْتَلِقُوا قصصاً لم تكن قد وقعت أو حدثت، وأن هذه القصص مَا يَقْضُونَ به مجالسهم، أو يتكلّموا بها لا يعلمون، أو يتكلّموا بها لا يعملون. لا، بل كانوا يعملون بما يقولون، وكانت هذه الأحوال أَحْوَالَمَ الحسنة التي نتكلّم عنها. لذلك فكُلُّ هذه المعاني التي ذكرنا هي لسان حال هؤلاء العلماء، يعني أنهم عاشوا هذه الحالة فقال: «التوكل كذا..»، هذه الحالة كانوا يَحْيُونَها هم مع الله تعالى، ويتحققون بها، لا أنهم يقولون كلاماً فقط كما نحكى نحن مع بعضنا، ونَفَضُّ المجلس، ولا نعمل بهذه المعاني.

والاستسلام: كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإرادته مع سيده. فالعبد الذليل مُسْتَسْلِمٌ قام الاستسلام لربه بِكَ، منقاداً لأوامره وإرادته فيما يريده رب بِكَ، وترتيبه فيها رتبه له المولى بِكَ.

## الدرجة السابعة: درجة التقويض

فالتفويض هو روح التوكل ولُبُّه وحقيقةُه، وهو: إلقاء العبد أمرَه كلَّها إلى الله تعالى وإنزَالُها به، طلبًا واحتيازًا، لا كُرْهًا واعتراضًا، كتفويض الابن العاجزُ الضعيف المغلوب على أمره كلَّ أمرَه إلى أبيه العالم بشفقته عليه، ورحمته له، والعالم بتمام كفایته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أنَّ تدبير أبيه له خيرٌ من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحة وتوليه لها خيرٌ من قيامه هو بمصالحة نفسه وتوليه لها، فلا يجد له أصلح ولا أرقَّ من تفويض أمرَه كلَّها إلى أبيه، فهذا أصلحُ شيءٍ له. هو عاجزٌ لا يستطيع أن يقوم بأمرَه، وضعيفٌ لا يستطيع أن يقوم بها، وجاهلٌ بوجوه المصالح فيها، ففَوْضُ أمرَه كلَّها إلى أبيه.

وقد سبق أن ذكرنا: أنَّ المرء يفْوضُ أمرَه إلى العالم الرفيق الشفيف، الذي لا يطلب شيئاً نظيرَ وكالته، لا مالًا ولا أجرةً عليها؛ لأنَّه لو لم يكن شفيفاً به لضيَّعَه. ولو كان هذا الوكيلُ يطلب مالاً لـأعطاه أحدُ آخر هذا المال لأهمله، ولو كان جاهلاً لـما قام بهذا الأمر، ولو كان غير مقتدرٍ ما استطاع. لذلك يفْوضُ المرءُ أمرَه إلى العالم القادر الشفيف، الذي لا يطلب على وكالته أجرًا ولا شيئاً.

فإذا وضع المرء قَدَمَه على هذه الدرجة، فلا يجد أعلم ولا أشدق به ولا أرحم به من الله تعالى، ولا يريد منه شيئاً نظيرَ ذلك. فإنْ وَكَلَ وفَوْضُ أمرَه إلى الله تعالى، قام له المولى ﷺ على تمام الكفاية، وعلى أحسن المصالح، وتولاه أحسن الولاية، ودَبَّرَ له أحسن التدبير، وقام بمصالحة أحسنَ القيام. فإذا وضع قدمَه في هذه الدرجة، انتقل إلى الدرجة الثامنة وهي: درجة الرضا..

## الدرجة الثامنة: درجة الرضا

وهي ثمرة التوكل، ومن فسر التوكل بأنه الرضا بما يفعل، فسره بنتيجته لا بنفسه، ففسره بأجل ثمراته وأعظم فوائده. فإنه إذا توكل المرء حق التوكل رضي بما يفعله وكيله، فإذا توكلت على المولى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رضيت بها وكلنته فيه، ورضيت بما يفعله لك. ألم أنك توكله ثم تقول له بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بـلسان حalk: «لم فعلت ذلك؟!.. وكيف تفعل ذلك؟! وكل ذلك لا يجوز في حق الله تعالى، لا يجوز ذلك مطلقاً.

وكان الإمام ابن تيمية رحمه الله<sup>(١)</sup> يقول: «المقدور يكتفيه أمران: التوكل قبله والرضا بعده». يعني أن أي شيء يحدث للعبد فهو مقدر؛ قدّر الله تعالى على عبده وكتبه عليه. فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بما قضاه الله سبحانه بعد الفعل، فقد قام بالعبودية التي اقتضتها، وهذا معنى جميل.

وهذا معنى قول النبي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في دعاء الاستخاراة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ»<sup>(٢)</sup>. فتوكل العبد على الله وفوض أمره

(١) انظر ترجمته رحمه الله في شرح اسم الله تعالى «القدس».

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه: [١١٦٢]، ونماهه: «عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُعْلَمُنَا الْإِسْتِخَارَةُ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعْلَمُنَا السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَإِذْ كَعْ رَكْعَتِينِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِي قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلٌ أَمْرِي وَآجِلُهُ - فَأَقْدِرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي

إليه، لذلك قال: «فَإِنَّكَ تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَتَقْدِيرُ وَلَا أَقْدِيرُ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ». فأنت أيتها العبد المُؤْكَلُ المسكين قد تبرأت من كل حولٍ، ومن كل علمٍ، ومن كل قوةٍ، إلى علم الله وحوله وقوته، وقد أثبتتَ الحول والعلم والقوة لله تعالى، وتَفَيَّتها عن نفسك أهيا المسكين: «فَإِنَّكَ - يَا رَبَّ - تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَتَقْدِيرُ وَلَا أَقْدِيرُ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ»، فهذا تَبَرُّؤٌ إلى الله تعالى من العلم والحول والقوة، وفي نفس الوقت تَوَسُّلُ إليه بِسْمِكَه بِاسْمَه وصفاته التي هي أَحَبُّ ما تَوَسَّلَ إليه بها المُتَوَسِّلُونَ.

ثم سأَلَ العَبْدُ رَبَّهُ أَنْ يَقْضِي لَهُ ذَلِكَ الْأَمْرَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَتُهُ عاجِلاً أو آجَلاً، وأن يَصْرِفَ عَنْهُ هَذَا الْأَمْرَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَكْرَرَتُهُ عاجِلاً أو آجَلاً. فهَذِهِ هِيَ حَاجَتُهُ التِي سَأَلَهَا، فلم يَبْقَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الرِّضا بِمَا يَقْضِيَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، فَقَالَ: «وَأَقْدُرُ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ».

فقد اشتمل هذا الدُّعَاءُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَارِفِ الإِلَهِيَّةِ، وَالْحَقَائِقِ الإِيمَانِيَّةِ، وَالَّتِي مِنْ جُمِلَتِهَا التَّوْكِلُ، وَالتَّفَوِيْضُ قَبْلَ وَقْوَةِ الْمَقْدُورِ، وَالرِّضا بَعْدَ أَنْ يَقُعَ هَذَا الْمَقْدُورُ وَهُوَ ثُمَّةُ التَّوْكِلِ.

وَالْتَّفَوِيْضُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَمُ صَحَّةِ التَّوْكِلِ، فَإِنْ لَمْ يَرْضَ بِمَا قُضِيَ لَهُ فَتَفَوِيْضُهُ فَاسِدٌ مَعْلُولٌ، فَلَمْ يُفَوَّضْ وَلَمْ يَتَوَكَّلْ مِنْ أَصْلِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى !! فَأَنْتَ قَلْتَ لَهُ بِسْمِكَه: «أَسْتَخِرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ»، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَ أَنْ يَقُعَ عَلَيْكَ الْقَضَاءُ تَقُولُ: «أَنَا لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ هَذَا.. أَنَا كَنْتُ أُرِيدُ أَمْرًا آخَرَ»، فَتَقْعُ في مَنَازِعَةِ الرَّبِّ بِكَه دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلٍ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَأَقْدُرُ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ - قَالَ - وَيُسَمَّى حَاجَتَهُ.

والاعتراض، وترك التسليم والرضا بما كان، وذلك يدل على ترك التفويض الذي هو لبُّ التوكل.

وباستكمال هذه الدرجات الشان، يستكمل العبد مقام التوكل، وثبتت قدمه فيه، وهذا معنى قول إسحاق رحمه الله: «يقول أحدهم: «توكلت على الله». يكذب على الله!! لو توكَّل على الله لرضى بما يفعله الله به». وقال يحيى بن معاذ رحمه الله وقد سُئل إلى متى يكون الرجل متوكلاً؟ قال: «إذا رضي بالله وكيلًا».

## المبحث الرابع

### بعض صور اشتباہ التوکل الصالحة المحمد

بعض المعانی المذمومۃ<sup>(۱)</sup>

وكثیرة هي الصور التي يشتبه فيها التوکل الصالحة المحمد بالمعانی المذمومۃ، ويظن أصحابها أنهم متوكّلون على الله، وهذا الحال مما ينبغي أن ينظر فيه المرء، وهو الغالب من حال أهل الإيمان اليوم إلا من رحم الله.

### الصورة الأولى: اشتباہ التفویض بالإضاعة

كثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه التفویض بالإضاعة؛ فيُضیيغ العبد حظه من الله تعالى ظناً منه أن ذلك تفویض وتوکل، وإنما هو تضییع لا تفویض.

فنجد المرأة قد ضییع ما ينبغي أن يكون سبب إقباله على الله وتوکله عليه، ثم يقول إنه يتوكل على الله! فبدلًا من أن يعمل الأعمال على أقصى ما يمكن من البذل والجهد، تجده يقول كقول عموم الناس: «الحمد لله.. عَمِلْنَا الذِي عَلَيْنَا وَالباقِي عَلَى اللَّهِ»! وهو لم يفعل حقاً ما عليه. فضیيغ حظه من الله تعالى، سواء فيما أمره الله تعالى به، أو في حظ قلبه من إقباله على ربه، أو في حظ قلبه من التفویض والتسلیم إليه ﷺ الحقیقی. وهذا حالنا جمیعاً إلا من رحم الله.. فلا يوجد أحد يبذل على المعنى الذي به يحصل هذا الحظ من الله

(۱) انظر - بتصرف کثير جداً: «مدارج السالکین» للإمام ابن القیم رحمه الله.

تعالى، يُصِّيغُ حظَّهُ وهو يظنُّ أنه عَمِلَ ما عليه، وأنَّه والحمد لله فَوْضُ أمرَه إلى الله، وأنَّه متوكِّلٌ على الله في الباقي !

## الصورة الثانية: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز

وأيضاً ما يشتبه فيه المحمود بالذموم: اشتباه الثقة بالله من جهةٍ، والغرور والعجز من جهة أخرى. والفرق بينهما: أنَّ الواثق بالله قد فعل ما أمرَه الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتَنْميَتها وتَزْكِيتها، كغارسِ الشجرة وباذر الأرض. أما المُغْتَر العاجز فقد فرَّط فيها أمرَه الله به، وزعمَ أنَّه واثق بالله! والثقة إنما تصحُّ بعد بذل المجهود.

ومثالٌ لاشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز: أنْ تجد المرأة لا يستطيع القيام للصلوة، أو عجز عن أن يصوم أيامًا، أو عجز أن يبذل مالًا أو جهداً أو وقتاً - في دعوةٍ أو غيرها من أعمال الدين. وهو المُتَسَبِّبُ في هذا العجز، وبذل شيئاً لا يوازي ما ينبغي أن يبذله. فيشتبه عنده التوكُّل، يقول: «أنا متوكِّلٌ على الله.. فقد بذلتُ، وواثقٌ في أنَّ أمرَ الله تعالى سَيِّئَمُ»، ونام على هذا الحال. فيقال له: «هذا ليس ثقةً في الله، وإنما هو غُرور وعجزٌ منك».

وليس الغرورُ هنا بمعنى التكُّر، ولكنَّ المغرورُ هنا بمعنى أنه قد غُرِّرَ به، كما يقول المولى عليه السلام: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْفُرُورِ» [الحديد: ٢٠]، فلا تعني متعة الكِبِر، ولكن تعني الشيء الذي يُغْرِّ به المرء، ثم يراه زائلاً، لا يرى له حقيقةً، وإنما هو كأضغاث الأحلام.

لذلك معنى اشتباه الثقة بالله بالعجز والغرور - أي: غُرورُ المرء بما يفعل - أنْ يتخيَّل أنَّ ما فعله له قيمة، أو أنَّ عجزَه هذا الذي تَرَكَ به الأعمال ثقةً في الله، أو حسنٌ

ظنٌّ به، أو توكلٌ عليه ﴿تَعَالَى﴾! وهو في الحقيقة كان ينبغي أن يخرج من هذا العجز إلى كمال العمل وإتقامه ويدلُّ الْوُسْعَ واستفراغ الجهد فيما يقوم فيه الله تعالى، حتى يصحَّ له هذا التوكُّل.

### الصورة الثالثة: اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه بالطمأنينة إلى المعلم

ومنها اشتباه الطمأنينة بالله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلم<sup>(١)</sup> وسُكُون القلب إليه، ولا يُمِيز بينهما إلا صاحبُ البصيرة، كما ذُكر عن أبي سليمان رحمه الله<sup>(٢)</sup> أنه رأى رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربةً من زمزم، فمرأ أبو سليمان عليه يوماً فقال له: «أرأيت لو غارت زمزم، فأي شيء كنت تشرب؟!»، فقام الرجل وقبل رأسه وقال: «جزاك الله خيراً حيث أرشدتنِي، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام»! ثم تركه ومضى. فنبأه أبو سليمان رحمه الله على أنه كان معتمداً على وجود زمزم، لا متوكلاً على الله تعالى؛ لأنَّه

(١) المقصود بـ«المعلم» هنا: الدخل أو الراتب.

(٢) الإمام، الكبير، زَاهِدُ الْعَصْرِ، أَبُو سُلَيْمَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَحْمَدَ - وَقِيلَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَطِيَّةَ، وَقِيلَ: أَبْنُ عَسْكَرٍ - العَنْسَيُّ، الدَّارَانِيُّ. وُلِّدَ فِي حُدُودِ الْأَرْبَعِينَ وَمَائَةً. أَصْلُهُ وَاسِطِي. سُكِنَ دَمْشِقَ. وَرَوَى عَنْ سُفْيَانَ الثُّوْرَيِّ وَغَيْرِهِ. قَالَ الْحَافِظُ فِي «تَقْرِيبِ التَّهذِيبِ»: «ثُقَّةٌ، لَمْ يَرُوْ مُسْنَدًا إِلَّا وَاحِدًا، وَلِهِ حَكَايَاتٌ فِي الرَّهْدِ» اهـ. مِنْ أَقْوَالِهِ الْحَسَنَةُ: «مَنِ اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ شُغِلَ عَنِ النَّاسِ، وَمَنِ اشْتَغَلَ بِرَبِّهِ شُغِلَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ النَّاسِ». وَعَنْهُ: «مَنْ وَثَقَ بِاللَّهِ فِي رِزْقِهِ، زَادَ فِي حُسْنِ خُلُقِهِ، وَأَعْقَبَهُ الْحَلْمَ، وَسَخَّنَتْ نَفْسُهُ، وَقَلَّتْ وَسَاوِسُهُ فِي صَلَاتِهِ». وَعَنْهُ: «الْفُتُوْةُ أَنْ لَا يَرَاكَ اللَّهُ حَيْثُ تَهَكَّ، وَلَا يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمْرَكَ». مات سنة اثنبي عشرة ومائتين. انظر: «السِّير» للذهبي [١٨٣/١٠]، وـ«تَقْرِيبُ التَّهذِيبِ» للحافظ ابن حجر.

لو كان معتمداً على الله تعالى واثقاً به، لعلم أن رزقه ليس بزمزم، وأن ماءه ليس بزمزم، وشربه ليس بزمزم، وإنما هو من عند الله تبارك وتعالى!

وهذه من المسائل التي ينبغي أن نتعلمها: فمعناها أن الأحوال تتشبه عند المرء بين التوكل على الله وسكون القلب إليه، وبين اطمئنانه إلى ما في جيشه، يعني اطمئنانه إلى الشيء.

فلا يكن إذن يقينك على فلان ولا على ما في جيشه من نقود، فيقين المرء وثقته لا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة، الذي يميز فعلاً بين أنه راكن إلى الله تعالى أم أنه راكن وساكن إلى ماله عند فلان، أو إلى ماله هو، أو إلى ما يملك، أو ما سيقوم له به فلان، وأنه متوكلاً على الله تعالى! لا، هو متوكلاً في هذه الأحوال التي ذكرنا على فلان.. متوكلاً على ماله.. متوكلاً على عقله، ومثله كمثل الرجل الذي ذكرنا أنه متوكلاً على زمم.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنيتهم إلى المعلوم، وهم يظنون أنه - أي توكلهم - على الله، وعلامة ذلك - أي علامه أنهم متوكلون على المعلوم - أنه متى انقطع معلوم أحد لهم، حضره الهم، وحضره بُشُرٌ وخوفه، فعلم أن طمانته وسكونه لم تكن إلى الله تعالى!

#### الصورة الرابعة: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها

وما يشتبه فيه المحمود بالذموم اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها، فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد ورذدقة، فخلعها عدم اعتقاد القلب إليها مع قيامه بها، وتعطيلها إلغاؤها على الجواح.

## الصورة الخامسة: اشتباه الرضا عن الله بعزم المرء

أي اشتباه الرضا عن الله تعالى - بكل ما يفعله بعده مما يحبه ويكرهه - بعزمه على ذلك وحديث النفس به، وذلك شيءٌ والحقيقة شيء آخر.

وهذا أمر مهم جدًا: أن الرضا عن الله تعالى لا بد أن يكون حالةً للعبد، لا حديث نفسٍ، لأن يقول المرء: «إن شاء الله عندما يحدث لي كذا سوف أرضي عن الله»!!

وقد حكى عن أبي سليمان رحمه الله أنه قال: «أرجو أن أكون قد أعطيت طرفة من الرضا، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً». وهذا كلام الصوفية، ويرد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هذا عزمٌ منه على الرضا، وحديثٌ نفسٌ به، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء». .

فلا يشتبه عندك حاول الرضا بالعزم على الرضا، وإنما تتحقق في نفسك أن تنزل منزلة الرضا نفسها.. لأن تكون فيها، وليس قوله: «إن شاء الله لو حدث كذا سأرضي..» هو منزلة الرضا، ولكنه العزم وحديث النفس، ولكن قل: «أنا راضٍ اليوم وغداً بما فعله الله تعالى، وبما يفعله، وبم سيفعله»، وادع الله تعالى أن يتحقق لك هذا المعنى من معاني الرضا، واستمطر رحمة الله تبارك وتعالى أن يقيمك في هذه المنزلة، وأن يقيمك في هذا المقام من مقامات المحبة والقرب منه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

والسؤال الذي قد يسأله المرء في هذا الموضوع، هو: «لم أكن راضياً حتى يحدث الحدث، فكيف إذن يشتبه العزم وحديث النفس بالرضا؟».

والجواب له: أن الرضا منزلة عالية لا بد أن ينطلي العبد، بأن تكون نفسه منشرحةً بأوامر الله تعالى وأحكامه وقضائه، وقد نَزَّلها قبل أن يكون حديث النفس. وهذه منزلة عالية بعض الشيء لأنها أعلى من منزلة الصبر، فالرضا هو انتشار النفس وسكنها لمقدور الله تعالى، وهذا غير حديث النفس: أنه إن حدث شيءٍ فسيرضي، لا.. بل هو نَزَل منزلة الرضا نفسها، فهو في منزلة الرضا وليس في مرحلة أنه سيجاهد نفسه على الرضا، لا.. بل هو قد نَزَّلها مُنْشَرِحَ النفس بها، متعلقاً بالله تعالى في حدوث ما يحدث أو في منع ما يمتنع، وهو ساكنٌ تحت المقدور بما ينْزِل به من الله تعالى، لا يُحَدِّث نفسه بالرضا، بل قد نزل منزلة الرضا حقيقةً.

المهم أنَّ المرء نَزَل أو لم ينْزِل: هو راضٍ.. نَزَل أو لم ينْزِل: هو منْشَرِح بأمر الله تعالى.. نَزَل أو لم ينْزِل: هو ساكنٌ تحت مقدور الله تعالى.. نَزَل أو لم ينْزِل: فسُرُوره في موقع القضاء.. نَزَل به شيءٌ أو لم ينْزِل به شيءٌ: هو منْشَرِح بالله تعالى راضٍ به.

### الصورة السادسة: اشتباه عِلْم التوكل بحال التوكل

ومنه اشتباه علم التوكل بحال التوكل، فكثيرٌ من الناس يعرف التوكل وحقيقةه وتفاصيله، فيظن أنه متوكلاً، ولكنه ليس من أهل التوكل! فحال التوكل أمر آخر من وراء العلم به، فليس كُلُّ مَنْ عَلِمَ التَّوَكُّلَ صار التَّوَكُّلَ حَالًا لَهُ، أو مقاماً لَهُ، يعني أنَّ حاله لم يصبح من الأحوال الحسنة التي هو فيها متوكلاً على الله.

فلا بد للمرء بعد أن عَلِمَ التوكل أن يتحقق في نفسه حال التوكل. فالعلم شيءٌ، والعملُ به والحال شيء آخر. علم التوكل.. وتفاصيله.. ودرجاته.. وحالاته، هل

بمجرد عِلْمِ المرء هذا صار متوكلاً على الله، أم أنه لا بد بعد عِلْمِ التوكل أن يتحقق بحال التوكل؟ لأنه عند الامتحان يُكْرَمُ المرءُ أو يهان، فيَظُهرُ هل العِلْمُ الذي تعلَّمَ صار مقاماً له حقيقةً أم لا؟ هل صار حالاً له أم لا؟ لذلك يَشتبه!!

ومثالُ هذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودعائِها، وكمعرفة علم الخوف: فهل لو تعلَّمَ المرءُ محبة الله تعالى، وأسباب المحبة، ودعائي المحبة، ودرجات المحبة.. وكل هذه المعاني من معانٍ المحبة، صار مُحِبًا لله تعالى، وقدَّمَ محابَّ الله تعالى على جميع المحابِّ، وانتقل إلى هذه الحال التي تتبين فيها أعلى درجات الدين؟!

ومثال آخر: علم الخوف، فعلم الخوف شيءٌ وحال الخائف شيءٌ آخر، فنحن نعلم الخوفَ من الله تعالى، والخوف من الموت، والخوف من الحساب، والخوف من الخاتمة السيئة، والخوف من السابقة، والخوف من النار، والخوف من الحشر والبعث والصحف.. فهل ظهرت على الناس أحوازُ الخوف؟ وصار الخوف لهم حالاً يظهر عليهم في أحوازهم؛ من البكاء، والمسارعة إلى الله تعالى؟ ومن كذا وكذا.. مما يظهر على أحواز الخائفين؟ الحمد لله! ليس هناك من يبكي على حاله، ولا على أي شيء، فهذا حال مُدعٍ!

فهذا الباب يكثر فيه اشتباہ الدعاوى فيه بالحقائق، والعوارض بالمقالات، والآفات القاطعة بالأسباب المحصلة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والتوکل من أعمّ المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنی؛ لأنَّه يكثر فيها التعلق بأسماءٍ حُسْنَیَّةٍ كثيرةٍ؛ فلتتوکل تعلقاً باسمه الغفار، والتواب، والعفو، والرعوف، والرحيم، وله

تَعْلُقُ باسمه الفتاح، والوهاب، والرzaق، والمعطي، والمحسن، وله تعلق بأسماءٍ فيها خلاف بين أهل العلم: المُعِزُّ، المُذِلُّ، الحافظ، الرافع، المانع.. له تعلق بكل ذلك.

فهو من أوسع المقامات تعلقاً بـأسماء الحسنى من جهة توكله عليها، فله في هذه الأسماء تعلقٌ باسمه المعز والمذل، وذلك من جهة توكله عليه تعالى في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم من أسباب النصر، وله تعلق بـأسماء القدرة والإرادة، وله تعلق عامٌ بـجميع الأسماء الحسنى. وهذا فسره من فسره من الآئمة بأنه: «المعرفة بالله»، يعني كأنه المعرفة بـأسمائه الحسنى كافيةً، وإنما أراد أنه: بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل، فكلما ازدادت معرفة العبد بالله تعالى، ازداد توكله؛ لأنه عندما يعلم أن الله تعالى هو العالم، وهو القوي، وهو القادر تعالى، وهو الرءوف، وهو الرحيم.. كل ذلك يجعله متوكلاً عليه تعالى.

وهنا مسألة مهمة وهي: أن كثيراً من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله، يعني يظلم نفسه في قضية التوكل، كمن انصرف توكله إلى حاجةٍ جزئية استفرغ فيها قوة التوكل، وكان يمكنه أن ينالها بيسير شيءٍ، وتفریغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين والتأثير في العالم خيراً من ذلك. أي حَقَّ في نفسه فعلاً حقيقة التوكل، ولكنه صرف هذا التوكل إلى شيءٍ جزئيٍّ بسيط، كان يمكن أن يناله بأقل من ذلك في قوة توكله، ويصرف هذه القوة في التوكل لأعلى منها درجةً في مطلوبه من الله تعالى، كمن يصرف بعض همته وتوكله ودعائه إلى وجع يمكن مُداوَتَه بأدنى شيءٍ، أو إلى جوع يمكن إزالته بكتذا، إلى أعمال قليلة يمكن أن يقوم فيها بأدنى جهود، يصرف فيها هذا التوكل، ويصرف هذه القوة العظيمة في غيرها، والأفضل له أن يصرف توكله القوي في نصرة

الدين، وزيادة الإيمان، والعلم والتأثير في العالم، ومصالح المسلمين، وقمع المبتدعين.. إلى غير ذلك، حتى لا يكون قاصرَ الهمة في هذا التوكل، وحتى لا يصرف قوَّة التوكل إلى شيء يمكن أن يتحققه بأدْنِي بذل، وبأدْنِي مجهود، فيكون حينئذ مغبوًنا في هذا التوكل، مع أَنَّه حَصَّل في نفس الوقت حقيقة التوكل، وقوَّة التوكل، فيصرف هذه القوَّة - وهذه الحقيقة من حقائق الإيمان العليا - إلى أشياء دانية قليلة، كان يمكن أن يحصلها بأدْنِي

. شيءٌ



## القسم السادس

أسماء الله  
الله وآله وآل بيته



## مقدمة

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد..

فإنَّ أسماء الله تعالى المشرفة «المَلِكُ وَالْمَالِكُ وَالْمَلِيْكُ» من أعظم أسمائه الحسنی التي تجبر القلب والبدن والتوجه إلى الله تعالى، حيث يجد القلب ملِكًا قادرًا يقول للشيء «كُنْ» فيكون، يرکن إليه القلب ويصمد إليه ويعتمد عليه، فيملاه قوه وغنى عن الناس جميعاً ويحميه ويذود عنه و يجعله من جنده. وليس هو ملِكًا يحكم أو يملك فقط، بل له الملکوٰت والرزق والتصريف والإحياء والإماتة وإليه المصير والحساب والجزاء.

إنَّ ملِكًا من ملوك الدنيا يملك ويحكم قليلاً ثم يزول، ويكون مصيره إلى غيره.. إلى الله الملك الحق بِهِ الْحُكْمُ؛ إذ لم نسمع أن ملِكًا من ملوك الدنيا بعد فناء الناس قد عادوا إليه ليحاسبهم ويجازوهم ويقول «لمن الملك اليوم»، بل يقف الملوك كغيرهم يتظرون ما يُفعَل بهم، ومن ثمَّ كان للقلب ملِكٌ يدعوه ويُبَرِّه ويُفرِّه بالتوحيد والتعلق والثقة والتوكيل، فيتجزد حينئذ التوجه له والإقبال عليه والخوف منه والخشية له والرجاء فيه، يفنى عنده كل ملك، وأنه ليس هناك ملك على الحقيقة إلا الله بِهِ الْحُكْمُ. عندها يتجرد البدن من له الملك والخلق والأمر، فيطيعه وينفذ أوامره ويقدمها على النفس والأهل والمال، ويصبح من جنده المقربين ومن خاصة أوليائه الصالحين، يقدم محبه على كل المحابٍ، ويسارع إلى مرضاته بكل طريق، كما وَقَرَ في قلوب الصحابة من تسبيحه وحمده ومجده سبحانه: «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [التغابن: ۱]، فيلهجون بذكره وحمده لا يفترون عنه ولا يسامون من طاعته.. تَعِيْمُهُمْ وَقُرَّةُ أَعْيُنِهِمْ

ولذَّتهم وسعادتهم في قربهم من الملك والقيام بأمره، يعلمون أن كل شيء يقع في مملكته إنما هو بأمره، فُيحسُّون بِرَدِ اليقين والسكون تحت المقدور، لا يعترضون ولا يتشكرون، بل يفهمون من ذلك الحِكْمَ البالغة.

لما ذكرنا كان تفريغ هذا الدرس المهم من دروس فضيلة الشيخ محمد الدبيسي حفظه الله تعالى وعفا عنه، نصيفه إلى بقية الأسماء الحسنى المشروحة من قبل رجاء رحمة الله وتوحيده بما يرفع عن أمة محمد ﷺ شيئاً مما نزل بها، وذلك بالأخذ بأيدٍ الناس إلى معرفة الرب وتوحيده ومحبته وطاعته والقيام على أوامرها، وكذا نشرًا للبركة والعلم النافع بمعرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا. وما كان بعد ذلك من خطأ في باب النصح مع الإخلاص لله تعالى مفتوح..

نسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وناشره وقارئه والناظر فيه إنه سميع قريب.

مسجد الهدي المحمدى

الفصل الأول

معاني أسماء الله تعالى

«الملك و المالك و الملك»

ينبغي على أهل الإيمان المهتمين بمعرفة الرب ﷺ الاهتمام بأسماه الحسنة وصفاته العليا وأن يتعلمواها ويفهموا معانيها ويحفظوها، وأن يدعوا الله تعالى بها ويوحدوه بها. فمعرفة الله ﷺ بأسماه الحسنة هو دين الله تعالى، وهو أساس معرفتهم بربهم ﷺ.

ومن الأسماء التي تُصَفِّي القلب من الركون إلى غيره أو اعتقاد الملك والملائكة لسواء ما يترتب عليه الاتئمارات بأمره والانتهاء عن نهيه والمسارعة في مرضاته، هو: «الملك والمالك والمليك» ﷺ، فيكون المرء من جنده يعلم أن قوته به ومدده منه وحسابه عليه، فهو الذي يحفظ جنده وينصرهم ويُثبتُهم ويقوى عزائمهم ويدفع عنهم، فيوحدونه ويدعونه، مما يغير أحواهم ليصيروا من حزبه المفلحين وجنده الغالبين. كان هذا الدرس إِذَا لِيَحْمِلُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَقِّنُونَ إِلَى مَلِكِهِمْ ﷺ.

وأول ما نبدأ به أدلة هذا الاسم المشرف..

و«الملِكُ» و«الْمَالِكُ» و«الْمَلِيكُ»، هذه الأسماء الثلاثة قد وردت في القرآن الكريم.. فـ«الملِكُ» قد ورد في قوله ﷺ: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُوسُ الْسَّلَامُ» [الخشر: ٢٣]. وقد ورد «الْمَالِكُ» في قوله ﷺ: «مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ» [الفاتحة: ٤]، وفي قوله تعالى: «قُلْ لَّهُمَّ مَنِلَكَ الْمُلْكُ» [آل عمران: ٢٦].. و«الْمَلِيكُ» ورد في قوله سبحانه تعالى: «فِي مَقْعِدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ» [القمر: ٥٥].

## المعنى اللغوي

و«الملِكُ» معروف؛ فـ«الملِكُ» الله تعالى ملوكه وعظمته وسلطانه ﷺ، فعندما نقول: «ـملِكُ الله تعالى» نقصد بذلك هذه العظمة وهذا السلطان والعز الله جلّ وعلا.

و«الملُك» و«الملِك» و«الملِيك»؛ كلها بمعنى أنه ذو الملك بِهِ.

وجمع «ملِك»: أملاك، فهو مَلِك الأملاك بِهِ. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ»<sup>(١)</sup>. و«ملِيك» جمعها: مُلَكَاء، مثل: شَرِيك وشَرَكَاء. و«مَالِك» جمعها: مُلَّاك، وملَك. و«الملُكُ الْحَقُّ» يعني: الدائم، وليس ذلك إلا الله تعالى جَلَّ وعلا؛ قال تعالى: «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِرَبِّ الْجَمِينِ» [الفرقان: ٢٦].

والملوك تختص بملك الله تعالى؛ فلا يقال: «ملَكُوت فلانٍ»، وإنما يقال: «ملِك فلانٍ» أو «ملُك فلانٍ»؛ إن كان مَلِكًا يقال: «ملُك فلانٍ»، وإن كان يَمْلِك يقال: «مِلْك فلانٍ». فلا يقال «ملَكُوت» إذن إلا على ما يختص بالله تعالى.

و«ملَكُوت» يعني: مِلْك، وأضيفت إليها التاء كـ«رَحْمُوت» وـ«أَرَهُوبُوت». و«مَلَاكُ الأَمْرِ»: ما يعتمد عليه منه، و«القلب مَلَاكُ الجسد» يعني: ما يعتمد عليه الجسد وهو سلطانه. و«الإِمْلَاك» يعني: التزويع؛ «أَمْلَكُوهُ فلانةً» يعني: زَوْجُوهُ فلانة، فكانه صار مُتَمَلِّكًا هذه المرأة التي تزوجها.

و«تَمَلَّكَ فلانُ الشيءَ» أي: مَلَكَه فَهِرَا. وأما «الملُك» و«الملِك» و«الملِيك»، فمعناها: احتواه الشيء والقدرة على الاستبداد به، فـ«تَمَلَّكَ فلانُ شيئاً» يعني: احتواه لنفسه واستبد به وقدر على التصرف فيه.

و«المَمْلُوكُ» هو العبد، و«فلانٌ حَسَنُ الْمَلَكَةِ» يعني: حسن الصنيع إلى مَكَالِيكِه.

(١) رواه البخاري [٦٢٠] ومسلم [٢١٤٣] واللفظ له من حديث أبي هريرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و«أَخْنَعَ» أي: أَذَلَّ. وسيأتي شرح هذا الحديث في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

## معنى الملك في حق الله تعالى

ونذكر بعض المسائل حتى يتبيّن لنا معنى الملك في حق الله تعالى:

### ماهية الملك والتملك

اختلف العلماء في ماهية أو حقيقة «الملك» أو «التملك»، فقال بعضهم: إنه عبارة عن التصرف في الشيء، وعلى هذا يكون «الملك» من صفات الأفعال لله تعالى. وصفات الأفعال، يعني: ما يقوم به المولى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من الأفعال الاختيارية؛ كالتكلّم والنزول والمجيء وغير ذلك من الأفعال التي تقوم بالله تعالى.

ولو قلنا إنَّ حقيقة «الملك» القدرة نفسها على التصرف، أي بمعنى كون المالِك أو المالِك قادرًا، فنكون من صفات الذات؛ يعني: القدرة نفسها من صفات الذات، عندما يقال: «هذا الشخص قادر» تصبح هذه من صفات ذاته، أما لو قيل: «هذا الشخص يمشي»، فهذه من صفات فعله، يعني: ليست صفة ذاتية فيه من صفات الذوات.

صفات الأفعال تتعلق بما يقوم به المولى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من أفعال تليق بجلاله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ على حسب علو الذات له جلَّ وعلا.

وصفات الذات هي صفات للذات - كالحياة مثلاً - تتميز بها وتكون من لوازيم الذات نفسها.

## الملُك ليس إِلَّا لِلَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ

الملُك ليس إِلَّا لِلَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، هذه المسألة الأولى التي يجب أن نعتقدها في «الملُك» وفي كل الأسماء الحسنى. إذن ما نعتقد في كون الله تعالى ملِكًا ومالِكًا أنه هو الملِك على الحقيقة، وأنه يَمْلِك ولا يَمْلِك سواه، وإن كان هناك مَنْ يَمْلِك سواه فعلى الحقيقة إنما يملك منه يَتَمَلِّيك الله إِيَاه، سوأَةً كَانَ مُلْكًا أَمْ مِلْكًا؛ سوأَةً كَانَ مَالِكًا هَذِهِ الأَشْيَايَ يَتَصَرَّفُ فِيهَا فَهِيَ بِتَمْلِيكِ اللهِ لَهُ، وسوأَةً كَانَ مَلِكًا يَعْنِي: يَتَصَرَّفُ فِي الْخَلْقِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهِيِّ فَهُوَ أَيْضًا بِتَمْلِيكِ اللهِ إِيَاه، فَلَا لِأَحَدٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ مُلْكٌ وَلَا مِلْكٌ إِلَّا لِلَّهِ مُلْكُ الْعَالَمِينَ.

إذن فالعبد لا يملك شيئاً، بل الملك الحقيقي لله تبارك وتعالى، وإنما الله جل جلاله وعلا أثبت لبعض عباده اختصاصاً ببعض الأشياء؛ كمُلْكِ سليمان مثلاً أو ما ذكر الله تبارك وتعالى في السفينة: «وَكَانَ وَرَآءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصِّبًا» [الكهف: ٧٩]، لذلك جاز أن يطلق «الملُك» على غير الله تعالى ولكن ليس على الحقيقة؛ لأنَّ المَالِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ، لأنَّ المتصرف على الحقيقة في الوجود هو الله تعالى، والمَالِكُ أَبَدًا وَأَزَلًا هُوَ اللهُ، والمَالِكُ الذي أَنْشَأَ الْمَلِكَ وَأَقَامَهُ هُوَ اللهُ تعالى، وغَيْرُه زَائِلٌ، فَإِنْ مَلِكَ شَيْئًا فَبِتَمْلِيكِ اللهِ لَهُ، وإنْ قَدَرَ عَلَى شَيْءٍ فَبِإِقْدَارِ اللهِ لَهُ ثُمَّ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَفْنِي وَيَبْقَى مُلْكُ اللهِ تَعَالَى، وَيَبْقَى كَذَلِكَ مُلْكُ اللهِ تبارَكَ وَتَعَالَى لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَهُوَ يَمْلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهَا.

فهذا الكلام ينبغي أن يفهم على هذا النحو؛ لأنَّه بَعْدَ ذَلِكَ يَعْلَمُ الرَّءُوفُ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَتَصَرَّفُ فِي شَيْءٍ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِإِقْدَارِ اللهِ لَهُ؛ حِينَئِذٍ يُنْسَبُ الْمَلِكُ وَالْمَلْكُوتُ وَالْتَّمْلُكُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَإِنْ مَلِكَ الرَّءُوفُ شَيْئًا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا يَمْلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنْ مَلِكَ الدُّنْيَا كَلَّهَا فَإِنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْآخِرَةَ؛ لِذَلِكَ قَالَ اللهُ تبارَكَ وَتَعَالَى فِي

الآخرة: «إِنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ يَوْمَئِيلٰهٗ» [غافر: ۱۶]؛ ويقول ﷺ في الحديث القديسي: «أَيْنَ مُلْكُ الْأَرْضِ؟»<sup>(۱)</sup>، والإجابة في قوله تعالى: «إِنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ يَوْمَئِيلٰهٗ إِلَوَاحِدٌ الْقَهَّارٌ» [غافر: ۱۶].

علمنا - كما سند ذكر ذلك بالتفصيل لاحقاً إن شاء الله تعالى - كيف يرکن المرء إلى الله تعالى وهو المالك على الحقيقة؛ وكيف يوحده ﷺ بهذا الاسم المشرف؛ لأنَّه لا يتصرف في هذا الملك إلا هو... ولا يملك هذا الملكوت إلا هو ﷺ؛ فيخلو قلبه حينئذٍ من التذلل للمخلوقين، والمليل لهم والطلب منهم، وإنما يكون قلبه ممتلئاً من ملك الملوك، وإذا أراد شيئاً توجه إليه ﷺ، فهو الذي يعطي ويمنع، قال تعالى: «قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي  
الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعْزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْذِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [آل عمران: ۲۶]، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - شرح هذه الآيات.

### أيهما أبلغ "الملِك" أم "المالِك"؟

اختلاف العلماء في أيهما أبلغ «الملِك» أم «المالِك»؟ ..

قالوا «الملِك» أبلغ من وجِهٍ، و«المالِك» أبلغ من وجِهٍ؛ «الملِك» يحكم ويتصرف ويأمر في كل أحد، أما المالك فإنه يَمْلِكُ ولا يَحْكُمُ ولا يأمر ولا يتصرف، ومن ناحية أخرى: «المالِك» يَمْلِكُ، و«الملِك» قد لا يَمْلِكُ، فيكون من هذه الوجهة «مالك» أبلغ،

(۱) متفق عليه من حديث أبي هريرة رض مرفوعاً إلى النبي ﷺ: البخاري [٦٥١٩]، ومسلم [٢٧٨٧]. ونماهه عند الإمام مسلم: قال رسول الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلْكُ الْأَرْضِ؟». وفي رواية أخرى عند الإمام مسلم أيضاً [٢٧٨٨]: «..أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

ومن الوجهة الأخرى «الملِك» أبلغ، وكلا الوصفين ثابت لله تعالى؛ فهو يَمْلِك الأرض والسماءات والجبار وملك الدنيا والآخرة والناس ومن فيها؛ لأنَّه الخالق وفي نفس الوقت هو المُتَصَرِّف في مُلكه والأمر الناهي بِهِ فيه.

واستطرد العلماء في ذِكر الأدلة على أنَّ «المالِك» أبلغ، أو أنَّ «الملِك» أبلغ وكذا وكذا، وحاصل هذا الكلام ما ذكرناه.

أمَّا «المليِّك» فلا خلاف أنه أبلغ؛ لأنَّ «المالِك» و«المليِّك» كـ«النَّاصِر» و«النَّصِير»، فيكون «المليِّك» من صيغ المبالغة في «الملِك»، و«المليِّك» هنا هو الذي يَمْلِك ويحكم، أمَّا «الملِكُ» فإنه يَحْكُم وقد لا يَمْلِك شيئاً، و«المالِك» يَمْلِك ولا يَحْكُم، قد يَمْلِك لكنه لا يأمر ولا ينهى، أمَّا «المليِّك» فإنه يَمْلِك ويَحْكُم في نفس الوقت.

وأمَّا «مَالِكُ الْمُلْكُ» فهو الغاية في المبالغة؛ لأنَّه يأخذ من «مَلِيك» و«مَلِك» أقصى ما فيهما من المبالغة.

**«الملِكُ» الحقُّ هو الله سبحانه وتعالى**

قال تعالى: **«فَتَعَلَّمَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ»** [طه: ١١٤].

«الملِكُ الحقُّ» هو الغني مُطلقاً في ذاته وفي صفاتِه عن كلِّ ما سواه، ويحتاج إليه كلِّ ما سواه في ذاته وصفاته احتياجاً إما بغير واسطة وإما بواسطة، فكلِّ ما سواه يحتاج إليه من جميع الوجوه بِهِ.

وهو جَلَّ وعلا - وهو معنى الملك الحق - لا يحتاج إلى أحد وإنما هو يَمْلِك كلَّ شيء، وكلَّ شيء إليه فقير، وكلَّ شيء في قبضته، وكلَّ شيء مملوك له، وكلَّ شيء يتصرف

فيه بِقَدْرَتِهِ وقوته، وكل دابة هو آخذ بناصيتها بِنَاصِيَّتِهِ؛ له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين <sup>(١)</sup>.

«الملِك»<sup>(٢)</sup> : هو الذي يستغنى في ذاته وصفاته عن كل موجود؛ بل لا يستغنى عنه موجود في هذه الحياة في كل شيء؛ إذ كل شيء منه، ولو منع أي شيء فهو المانع

(١) فائدة: وهذه المسألة تحتاج إليها في الأسماء الحسنى التي ندعو الله تعالى بها، كيف يدعو الإنسان ربه بِهِذَا الاسم المشرف دعاء المسألة ودعاء التوحيد. وكيف يأخذ بحظه من هذه الأسماء. كيف يعلم أن «الملِك» هو الله تعالى على الحقيقة، وأن الفقير المحتاج هو هذا المرء على الحقيقة فِيَنْزُلُ نَفْسَهُ هذه المترلة من ربه، ويتزل نفسه هذه المترلة من الخَلْقِ فلا يرى لنفسه لا مُلْكًا ولا مِلْكًا ولا سلطاناً ولا يرى لنفسه أمراً ولا نهياً، ولا يرى لنفسه قدرة ولا تصرفاً، ولا يرى ذلك كله إلا بالله؛ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: يعلم العبد أنه عبد، ويعلم في نفس الوقت أن له ربّا ملكاً هو الذي يُسِيرُهُ، وهو الذي يُضْرِفُهُ، وهو الذي يُقْدِرُ عليه، وهو الذي يُعْطِيهِ وَيَمْنَعُهُ، وهو الذي يرفعه ويخفضه، وهو الذي يُعْزِّزُ وَيُذْلِّ، ويعطي الملك من يشاء وينزعه من يشاء بِهِ. وهذا هو المقصود الذي يجب أن تعلمه القلوب وأن تميل إليه، فيخرج من هذه القلوب رعونتها، وينخرج منها عُجُبُها، وينخرج منها كِبْرُها، وينخرج منها ما كان فيها من بقية سلطان وجاه ونزعه وتطلع واستعلاء على حَلْقِ الله تعالى، فيرى نفسه على الحقيقة - كما أشرنا - فقيراً محتاجاً مملوكاً لغيره؛ لا يحسن التصرف ولا يملك التصرف ولا يقدر على شيء إلا أن يشاء الله بِهِ ذلك، حيثذا يكون قد سار على قدم العبودية الله تعالى وخرج عن شطط النفس وعن هواها وكبرها وميلها إلى الآفات وإلى الصفات المرذولة التي يجب أن ي jihad المؤمنون أنفسهم على التخلص منها حتى يكونوا عبيداً مملوكين حَقَّا الله تعالى. وللتوضّع في هذا المعنى المهم - معنى العبودية لله تعالى - أفرد المؤلف سلسلة من الخطب بعنوان «العبودية»، وهي متوفّرة على شبكة «الإنترنت»، فارجع إليها للاستفادة.

(٢) انظر: المقصد الأسمى للإمام الغزالى بِحَثَّتِهِ، بتصرف كثير جداً. ص ٥١، ٥٠ - مطبعة الصباح،

دمشق - الطبعة الأولى - سنة ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م.

ولا معطي لما منع، ولو أعطى فلا يستطيع أحد أن يمنع؛ لأنَّ المعطي بِهِ فلا يمنع أحدٌ  
عطاءه.

«الْمَلِكُ» إذن لا يستغني عنه شيءٌ في شيءٍ ..

وانظر إلى نفسك لا تستغني عن الله تعالى؛ لا في وجودك من العدم ولا في مشيك  
ولا في نظرك، ولا في سمعك ولا في كلامك ولا في قوتك ولا في ذرة من ذرات نفسك؛  
لو وقفت ذرة من هذه الذرات ما يستطيع أحد أن يحركها ويُخْيِّلُها مرة أخرى إلا هو بِهِ؛  
ففي كل ذرة من ذراتك الظاهرة والباطنة أنت خاضع مملوك للرب جلَّ وعلا، إنْ  
حرَّكَها فلا مُوقِفٌ لها، وإنْ أحياها فلا يستطيع أحد أن يذهب بها، لذلك لا يستغني عنه  
موجود في شيءٍ؛ لا في ذاته ولا في صفاتِه ولا في وجوده ولا في بقائه، بل كل شيءٍ  
وجوده منه بِهِ، فهو الذي أوجد كل شيءٍ كما قال بِهِ عن نفسه: «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ  
ثُمَّ هَدَى» [طه: ٥٠]. وكل شيءٍ سواه فهو له، مملوك الله تعالى في ذاته وصفاته، لا يستطيع  
أحدٌ أن يخرج عن ملْكِه، في النهاية يقول له بِهِ: «مُتْ»، فَيَمُوتُ! لا يستطيع أحدٌ لو جاءه  
ملْكُ الموت أن يقول: «لا.. لن أموت»! ..

فدلَّ ذلك على أنه قد كتب بِهِ الفناء على الخلق كافة مما يدلُّ على القدرة التامة  
والتصرُّف التام والملك والملك التامين، والسلطان التام الله جلَّ وعلا، وكل شيءٍ سواه  
فهو له مملوك في ذاته وفي صفاتِه، وهو - أي المولى - «الْمَلِكُ» بِهِ «مَالِكُ الْمُلُكُ»، مُسْتَغْنٌ  
عن كل شيءٍ، فهذا هو الملك المطلق، وهذا هو الملك المطلق.

(تنبيه) لا يتصور العبد أن يكون ملِكًا مُطلقاً:

لا يتصور أبداً أن يكون العبد كذلك، فإنه لا يستغني عن كل شيء؛ من الذي يستغني مثلاً عن الأكل والشراب واللبس والمشي والركوب؟! فهو فقير لمن يأتيه بما يلبس، وفقير لمن يأتيه بما يأكل، وفقير لمن يساعدة في أن يركب وينزل، وفقير لمن يعالجه، وفقير لمن يعمل عنده ليعطيه في النهاية مالاً، فقير في كل شيء، فإنَّ المرء أبداً فقيرٌ إلى الله تعالى وإن استغنى عن سواه؛ يعني أنه حتى لو استغنى المرء عن سواه فإنَّه يغناه الله له، وبإعطاء الله إياه. لو استغنى المرء عن الناس في بعض الأشياء والأمور ولم يخُتَّج إليهم تراه قد استغنى عنهم بذاته أم بما أعطاه الله تعالى؟ بما أعطاه الله تعالى لا شك؛ لأنَّه لو حُرِمَ ذلك أو أخذَ الله تعالى منه ذلك فلا شك سيعود محتاجاً إلى هؤلاء الذين يمكن أن يفيدوه فيه.

علم المرء إذن أنه فقير ومحاج - وهذه المسألة هي التي نريد أن نهتم بها - وأنه لا يملك شيئاً وأن المالك له هو الله تعالى، وأنه الحق مستغنٌ عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه، وكل شيء في قبضته يملكه ﷺ. فحمله ذلك على معرفته بربه وتعلقه به وتوحيده إياه، وعدم الالتفات إلى العبيد الزائلين، فإنْ دعا دعاء ربِّه.. وإن طلب فمه.. وإن أخلص فله، ينكسر بين يديه ليُجبره.. يفتقر إليه ليغنيه.. يذلُّ له ليعزه، صار عبداً قد عرف له ربُّا يصمد إليه، لا يدخل عليه إلا بالإفلاس الصرف والفقر المحض وهو حقيقة العبودية.

الفصل الثاني

مُلْكُ اللهِ تَعَالَى

## حقيقة الملك<sup>(٢)</sup>

إن حقيقة الملك في قول الله تعالى: «قُلْ أَللّٰهُمَّ مَنِلَكَ الْمُلْكُ» [آل عمران: ٢٦] تتم بالعطاء والمنع، فلا يكون ملكاً إلا أن تتحقق فيه حقيقة الملك بأن يكون هذا الملك قادرًا على أن يعطي وأن يمنع، وأن يكرم هذا، وأن يذلَّ من يليق به الذُّلُّ، وأن يُهين هذا، وأن يعزَّ من يليق به العز، وأن يرفع هذا وأن يخفض هذا، وأن يقرب هذا وأن يطرد هذا، وأن يُثيب المحسن وأن يعاقب على الخطأ والمعصية، وأن يغضب ويرضى، وأن يُؤْتَى هذا وأن يُعْزَلْ هذا؛ قال تعالى:

«قُلْ أَللّٰهُمَّ مَنِلَكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُذْلِّي مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِّي لَيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِّي نَهَارَ فِي الْلَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [آل عمران: ٢٦، ٢٧]. هذه حقيقة الملك؛ من الذي يُدْخلُ الليلَ في النهار ويُخْرِجُ النهارَ من الليل؟ ومن الذي يُحيي ويميت ويعطي ويمنع ويولي ويعزل، ومن الذي يرزق ويمعن؟ لا أحد غيره بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، ولم يَدْعِها أحدٌ في الدنيا من لَدُنْ آدمَ إلى أن تقوم الساعة إلى أن يقول بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ: «إِنِّي مِنْ الْمُلْكِ الْيَوْمَ» [غافر: ١٦].

وقال تعالى: «يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانٍ» [الرحمن: ٢٩]، و شأنه هذا حقيقة ملكه. ومن شأنه بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٣) :

(١) انظر بتصرف كثير: طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام ابن القيم، ص ١٥٩، دار ابن رجب.

(٢) انظر: شفاء العليل للإمام ابن القيم بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، بتصرف كثير جدًا.

يغفر ذنباً، ويُرْجِعَ كَرْبَلَةَ<sup>(١)</sup> ويُكْشِفُ عَمَّا، وينصر مظلوماً ويأخذ ظالماً، ويفك عانياً - يعني: يفك أسيراً - ويعني فقيراً، ويُخْبِرُ كسيراً، ويُشْفِي مريضاً، ويُقْيلُ عسراً، ويُسْتَرِ عوراً، ويُعْزِلُ ذليلاً، ويُذْلِلُ عزيزاً، ويُعْطِي سائلاً، ويُدْهِبُ بدوله، ويأتي بأخرى، ويُداوِلُ الأيام بين الناس، ويُرْفعُ أقواماً ويَضَعُ آخرين، ويُسْوقُ المقادير التي قَدَرَها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقتها؛ يسوقها إلى مواقتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه، فهو المُتَصَرِّفُ في المالك كلها وحده تَصْرُفُ مَلِكٍ قادرٍ قاهرٍ عادلٍ رحيمٍ تامٌ المُلْك لا يُنْازِعُه في ملكه منازعٌ، ولا يُعارضه فيه معارضٌ، وتَصْرُفُه في المملكة دائراً بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، ولا يخرج تَصْرُفُه عن ذلك.

هذا تقريب لحقيقة الملك على مبلغ كلام الأئمة؛ أمّا حقيقة الملك نفسها فلا يصل إليها أحد.

(١) أخرج ابن ماجه [٢٠٢]، وابن حبان [٦٨٩]، وغيرهما عن أبي الدرداء بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ» [الرحمن: ٢٩]، قال: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذنْبَنَا، وَيُرْجِعَ قَوْمَنَا، وَيَعْلَمَ أَخْرِينَ». والحديث صححه الشيخ الألباني مرفوعاً في (ظلال الجنّة) برقم [٣٠١]. وأخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم موقعاً على أبي الدرداء في (كتاب التفسير - سورة الرحمن) كما في (الفتح) [٧٢٨/٨]، دار الحديث - سنة ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

## سَعَةُ مُلْكِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وهي مسألة مهمة: أن الله يَعْلَمُ يملك ملکاً لا نهاية له، والذي يراه المرء في ملک الله تعالى إذا قاسه إلى ما يملكه الرب جل جلاله وما يمكن أن يحد ثه يَعْلَمُ ويخلق به «كُنْ» فيكون كالعدم، فلو قال يَعْلَمُ ملکه كُنْ فيكون يمكن أن يكون هذا الملک على هذا الحال ملايين المرات مثلاً أو أكثر، فملکه يمكن أن يكون مثل هذا الملك إلى ما لا نهاية في ملکه يَعْلَمُ، وهذا الملك الذي نحياه اليوم متناهٍ صغير؛ والمتناهي إلى اللامتناهي كالصفر؛ كالعدم، فملکه سُبْحَانَهُ تعالى لا متناهي، وأن الحادث المتناهي لا يوازي هذا اللامتناهي، بل هو ذرة في هذا المتناهي... بل هو لا شيء في هذا الملك؛ هذا الملك الذي نراه ملك محدود متناهٍ قد وصل إليه بصر الإنسان مثلاً أو علمه أو كذا وكذا؛ أمّا الملك الذي لا يعلمه أحد فهو لا متناهٍ، لا يحيط يَعْلَمُ بـ كُنْهِه ولا بقدره ولا بشيء منه أحد على الإطلاق في الأولى والآخرة إلا هو يَعْلَمُ.

الله يَعْلَمُ ملک جميع الموجودات؛ ولأنه يستقصي المرء في شرح ملکه يقتضي ذلك شرح جميع الموجودات حتى يستطيع المرء أن يستقصي أن الله تعالى يملك كذا وكذا. وجميع الموجودات التي أشرنا إليها كالذرة الصغيرة في ملکه يَعْلَمُ، كالعدم كما أشرنا، ومع ذلك إذا أراد المرء أن يشرح جميع الموجودات؛ هل يستطيع أحد أن يشرح جميع الموجودات؟! فلو اجتمعت الدنيا كلها من أهلها إلى آخرها في هذه الأيام من أيام العلم لما استطاعت أن تفسر لنا الموجودات، أو أن تحيط لنا بموجودات الله، أو تبين لنا موجودات الله تعالى في الأرض فقط، ولا في البحر، ولا في السماء فضلاً، عن بقية ملک الله تعالى وموجوداته!

وتلك المسألة نذكرها حتى يعلم المرء قدرة الله تعالى وقوته وملكه. فإذا أراد المرء أن يرجوه علم أنه يرجو ملكاً قوياً قادرًا مقدارًا متصرّفًا يقول للشيء كن فيكون، وأنه لا يدخل على عباده، ولا يمنع عنهم عطاءه ولا رِفْدَه ولا معونته يَعْلَمُ متى تعلقوا به وطلبوها منه ولم يلتتجئوا إلى غيره.

ثم من الذي يمكنه أن يشرح أحوال جميع المحدثات التي خلقها الله تعالى؟ نحن في الأمور البسيطة؛ في الهندسة أو في الطب أو أي شيء من أمور الدنيا لا يستطيع أن يحيط بها أحد منها بلغ، لا يستطيع أن يحيط بكتابها فضلاً عن أن يقرأ هذه الكتب، فضلاً عن أن يشرح هذه الكتب؛ من الذي قام بذلك؟ هل سمعنا بأحد قام بمثل ذلك في شيء صغير متناهٍ؟!

بل من الذي يمكنه أن يعرف آثار مُلْك الله تعالى في تخليق جناح البعوضة؟ ومن الذي يمكن أن يطلع على آثار مُلْك الله تعالى في ذلك وقوته وقدرته؟

### شأن "الملك" يَعْلَمُ كما يذكر القرآن الكريم<sup>(١)</sup>

والمتأملون لخطاب القرآن الكريم يجدون هذا المعنى للملك لله تعالى؛ تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله، وله الحمد كله يَعْلَمُ، أَزْمَةُ الأمور كلها بيده؛ كل الأمور ومصدرها منه، ومردها إليه، مستوىً على سرير ملكه يَعْلَمُ لا تخفي عليه خافيةٌ في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلاناتهم، منفردًا بتدبير المملكة

(١) انظر: الفوائد، للإمام ابن القيم جَلَّهُ اللَّهُ عَزَّلَهُ، بتصرف كثير جدًا. ص ٣٠ - دار العقيدة - الطبعة الأولى -

يسمع ويرى ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق بِهِ؛ ليس عنده ليل ولا نهار جلّ وعلا وإنما يقول: «كُنْ».. فيكون، إِسْعَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانِ [الرحمن: ٢٩]. ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي ويقدّر ويقضي ويُدَبِّر، الأمور نازلة من عنده دقيقة وجليلها، يعني: صغيرها وكبيرها، والأمور كلها صاعدة إليه؛ هذا «الملك» بِهِ لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يُشَيِّ على نفسه بِهِ؛ لأنَّ «الملِكُ» الذي من ملْكِه ما ذكرنا، فتجده يُشَيِّ على نفسه وَيُمَجِّدُ نفسه ويُحَمِّدُ نفسه، وينصح عباده، ويدُلُّهم على ما فيه سعادتهم فلا حهم، ويرغبهم فيه، ويُحَذِّرُهم ما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسائه وصفاته، ويتحجب إليهم بنعمة وألائه، فيذكرُهم بنعمته عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها - يعني: يأمرهم بما يأخذون به تمام هذه النعم من الله تعالى - ويُحَذِّرُهم من نقمته، ويذكرُهم بها أعداؤهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدّ لهم من العقوبة إن عصوه، وينبئُهم بِصُنْعِهِ في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء، ويُشَيِّ على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذمّ أعداءه بسيئ أعمالهم وقبح صفاتهم، ويُضرِّب الأمثال، وينوِّع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه بأحسن الأجرة، ويُصدِّق الصادق ويُكذِّب الكاذب، ويقول الحقُّ ويهدي السبيل بِهِ، ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعمتها، ويُحَذِّر من دار البوار، ويذكر بعذابها وقبحها وألامها، ويذكر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه حتى يخشعوا ويخضعوا ويطيعوا ويرجعوا وينكسروا ويدلوا الله الخالق بِهِ، وأنهم لا غَنِّي لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقيرٌ إليه بنفسه بذاته، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فيما فوقها إلا بفضله ورحمته بِهِ، ولا ذرة من الشر فيما فوقها إلا بعدله وحكمته،

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه بألطف عتاب؛ يعني: يعاتب أحبابه لما ينصرفون عنه ويغفلون عنه ويزهدون في الآخرة ويتوسعون في الدنيا فإذا فعل المرء ذلك وجد لطيف العتاب من الله تعالى بأن يرده إليه وأن يُوقنه مرة أخرى على بابه، وأنه مع ذلك مُقيلاً لعثراتهم، وغافرٌ ذَلَّاتِهِمْ، ومقيم أعدارهم؛ يعني: إذا تعسروا ووقعوا أفالهم بِكَلَّهُ وأقامهم مرة أخرى وشرح صدورهم، وإذا زلوا وقعوا في المعصية غَفَرَ لهم، وإذا اعتذروا إليه قبل عذرَهُمْ، وإذا فسدوا أصلاحَهُمْ، والدافع عنهم - كما قال بِكَلَّهُ عن نفسه: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ إِمَانُهُمْ أَكْبَرُ» [الحج: ٣٨] - والمحامي عنهم؛ أي يحميهم بِكَلَّهُ، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والمُؤْمِنُ لهم بوعده وأنه ولِيُهُمُ الْذِي لَا وَلِيَّ هُمْ سواه، فهو مولاهم الحق ونصيرهم على عدوهم «فَيَعْمَلُ الْمَوْلَى وَيَنْعَمُ النَّصِيرُ» [الحج: ٧٨].

إِذَا شهَدَتِ الْقُلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ مَلِكًا عَظِيمًا رَحِيمًا جَوَادًا جَمِيلًا هَذَا شَأنُهُ فَكِيفَ لَا تَجْهِيْهُ؟! وَكِيفَ لَا تَتَنَافَسَ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ؟! وَكِيفَ لَا تُنْفِقَ أَنْفَاسَهَا - نَفَسًا نَفَسًا - فِي التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ بِكَلَّهُ؟! <sup>(١)</sup> وَيَكُونُ جَلَّ وَعْلَى أَحَبِّ إِلَيْهَا - إِلَى هَذِهِ النُّفُوسِ - مِنْ كُلِّ مَا سَوَاهُ بِكَلَّهُ، وَأَنْ يَكُونَ رَضَاهُ جَلَّ وَعْلَى آثَرِ عِنْدِهَا مِنْ رَضْيٍ كُلِّ مَا سَوَاهُ، يَعْنِي كِيفَ لَا يَؤْثِرُ رَضَا رَبِّهِ جَلَّ وَعْلَى - رَضَا مَحْبُوبِهِ هَذَا الْمَلِكُ الْجَمِيلُ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ الرَّحِيمُ الْبَرُ - عَنْ كُلِّ رَضَا؟!

(١) فلا تنفق هذه القلوب التي شهدت مليكتها على هذا الحال المعظّم أنفاسها في الدنيا وفي الشهوات والملذات والغفلات، وتُضيّع الأوقات في المعاصي والمكرهات. فإن فَعَلْتُ ذلك ف فهي لم تشهد ذلك على الحقيقة.

كل هذه الأمور ينبغي أن يحفظها كُلُّ منا، كيف لا يحبُّه كل أحدٍ مِنَّا؛ هذه الأولى؟!  
وكيف لا يتنافس في القرب منه؟ هذه الثانية. والثالثة: كيف لا ينفق أنفسه في التودد  
إليه؟ والرابعة: أن يكون أحبُّ إليه من كل ما سواه، والخامسة: أن يكون رضاه آثر  
عنه من رضا كل ما سواه، والستادسة: وكيف لا تلهج بذكره؟! هذه النفوس المحبة،  
ويصير حُبُّه والشوقُ إليه والأنسُ به - لا الأنس بالدنيا واللذات والمآل والجاه والأولاد  
والشهوات والسلطان - هو غذاءها وقوتها ودواعها بحيث إن فقدت النفس ذلك  
فسدت وهلكت ولم تنتفع ب حياتها.

### معاقد مُلْكَ اللَّهِ تَعَالَى

ذكر الله تعالى معاقد مُلْكِه خمسة أنواع في قوله تعالى: «قُلْ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي  
الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ تُولِجُ الْأَيَّلَ فِي الْهَمَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي الْأَيَّلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ  
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيَّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [آل عمران: ٢٦، ٢٧].  
و«معاقد مُلْكَ اللَّهِ تَعَالَى» يعني الأمور الواضحة التي يُعَدُّ عليها، يعني: الأمور  
المهمة التي ينبغي أن ينظر إليها المرء.

أو لها: أَنْ إِيقَاءَ الْمُلْكِ وَنَزْعَهُ لَهُ

وهذا يدخل فيه مُلْك الدين ومُلْك الدنيا؛ لا يستطيع أحدٌ أن ينزع ملْكًا أو أن  
يعطي ملْكًا إلا أن يكون الله تبارك وتعالى هو المعطي له والمانع له؛ لأنَّه صاحب المُلْك.

فلا يستطيع أحد أن يحصل شيئاً بنفسه، فمن الممكن أن يكون ملكاً اليوم وفي اليوم الثاني يذهب ملكه ولا يكون ملكاً؛ وإن بقي ملكاً فمن الممكن أن يأتي ملك الموت فياخذنه وتنتهي حياته ومملكته وكل شيء، فمن الذي دام له ملك؟ ومن الذي وسع مملكته الدنيا مثلاً بأسرها؟ ومن الذي إن وسع مملكته الدنيا بأسرها دام له مملكته مائة مائة سنة مثلاً فضلاً عن أن يدوم له أبداً؟

إذن إبقاء الملك ونزعه من معاقده ملك الله تعالى، ويدخل فيه ملك الدين ومملوك الدنيا..

فاما مملوك الدين يدل عليه قوله تعالى: «يُضْلِّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا» [البقرة: ٢٦]، من الذي يستطيع أن يملك الدين؟ من الذي يستطيع أن يهدي أحداً أو أن يضل أحداً أو أن يدخل الإيمان في قلب أحد أو أن يخرجه من قلب أحد؟ لا يستطيع ذلك أحد غيره بَلْ، فكل ذلك تصريف الله تبارك وتعالى وقدرته على حسب الحكمة والعلم منه جل وعلا.

واما مملوك الدنيا فيدل عليه قوله تبارك وتعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَاتِئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَتِ لِيَبْلُوُكُمْ فِي مَا أَءَيْتُكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» [الأనعام: ١٦٥]

والمعنى أنه جعل البعض خادماً وجعل البعض مخدوماً، كأنه قيل: يا إلينا ما الحكمة في أن ترفع أقواماً وأن تضع آخرين، وأن تجعل هذا خادماً وهذا مخدوماً؟

والجواب في قوله تعالى: «لِيَبْلُوُكُمْ فِي مَا أَءَيْتُكُمْ» يعني: ليختبركم فيما آتاكم: فإن كان المرء سيداً كيف يفعل في ملكه؟ وإن كان خادماً كيف يفعل في أمر الله له؟ وهل يتغير من

كونه خادماً إلى كونه مخدوماً أو من كونه مخدوماً إلى كونه خادماً؟ هل سيتغير على الله تعالى في عبادته وتوحيده ومحبته والقيام بأمره ونفيه ألم لا؟

فإنْ تَرَدَّ هَذَا الْخَادِمُ أَوْ هَذَا الْمَخْدُومُ عَلَى مَلْكِ اللَّهِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ»، وَإِنْ كَانَ مطِيعًا فَكَيْفَ صَفْتُهُ؟ قَالَ: «وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ»، أَيْ: لَغَفُورٌ فِي الدِّينِ، رَّحِيمٌ فِي الْعُقُوبِيَّةِ. هَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْأَوَّلُ فِي مَعَاكِدِ مَلْكِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِبْقَاءُ الْمَلَكِ وَنَزْعُهُ وَهُوَ فِي الدِّينِ وَالدِّينِ وَأَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ لَهُ كَمَا عَلِمْنَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

### ثانيها: مُلْكُ الْإِعْزَازِ وَالْإِذْلَالِ

ثاني هذه المعاقد أنَّ الله تعالى يملك العز والذل، يقول ﷺ: «وَتَعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ» [آل عمران: ٢٦]، ونظيره أيضًا قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» [المافقون: ٨]، وكأن العزة إنما تكون للمؤمنين فيعزهم بطاعته، وكذلك يعزهم في الدنيا ويرفع مرتبهم ويرفع رايتهم، وكأن الذلة كذلك تكون في معصية الله تعالى، وكل من عصى الله تعالى أذله الله تبارك وتعالى، ورأى نفسه ذليلاً للعصية التي عصى الله بها وللشهوة التي قدّمتها على الله تعالى؛ تراه عبداً للشهوة، تراه عبداً للهوى، تراه عبداً للدرهم والدنيا<sup>(١)</sup>، تراه عبداً للدنيا وكلما أمرته الدنيا بشيء أطاعها، وكلما قلت منه بكى عليها

(١) قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطْيِيفَةِ وَالْخَمِيسَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ». أخرجه الإمام البخاري في صحيحه [٦٤٣٥]، وفي رواية أخرى له أيضًا [٢٨٨٧]: «تَعِسَّ وَأَنْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا أُنْتَقَشَ»، قال الحافظ في شرح هذا الحديث ما حاصله: [«تعِسَّ وَأَنْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا أُنْتَقَشَ»] أي: طالبه الحرير على جمعه، القائم على حفظه، فكانه لذلك خادمه وعبدته. و«القطيفية» هي الشوب الذي له حمل. و«الخميسة» الكساء

وحزن لها وحاول أن يحصلها وهكذا، لذلك قال ﷺ: «وَلِلَّهِ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»، فله الإعزاز ﷺ، وله الإذلال؛ في الطاعة - يعني: في الدين، وكذلك في الدنيا.

### ثالثاً: تقليب الليل والنهار

قال تعالى: «تُولِّجُ الْأَيَّلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِّجُ الْنَّهَارَ فِي الْأَيَّلِ» [آل عمران: ٢٧].

فإن استطاع أحد أن يقول أنه يملك شيئاً في الدنيا أو كذا أو كذا نقول له: نعم أنت تملك ذلك في الدنيا؛ لكن هل تملك تقليب الليل والنهار؟ كما قال إبراهيم عليه السلام للنمرود: «قَالَ رَبِّهِ يَا مَلِكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّكَ لَكَ مِنَ الْمَغْرِبِ» [البقرة: ٢٥٨]؛ لذلك هذه من معاقد ملك الله تعالى التي لا يستطيع أحد يدعى أنه يملك من ملك الله أن يقلب الليل أو النهار، أو أن يقصّر النهار وأن يطيل الليل، أو أن يقصّر الليل وأن يطيل النهار، أو أن يمسك الليل فلا يتحرك، أو أن يمسك بالنهار فلا يتحرك.. كل ذلك لو نظر المؤمنون إلى معاني ملك الله تعالى لتغير حاهم وعلموا كيف أن القدرة والقوّة لله جيّعاً وأن الملك له ﷺ لا لأحد، قال تعالى: «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ» [الفرقان: ٢٦]، وكما ذكر عن نفسه ﷺ أنه الملك الحق في قوله: «فَتَعْلَمَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» [طه: ١١٤].

المرّبع. قال الطيبي: [«تعس وانتكس» فيه الترقّي في الدعاء عليه؛ لأنّه إذا تعس انكبّ على وجهه، فإذا انتكس انقلب على رأسه]. قوله: «وإذا شيك» أي: إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش، وهو معنى قوله «فلا انتقضش»، وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يشطب عن السعي والحركة، وسُوّغ الدعاء عليه كونه قصر عمله على جمع الدنيا واستغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات] ١.ه ملخصاً من الفتح: ٢٨٦ / ١١ - دار الحديث.

لذلك قال تعالى: «تُولِّي لَيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِّي نَهَارَ فِي الْلَّيْلِ» [آل عمران: ٢٧]، يعني: تُدخل الليل في النهار وتُدخل النهار في الليل. ونظير هذه الآية قوله تعالى: «يُغْشِي الْلَّيْلَ الْنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيشًا» [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا» [الفرقان: ٦٢]، وقوله تعالى: «يُقْلِبُ اللَّهُ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَا يَلْفَلِي الْأَبْصَرِ» [النور: ٤٤]. وهذه دعوة للمؤمنين إلى أن يتفكروا في أنفسهم وما خلق الله تعالى؛ ليكون عوناً لهم على معرفتهم بربهم ﷺ وتوحيدهم له جلّ وعلا، ومتى عرفوا ربهم أحبوه ﷺ، ولكن الناس - والمؤمنون خاصة - في غفلة عن النظر في آيات الله - كما أمرهم ﷺ - والتدبّر فيها حتى يكون ذلك هادياً لقلوبهم إلى معرفة ربهم ﷺ، وفي غفلة عن أن ينظروا في كونه، وفي الآفاق، وفي الأنفس، وفي تدبر السماوات والأرض أو ما خلق الله تعالى من شيء.

فتتأمل في اختلاف أحوال الليل والنهر وتعاقبهما، وتأمل في المنافع الحاصلة من ذلك لتتعرف هذه الآية التي بينت معاقد ملك الله تعالى.

#### رابعاً: مُلْكُ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ

أنه يملك الإحياء والإماتة، لا يملكها أحد سواه ﷺ وهو قوله: «وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» [آل عمران: ٢٧]، ويدخل في ذلك - يعني في قوله تعالى: يخرج الميت من الحي ويخرج الحي من الميت - أنه يخرج الإنسان من النطفة التي لا روح فيها، وكذلك يخرج الأموات يوم القيمة أحياً بعد ما صاروا أمواتاً ﷺ وأنه يحيي ويميت - جلّ وعلا - ولا يستطيع أن يدعى ذلك أحد.

ويدخل فيه أيضاً أحوال النبات في قوله: «وَتَحْتَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» [الروم: ۱۹]، فبعد أن كانت الأرض خاسعةً هامدةً أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج<sup>(١)</sup>، ويدخل فيه تولد المحقق من المُبْطِل كإبراهيم عليه السلام من آزر، وتولد المبطل من المحق مثل كنعان من نوح عليه السلام، يعني يخرج بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - كما يقال - من ظهر العالم جاهلاً، ومن ظهر الجاهل عالماً، كل ذلك ليُبَيِّنَ لنا قدرته سبحانه وتعالى وملكه وأنه لا يشاركه في ملكه أحد جل جلاله.

### خامسها: أنه يملك الرزق بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وخامس معاقد ملك الله تعالى هو الرزق، قال تعالى: «وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [آل عمران: ۲۷]، والرزق كما ذكرنا في شرح اسمه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ «الرَّزَاقُ» نوعان:

النوع الأول: يختص بالأبدان.

والنوع الثاني: يختص بالقلوب والأرواح.

والنوع الثاني هو أشرف النوعين، وهو الذي ينبغي أن يكون اهتمام المرء متوجهًا إليه ومنصبًا عليه، وهو غذاء القلوب والأرواح في معرفة الرب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وتحقيقه ومحبته والأنس به بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والشوق إلى لقائه وغير ذلك من الرزق الذي هو من الفتوحات الإلهية والعطایا الربانية، وعلى حسب سلامة القلوب التي تنزل عليها وعلى صفاء هذه الأرواح والنفوس يسوق الله تعالى إليها هذا الرزق على ما تستحق هذه القلوب من فضل الله تعالى.

(١) قال تعالى: «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أُنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَرَتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ» [الحج: ٥].

أما رزق الأبدان فقد علمنا كيف أن الله تعالى يقول: «وَمَا مِنْ ذَائِبٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ  
اللَّهِ رِزْقُهَا» [هود: ٦]، «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» [الذريات: ٢٢].

وقد ذكرنا من قبل<sup>(١)</sup> قصة سليمان عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يرزق العالم يوماً واحداً، فأخذ يجمع أرزاقاً كثيرة عدة أيام وليلات ليحاول أن يدعو الخلق إلى طعامه؛ الإنسان والجن والحيوانات وكذا وكذا، فإذا بحوت يخرج من البحر فیأكل كل الطعام الذي قد جمعه سليمان ليعطهم به خلق الله تعالى!

وقلنا إن هذه القصة تبيّن رزق الله تعالى وكيف أن سليمان الذي أوقى ملكاً لم يؤتَه أحدٌ من العالمين ولا ينبغي لأحد من بعده كما طلب من الله تعالى، إذا به لا يستطيع أن يطعم حوتاً في البحر وجبة واحدة، والحوت قد اشتكتي لأنَّ طعامه ثلاث مرات هذا الطعام الذي أكله من سليمان وأنه قد أجاوه ذلك اليوم!

إذا علم المرء هذه الأمور التي قد أشرنا إليها ومعاقد ملك الله تعالى علم شيئاً منها؛  
علم أن له ربّاً ملكاً يملك كل شيء، وبهذه مقاييس السماوات والأرض، وله سبحانه  
تعالى كل السماوات والأرض، وأن هذا الرزق وهذا الملك وهذا العطاء وهذا المنع وهذه  
الإمامات وهذا الإحياء كل ذلك بيده، فتجدر حينئذ هذا القلب لتوحيد ربّه، وتجرد  
هذا القلب من الطلب إلا من الله تعالى، وإلى اللجوء إلا إلى الله، وإلى القوة إلا بالله تعالى،  
فحينئذ إذا علم أن ربه كذلك وأن المخلوقات كلها من أو لها إلى آخرها لا تملك لنفسها  
شيئاً: لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حيَاً ولا نشوراً، فكيف يلتजأ إلى أحدٍ

(١) في دروس شرح اسم الله تعالى «الرزاق».

زائلٌ مثلِهِ؟! أو يطلب شيئاً من زائلٍ مثلِهِ؟! أو يستعين بزائلٍ مثلِهِ؟! أو يتذلل لزائلٍ مثلِهِ؟! أو يخْنَعُ<sup>(١)</sup> لهُ أو يَذْلِلُ لهُ؟!

قد علّمت أن معاقد الملك لا يشاركه فيها أحدٌ، بل الكل مَرْبُوبُون وملوكون له، الكل تحت قهره وقوته يَكْفَلُهُ. قال تعالى: «أَنْمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ أَلْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» [غافر: ١٦] يقول يوم القيمة: أين ملوك الأرض؟ فلا يجيئه أحد سبحانه تعالى.

### حظ العبد المؤمن من اسمه "الملك" سبحانه وتعالى<sup>(٢)</sup>

معرفة الأسماء الحسنة من أهم أمور الدين، والله تعالى يحب أن يتصرف العباد بما يليق بهم من هذه الصفات وأن تظهر عليهم آثار هذه الصفات. فهو الرحيم يحب أن تظهر على عباده آثار الرحمة. وهو الغفور والسلام المؤمن والقوى القادر إلى غير ذلك، فيُحب أن تظهر آثار هذه الأسماء عليهم ويأخذوا بحظهم منها، وكلما أخذ العبد بحظ أزيدَ كان أقربَ إلى الله تعالى، وأشدَّ توحيداً له يَكْفَلُهُ وتعلقاً به جلّ وعلا.

### الحظ الأول: أن يكون العبد ملكاً في عالم الأرض

وأهمية هذه المسألة تنبع من كونها من مسائل حظ العبد من اسمه تعالى «الملك».

العبد لا يمكن أن يكون ملكاً إلا من وجهين:

(١) [«خَنَّعَ الْخُنُوعُ: الْخُضُوعُ وَالذُّلُّ، خَنَّعَ - لَهُ وَإِلَيْهِ - يَخْنَعُ خُنُوعًا: ضَرَعَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ وَطَلَبَ إِلَيْهِ وَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُطْلَبَ إِلَيْهِ】. انظر: لسان العرب مادة: [خ ن ع].

(٢) انظر بتصرف كثير: المقصد الأستى للإمام الغزالى جَهَنَّمَ- ص ٥٠، ٥١.

الوجه الأول: أنه إذا انقطعت حاجته عن غير الله تعالى كان ملكاً. وتمام هذا المقام إنما حصل للنبي ﷺ لم يكن محتاجاً في مُلْك الدين إلى أحد غير الله تعالى، وكذلك لم يكن محتاجاً في الدنيا إلى أحد غير الله تعالى؛ لَمَّا قال له ﷺ: «وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ» [الفرقان: ٥٨]، لم يتوكل على أحد آخر غيره. ولَمَّا توكل عليه واستند عليه وفَوَّضَ أمره إليه ﷺ أغناه عن غيره، ولم يجعل له حاجة عند البشر ﷺ.

فهذا المقام هو المقام العالي: مقام النبي ﷺ، ومقام الأنبياء كذلك، ويأخذ من هذا المقام العلماء وهم ورثة الأنبياء، فبقدر ما لا يحتاجون إلى أحد من أمور الدنيا بقدر ما يأخذون من هذا المُلْك.

إذا انقطعت حاجته عن غير الله تعالى كان ملكاً، وهذا الذي يستفيده المرء من هذه النقطة؛ كيف يتصرف بما يليق بالعبد من صفات الله تعالى؟ وكيف يحاول ويجاحد نفسه على أن يتصرف بالحِلْم والجود والمغفرة والسلامة والإيهان والمُلْك والقدرة... إلى غير ذلك مما ذكرنا من الصفات الجميلة والأسماء الحسنة لله تعالى، فالله تعالى لم يأمر الخلق بها سُدّى، قال تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا» [الأعراف: ١٨٠].

ولذلك قال تعالى في صفة النبي ﷺ: «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ إِيمَانِ رَبِّهِ الْكَبِيرِ» [النجم: ١٧، ١٨]. وَخُرَّجَ ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً، فاختار العبودية ﷺ.<sup>(١)</sup>

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مَلَكُ يَنْزُلُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا الْمَلَكُ مَا نَزَلَ مُنْذُ خُلُقَ قَبْلَ السَّاعَةِ. فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَرْسَلْنِي إِلَيْكَ رَبِّكَ، أَمْلِكَ جَعَلَكَ لَهُمْ أَمْ عَبْدًا رَسُولًا؟ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ﷺ: «لَا بُلْ عَبْدًا

وبالجملة: من كان الله له.. كان له كل شيء؛ إذا كان الله له ثراه قد نقص منه شيء؟! والمتأمل لهذه العبارة يعلم كم هو بعيد عن الله تعالى، وعن التعلق به، وتوحيده، والإقبال عليه، وأنه يمكن أن يغتنى المرء وأن يكون قوياً وأن يكون كريماً وأن يكون قادرًا وأن يكون ملكاً وأن يكون متبعدًا وأن يكون عارفاً بالله تعالى، وأن تتحقق له ولاية الله تعالى ومحبة الله تعالى وغير ذلك، لكنَّ العبد هو المقصُّ في حق نفسه، المفرط فيها، المتکاسل عنها، وإن كان في النهاية هو رزق الله تعالى يسوقه لمن يشاء متى شاء يَشَاءُ اللَّهُ.

وعلى العكس: من لم يكن الله له.. لم يكن له شيء؛ إذا لم يكن الله في قلبك وقد امتلأت به غنىًّا ومُلْكًا وقوهًّا وقدرةًّا ورحمةًّا وبرًا وإحسانًا، فأنت فقيرٌ ومعدمٌ؛ وذلك لأنَّ من كان الله له فالأسْلَل له، ومن كان له الأصل فله الفرع لا محالة، فكمًا لك الله تعالى فكل ما تفرع عنك عن كونه لك لا بد أن يكون لك كذلك؛ من المداية والإقبال والدنيا والآخرة كل ذلك له؛ يكفيك أن يمتليء قلبك غنىًّا وأن يسد حاجتك، لذلك قال النبي ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتَ فَاسْتَعْنْ بِاللَّهِ»<sup>(١)</sup>. إذا لم يعنك فلن يعنك أحدٌ، وإذا لم يعطيك فلن يعطيك أحدٌ؛ لأن كل أحد إنما هو داخلٌ في ملكته جلٌّ وعلا، فإذا لم يعطك الأصل فكيف بالفرع الفقير الذي هو يحتاج معك إلى الأصل؛ إلى الله تعالى.

---

رسولاً». أخرجه ابن حبان في صحيحه [٦٣٦٥]، قال الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده صحيح على شرط الشيفين».

(١) رواه الترمذى [٢٥١٦] من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح». وقد شرح المؤلف هذا الحديث العظيم في مصنف مستقل ضمن سلسلة «شفاء السقم بتوضيح وتهذيب جامع العلوم والحكم»، وهو العدد الأول منها بعنوان «احفظ الله يحفظك»، وقد طُبع حديثاً. وانظر فيه شرح هذه الجملة النبوية الشريفة المذكورة أعلاه ص ٥٨-٧٣.

وقد ذكرنا من قبل أنه لا يتصور أن يكون العبد ملكاً مطلقاً لأنه لا يستغني عن كل شيء. فإنه أبداً فقير إلى الله تعالى وإن استغنى عمن سواه، ولا يتصور - كما ذكرنا - أن يحتاج إليه كل شيء، لأننا ذكرنا من قبل أن الملك الحق هو الذي يستغني عن كل شيء في ذاته وفي صفاتاته وفي أفعاله. وأن كل شيء يحتاج إليه في ذاته وصفاته وأفعاله بالواسطة وبغير الواسطة، وهذا هو الملك الحق. وهذا ليس موجوداً في خلق الله تعالى - كما أشرنا.

الوجه الثاني - من وجْهِي كيف يكون العبد ملكاً في عالم الأرض - : أن الملك من العباد هو الذي لا يملك إلا بالله، يعني: أن يكون الله له كما ذكرنا، ويستغني عن كل شيء سوى الله.

### الخط الثاني: أن يملك العبد المؤمن مملكته قطبيده ولا تعصيه

وهو - أي المرء المؤمن مع ذلك - يملك مملكته بحيث يطيعه فيها جنوده ورعاياه، وهذه المملكة الخاصة به هي قلبه وقلبه. وجنده هم شهوته وغضبه وهواه. ورعايته هم لسانه وعيناه ويداه وسائر أعضائه. فإذا ملكها ولم تملأه وأطاعته ولم يطعها فقد نال درجة الملك في عالمه..

وهذا المعنى متعلق بنا نحن أصحاب الأهواء والشهوات في حظ المرء من الله تعالى «الملك».

يعني إن حدث العكس وملكته جنوده وأطاعها امتلاً قلبه بالأفافات من الشهوة والغضب والهوى والغل والحدق وطول الأمل والزهد في الآخرة، والميل للدنيا والركون إليها والعمل لها، والتتوسع فيها، ومحبة المللذات والشهوات، والكذب والغش والخداع

والماوغة، وحب النفس والإعجاب بها... وغير ذلك من الآفات التي يراها الواحد منا في نفسه والتي لو اطلع عليها الناس لَطَّخُوا وجهه<sup>(١)</sup>.

هذه المملكة يظهر فيها كيف يغتنى المرء بالله، وكيف يكون المرء قد تحقق بشيء من مُلْكَ الله فيها؛ وهي: كيف يملك قلبه وشهوته وأن يكون ذلك كله في طاعة الله، ولا يطيع شهواته ويكون أسيراً لها لا مَلِكًا عليها. هذا المعنى هو مُنْطَلَقٌ كيف يكون المؤمن مؤمناً؟ كل هوا حسب ما أمر الله به، وكل شهوته فيما يحبه ربه ﷺ ويرضاه، وكل غضبه إنما يكون لله، وبقية أحواله كذلك كيف تكون كلها لله تعالى؟

وهذه تحتاج إلى المجاهدة على تعبد الله تعالى بهذا الاسم الكريم: كيف يتبع المرء الله تعالى بهذا الاسم المشرف وكيف يدعوه به؛ تجد النبي ﷺ في دعوات كثيرة يقول: «رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ» كذا وكذا وكذا. «مَالِكُ الْمُلْكِ...»<sup>(٢)</sup>، إلى آخر هذه الأدعية التي يدعو المرء ربه بها دعاء العبادة والخصوص والتذلل لله تبارك وتعالى، وأن يدعوه ﷺ بأسمائه الحسنى؛ ليتحقق له هذه المعانى ولتظهر عليه هذه الآثار من بركة هذا الاسم الكريم؛ وكيف يكون المرء على الحقيقة مُوَحَّداً لربه ﷺ، وهو الهدف من هذه الأمور كلها: كيف يعلم العبد قوَّةَ الله، وقدرَةَ الله، ومُلْكَ الله حتى لا يكون له ربٌ إلا هو، ولا

(١) وقد رَهَبَ ﷺ من بعض هذه الآفات وحذر منها، من ذلك قوله ﷺ: «وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَشُجُّعُ مُطَاعَعٌ وَهُوَ مُتَبَّعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرءِ بِنَفْسِهِ». رواه البزار في مسنده عبد الله بن أبي أوفى. قال المنذري: «مَرْوِيٌّ عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يُسْلِمُ شيءٌ منها من مقالٍ، فهو بمجموعها حسنٌ إن شاء الله تعالى». ا.هـ. من الترغيب والترهيب [ح: ٦٢٣]. طبعة مكتبة المعارف - الرياض - الطبعة الأولى - سنة ١٤٢٤هـ.

(٢) انظر مثلاً الحديث الذي رواه الترمذى [٣٣٩٢].

مَلِكٌ إِلَّا هُوَ... وَلَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ... وَلَا يَتَوَجَّهُ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا إِلَيْهِ... وَلَا يَسْأَلُ إِلَّا إِلَيْهِ... وَلَا  
يَسْتَعِنُ إِلَّا بِهِ... وَلَا تَكُونُ حَوَائِجُهُ وَطَلَبَاتُهُ إِلَّا مِنْهُ... وَلَا يَكُونُ خَوْفُهُ إِلَّا مِنْهُ...  
وَلَا رَجَاءُهُ إِلَّا فِيهِ... وَلَا خَشْيَتُهُ إِلَّا لَهُ... أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِرَبِّهِ كَمَا شَاءَ اللَّهُ لَهُ أَنْ  
يَكُونَ، وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.

فَإِذَا انضَمَ إِلَى هَذِهِ الْمَعْانِي بِأَنْ يَمْلِكَ مَلْكَتَهُ—وَهِيَ قَلْبُهُ وَهُوَاهُ وَجُوارِهِ كَمَا ذَكَرْنَا—  
وَأَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَلِكُ عَلَيْهَا وَلَا تَكُونُ هِيَ الْمَلِكَةُ عَلَيْهِ، يَعْنِي: أَنْ يَطِيعَ هُوَ فِيهَا رَبِّهِ وَلَا  
يُطِيعُهَا، وَأَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُطِيعَةُ لَهُ لَا هُوَ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي خَاصَّةِ النَّفْسِ. فَإِذَا انضَمَ إِلَيْهَا  
اسْتَغْنَاؤُهُ عَنْ كُلِّ النَّاسِ وَاحْتَاجَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الْعَاجِلَةِ (أَيِ الدُّنْيَا) وَالْآجِلَةِ  
(أَيِ الْآخِرَةِ) إِلَيْهِ، فَهُوَ الْمَلِكُ فِي الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ.

وَتَلِكَ رَتَبَةُ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُمْ اسْتَغْنَوُا فِي الْهُدَى إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا اللَّهُ،  
فَهُمْ لَيْسُوا مُحْتَاجِينَ إِلَى أَحَدٍ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ لِيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِهِ أَوْ يُبَيِّنَ لَهُمْ  
طَرِيقَهُ. وَفِي الْمُقَابِلِ فَقَدْ احْتَاجَ إِلَيْهِمْ كُلُّ أَحَدٍ فِي ذَلِكَ بِلَا شَكٍ. يَلِيهِمْ فِي هَذَا الْمَلِكَ  
الْعَالَمِ الْذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَإِنَّمَا مُلْكُ هُؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ بِقَدْرِ قَدْرَتِهِمْ عَلَى إِرْشَادِ الْعِبَادِ،  
وَاسْتَغْنَائِهِمْ عَنِ الْإِسْتِرْشَادِ. وَبِهَذِهِ الصَّفَاتِ الْجَمِيلَةِ يَقْرُبُ الْعَبْدُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي  
الصَّفَاتِ، يَعْنِي: تَصْيِيرُ صَفَاتِهِ أَقْرَبٌ إِلَى صَفَاتِ الْمَلَأِ الْأَعُلَى، فَاللَّهُ تَعَالَى مَا اخْتَارَ مِلَائِكَتَهُ  
لِمُجاوِرَتِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعُلَى إِلَّا لِكُوْنِهِمْ قَدْ تَنَزَّهُوا عَنِ الصَّفَاتِ الْمَرْذُولَةِ، فَلَا يَحِيطُ بِعِرْشِهِ  
وَسَمَائِهِ أَحَدٌ قَدْ تَدَنَّسَ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَصَائبِ وَالآفَاتِ، وَإِنَّهُمْ مَطْهُرُونَ عَنِ  
ذَلِكَ كُلِّهِ كَمَا قَالَ ﷺ عَنْهُمْ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦]،  
وَبِذَلِكَ أَيْضًا يَكُونُ قَدْ اتَّصَفَ الرَّءُوفُ بِهَذِهِ الصَّفَاتِ الْحَسَنَةِ الَّتِي هِيَ صَفَاتُ الْقَرْبَاءِ  
مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

### الخط الثالث: أن يطلب العبد هذا الملك من الله تعالى

وهذا الملك عطية للعبد من الملك الحق بِهِ الذي لا مثنوية<sup>(١)</sup> في ملكه<sup>(٢)</sup>. ولقد صدق بعض العارفين لـه قال له بعض الأمراء: «سَلْنِي حاجتك؟» قال له: «أَوْ تقول لي هذاولي عبدان هما سيداك؟» قال: «مَنْ هُمَا؟!»، قال: «الحرص، والهوى». أي أنت حريص على الدنيا والملك وكذا وكذا وتتصرف فيها كما يأمرك هو اك يميناً وشمالاً، وهولاء هما سيداك؛ أي هما اللذان يُحرّكانك في الدنيا وفي الآخرة، لذلك قال له العارف: «فقد غلبتهما وغَلَبَاكَ وملكتُهُما وملَكَاكَ» يعني: كيف أسائلك أنت إذن أيها المسكين؟!

وقال بعضهم لبعض: «أوصني»، فقال له: «كُنْ مَلِكًا في الدنيا وملِكًا في الآخرة»، فقال: «وكيف أفعل ذلك؟» قال: «اقْمِعْ طَمَعَكَ وشهوتَكَ في الدنيا تكُنْ مَلِكًا في الدنيا والآخرة، فإنَّ الْمُلْكَ هو الحرية والاستغناء»؛ لأن يكون حرراً لا عبداً لأحدٍ في مالٍ ولا في جاهٍ ولا في سلطان ولا في كذا ولا في أي شيء، وأن يستغني بالله عن كل أحد. وعلى قدر هذه العطية من الله تعالى على قدر ما يكون ملك المرء، وإذا المرء تعرض لهبة الله تعالى بالعمل الصالح والإقبال على الله تعالى والتضرع والدعاء وطول الوقوف على باب الله تعالى يوشك الله تبارك وتعالى أن يُمْنَنْ عليه بشيء من هذه العطية فتكون خيراً له من الدنيا والآخرة، وأن يكون كذلك في الدنيا والآخرة مَلِكًا قد اتصف بهذا المعنى من

معاني اسمه بِهِ «الملك».

(١) «المثنوية: الاستثناء». انظر: تهذيب اللغة، مادة: [ث ن ي].

(٢) والناظر في أحوال نفسه يتسرّع كثيراً لا يرى نفسه قد تحقق بهذا المعنى المهم من معاني الملك؛ إذ لو استحق ذلك لمنه الله تعالى إياه بفضله.

ومن تحقق بهذه المعاني التي أشرنا إليها؛ عَرَفَ مُلْكَ رِبِّنا وقوته وقدرته على التصرف بِهِ، وبَذَلَ نفسه لله بِنَفْسِهِ حتى يعطيه شيئاً. فنحن لا نبذل وقتاً ولا جهداً ولا صحة ولا شيئاً لله تعالى، وما تأتي طاعة من طاعات الله بِعَذْلٍ إِلَّا بِالبَخلِ وَالْحَرْصِ؛ إذا قيل للمرء: «صَلٌّ» مثلاً، يقول: «أنا مريض..»! أو إذا قيل له: «أنفق»، يقول: «ليس معه إلا نقود يسيرة، أنا في احتياج إليها..»! وكل هذا تشكيك في معرفة الملك القوي القادر بِهِ، وينبغي للمؤمن أن يعلم أنه طالما له مَلِكٌ يُعطيه ويعطيه ويقويه ويشيه بِهِ، وله الملك كله وله الحمد كله، وله الثناء كله، فمُقَصِّرٌ إذن من يقول تلك الأقوال المذمومة التي أشرنا إليها؛ لأنه لو قال ذلك لدَلَّ على أنه ما زال مفتقرًا إلى الأسباب وليس مفتقرًا إلى الله، ما زال جاهلاً بالله تعالى لا يعلم قدرته وقوته بِهِ وملكه الواسع الذي لا يحيط به شيء.

#### الخط الرابع: أن يتبرأ العبد من الحول والقوة ويسلم الأمر لمالكه جل وعلا

وإذا تحقق العبد أن الله تعالى هو الملك تَنَكَّبَ عن وصف الادعاء وتبرأ من الحول والقوة في تسليم الأمر لمالكه، وتَنَكَّبَ عن وصف الادعاء يعني: امتنع وابتعد عن طريق الادعاء. بـألا يقول: «هذا بي أو بقوتي أو قدرتي...» إلى آخره<sup>(١)</sup>. بل علم نفسه فقيراً في النهاية، وأنه لا يجد نفسه شيئاً في ملك الله، وينظر إلى الدنيا ومن فيها من الملوك وما كان وما يكون: لا يراهم في ملك الله شيئاً، فكيف يدّعى لنفسه مُلْكًا أو قدرةً أو قوّةً، بل لا يزال عبداً لا يملك شيئاً. هذا هو معنى العبد في الإسلام؛ فالعبد لا يملك

(١) وانظر العدد الرابع من سلسة «الفتوحات الإلهية شرح الأسماء الحسنة للذات العلية»: «القوى» للمؤلف لمزيد من التفصيل لهذا المعنى المهم.

شيئاً، حتى نفسه لا يملكونها؛ بل يُباع ويُشتَرَى، ويعمل ويؤدي لسيده. وكذلك العبد المؤمن.. الله تبارك وتعالى أمرهم - هؤلاء العبيد - أن يعملوا وأن يؤدوا إليه، فإذا بهم عبيد السوء؛ يعملون ويؤدون إلى غيره: الشيطان والنفس والهوى والشهوات. وهذا هو معنى حديث العبد: حديث سيدنا يحيى بن زكريا عليه السلام في: أن يعملوا، وأن يؤدوا إلى الله، وإذا بهم يعملون ويؤدون إلى غيره<sup>(١)</sup>. وهذا الأمر الأول وهو أن ليس له شيء ولا به شيء ولا منه شيء، كما قال تعالى: «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَعِنْ أَنْهَٰءٍ» [النحل: ٥٣].

(١) ونذكر تفاصيل هذا الحديث النبوى الشريف لما فيه من المعانى المهمة جداً؛ عن الحارث الأشعري رحمه الله أن النبي صلوات الله عليه قال: [إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَهَا، فَقَالَ عِيسَى: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِنَّمَا أَنْ تَأْمُرُهُمْ وَإِنَّمَا أَنَا أَمْرُهُمْ». فَقَالَ يَحْيَى: «أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسِفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ». فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشَّرْفِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوْلَاهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلَ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرَقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي، فَاعْمَلْ وَأَدِّي، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيَؤْدِي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ. فَأَنَّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُكَ ذَلِكَ؟! وَإِنَّ اللَّهَ أَمْرُكُمْ بِالصَّلَاةِ؛ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَقِتُو، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاةِهِ مَا لَمْ يَلْتَقِتْ. وَأَمْرُكُمْ بِالصَّيَامِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلَ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُوِّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رَجُلٌ أَنْ يَحْمِلَ أَسْرَهُ الْعُدُوَّ فَأَوْتُقْوَا يَدَهُ إِلَى عِنْقِهِ وَقَدْمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنْقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، فَقَدَّى نَفْسَهُ مِنْهُمْ. وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَذَكُّرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلَ رَجُلٍ خَرَجَ عَدُوًّا فِي أَثْرِهِ سِرَايَا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَخْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُخْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذَكْرِ اللَّهِ». قال النبي صلوات الله عليه: «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسِ أَنْهَٰءٍ: السَّمْعُ، وَالظَّاعَةُ، وَالجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّ

والملُك لله على الحقيقة، وأنت فقير محتاجٌ إليه لا تقدر إلا بقدرَه لك، ولا تستطيع إلا بأنْ يُقوِيكَ يَعْلَمُكَ، وأنك أيّاً ما كنتَ، فأنت في النهاية زائل لا تنفع نفسك فضلاً عن أن تنفع غيرك. ولا يدخل المرء على الله تعالى إلا من هذا الباب؛ وهو باب أن لا يرى لنفسه شيئاً وأن لا يرى من نفسه شيئاً ولا بنفسه شيئاً، لا له مُلُكٌ.. ولا قدرة.. ولا قوّة.. ولا عطاء.. ولا منع.. ولا نفع.. ولا ضر.. ولا بذل.. ولا شيء، بل يدخل مفتقرًا إليه يَعْلَمُكَ.

عبدًا يسمع كلامه فيطيعه يَعْلَمُكَ، يأتمر بأمره ويتنهى عن نهيه ويكون كما أمره الله تبارك وتعالى: يعمل و يؤدي لربه يعني: يسعى سعيه المتواصل في عبادة الله و يؤديها له لا للهوى والرياء والشيطان والسمعة وإنما يكون كل سعيه خالصاً لربه.

فإذا تحقق العبد من أنَّ الله تعالى هو الملك والمليك ومالك الملك تَنَكَّبَ عن وصف الادعاء كما أشرنا، ولم يدع لنفسه شيئاً، وتبرأ من الحول والقوة في تسليم الأمر لملكه، يعني: تبراً من كل شيء وسلَّمَ الأمر لله تعالى، وعلم أن الذي يسير الكون هو الملك؛ هو الذي يرفع ويضع، ويعطي ويمنع، ويعني فقيراً ويفقر غنياً، ويعز ذليلاً ويدل عزيزاً، ويقيم دولة و يأتي بأخرى... وهكذا، سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن<sup>(١)</sup>. ولم يعوّل

مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِدَّ شَيْرٌ فَقَدَّ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنْقِهِ إِلَّا أَنْ يُرْجِعَ. وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُنُاحَ جَهَنَّمَ». فقال رجُلٌ: يا رسول الله! وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّا كُمُ الْمُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ». رواه الترمذى [٢٨٦٣، ٢٨٦٤]، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وبنحوه أخرجه ابن خزيمة [١٨٩٥]، وابن حبان [٦٢٣٣] في صحيحهما.

(١) والمتأمل في حالنا اليوم يجد عكس ذلك؛ إذا حدث للمرء مصيبة تعلق قلبه بالأشخاص والأسباب، ولم يتوجه بقلبه إلى الله يَعْلَمُكَ «الملك» القوي القادر الذي لا يتحرك شيء في هذا الوجود ولا يسكن إلا بأمره يَعْلَمُكَ.

المرء على اختيار نفسه وهو الشخص المسكين ولم يفزع إلى احتياله عند طلب الخلاص؛ يعني: لم يفزع إلى حيلة نفسه عندما يقع في شيء يريد أن يتخلص منه في مرض.. في مشكلة.. في كذا.. لا يفزع إلى حيلة نفسه وقدرته إلى الخلاص من ذلك، بل يفزع إلى الله تعالى الملك المدبر.

الأمر الثاني: ومن تحقق بِمُلْكِ سيده عاد جمال ذلك الْمُلْك إلى نفسه في أخلاقه وعباداته وفي سلوكه.

### الخط الخامس: أن يتجرد العبد لما يملكه في القرب والقصد

ومن عَرَفَ أن الله تعالى هو الْمُتَوَّحِدُ بِمُلْكِ أَنْفَهُ أن يتذلل لملائكة؛ لأن المعرفة بهما توجب للمرء المؤمن التجدد له في القُرْبَى إليه وقصده سبحانه وتعالى. أي يتجرد له هو فقط جل وعلا. فليس له ربُّ سواه، ولا يشاركه في قلبه أحد يظن أنه ينفع أو يضر... لا يشاركه في قلبه أحد يظن أنه يخافه أو يخشاه... لا يشاركه في قلبه أحد يحبه كمحبة الله... لا يشاركه في قلبه أحد يذكره كذكره أو يُقْبِلُ عليه كإقباله أو يطمئن له كاطمئنانه، لا يشاركه في ذلك شيء.

ولا يجُمُل بالعبد المريد الله تعالى أن يتذلل للعبد وهو يجد من مولاه ما يريد، يعني: أَيجُمُل بالعبد أن يترك سيده الذي قد أغناه وقد أعطاه وتصدى له وحماه؟ أَيجُمُل به أن يذهب لغيره يطلب منه وعند مولاه كل شيء ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾!

## الخط السادس: الثقة في مالكه سبحانه وتعالى

ومن آداب من عَرَفَ أنه هو الْمَلِكُ الْحَقُّ **يَعْلَمُ** أن يثق بما يرجوه من الله ويأمله في جميع ما يُنفق ويفعل ويدر، وأن يكون بما في يد الله أوثق بما يكون في يده، لأن ما في يده يمكن أن يضيع منه، أو أن يأخذه منه أحد، أو أن يُسرق، أو أن ينام عنه فيصبح لا يجده... وهكذا، لذلك يجب أن يكون العبد أوثق بما في يد الله مما في يده؛ فما في يده **مُعَرَّضٌ** للزوال والفناء، وما في يد الله باق كما قال **يَعْلَمُ**: «**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ**» [النحل: ٩٦].

## الخط السابع: أن يترك العبد تدبيره لتدبير الله عز وجل

إإن من ترك تدبيره لتدبير الله دَبَّرَ الله له مُلْكَه؛ وهو أن يكون العبد كالطفل مع أبيه؛ هو الذي يقوم بحاجاته ويدبر له ويرتبه ويقوم على مصلحته ولا ينام حتى ينام وكذا وكذا، وهذه معنى تربية الرب **يَعْلَمُ** للعبد؛ أنه إذا ترك العبد له تدبيره دبر الله له وقام على رعايته واعتنى به وكان من خاصة أهله.

## **مسألة مهمة:**

لما كان الله تبارك وتعالى هو الملك اختار عباداً له **يَعْلَمُ** وأدخلهم في عبوديته الحقة؛ لأن عبودية الناس إلى الله تعالى نوعان:

**النوع الأول:** عبودية عامة، فكل الناس -**بَرِّهم** و**فاجرهم**، مؤمنهم وكافرهم - عباده **يَعْلَمُ** قهراً ومُلْكًا.

**النوع الثاني:** عبودية خاصة، ولا تكون إلا للمؤمنين الذين اتبعوا ربهم وأمنوا به **يَعْلَمُ**.

وهذه العبودية الخاصة هي المقصودة بقولنا: العبودية الحقة وهي عبودية المؤمنين لله تعالى وهي درجات أيضاً. فمن سبقت له عناته وحقت له في عموم الأحوال رعايته فإنه يُملِكُهُ هواه، ويتعتقه من أسر نفسه ومناه، ويحرره من رعونة نفسه وإنسانيته<sup>(١)</sup>، لأنَّه لما ارتضاهم لعبوديته لم يقبل منهم أن يكونوا عبيداً لغيره، لذلك قال: «تَعْسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعْسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعْسَ وَأَنْتَكَسْ ...»<sup>(٢)</sup> إلى آخر الحديث، لذا فإنَّ يكون المرء عبداً لله وأن يكون عبداً لغيره فذلك لا يقبله الله تعالى. فإذا اصطفاه أن يكون عبداً له وحده طَهَرَ قلبه من عبودية ما سواه<sup>(٣)</sup>; هواه ونفسه وشيطانه كل هذه العبوديات يحرره منها.

### الخط الثامن: لا يحتشم من الإنفاق والبذل في سبيل الله تعالى

والله تعالى هو الملك؛ والملك ينفق؛ فهو المالك والملك<sup>بِهِ</sup> والمليك ومالك الملك ينفق على الرعية ولا يخشى شيئاً<sup>بِهِ</sup>، لذلك قال: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ حَزَّابَنَ رَحْمَةَ رَبِّ إِذَا لَمْ مَسْكُمْ حَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ» [الإسراء: ١٠٠].

وقال<sup>بِهِ</sup>: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»<sup>(٤)</sup>، انظُرْ كم من أناس أكلوا وشربوا وتملكوا في الدنيا وكانوا و كانوا؛ كل ذلك

(١) «رعونة نفسه» أي: رُعونة كونه إنساناً له شهوات وأهواء، و«يُحرّره اللهُ منها» أي: يُقوّيه عليها.

(٢) سبق تحريره.

(٣) أخرجه الإمام البخاري [٧٤١١]، وبنحوه الإمام مسلم [٩٩٣]، كلاهما من روایة أبي هريرة<sup>بِهِ</sup> مرفوعاً إلى النبي<sup>بِهِ</sup>.

من مُلْكِه ورزقه بِهِ. وهذه الآداب هي من آداب مَنْ كان واثقًا بالله تعالى، وينبني عليها أن لا يختشم <sup>(١)</sup> من الإنفاق والبذل في سبيل الله، لذلك قال النبي ﷺ لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْفَقْ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا» <sup>(٢)</sup>، والله تعالى يقول في الحديث القديسي الشريف: «أَنْفَقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» <sup>(٣)</sup>، ولا بد أن يكون كرم الله تعالى هو الغالب، لذلك لا ينبغي للعبد أن يخاف التلف؛ لأنَّ المَلَك يدعو له كما في الحديث: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكًا يُنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُسِكًا تَلَفًا» <sup>(٤)</sup>، ومعنى «تَلَفًا»: أن تحدث مصيبة تأخذ ماله، أو يأتيه الموت فيأخذه الوارث؛ أمَّا هذا المتفق فيأتيه الخلف في الدنيا مُعَجَّلًا وحُسْن العاقبة في المؤجل؛ فما ينفقه العبد يضاعفه الله له إلى سبعاءة ضِعْفٍ.

ولعلنا قد عرفنا شيئاً عن ملك الله، وتطهرت قلوبنا بهذه المعاني، وبدأنا في مجاهدة

أنفسنا على التتحقق بها، والظفر بهذه الآثار من آثار اسمه الملك والمليك بِهِ؛ ليكون ذلك زادًا لنا في الدنيا والآخرة؛ ول يكن ذلك كذلك سبب حُسن التوحيد للرب بِهِ والإقبال عليه والدعاء له جَلَّ وعلا.

(١) «لا يخَشِّمُ من الإنفاق» أي: لا يخشى من الإنفاق ولا يحرص على المال.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم: [١٠٢٠، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٩٨، ١٠٤٠] مكتبة العلوم والحكم. وفي الأوسط [٢٥٧٢] دار الحرمين - القاهرة - سنة ١٤٢٥ هـ. وأبو يعلى في مسنده [٦٠٤٠]، قال المنذري: «رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن»، الترغيب [ح: ١٣٢٠].

(٣) متفق عليه: البخاري [٤٦٨٤]، ومسلم [٩٩٣]، من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٤) رواه البخاري [١٤٤٢]، ومسلم [١٠١٠]، من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

الفصل الثالث

نظرة إجمالية في الآيات الواردة

في معاني أسماء الله تعالى

«الملك و المالك و الملك»

وبالتأمل في الآيات التي ذكرت اسم الله تعالى «الملك» و«المالك» و«المليك» وجدناها تدور على هذه المحاور التالية:

أولاً: مظاهر ملك الله تعالى.

ثانياً: ثناء الملك على نفسه بِنَفْسِهِ.

ثالثاً: كل مظاهر الملك مسلوبة عن غيره بِغَيْرِهِ.

وكما هو منهجنا سنحصر الآيات ثم نشير إجمالاً إلى بعض معانيها تحت كل عنوان من تلك العناوين؛ لنبين ترابطها وإفادتها للمعنى، ثم نتبعها بتفسير بعض تلك الآيات، إذ التفصيل في ذلك خارج عن حدود هذا الفصل<sup>(١)</sup>.

**أولاً: مظاهر ملك الله تعالى**

**المظاهر الأول: الله تعالى له الملك وله الحمد على ذلك الملك**

قال الله تعالى: «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [التغابن: ١].

هذه الآية تشير إلى أنه إذا كان له الملك فليس له الملك فقط، وإنما له الملك وله الحمد على هذا الملك.

(١) انظر الفصل الرابع وفيه شرح تفصيلي لبعض الآيات التي أجمل ذكرها في هذا الفصل الذي نحن بصدده الآن.

فكأنه يَعْلَمُ يقول في هذه الآية له الحمد مع الملك، وهذا يخالف مُلْكَ البشر؛ فمن الممكن أن يكون المرء مَلِكًا في الدنيا وعظيماً فيها وكذا وكذا، لكن لا يُؤْمِنُ على أفعاله ولا يُثْبِتُ عليه فيها؛ وإنما هو ظالم جائر، أو فاسق فاسد، أو غير ذلك من الأوصاف التي تنزل به. والسؤال: أيكون هذا الحمد والمُلْك مخالف لملك البشر حتى لو كان هذا المُلْك من البشر صالحًا؟ الجواب: نعم؛ يمكن أن يكون صالحًا، ولكن لا يأخذ الحمد الذي لله تعالى؛ لأن كل الصفات التي تستحق الحمد والثناء إنما هي مُحتَصَّةٌ بالله تعالى لم يحصلها أحد من البشر؛ بل كل ما يحصله البشر إنما هو محض فضل الله تعالى.

وهذه الآية وهي: «**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ**» كذلك مرتبطة بقوله تعالى: «**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمُلْكُ الْقَدُوسُ السَّلِيمُ الْمُؤْمِنُ...**» [الخشر: ٢٣]، فهذه الأوصاف المتالية لها ارتباط مع بعضها البعض «الملك القدس السلام المؤمن»؛ فالقدس: هو الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص، السلام: الذي سَلِمَ الخلق - وهذه أحد المعانى التي أشرنا إليها في شرح اسم الله تعالى «السلام» - من ظُلْمِه أو من جُورِه، والمؤمن: الذي أَمَنَ عباده كذلك من ظلمه<sup>(١)</sup>؛ فكانت متناسبة أن يقال: «الملك القدس السلام المؤمن» إلى آخر هذه التركيبة من أسمائه الحسنى التي أشار إليها القرآن الكريم في هذه الآية<sup>(٢)</sup>.

(١) وهذه المعانى للأسماء الثلاثة ذكرناها على سبيل الإيجاز بما يليق بهذا المقام، ولمعرفة بقية المعانى والوجوه في هذه الأسماء المشرفة لله يَعْلَمُ فارجع إلى شرح هذه الأسماء المشرفة للمؤلف، وهي متوفرة في صورة صوتية في موقع طريق الإسلام على الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) وفي مواقع أخرى.

(٢) وانظر: سبب اقتران اسم الله تعالى «القدس» باسمه تعالى «الملك» في القرآن الكريم في شرح اسم الله «القدس» ص ٦ ، ٧ – الطبعة الأولى ١٠٧-٢٠٠٧ م.

## المظہر الثانی: اللہ هو الْمَلِکُ لِهِ الْمَغْفِرَةُ وَالْمَوَاحِذَةُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

والآية التالية إذا كان له الملك فله المغفرة وله المؤاخذة؛ لأنَّ الْمَلِکَ بيده، علاوة على أنَّ مصير كل شيء إليه، فيقضي فيه بما شاء: **﴿يَغْفِرُ لَمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** [المائدۃ: ۱۸]؛ لأنَّه يملك كل شيء، ومن ثُمَّ هو مالك لعباده، وهو جَلَّ وعلا المتصرف فيهم، وهو الحاكم عليهم الأمر الناهي لهم؛ فمن استجابة فإنه يغفر له على ما كان منه، ومن فسق وخرج فإنه شديد العقاب.

وقال ﷺ: **«قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأَمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾** [المائدۃ: ۱۷]، فما الزائد في هذه الآية عن الآية الأولى في قوله تعالى: **«وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ؟﴾**

الجواب: أنَّ هذه الآية الأخيرة تبيّن مدى قدرة هذا الْمَلِکَ؛ ليس يملك ويأمر وينهى فقط، بل هو مَلِکُ وهو على كل شيء قادر: يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، بل إنَّ أهلـکـهـمـ جـيـعـاـ لا يـمـلـكـ أحدـ أـنـ يـرـدـ عـلـيـهـ ذـلـكـ أوـ أـنـ يـوـقـفـ ذـلـكـ أوـ أـنـ يـمـنـعـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ. لذلك قال: **«قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأَمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [المائدۃ: ۱۷].

## المظہر الثالث: اللہ تعالیٰ هو الْمَلِکُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

وهذه آية التالية وهي قوله تعالى: **«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...﴾** لها علاقة بشيء آخر وصفة أخرى من مظاهر مُلْکَ الله تعالى نشير إليها؛ أنه له

ملك السماوات والأرض؟ لا؛ ليس ذلك فقط، بل له ملك السماوات والأرض وما بينهما. فإذا كان ملوك الدنيا لهم شيء في الأرض فليس لهم كل الأرض كما ذكرنا، وليس لهم كل الزمان على الأرض، وليس لهم فيها كل التحكم الذي يمكن أن يكون لله، وإنما إن تحكم في شيء لا يتحكم في بقية الأشياء وإن أمر أو نهى فإنه لا يملك الأرض ومن عليها، وإن ملك يوما لا يملك بقية الأيام ويموت، وإن ملك فرائيل ملوكه. أليس كذلك؟ إلا الله تعالى. وحتى لو ملك ملوك الدنيا الأرض كلها فإنه ليس لهم شيء في السماوات أو فيما بين السماوات والأرض، لذلك قال تعالى: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...».

ما الصفة الزائدة الأخرى في ملوكه في هذه الآية؟ قال: مع أنَّ له الملك فإن له الخلق كذلك «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مَا خَلَقَ مَا يَشَاءُ...».

وإذا كان أهل الدنيا وملوكها ومن عليها من أولهم إلى آخرهم إلى أن تقوم الساعة لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا عليه كما قال المولى عليه السلام: «صَعْفَ الْطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ» [الحج: ٧٣].

فدلل ذلك على قوته وقدرته تعالى على إنشائهم من العدم. وهذا الذي يستفيده قلب المؤمن كذلك أنَّ هذا الملك المسكين من ملوك الدنيا لا يستطيع أن يملك من في الأرض جميعا، ولو استطاع ذلك فلا يستطيع أن يخلق شيئا، فدلل على ذلك أن الخلق بيد الله؛ وليس الخلق فقط، بل الإحياء والإماتة بيده تعالى كما سنشير في العنوان التالي «الله تعالى هو الملك بيده الإحياء والإماتة».

### المظهر الرابع: الله تعالى هو الملك بيده الإحياء والإماتة

قال الله تعالى: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا  
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ...» [الأعراف: ١٥٨]، فزاد في ذلك هذا المعنى أنه عليه السلام له ملك السماوات  
والأرض وله الخلق وله الإحياء وله الإمامة. وكل ذلك لا يستطيع أن يدعنه أحد من  
ملوك الأرض، ولم يدعنه أحد إلا كذبًا. في قصة التمرود مع إبراهيم عليه السلام «قَالَ أَنَا أَحْيِي  
وَأَمِيتُ» [البقرة: ٢٥٨]؛ لما حكم على اثنين بالقتل قال أنا أحسي وأميته: فعفا عن أحدهما على  
أنه قد أحياه، وقتل الآخر على أنه قد أماته!! فلم يكن ذلك على الحقيقة إماتة أو إحياء.

لذلك يَبَيِّن عليه السلام هذا المعنى: «يُحْيِي وَيُمِيتُ» - وهو الذي يُقوِّي قلب المؤمن كذلك  
ويجعله متعلقًا بربه - أنه لا يحييه أحد ولا يميته أحد إلا ربه عليه السلام، ولا يقدر على ذلك إلا  
الله جل جلاله، فكان ذلك توحيدًا لربه من هذا الوجه، وإيمانًا به عليه السلام من هذا المنطلق  
الذي به ينبع قلبه من في الأرض جميعًا، لا يقوم له فيها أحد، ولا يحييه أحد، ولا يخْشى  
أحدًا إلا الله عليه السلام. علم المرء إذن أن روحه بيد الله تعالى وأنه يحيي ويميت وأنه يخلق ما  
يشاء عليه السلام; وليس ذلك فقط بل زاد على ذلك أن له الملك وله الرزق.

### المظهر الخامس: الله تعالى هو الملك يملك الرزق

ليس له الملك فقط، بل له الملك والرزق. فإن الملك يمكن أن يملك ولكنه لا  
يملك أن يرزق أحدًا، بل لا يملك أن يرزق نفسه فضلًا عن أن يملك لغيره الرزق،  
لذلك قال عليه السلام في الرزق: «فُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [يوس: ٣١] يعني: لا يملك الرزق  
إلا هو سبحانه وتعالى.

و كانت الآية المقابلة لها قوله ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَآشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [العنكبوت: ١٧] ..

فَأَمَّنَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى الْمُؤْمِنَ الْمُوَحَّدُ الَّذِي اطْلَعَ عَلَى هَذِهِ الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ هَذَا الاسم المشرف وهو «الملك»؛ أَمْنَهُ ﷺ من ناحية الإحياء والإماتة والخلق والعدم، ومن ناحية الشفاعة، ومن ناحية الرزق كذلك، فَإِنَّ الْمَرءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يَخَافُ عَلَى رِزْقِهِ وَيَخَافُ عَلَى مُسْتَقْبَلِهِ - كَمَا يَقُولُونَ - وَيَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ مِنْ وَقْعِ الْضَّرِّ بِهِ فَأَمَّنَهُ مِنْ هَاتِيْنِ الْمَسْأَلَتَيْنِ، يَحْيِي - هُوَ ﷺ - وَيُمْيِتُ، لَا يُسْتَطِعُ ذَلِكَ أَحَدٌ غَيْرَهُ ﷺ، وَكَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُ ..

قال تعالى: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمَمِير» [فاطر: ١٣] ..

وَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ تَدْعُونَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا؛ لَأَنَّهُمْ لَا يُسْتَطِعُونَ أَنْ يَرْزُقُوا أَنفُسَهُمْ؛ وَإِنْ جَاءَهُمْ مَرْضٌ أَوْ جَاءَهُمْ شَيْءٌ هُمْ أَنفُسُهُمْ لَا يُسْتَطِعُونَ شَيْئًا<sup>(١)</sup> ..

لَذِكَّ قَالَ أَيْضًا فِي هَذَا الْمَعْنَى - مَعْنَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ -: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تُحْكِمُ - وَيُمْيِتُ ..» [التوبَة: ١١٦] .. وَقَالَ تَعَالَى: «لَهُ مُلْكُ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تُحْكِمُ - وَيُمْيِتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [الْحَدِيد: ٢] ..

فَهَذِهِ الْآيَاتُ تُبَيِّنُ هَذِهِ الظَّاهِرَاتِ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَرءُ عَلَى بَيْنَهَا فِي تَوْحِيدِ الْمَرءِ لَهُ تَعَالَى بِهَا.

(١) وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يُسْتَطِعُونَ» [النَّحْل: ٧٣] ..

## المظهر السادس: الله هو الملك

يَهْبُ لِمَن يشاء إِناثاً وَيَهْبُ لِمَن يشاء الذُّكُورَ.. أَوْ يَزُوْجُهُم ذِكْرَانَا وَإِناثاً.. وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاء عَقِيمًا..

وإذا كان هو ﷺ يخلق ما يشاء وهو على كل شيء قادر، فهناك مسألة أخص من الخلق وهي في قوله: ﴿اللهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبُ لِمَن يَشَاء إِناثًا وَيَهْبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ۵۰، ۴۹] ..

ولا يملك أحد ذلك إلا هو ﷺ، فلو كان المرء عقيماً لا ينجيب فلا شك لو أنَّ الدنيا كلها اجتمعت على أن ينجيب فلن ينجيب، أو لو كان قد رزقه الله تعالى البنات فقط فلا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً حتى يرزقه الصبيانَ أو العكس وهكذا.

لذلك كانت تلك الآية تتمَّ لهذا المعنى من معاني تعلُّق القلب بالله تعالى، وإظهار مُلْكَ الله جَلَّ وعلا؛ أنَّ المرء إذا وقع في شيءٍ مما ذكرنا كان مردُّه التعلق بالله تعالى، وكان مرده إلى الله جَلَّ وعلا. وعلى العكس الناظر في حالنا يرى أنَّ كلَّ مُرادنا فيها أو تعلقنا فيها ليس بالله تعالى؛ بل تعلق الواحد منا بأنَّ يذهب إلى الطيب، أو أنَّ يذهب إلى من يُقيِّم له شيئاً، أو أنَّ يُعطِيه شيئاً، أو أنَّ يقرضه شيئاً، أو أنَّ يرفع عنه شيئاً، أو أنَّ يتولَّه في شيءٍ، أو أنَّ يُسْفِع له في شيءٍ. إذا علمت أنَّ الشفاعة والرزق والخلق والموت والإحياء وكل شيء لله تعالى فينبغي أن يستقيم قلبك له سبحانه تعالى، وينفرد قلبك بتوحيدِه ﷺ؛ وينخرج من قلبك كل شريك وزند إلا الله تعالى، فلا يشارك أحد ربِّك في قلبك؛ لا الدنيا ولا المال ولا الولد ولا الجاه ولا السلطان ولا الخوف ولا الخشية من غيره جل وعلا، بل كل ذلك له ﷺ.

## المظهر السابع: الله تعالى هو الملك واليه المصير

وكذلك له المرجع وله المصير؛ يعني: كل ملك في الدنيا لا يأمن على نفسه أن يموت غداً فيتهي أمره، أما الملك - ملك الملوك بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الملك.. مالك الملك جل وعلا، فيقول: **﴿وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** [المائدة: ١٨]، ليس ثم ملك في الدنيا من قبل أو من بعد أن حكم حكمه يرجع الناس مرة أخرى إليه بعد أن يموتونا مثلاً، بل على العكس كل ملك في الدنيا لا بد أن يموت؛ ثم مرجعه إلى الله تعالى ومصيره إليه، بل الدنيا كلها مرجعها إليه ومصيرها إليه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، بل رجوع الأمر كله لله جل وعلا كما قال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: **﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُونُ﴾** [الحديد: ٥].

هل ملك في الدنيا ترجع إليه الأمور، أو يصير ويرجع إليه الناس؟ لا شك أن ذلك لا يكون إلا لله تعالى. فيستعد الناس ملوكاً وغيرهم لهذا المصير.

## المظهر الثامن: الله تعالى هو الملك وهو على كل شيء شهيد

وهناك مظهر آخر من مظاهر ملك الله تعالى لا يستطيعه أحد إلا هو؛ وهو الملك مع الشهادة؛ يعني: أن الله على كل شيء شهيد. وهذه كذلك يُفارق فيها ملوك الدنيا..

قال تعالى: **«الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»** [البروج: ٩]، أليس كذلك؟ إذن له الملك وله الشهادة على ماليكه، وليس على ظاهرهم فقط، وإنما على ظاهرهم وباطنهم ويعلم السر وأخفي، وليس ذلك فقط، بل هو شهيد عليهم يعني: ناظر إليهم، مطلع عليهم، سميع بهم، فالشهيد هو من يشهد على غيره بما رأى أو بما

سمع، يعني: هو قد سمعهم ورأهم، كما ذكرنا عند شرح اسمه «الشهيد» سبحانه وتعالى<sup>(١)</sup>.

فمن الذي له شيء من ذلك في الشهادة؟ هل هناك ملك في الدنيا يستطيع أن يشهد خلقه وأن يحضرهم وأن يراهم يفعلون ويقولون ويتكلمون؟ وإن حضر أحداً في الظاهر هل يستطيع أن يحضر باطنهم وما كان وما يمكن أن يكون مما يفكرون فيه أو مما يمكن أن يحدث لهم بعد ذلك؟! لذلك هذه المسألة من ملك الله تعالى الذي يفارق فيها -كما أشرنا- ملك البشر، وليس كذلك فحسب بل هذه المسألة تعلمنا كيف يكون المرء مراقباً لربه ﷺ كما ذكر رسول الله ﷺ في تعريف الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(٢)</sup> ﷺ، وهذه تطلع القلب على هذه المعاني الحسنة التي يجب أن تسود قلوب المؤمنين وهي مراقبتهم لله تعالى، فإذا ما رأقوه ربهم جلّ وعلا كان ذلك مدعاةً إلى المسارعة إلى مرضاته والانكفاء عن زواجره ونواهيه ﷺ، وكذلك كان ذلك مدعاةً إلى إحسان العمل، وإحسان الإقبال عليه ﷺ، وأن يراهم حيث أمرهم وأن لا يجدهم حيث نهاهم، وأن لا يخرج منهم ما يغضبه جلّ وعلا، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى تراهم كذلك يُسارعون في مرضاته؛ عندما يرى المرء أن ربه ناظرٌ إليه أو شاهدٌ عليه فإذا به يُحسن العمل ويُبذل وقته وجهده، وينفي عن نفسه الملل والتکاسل والتلواني والتسويف وغير ذلك. وهكذا المرء في أمور الدنيا فإنك إذا رأيت من يطلُّ على رأسك

(١) راجع شرح اسم الله تعالى «الشهيد» وهو متوفّر في صورة صوتية على موقع الإسلام وغيره من مواقع شبكة (الإنترنت).

(٢) أخرجه الإمام البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، ومسلم [٩]، وغيرهما عن أبي هريرة رض مرفوعاً.

ووافقْ عندك أَجِدْتَ عَمْلَكَ وَأَخْلَصْتَ فِيهِ وَبَذَلْتَ لَهُ وَكُنْتَ عَلَى أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ التِي  
إِنْ رَأَكَ صَاحِبُ الْعَمَلِ أَجْزَاكَ فِيهَا وَأَعْطَاكَ فِيهَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ حَسْنَةِ الْعَطَاءِ  
وَجَزِيلِ الثَّوَابِ. فَهَذَا أَيْضًا مَظَاهِرُ مَلْكِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي لَا يُسْتَطِعُهُ أَحَدٌ كَمَا  
أَشَرْنَا.

### المظاهر التاسع: الله تعالى هو الملك لا شريك ولا ولد له

وَمِنْ مَظَاهِرِ مَلْكِهِ كَذَلِكَ نَفِي الشَّرِيكُ وَالْوَلَدُ؛ لَا يَكُونُ مَلِكًا أَوْ مَالِكًا لِلْمَلْكِ مِنْ  
كَانَ مَعَهُ شَرِيكٌ، فَهَذَا الْمَلْكُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَعَالَى. مِنَ الَّذِي يَدْعُونَ أَنَّهُ قَدْ خَلَقَ شَيْئًا فَتَمَلَّكَ  
فِي الْأُولَى وَالآخِرَةِ أَوْ فِيهَا كَانَ أَوْ فِيهَا هُوَ كَائِنُ الْيَوْمِ؟! وَكَذَلِكَ وَجُودُ الْوَلَدِ يَنْفِي الْمُلْكَ  
الْتَّامَ؛ لِأَنَّ وَجُودَ الْوَلَدِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَبَباً لِمِيراثِ هَذَا الْمَلْكِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَهُ  
مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» [الْحَدِيد: ۱۰]، كَيْفَ يَرَثُهُ غَيْرُهُ؟!

لَذَلِكَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِالذَّاتِ: «وَقُلْ لَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَخَذِ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ  
شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الْذُّلُّ وَكَبِيرٌ تَكْبِيرًا» [الإِسْرَاء: ۱۱۱]، أَيْ: قُلْ لَحْمَدُ اللَّهِ  
الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلْكِ؛ لِأَنَّهُ كَمَا قَالَ تَكْبِيرًا: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»  
[الْأَنْبِيَاء: ۲۲]، وَقَالَ أَيْضًا تَكْبِيرًا: «مَا أَنْخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ  
بِمَا حَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ» [الْمُؤْمِنُون: ۹۱]، وَكَانَتِ الْوَاقِعَةُ الْكَبِيرَى، وَقَالَ كَذَلِكَ:

(۱) وَهَاتَانِ الْآيَاتَانِ مِنَ الْأَدْلَةِ الْعُقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى انْفَرَادِهِ بِالْأَلوهِيَّةِ. وَقَدْ شَرَحْنَا كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ  
الْأَدْلَةِ فِي دروسِ تَوضِيحِ شَرِحِ الْعَقِيدةِ الطَّحاوِيَّةِ، وَهِيَ مُتَوْفَرَّةٌ فِي صُورَةٍ صُوْتِيَّةٍ عَلَى مَوْقِعِ طَرِيقِ  
الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْقِعِ عَلَى الشَّبَكَةِ الْعَنْكُوبِيَّةِ لِلْمَعْلُومَاتِ (الْإِنْتَرْنَتِ).

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ...﴾

[الفرقان: ٢]، كذلك اتخاذ الولد يدل على الضعف، ويدل على نفي الملك التام، لأنَّه يدل على طلب المساعدة والقيام بأوامره ومن يقوم له به ومن يضعه في محل ثقته حتى يكون سبباً لتيسير ملكه وتيسير أموره وأحواله، والله تعالى متزهٌ عن ذلك كله جلَّ وعلا.

المظہر العاشر: الله تعالى هو الملك . . ملوك الدنيا والآخرة وكل شيء بيده سبحانه وتعالى

ثم بعد ذلك قال المولى ﷺ: ﴿فُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ خَيْرٌ وَلَا يُحَاجَرُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المومنون: ٨٩، ٨٨].

وهذه المعاني في آيات الله تعالى نريد أن يطلع عليها الناس حتى إذا قرأها المرء اتضحت له هذه المعاني التي لم يكن يخطر بباله أن تقع في سياق تأمله لكلام الله تعالى، وكأنَّ الله تعالى لم يدع شيئاً يمكن أن يكون في ملكه إلا وقد وضَّحَهُ ما يدل على قيام الملك وتمام القدرة على هذا الملك ونفي قدرة أحد على أن يكون له شيء في مثل هذا الملك أو في مظاهر ذلك الملك لله تعالى، حتى يعلم المرء أن له ملِكًا قوياً قادرًا بِهِ يغفر، ويُثيب، ويُعذِّب ويُؤَاخِذ ويرحم، وكذلك هذا الملك يَرْزُقُ ويخلق ويُحيي ويميت ويَمْلِك الشفاعة جميعاً، كل ذلك إذا علمه المرء اطلع على هذه الروضة الجميلة من معرفة رب بِهِ، وانشرح صدره وخفت أثقاله وازداد تعلقه بربه وصفاته توحيده بالله تعالى فنبذ المخلوقين والنظر إليهم والالتفات إليهم والخوف منهم والرجاء فيهم وانتظار أي شيء يأتي من خلفهم، بل كل انتظاره وكل أمله وكل تعلقه وكل طلبه وكل دعائه من الملك بِهِ، فصار بذلك عبداً جديداً مؤمناً متعلقاً بربه، يملك كل شيء؛ لأنَّه كما ذكرنا

من قبل: من كان الله له كان له كل شيء وصار كل الملكوت - كما أشرنا - له، هذا الملك في الدنيا والآخرة له. وملك الآخرة هو الملك على الحقيقة؛ لأنه إذا أدعى أحد في الدنيا أنه يملك شيئاً فلا يستطيع أن يدعي ذلك في الآخرة، بل الكل - كما ذكر رَبِّكُمْ - خاشعون لله جلّ وعلا، قال تعالى: «وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِرَحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا»

[طه: ١٠٨]

يقول في ملكه يوم القيمة: «قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» [الأنعام: ٧٣]، وقال: «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ» [الحج: ٥٦]، وقال: «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِرَحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا» [الفرقان: ٢٦]، وقال: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» [غافر: ١٦]، فدلت هذه الآيات على أن الملك عند النفح في الصور له، والملك يوم القيمة له: يقول أين ملوك الأرض. فلا يحييه أحد، فيقول: من الملك اليوم؟ فلا يرد أحد، فيرد هو على نفسه رَبِّكُمْ ويقول: الله الواحد القهار. ويقول: الملك يومئذ الحق للرحمٰن؛ أي على الحقيقة الملك الثابت الدائم الذي لا يتغير إنما هو الله، ومن كان في الدنيا يملك شيئاً جاء يوم القيمة فقيراً كما خلقه ربُّه وكما ولدته أمُّه لا يملك شيئاً.

## ثانيًا: ثناءُ الْمَلِكِ عَلَى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

لذلك قال المولى ﷺ يعظُّ نفسه ويُشَيِّعُ عليها بعد أن ذكر كل هذه المظاهر من مظاهر مُلكه جلَّ وعلا: **«فَتَعَلَّمَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...»**، تعالى الملك ﷺ؛ تعالى وتقديس، وجَّلَ وعلا، فتعالى الله الذي له الدرجات الرفيعة ﷺ في نفسه: **«رَفِيعُ الْدَّرَجَاتِ دُوِّنَ الْعَرْشِ»** [غافر: ١٥]. قوله ﷺ: **«فَتَعَلَّمَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ»** ذكره في آيتين:

الأولى: **«فَتَعَلَّمَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ...»** [طه: ١١٤].

والثانية: **«فَتَعَلَّمَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»** [المؤمنون: ١١٦].

وختـمـ بـآيـةـ جـيـلـةـ الـعـنـىـ مـنـ الآـيـاتـ الـتـيـ تـبـيـنـ مـلـكـهـ ﷺـ؛ـ وـهـيـ مـنـ الآـيـاتـ الـتـيـ يـقـفـ المرءـ عـنـدـهـ مـتـحـيرـاـ شـدـيدـ التـحـيرـ وـهـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:

**«ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمَمِيرٍ<sup>٢٣</sup>  
إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشَرِّكُمْ وَلَا  
يُنَتِّئُكُمْ مِثْلُ حَبْرٍ<sup>٢٤</sup> يَأْتِيْكُمُ النَّاسُ أَتَتْمُ الْفَقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ...»** [فاطر: ١٣-١٥].

من عادة القرآن الكريم أنه دائمًا يأتي بالنتيجة في وسط المقدمات لها؛ يعني: الترتيب المنطقي في علم البشر أن يأتي بالمقدمات ثم يصل بك إلى النتيجة، أما القرآن فلا؛ القرآن يأتي بمجموعة مقدمات ثم يأتي بالنتيجة ثم يأتي ببعض الأدلة الأخرى بعد النتيجة تبيّن قيمة هذه النتيجة، فتأتي النتيجة في الوسط لترتبط هذه المقدمات التي كانت والمقدمات التي ستأتي ليُبيّن لك بهذه الأدلة الواضحة هذه النتيجة التي يصل إليها القرآن.

قال ﷺ: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ...» [فاطر: ۱۳].. الآيات التي قبل هذه الآية كلها في معنى قوله تعالى: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ...» كما سترى، قال ﷺ: «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرَّبِيعَ فَتَشَيَّرُ سَخَابًا فَسُقْنَتْهُ إِلَى بَلَدِ مَيْتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ» منْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلَلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْبَدُ الْكَلْمُ الْطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الْصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ الْسَّيِّئَاتِ هُمْ عَذَابُ شَدِيدٍ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ» [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْجَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُثْنَى وَلَا تَضُعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعْمَرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ] وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَابٌ فُرَاتٌ سَاعِيٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مَلْحُ أَجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَأْكُلُونَ لَخَمَّ طَرِيقًا وَتَسْتَخِرُ جُونَ حَلَيَّةَ تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ] يُولُجُ الْأَيْلَلِ فِي النَّهَارِ وَيُولُجُ النَّهَارَ فِي الْأَيْلَلِ وَسَخَرَ الْشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ شَجَرٍ لَا جَلِيلٌ مُسْئِي ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَطْمَمِيرٍ» [فاطر: ۹-۱۳].

بل لو رجعنا قبل هذه الآيات الأخيرة نجده ﷺ يقول: «أَحْمَدُ اللَّهُ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَئِيْ أَجْيَحَةٍ مُثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبِيعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكَ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] [فاطر: ۱، ۲]، فهاتان الآياتان أيضاً في معنى قوله ﷺ: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ...» .. فالذى يقرأ هذه الآيات يتبيَّن له أنَّ كُلَّ هذه الآيات جاءت لتختتم هذا النسج العظيم لهذه المعاني التي تتضح منها في نهاية المطاف صورةً ما أعظمها مُلْك الله تبارك وتعالى، فإذا تأملت هذه الصورة العظيمة وحاولت أن تتدبر شيئاً من هذه الآثار وتلك المظاهر من مظاهر الملك فلا بد أن تقول في النهاية «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ...».

ذكرنا أن غالب آيات القرآن يأتي بالنتيجة؛ وهي من المفروض أن تأتي في النهاية ولكنها جاءت في الوسط؛ لماذا؟ قال: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَطْمَرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُو اذْعَاءَكُمْ وَلَوْ سِمِعُوا مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشَرِّكُمْ وَلَا يُنَتَّهُكُمْ مِثْلُ حَبِيرٍ» فبين الوجه المقابل الذي به تميز كذلك مظاهر قدرة الله تعالى وقوته في استئنافه لدعائهم وإجابتهم لتضرعهم إلى أن قال: «يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ» [فاطر: ۱۵، ۱۶]، كذلك هذه الآية أتت<sup>(۱)</sup> - بعد تقرير هذه النتيجة في وسط تلك الآيات العظيمة التي أشار إليها - لتبيّن تفصيلها هذه القضايا من قضايا مُلْك الله تعالى العظيم، «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ...» أي هذا هو ربكم الذي يجب أن تنظروا إلى أسمائه وصفاته وإلى آثار قدرته ومُلْكه وإلى بديع صنعته ونظامه عزوجل، وإلى بقية ما يتعلق بهذه الآثار وتلك الصفات التي يختار فيها العقل أو ينشرح بها الصدر ويتوحد بها القلب الله تعالى ويكون بعد ذلك على هذا الحال من محبة الله تعالى.

### (فوائد)

#### الأول: الترهيب الشديد من التسمي بـ«ملك الملوك» ونحوه:

ولما كان الله تعالى كما قال عن نفسه جل وعلا: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ...» .. إذا به عزوجل ينهى عن التسمية بملك الأملال كما جاء في الحديث: «إِنَّ أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ يَوْمَ

(۱) أي: آية «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ...» [فاطر: ۱۳].

القيامة عند الله رجلٌ سَمِّيَ بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ»، وهذه الرواية في الصحيحين<sup>(١)</sup>؛ في رواية مسلم: «لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>، وجاء في رواية مسلم: «أَغْيِظُ رَجُلًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيِظُهُ عَلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ» «شاهنشاه» مثلاً أو يقول «ملك الملوك» أو غير ذلك من الألفاظ التي كان يطلقها ملوك الأرض على أنفسهم، قال هذه أخبث الأسماء وأغطيتها، و«أختن الأسماء» يعني: أذلها، وإن كانت الأسماء ذليلة فصاحبها أذل عند الله تعالى؛ لأنه إذا كان «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ» فلا يجوز لأحد أن يتسمى بذلك إلا هو؛ لا مالك إلا الله ﷺ. لذلك يقول ﷺ: «اشتد غضبُ الله على رجلٍ سَمِّيَ بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ؛ لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٣)</sup>، ولذلك أظهر الله تعالى ذُلّهم يوم القيمة من إغلاق أبواب السماوات بينه وبينهم واحتاجابه عنهم وأنه تأتي مغلولةً أيديهم إلى أنفاسهم ويحرمون الشفاعة إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث التي سنذكرها في الفائدة التالية.

## الفائدة الثانية: ترهيب الولاة والملوك من الظلم وعدم العدل وقضاء حاجة الرعية:

علمت إذن أن باب الله تعالى مفتوح وأن رزقه واسع، وله الشفاعة، ويحيي ويميت، ويغفر ويعذب، ويهلك من يشاء ﷺ، وهو السلام المؤمن إلى آخر المعاني التي أشرنا؛ إذا به يقول ينبغي حينئذ لكل من أعطاه الله تعالى مُلْكًا في هذه الحياة الدنيا أن يكون على هذا

(١) رواه الإمام البخاري [٦٢٠٦] ومسلم [٢١٤٣] واللفظ له من رواية أبي هريرة ﷺ.

(٢) صحيح الإمام مسلم [٢١٤٣].

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٤٩٢ / ٢] عن ابن عباس ﷺ مرفوعاً إلى النبي ﷺ، قال الشيخ شعيب في التحقيق: «صحيح وهذا إسناد منقطع».

الوصف الذي أراده الله تعالى له؛ لذلك: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَاحْتَجَبَ دُونَ حَلَّتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ وَفَقَرُّهُمْ وَفَاقَتِهِمْ احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دُونَ حَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَفَقَرُّهُ وَفَاقَتِهِ»<sup>(١)</sup>؛ وفي الشفاعة: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَاهَا شَفَاعَتِي: إِمَامٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ»<sup>(٢)</sup>؛ إلى آخر هذه المعاني فيها.

(١) أخرجه أبو داود بنحوه [٢٩٤٨]، والحاكم [ح: ٧٠٢٧] وقال: «صحيح الإسناد»، قال الذهبي في التلخيص: «صحيح». وصحح إسناد الحاكم ابن الملقن في البدر المنير [٥٦٨/٩] دار الهجرة - الرياض.

قال في عون المعبود: [«خَلَّتِهِمْ» بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام: الحاجة الشديدة. والمعنى: منع أرباب الحاجات أن يدخلوا عليه ويعرضوا حاجاتهم. قيل: «الحاجة» و«الفقر» و«الخلة» متقارب المعنى، كُرر للتأكيد. ] اهـ. وفي آخر هذا الحديث أن معاوية رض لما سمع هذا الحديث جعل رجالاً على حوائج الناس.

(٢) رواه بنحوه الطبراني في الكبير [ح: ٨٠٧٩] عن أبي أمامة رض مرفوعاً، قال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني في الكبير ورجله ثقات. اهـ. قال المناوي في الفيض: «إمام» أي: سلطان، «ظلم» أي: كثير الظلم للرعية. «غشوم» أي: جاف غليظ قاسي القلب ذو عنفٍ وشدة.

### ثالثاً: كل مظاهر الملك مسلوبة عن غيره سبحانه وتعالى

ونأتي إلى المعنى المقابل وهو أن الله تعالى إذا كان قد ملك السموات وما بينها وإليه المصير وإليه ترجع الأمور ويفتر من شاء ويعذب من يشاء وله الشفاعة جميعاً وينخلق ما يشاء ويرزق من يشاء يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّمَا يَعْلَمُ مَا بِكُلِّ الْفَلَقِ; إذا كان كل ذلك من مظاهر ملكه قال: **﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَطْمَرٍ﴾** فكل هذه المظاهر من مظاهر الملك مسلوبة عنهم، وهذه مسألة جميلة ذكرها القرآن بالتفصيل كما سيأتي:

#### ١- نفي الملك والشفاعة عن غيره سبحانه وتعالى

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِيكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْرَكَ لَهُ...﴾** [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وقال: **«أَمْ أَخْنَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَائِنُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾** [الزمر: ٤٣]. وقال: **«لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أَخْنَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾** [مريم: ٨٧]، وقال تعالى: **«وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ...﴾** [الزخرف: ٨٦]

هذه الآيات في الملك والشفاعة؛ ولا يملكون مثقال ذرة ولا يملكون من قطمير، ولا يملكون شيئاً من الشفاعة بل لله الشفاعة جميعاً.

#### ٢- نفي الرزق عن غيره سبحانه وتعالى

قال: **«وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾** [التحل: ٧٣]، يعني: لا يملكون فلا يستطيعون، لم ينفع عنهم الملك فقط؛ فالمرء

من الممكن أن لا يملك لكنه يستطيع بعد ذلك أن يتملك؛ قال: لا؛ لا يملكون ولا يستطيعون، **﴿فَابتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ...﴾** [العنكبوت: ١٧]، وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾** [العنكبوت: ١٧]، فأرجح عقلك وقلبك وابتغِ عند الله تعالى وحده الرزق، وتوكل عليه بِهِ، وارتكن إليه، ولا تحف على نفسك ويومك فضلاً عن مستقبلك الذي لا تعلمه ولا يعلمه إلا الله بِهِ، ووظف قلبك على توحيد رب حيئند، وعلى إفراده بِهِ بالتوكل واليقين والثقة، وأنه منها كان لك من رزق فإن الله تبارك وتعالى معطيه لك في الدنيا قبل أن تذهب إلى الآخرة.

### ٣- نفي ملك الإحياء والإماتة عن غيره سبحانه وتعالى

وقد ذكرنا كذلك أن من ملكه بِهِ أنه يحيي ويميت.

وعلى عكس هذا المعنى: قال بِهِ في الأنداد والأشباه والدنيا كلها: **﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾** [الفرقان: ٣]، فنفي عن غيره بِهِ ذلك كله وفي نفس الوقت أثبت لنفسه بِهِ كل هذه المعاني من معاني الملك وأثاره حتى لا يدع أحد أنه يملك شيئاً. وبهذه المعاني وأضدادها تكتمل الصورة كما بينَ الله تعالى.

### ٤- نفي الضر والتفع عن غيره سبحانه وتعالى

وبينَ مسألة أخرى كذلك - وهذه المسألة متكررة في القرآن كثيراً - وهي نفي النفع والضر عن غيره بِهِ، يقول المولى تعالى: **﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا...﴾** فلا يملك أحدُ الضَّرَّ والنَّفْعَ إِلَّا الله بِهِ، حتى يستيقن المرء - باستكمال هذه الصورة التي

بَيْنَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَلِكُ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْرَتِهِ - أَنَّهُ لَا يُسْتَطِعُ أَحَدًا أَوْ أَنْ يَنْفَعُ أَحَدًا، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ مَرْدُوهٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى تُسْتَقِيمَ الْقُلُوبُ حِينَئِذٍ عَلَى تَوْحِيدِهِ جَلَّ وَعَلَا فَيُخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْقُلُوبِ كُلَّ خَوْفٍ أَوْ خَشْيَةً أَوْ رَجَاءً فِي غَيْرِهِ تَعَالَى، وَتَكُونُ هَذِهِ الْقُلُوبُ خَالِصَةً لَهُ، سَلِيمَةً بِهِ تَعَالَى، لَذَلِكَ قَالَ:

**﴿فُلُّ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُولَبِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**  
 [المائدة: ٧٦]، وَهَذِهِ مَوْجَهَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ شَائِبَةٌ مِنْ ذَلِكَ؛ وَهَذِهِ الْآيَاتُ - آيَاتُ الضرِّ وَالنَّفْعِ - كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ؛ بَلْ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا ذَكْرٌ ذَكْرٌ كَذَلِكَ عَنْ أَنْبِيَائِهِ حَتَّى لَا يَظْنَ الظَّاطَانُ أَنَّ النَّبِيَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى يَنْفَعُهُمْ أَوْ يَضُرُّهُمْ، فَيُخْرِجُهُ ذَلِكُ الظُّنُونُ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ لَا حَتَّى النَّبِيُّ تَعَالَى نَفَى عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ؛ لِيَكُونَ كُلُّ ذَلِكَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، حَتَّى لَا يَتَوَهَّمُ أُولَئِكَ الْمُشْرِكُونَ لَمَا أَسْلَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ تَعَالَى يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ النَّفْعِ أَوِ الضرِّ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى؛ حَتَّى لَا يَظْنُوا ذَلِكَ فَتُسْتَقِيمَ قُلُوبُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ... عَلَى تَوْحِيدِهِ وَحْدَهُ... عَلَى أَنَّهُ الْمَالِكُ وَحْدَهُ تَعَالَى.

لَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ تَعَالَى كَمَا ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: **﴿فُلُّ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنَّ الْسُّوءُ...﴾** [الأعراف: ١٨٨]، وَقَالَ أَيْضًا: **﴿فُلُّ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾** [يوحنا: ٤٩]، **﴿فُلُّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَداً﴾** [فُلُّ إِنِّي لَنْ يُحِبِّنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً] [الجن: ٢١، ٢٢]، قَالَ لَهُمْ تَعَالَى: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ذَلِكَ بَلِ الَّذِي يَمْلِكُهُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، حَتَّى تَنْخُلُعَ قُلُوبُهُمْ إِلَيْهِ، وَتَنْخُلُعَ قُلُوبُهُمْ مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى وَلِيَكُونُ تَوْحِيدُهُمْ كُلَّهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا.

### (لطيفة)

## لماذا لم تنفِ الآيات ملك المغفرة والتعذيب عن غيره تعالى؟

هذه الصورة التي بيّنها الآيات القرآنية ملك الله تعالى وبينَت مظاهر هذا الملك العظيم، وكذلك العكس: وهو أن الذين يدعون شيئاً منها لا يملكونها على الحقيقة. وقد يسأل سائل: قد فصلت الآيات في أنهم لا يملكون كل ما ذكر الله تعالى من آثار ملكه فلماذا لم تذكر المغفرة والتعذيب؟ والجواب: لأن أحداً لم يدع أنه يمكن أن يغفر لأحد ولا أن يعذب أحداً في الآخرة أو في الدنيا بما يترتب عليه شيء في الآخرة، لذلك لم يذكرها المولى تعالى؛ لأنها لا تحتاج إلى ذكر.

كما أن هذه الآيات لها ميزة أخرى - كما أشرنا - وهي كيف يطلع المؤمنون على كلام الله تعالى وأن ينظروا في هذه الآيات لتكون مددهم ولتكون صلتهم بربهم ولتكون الواحة الجميلة التي يطعون منها على توحيد ربهم بأسمائه وصفاته جلّ وعلا وأن تشرح وتنفس بها صدورهم وقلوبهم كما ذكر الله جلّ وعلا.

### (موعظة)

إذن هذه دعوة إلى التدبر كذلك بعد التوحيد والتعلق بالله تعالى، وأن يأخذ المرأة حظَ قلبها ونفسها من هذه الآيات، وأن يُنزل كل آية من هذه الآيات على أمراض قلبها؛ ليستشفي بها، فإذا كان مرض قلبها في الرزق، تأمل قوله تعالى: «فُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ آلَسَمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» [سـ[٢٤] ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ] [فاطر: ١٣] ، «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا» [العنكبوت: ١٧] ،

وإذا كان مرضه في التعذيب والمغفرة، تأمل قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ..

وهكذا في كل هذه المسائل التي ذكرنا: في الخلق.. في الرزق.. في المغفرة.. في التوبية.. في الشفاعة.. كيف يُنَزَّلُ هذه الآيات الكرييات على أمراض قلبه ليصح هذا القلب؛ ليكون هذا القلب قلباً سليماً ينفع صاحبه يوم القيمة.

وأعظم من ذلك كله أن يوحد المرء ربها بأسمائه وصفاته بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، وذلك الدين الحق الذي يجب أن يجاهد المرء نفسه عليه وأن يسعى له وأن يبذل له كل وقت وكل نفيس وكل غالٍ ليُحَصَّلَ شيئاً منه؛ فإن حَصَّلَ شيئاً منه كان هو الأقرب إلى الله؛ فيعرف أن الله قد فتح عليه، وأن الله أحبه، وأن الله قَرَبَه، وأن الله رفع درجته وأعلا منزلته، وأن الله تبارك وتعالى اصطفاه واجتباه.



الفصل الرابع

الشرح التفصيلي لبعض الآيات الواردة

في معاني أسماء الله تعالى

«الملك والمالك والمليك»

## أهمية دراسة الآيات القرآنية في معرفة أسماء الله تعالى وصفاته العلية

لقد بيَّنَ القرآن الكريم الجوانب المهمة من معاني أسماء الله وصفاته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ والذي يجب أن يفهمه المرء في هذا السياق القرآني هو الكيفية التي ذكر بها القرآن العظيم هذه الأسماء، وما حظ المؤمن من هذه الأسماء وكيف ينبغي أن يوحد ربه ويعبده ويدعوه بها؟

وأعظم من تكلم عن هذه الأسماء هو القرآن الكريم؛ لأن القرآن كلام الله، فالله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هو الذي وصف نفسه بذلك، وهو الذي أطلعتنا على هذه المعاني؛ لذلك كان الاهتمام بورود هذه الأسماء في القرآن الكريم هو المقام الأول الذي ينبغي الاهتمام به والوقوف عنده.

ونرجع إلى الآيات الواردة في القرآن الكريم المتعلقة باسمه المعظم «الملِك» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، والتي سبق وأن حصرناها في الفصل السابق تقريرًا؛ وذكرنا عندها ما يتعلّق بها من آثار الملك.

وذكرنا أنَّ من آثار الملك أنَّ الله - تعالى - يملك الدنيا والآخرة؛ ويملك الناس، ويملك كُلَّ شيء في الظاهر والباطن، وكذلك يملك الشفاعة في الآخرة، ويملك الخلق والإحياء، والإماتة والمغفرة، وعدَّنا كثيرًا من الأمور التي لا يملكها إلا الله وحده بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

ونشرع الآن - بحول الله وقوته - في الشرح التفصيلي لبعض الآيات التي سبق وأن أشرنا إليها إجمالاً في الفصل السابق:

أولاً: قوله تعالى: «مَالِكٌ يَوْمَ الدِّين»<sup>(١)</sup>

المتأمل للآيات الكرييات في سورة الفاتحة يجد أن هذه الآية الكريمة لها علاقة بها سبقها من الآيات.. فقد قال ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» [الفاتحة: ٢-١]، فوصف نفسه ﷺ في هذه الآيات بثلاثة أوصاف: «الرحمن» و«الرحيم» و«الرب»، ثم أتبعها في هذه الآية بوصف رابع فقال: «مَالِكٌ يَوْمَ الدِّين» [الفاتحة: ٤]، كما هي في قراءة، أو «مَالِكٌ يَوْمَ الدِّين» كما هي في قراءة أخرى. والقراءتان متواترتان.

ومالتدير لهذه الآيات يجد أن إتباع هذا الوصف «مالك» أو «ملك» بعد هذه الأوصاف الثلاثة التي ذكرنا ليس لمجرد سرد هذه الصفات، بل هو مما أثارته هذه الصفات المتقدمة «الرب والرحمن والرحيم» لذلك كان المعنى التالي لها أنه «ملك يوم الدين».

وذلك لأن المرء عندما يعرف أنَّ الله هو الرحمن، وهو الرحيم، وما يتقتضيه ذلك من أن الله تعالى قد أقام عباده على الرحمة وشرع لهم القيام بالمصالح على الرحمة، وهو الرب الذي يعني بعباده، وأن الله تعالى قد شرع لهم من المصالح والتکاليف على الرحمة التي تُعِينُهم على تحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة - قد يظن أنَّ الأمر كله يمضي على الرحمة فيُطْمِئِنُّهم بذلك في التَّخَفُّفِ من هذه التکاليف، أو في ترك هذه التکاليف؛ فلما كانت هذه

(١) انظر - بتصرف كثير: تفسير التحرير والتنوير للعلامة الطاھر بن عاشور رحمه الله، تفسير الآية الرابعة من سورة الفاتحة، أوج ١ / ص ١٧٣ - ١٧٧، دار سحقون للنشر والتوزيع، تونس.

الأوصاف المتقدمة خِيفَ منها أن تثير أطهاعهم في العفو، ويمتلكهم الطمع، فيتركوا هذه التكاليف ويتخففوا منها؛ جاء قوله تعالى: ﴿مَنْلِكٌ يَوْمَ الْدِينِ﴾ لِيُبَيِّنَ لهم أنه اليوم الذي تُجزى فيه كل نفس بما كسبت؛ لأن اليقين بالجزاء على الفعل سببٌ في الامثال للطاعة والابتعاد عن المعصية من أجل حفظ مصالح العباد والعالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد<sup>(١)</sup>، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيمة؛ لأن الجزاء على الفعل سببٌ في القيام بالطاعات والاجتناب للمحرمات؛ لأن الله يأمر بالعدل والإحسان، وحسن معاملة الخلق.

لكن لماذا اختير وصف «ملك» أو مالك مضافاً إلى يوم الدين؟ ..

أما وصف «ملك» بعد صفات «الرحمة، والربوبية، والرحمن»، ليشير إلى أن الملك هنا مؤذنٌ بإقامة العدل، وعدم الهوادة فيه؛ لأن شأن الملك أن يدبر صلاح الرعية، وأن يُذبَّ<sup>(٢)</sup> عنهم؛ لذلك أقام الناس الملوك عليهم، وإلا كانت فوضى وكانت عبثاً، وكانت الأمور تجري على الاختلال، وترتكب النظم، وهلك العالم.

ولو قيل: «ربٌ يوم الدين» لكان فيه طمع للمشركين؛ لأن من شأن الرب الرحمة، ولو جدوا فيه فرحة وراحة لهم؛ كما أن فيه معنى قيام الرب على خلقه من هداية المربوبين والقيام على مصالحهم؛ فكان فيه مفسدة لما مرّ.

(١) «ال وعد» تشعر به وتحس في الثلاث الأولى بذكر أوصاف «الرحمن» و«الرحيم» و«الرب»، أما «الوعيد» فتشعر به وتحس في الوصف «مالك - أو ملك - يوم الدين».

(٢) أي: يدفع عنهم ويعفيهم. انظر المعجم الوجيز مادة [ذب ب].

لذلك فإن دلالة الوصف بـ«ملك» هنا معناها القيام على البشر بالعدل وعدم ترك المسيء، وكذا لتحذير العباد من المعاشي والاجتراء على المحرمات.

وأما الوصف بـ«مالك» فمثيل «ملك» في إشعاره بإقامة الجزاء على أوسط<sup>(١)</sup> كفياته على أفعال المحاسبين؛ فالمعنى أن الله هو الملك يقيم العدل في الملك، وهو الملك الذي يقيمه على أوفق<sup>(٢)</sup> كفياته التي يُحيزى عليها.

فإذا كان إجراء الأوصاف السابقة مشعرًا بأن جميع تصرفات الله فيها رحمة؛ فقد كفى ذلك في حثّ العباد على الامتثال للأمر والانتهاء عن المحرم والنشاط للعمل الصالح؛ إذ المرء لا يخالف ما هو رحمة به، فلا جرم أن يتمثل للشريعة في اختياراته وأعماله.

والمحاطبون مراتب، منهم:

المরتبة الأولى: من لا يهتدي بفهم ذلك إلا بعد تعقيب تلك الأوصاف بهذا الوصف؛ أي أن منهم من لا يهتدي إلى أن هذه التكاليف في مجملها رحمة به إلا إذا ذكر الشدة، فيعرف أن هذه الشدة هي التي تحمله على إقامة التكاليف التي فيها الرحمة.

المরتبة الثانية: ومنهم من يهتدي بفهم ذلك، ولكنه يظن أن فعل الملائم له رحمة به، أي أنه عندما يجد الشيء يناسبه يعمله على ما يناسبه هو لا على ما يناسب الشرع، ويظن أن في ذلك الرحمة التي قررها الشرع؛ مثل أن تتحدث مع أحدهم ناصحًا له وتدعوه إلى

(١) الأوسط من كل شيء بمعنى: الأعدل. انظر الوجيز مادة [وس ط].

(٢) وافق الشيء: ما لاءمه، فالآوفق: الأكثر ملائمة للحال. انظر الوجيز مادة [وف ق].

الخير وإلى ما فيه رشده وصلاحه، فيقول لك: «ربنا غفور رحيم، وأنا أعمل على قدر استطاعتي» !!

فيظن أنه عندما ي العمل ما يلائمه هو في نفسه، ولا يلائم الشرع، فهذه رحمة من الله تعالى، كأنه يقول ذلك، فالكثير يعتمد على رحمة الله تعالى، فيفعل ما يمكن أن يناسبه هو وانتهت المسألة، بغض النظر عن أن هذا العمل هل يناسب الشرع أم لا؟!

وتجد - مثلاً - شخصاً يزعم أن رجله مُتعبة قليلاً؛ فيصل إلى جالساً، وعندما تقول له: إن هذا شيء بسيط، ويمكنك أن تصلي قائماً، كيف تفعل ذلك؟<sup>(١)</sup> يقول لك: «ربنا غفور رحيم». وتجد بعضهم يزعم أنه لا يستطيع الصوم، على الرغم من كونه قادرًا على الصيام! وكذا في بقية الأفعال الشرعية. فمنهم من تجده يكذب، فتقول له: أنت تكذب؟! يقول لك: «هذه كذبة بيضاء، وربنا رحيم»؛ فكأنه يظن أن الملائكة لنفسه هو تلك الرحمة من الله تعالى، وينحرج بذلك عن مقتضى الرحمة في الشرع؛ وليس هذه الرحمة التي يريدها الله تعالى.

لذلك يذكر هذا الشخص بقوله تعالى: «مَلِكُ يَوْمَ الدِّينِ» وأنه سوف يحاسب؛ لذلك تجد المكلفين مراتب: هناك أناس تحملهم على الرحمة وتبشرهم بها؛ فيتمثلون أوامر الشرع، ويحافظون عليها، وبعضهم تذكر له رحمة الله، فيجمع بين الصالحين معًا، ويترك السنة، وربما يكذب؛ لذلك هذه المراتب لم يتركها الشرع لكل أحد يفعل ما يلائم نفسه ظنًا أن هذه الرحمة من الله تعالى.

(١) والمعلوم أن القيام في صلاة الفريضة ركن من أركان الصلاة عند القدرة عليه وإنما بطلت الصلاة، ولا يسقط هذا الفرض إلا بضوابط حدتها الشرع الحنيف لا يتسع المقام لذكرها هنا.

فالرحمة المقصودة من الرب تبارك وتعالى هي المقتضية للقيام بهذه المصالح المتعلقة بالشرع، والتي يبيّنها الشارع، وليس هي التي تلائم نفسك أو لا تلائمها، لا؛ وإن كل ما قرره الشارع هو الرحمة؛ لماذا؟ لأنه عندما يطالب العبد بالجهاد مثلاً؛ تجد من يقول: «لا، أنا لا أستطيع، وهذا فيه موتي، وفيه كذا وكذا»، فلو كانت الرحمة ما يلائمك فسوف تتحفف من التكاليف الشرعية وتتركها، وتقع بعد ذلك في المكره والمحرم وعصيان

الرب ﷺ.

لذلك قوله تعالى: «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» يشعر بقيام العدل وعدم الهوادة فيه، والقيام بالجزاء على أعدل كيفياته؛ ليحاسب كل نفس بما كسبت.

وهذا الكلام يدلنا في نهاية المطاف على عظمة هذا الاسم المشرف؛ لكون هذا الاسم المشرف حاملاً للمرء على التزام الشرع، وعلى امتثال أوامرها واجتناب نواهيه، وعدم الاتكال على بعض الصفات، وترك بعض الصفات من صفات الرب ﷺ، ولذا فهذا الاسم يقوم عليه الناس في تحقيق أسباب نجاتهم وأسباب صلاحهم في الدنيا، وكذلك على أسباب سعادتهم في الآخرة.

وربما علم العبد جميع ما تشتمل عليه التكاليف من المصالح، ولكن ملكته شهوته، وغلبت عليه شقوته؛ فهذا مظنة الإعراض عن التكاليف الشرعية، ولأمثاله جاء هذا الوصف في قوله تعالى: «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» فكل من كان مظنة أن يتخفف من التكاليف الشرعية، وأن يترك هذه الأوامر، وألا يتمثل بها جاء تعقيب الصفات الماضية من «الرب» و«الرحمن» و«الرحيم» بهذه الصفة «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» تذكيراً لهم بما سيحصل من جراء يوم الحساب، حتى لا يفسد المقصود من التشريع حين تتلقفه أفهم كل متأنٍ؛

إذ لو أن كل واحد من البشر أخذ الرحمة على وفق مزاجه وهواء لفسد المقصود من التشريع الذي شرعه الله تعالى لإقامة مصالح الدنيا والآخرة بسبب تأويلاً لهم، فجاء هذا الاسم «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» ليذكرهم بما سيكون من جزائهم يوم الحشر؛ حتى تستقيم مصالحهم، وحتى لا يفسد المقصود من التشريع، وحتى تقام هذه التكاليف.

ثم إن في تعقيب قوله: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» [الفاتحة: ٣] بقوله: «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» معنى جديداً وإشارة إلى أنه ولي التصرف في الدنيا والآخرة؛ وهذه دلالة للمرء ليكون على يقين أن الله تعالى هو ولي التصرف في الأولى والآخرة؛ عندما يقول لك أنه هو «الرحمن الرحيم»، ثم يقول لك أنه هو «الملك» وينسب الملك إلى يوم الدين دلّ كل ذلك على أن الملك على الحقيقة سيكون يوم الدين.

وهذا دليل وإشارة إلى أنه مالك الدنيا ومالك الآخرة ﷺ؛ دليل وإشارة على أنه وحده ولي التصرف في الدنيا والآخرة؛ وأن كمال التصرف ومطلقه في الدنيا والآخرة إنما هو له ﷺ؛ التصرف في الأولى مثل التصرف في الخلق بالإحياء والإماتة والرزق، والإعطاء والمنع، والقبض والبسط، والرفع والخفض، والعز والذل، كما ذكر ﷺ في الآية التي أشرنا إليها:

﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُنْذِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ ﴾ تُولِجُ الْأَيْلَلِ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارِ فِي الْأَيْلَلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧، ٢٦]

كل ذلك يدل على أنه هو ولي التصرف في الأولى والآخرة ﷺ.

و يوم الدين: يوم القيمة، وهو مبدأ الدار الآخرة، أي: بداية مراحل الدار الآخرة، والدين فيه بمعنى الجزاء؛ لذلك يقول **الفنـد الزـمـانـي** - وهو شاعر من شعراء الجاهلية<sup>(١)</sup>:

**فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانٌ**

**وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدُوَانِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا**

«**دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا**» أي: جازيناهم على صنعهم كما صنعوا؛ فالدين هنا بمعنى الجزاء.

واعلم أن وصفه تعالى بـ«مالك يوم الدين» تكملة لإجراء مجتمع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى؛ لأنه ذكر أنه «**مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ**» بعد أن وصف ذاته العلية بأنه رب العالمين، وهذا معنى العظمة الحقة، وليس العظمة المدعاة المختلفة من أسماء مفترقة، أو من زور الأوصاف، وباطل التشبيهات، وخرافات الأسماء والألقاب كشاهنشاه مثلاً، أو ملك الزمان، أو ملك الدنيا وما شابه ذلك من هذه الأسماء.

فوصفة بـ«مالك يوم الدين» أفادنا أن ملكه **شَهَّل** في عموم المخلوقات، وفي عموم التصرفات يوم الجزاء، ودل ذلك على أنه صاحب الملك الذي لا يشد عن ملكه شيء؛ وصاحب الملك الأبدى الذي لا يتنهى ملكه ولا ينقضى، ولا ينفك عنه شيء، وهو

(١) الفند الزماني: اسمه شهل بن شيبان بن زمان بن مالك، قيل سمي الرجل الفند لعظم خلقته تشبيهاً بفند الجبل وهو قطعة منه واسمه شهل فهو لقب له وجع الفند أفناد. وأما زمان فيحتمل أن يكون من باب زحم الناقة ، وبنو زمان إحدى قبائل ربيعة بن نزار. كان الفند أحد فرسان قبيلته المشهورين، وشهد حرب بكر وتغلب، وقد قارب المائة عام، فأبلى بلاءً حسناً. ويقال: إنبني شيبان أرسلت في محاربة قوم الفند، فأرسلوه مع سبعين فارساً، فقالوا: إننا أرسلنا لكم ألف فارس. وقد قطعت يده اليمنى، ورغم التزف الذي أصابه حمل سيفه، وأخذ يدافع عن نسائه، وأهل بيته، فقالوا: يد واحدة وتقاتل؟! قال: الفحل يحمي شوله معقولاً، وذهبت كلمته مثلاً..

صاحب التصرف في كل هذه الأملالك ما كان، وما يمكن أن يكون؛ فدلل ذلك على أنه أعظم الصفات التي تلت صفتى الرحمن والرحيم؛ فإذا كان قد وصف بأنه رب العالمين فلا إله معه، ولا شريك له، ولا رب سواه، مما كان يعبد الناس من آلهة وأصنام؛ فهو رب ذلك كله؛ فجاء هذا الوصف وهو مالك يوم الدين ليبيّن لنا أنه يَعْلَمُ له مطلق التصرف فيهم، وفي آهتهم، وفي الدنيا وفي الآخرة؛ وأنه لا يشذ عن تصرفه شيء، كما لا يشذ عن ملكه شيء، وأن ملكه عظيم لا يفني، وأن ملكه كبير لا ينضي؛ فأين ذلك من ملوك الدنيا؟ وأين ذلك مما يدعوه الناس لأنفسهم؟! أو من المبالغة في آهتهم أو ملوكهم من ملوك الدنيا. وكل ذلك ليبيّن أن هؤلاء كلهم مخلوقون مربوبون لرب العالمين يَعْلَمُ.

ثم تأتي الرحمة لتبيّن العظمة، ثم يأتي الملك ليبيّن أن تصرفهم هؤلاء في يد غيرهم؛ في يد الله تعالى؛ كيف يكونون أرباباً، أو كيف يكونون آلة، أو كيف يكونون ملوكاً، وملوكهم في ملك الله وربوبيتهم التي يدعون هذه إنما هي على الكذب؛ لأنهم مربوبون له، يصرّفهم كيف يشاء يَعْلَمُ، وإحياءهم بيده، ورزقهم بيده جلّ وعلا، فجاء هذا الوصف وهو «مالك» و«ملك» ليبيّن وينبئ عن عموم تصرفات الله تعالى في المخلوقات من أولاها إلى آخرها، ويُظهر ذلك كله عياناً يوم القيمة؛ لأنّه يوم تظهر فيه الحقائق، وتبدو السرائر، كما قال الله تعالى: «إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ<sup>﴾</sup> يَوْمَ تُبَلَّى آلَسَرَّائِرُ» [الطارق: ٨، ٩].

هناك معنى آخر وهو أنه لم يقل: «مالك يوم الحساب»، أو «ملك يوم الحساب»، وإنما قال تعالى: «مَالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ» يعني: مالك يوم الجزاء، فلماذا؟

يشعر الوصف بـ«مالك يوم الدين» - أي: يوم الجزاء نفسه - أن يحاسب العامل بما يُحصى عليه من أعماله المجزيّ عليها في الخير والشر؛ ولو قال الحساب لا بد وأن يحتاج

إلى الجزاء بعد الحساب، فلما قال الجزاء دلّ على المعادلة لأعمال الحساب؛ إن شرّاً فشر وإن خيراً فخير، ويجازيه عليها، ويعامل شره بشره الذي يجده يوم القيمة، ويعامل خيره بخيره الذي يلاقيه يوم القيمة.

وإلى ذلك يشير العرض الخاص كما قال ﷺ: «آلِيَّوْمَ تُحْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» [غافر: ۱۷]، فلذلك لم يقل ملك يوم الحساب أو مالك يوم الحساب؛ فوصف نفسه ﷺ بأنه ملك يوم العدل الصرف؛ لأنّه لما ذكر الجزاء دلّ ذلك على العدل الصرف، وأنّه يجازي على السيئة بالسيئة وعلى الحسنة بالحسنة، فكان هذا هو العدل الصرف، وإن كان من فضله أن يجازي الحسنات الزيادة على ما شاء الله تعالى.

لذلك قال ملك يوم الجزاء أو مالك يوم الجزاء ليدل على أنه ﷺ ملك يوم العدل الصرف؛ لأنّ هذا الوصف وصفٌ له بأشرف معاني الملك الذي يتشرف بها الملوك في الدنيا وهو وصف العدل.

فالله أحق بأن يُوصَف بأشرف معاني الملك؛ فإن الملوك تتقلب محامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل، وقد عرف العرب المدح لذلك قال النابغة يمدح الغساني ملك الشام:

وَكُمْ جَازَانَا بِأَيْدِيْدَعْرِ ظَالِمٌ .. عُرْفًا بِعُرْفٍ وَإِنْكَارًا بِإِنْكَارٍ

يمدحه بأنه يجازي على العرف بالعرف، أي: على الحسنة بالعرف أي المعروف، وعلى المنكر بالمنكر كما يقول:

مَلِكُ مُقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمْشِي وَمَنْ دُونَ مَا لَدَيْهِ الشَّنَاءُ

فلمَّا قال: «ملك يوم الدين» دل على أنه يجازي العدل بالعدل، والإساءة بالإساءة، ووصف الله تعالى بهذا الوصف هو أعظم ما يُوصَف به الملك: وهو العدل.

فلمَّا كانت هذه الأوصاف الخطريرة الجميلة الخلية لله تبارك وتعالى بهذا الترتيب دلَّ على أنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حقيق بالحمد على كل ذلك؛ لما قال بالرحمة، ولما قال بالربوبية، ولما قال بالرحمن، ولما قال بملك يوم الدين دلَّ على أن المشتمل على هذه الأوصاف هو الجدير بالحمد، فجاء الحمد كمقدمة لهذه الأوصاف لله تبارك وتعالى؛ لأن إجرائها يدلُّ على أن الحمد الكامل ليس إلا له بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

إذا فهم المرء ما سبق يبين له بعض حظه من توحيد الله بكونه «الملك».. فلا ملك سواه ولا متصرف إلا هو.. هو المتصرف في مملكته بجميع أنواع التصرفات التي لا شبيه لها ولا معقب عليها..

فيأتمر المرء حينئذ بأوامره ويتهى عن نواهيه، ويسارع في أن يكون من جنده المؤمنين وأوليائه الطيعين، وفي نفس الوقت يطمئن المرء إلى ربه وحفظه وتوفيقه ونصره، ويرضى بها يتزل من أوامر «الملك» وتسكن نفسه لمقدوراته، ويعلم أن كل شيء بأمر «الملك» فلا يعرض عليه ولا يتشكك فيه ولا يتبرم منه، بل سروره في مواضع القضاء والقدر؛ إذ هي نازلة بارادته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وتصريفة، يرى فيها كلمته.

يأخذ حظه إذن بتوحيد «الملك» في ذلك، ويدعو بأن يدخله في زمرة عباده، ويسائله الرضا بالقضاء والثقة فيه والتوكيل عليه، والركون إلى الملك، فلا يهتز قلبه لشيء إلا ويعلم أنه من أحكام الله وقضائه النازل.

ثانيًا: قوله تعالى: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»<sup>(١)</sup>

هذا الجزء من الآية مقول لقول محدود، والتقدير: أن الله ﷺ يقول: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» [غافر: ١٦]، و فعل القول المحدود جملة في موضع الحال، أو استئناف بيانه أنه جواب عن سؤال السائل عن ماذا يقع بعد بروزهم بين يدي الله؟ أي بعد أن برز الناس لله -تبارك وتعالى- في هذا الموقف العصيب كان السؤال المنتظر، ماذا سيحدث؟ يخبر المولى ﷺ أنه جلّ وعلا سيقول: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ». لكن من الذي قال: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»؟ فيه قولان للمحدثين:

الأول: أن القائل هو الله تبارك وتعالى.

الثاني: أن القائل هم أهل المحسن.

فإما أن يكون الرد «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» من الله تعالى يرد على نفسه عندما لا يرد أحد من خوفه ومن هول الموقف، فيقول: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»، أو الرد من أهل المحسن؛ لما قال الله تعالى لهم: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»، قالوا: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

والاستفهام «من الملك اليوم؟» إما تقريري؛ ليشهد الطغاة من أهل المحسن على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا مخطئين فيما يزعمون لأنفسهم من مُلْك لأصنامهم، فهم يُمَلِّكون هذه الأصنام، وكذلك فيما زعم هؤلاء الطغاة لأنفسهم من سلطان على الناس لا يشاركون فيه غيرهم، كقول فرعون: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» [القصص: ٣٨]،

(١) انظر- بتصرف كثير: تفسير التحرير والتنوير، تفسير الآية السادسة عشر من سورة غافر، أو: ج٤، ٢٤، ص ١١٢-١١٠، دار سخنون للنشر.

أو قوله: «أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرٌ وَهَذِهِ الْأَتْهَرُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» [الزخرف: ٥١].. وتلقيب الأكاسرة بلقب ملك الملوك «شاهنشاه»، وتلقيب ملوك الهند أنفسهم بملك الدنيا «شاه جهان»..

ويفسر هذا المعنى ما في الحديث في صفة يوم الحشر «ئُمَّ يَقُولُ اللَّهُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟»! استفهام غرضه إظهار عجزهم وضعفهم، وإنما فائين هم اليوم؟ أو لماذا لم يظهرروا بعظامتهم وخيلائهم؟ أين هم اليوم؟ وهذا الاستفهام قد ذكرنا أنه يسمى استفهاماً تقريريًّا، أي: يقرر الطغاة على خطئهم الذي كان منهم في الدنيا وعلى الظلم وعلى الفسق والفساد الذي كانوا فيه.

وإما أن يكون الاستفهام كنایة عن التشويق إلى ما يرد بعده من الجواب «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»، فهناك معنى آخر هنا وهو تشويق السامعين إلى ما سيرد من جواب الله تعالى بعد هذا الاستفهام.

وهذا التشويق لا يفوّت التقرير الذي ذكرناه أولاً؛ فقد قلنا: إن إجابة السؤال «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» قد تكون جملة «لَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» من مقول الرب ﷺ أو من مقول أهل المشر.

ويجوز كلام آخر ملخصه الإقرار منهم بأن الكل قد قام مقهوراً تحت ملكه اليوم، لم يرفع أحد رأسه بأنه ملك، أو بأنه ذو سلطان، أو أن له جاهًا أو غير ذلك، والتقدير فيكونوا بارزين لله الواحد القهار.

وذُكِرُ الصفتين «الواحد، القهار» دون غيرهما من الصفات؛ لأنَّ ﷺ قال: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»؛ فلم يُرِدَ أحد فهو الواحد وكلهم مقهورون؛ الطغاة ومن تحتمهم، فكان

مناسباً أن يقول: «الواحد القهار» ﷺ، حيث دلائل الوحدانية في ذلك اليوم ظاهرة لله تعالى، والقهر لجميع الطغاة والجبارين.

لذلك قال الله تعالى: ﴿الَّيْوَمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الَّيْوَمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ۱۷].

فهذه الجمل الثلاثة لا ريب أنها متصلة بالمقال السابق من جانب الله؛ يعني: «الَّيْوَمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ»، «لَا ظُلْمَ الَّيْوَمَ»، «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» هذه الجمل الثلاث متصلة بقوله: «لِمَنِ الْمُلْكُ الَّيْوَمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» [غافر: ۱۶]، سواء كان المقال من الله تعالى، أو المقال من أهل المحشر، فترتيب هذه الجمل الخمس؛ لما تقرر أن الملك وحده في ذلك اليوم عدلت آثار التصرف في ذلك الملك.

ولقد ذكرت الآيات آثار التصرف بذلك الملك، وهي الحكم على العباد بتائج أعمالهم: «الَّيْوَمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ»، وأنه حكم عادل لا يشوبه ظلم، فقال: «لَا ظُلْمَ الَّيْوَمَ»، وأنه سريع لا يُبطئ؛ لأن الله تعالى لا يشغله عن تصرف الحق شاغل، وليس هو بحاجة إلى تدبر أو تأمل في طرق القضاء، وعلى هذه النتائج جاء تفصيل اليوم الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت، فلما تقرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم ظهرت آثار هذا الملك؛ وهي:

الأثر الأول: الحكم على العباد بتائج أعمالهم: «الَّيْوَمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ».

الأثر الثاني: أن يكون هذا الحكم عدلاً لا ظلم فيه: «لَا ظُلْمَ الَّيْوَمَ».

الأثر الثالث: أن يكون هذا الحكم سريعاً لا بطء فيه: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»..

لأن التباطؤ في الحكم يمكن أن يكون سبباً في الظلم؛ لأنه من تباطأ في الحكم؛ إما أن يحكم لك بحقك فيكون قد أحرك - هذا في الجزاء الذي تستفيد فيه بحقك - وإنما أن يزيد عليك بظلمك، مثل أن يسجنك مثلاً بالإضافة إلى التباطؤ في الحكم..

لذلك قال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** يعني يقضي في نفس الوقت، والله يقضي بالحق، كما ذكر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

وعلى هذه التائج جاء ترتيب **﴿الَّيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾**، ثم **﴿لَا ظُلْمَ الَّيَوْمَ﴾**، ثم **﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾**.

تُرِى أين ملوك الدنيا ساعتها؟! وأين ملوكهم وتصرفهم وطغيانهم وعلوهم وصَوْلَتْهُم؟! إنَّ الكل مقهورٌ بقهر الله له، لا يملك شيئاً، بل هو واقفٌ مع بقية الخلق يتضرر ما اللهُ فاعلُّ فيه.. يرتجف أن يذهب به.

لما عَلِمَ المؤمنون ذلك لم يبق في قلوبهم تعظيمٌ وخوفٌ على الحقيقة إلى الله، خرج من قلوبهم كُلُّ أمرٍ إلا منه، وكل طاعة ومحبة إلا له، وكل جوء وركون وثقة إلا فيه، وكل توكل إلا عليه.

ثم علموا واجتهدوا ليكون موقفُهم موقفَ السعداء أمام الملك عندما يرجعون إليه ويُعرضون عليه.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَحْتِيٰ - وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>

وهذه الآية تبين أحد آثار الملك بِهِ التي لا يشاركه فيها أحد، وهي أنه يحيى ويميت، وأن له ملك السماوات والأرض، ولم يدع أحداً أن ملك السماوات والأرض له، ولم يدع أحد الإحياء والإماتة على هذا الوجه.

بدأت هذه الآيات بقول الله بِهِ:

﴿سَبَّعَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَحْتِيٰ - وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٠، ١..]

فافتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتتنزيهه بِهِ مؤذن بأن أهتم ما اشتغلت عليه هذه السورة إثبات وصف الله تعالى بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزهٌ عما ضلَّ في شأنه من ضلَّ من أهل الضلال عندما وصفوه بها لا يليق، أو ذلك التنزيه هو نفي الشريك عنه في الإلهية بِهِ، وصيغة فعل التسبيح بصيغة الماضي للدلالة على أن تنزيهه بِهِ أمرٌ مقررٌ، أمر الله تعالى به عباده من قبل وأهممه الناس، وأودع دلائله في أحوال مَنْ لا اختيار له، كما دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿وَإِلَهٌ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآَصَالِ﴾

[الرعد: ١٥].

(١) انظرـ بتصرف كثير: تفسير التحرير والتنوير، تفسير الآيتين الأولى والثانية من سورة الحديد، أو: جـ ٢٧، صـ ٣٥٦، دار سخون.

وقوله تعالى: «تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مَنْ شَئَ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَيْكَنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» [الإسراء: ٤٤].

فجيء الفعل «تسبيح» مضارعاً «وَإِنْ مَنْ شَئَ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» فالمملك والتسبيح مرتبطةان بعض، «يسبح» لأن له الملك و«سبح»؛ لأن له الملك؛ وهذه هي العلة؛ أن الكون كله يسبح لله، وسبح؛ قال: لأن له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قادر.

فجيء بالفعل مضارعاً للدلالة على تجدد ذلك التسبيح ودواجه، فسبح في الماضي لها معنى، ويسبح بالمضارع لها معنى؛ وكلا المعنين يكمّل الآخر، سبح يعني: أن أمر التسبيح أمر مقرر في الماضي إلى الآن. ثم قال «يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» ليدل على أن التسبيح أمر متجدد و دائم، وهذا هو الذي يليق بالله تعالى. ترى هل يوجد شيء من خلقه لا يسبحه؟ وهذا إنكار وتوبیخ لهؤلاء العقلاة الذين لا يسبحون ربهم، ولا ينزعونه، فكأن فيه توبیخا لهم أنه إذا كان كل شيء يسبح بحمده يحيى، ويسبح له، وسبح له، وقد تكرر التسبيح وظهرت دلائله، فلماذا أنت جهله لا تسبحون الله تعالى ولا تنزعونه؟!

وهذه الآية تعم المؤمنين التاركين لتسبيح الله تعالى؛ يوبخهم كذلك أن كل شيء يسبح الله تعالى، وسبح، ويسبح ويديم التسبيح، ويتجدد منه التسبيح كل وقت، وأنت على الغفلة التي أنت فيها.

و«سبح» تعریض بالمشركین الذين أهملوا أهم التسبيح، وهو تسبيحه الذي يعني تنزيهه يحيى عن الشريك والنذر.

فالمؤمنون مطالبون بأن يأخذوا بحظهم من توحيد الملك ﷺ؛ بتسبيحه وتنزيهه في كل أوقاتهم بعموم التسبيح من ذكر وصلة وحمد وتقديس، وتطهير القلب والعمل والجوارح له؛ إذ ذلك هو الدخول على الملك ﷺ، متزهين ومتظاهرين في نفس الوقت، ليحصلوا من ربهم شيئاً يفوزون به من حفظهم وحراستهم وتوفيقهم ونصرهم وتشييدهم، لأن ذلك من فعل الملك ﷺ.

وقوله تعالى: «مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» يعُم الموجودات كُلُّها.. ومضمون هذه الجملة - وهي قوله: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» - يُعلِّم المرأة بتعليق تسبيح الله تعالى؛ لأن من له ملك العالم العليا، وله ملك العالم الدنيوي حقيق بأن يَعْرِفَ النَّاسُ صفاتِ كماله ﷺ، وأن يُبَرِّزَ هُوَ جَلَّ وعلا. يعني: الذي له ملك السماوات والأرض ينبغي أن تسبحوه؛ يعني: أن تزهوه، وأن تقوموا بذلك التسبيح وتداموا عليه، وأن لا تفتروا عنه كما ذكر المولى سبحانه وتعالى عن الملائكة: «وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكِبُرُونَ عَنِ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ» [الأنبياء: ٢٠، ١٩].

وقوله تعالى: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» أسلوب قصر؛ قصر فيه المسند على المسند إليه، يعني: يُفيد قصر ملك السماوات والأرض عليه ﷺ وأن غيره لا يملك شيئاً، ولا يُعتدُ بملكه، وأن كل مُلْكٍ لغيره إنما هو من ملكه ﷺ.

وتلك الآية تعلم الناسَ كم هم فقراء إلى الله تعالى، وأنهم لا يملكون شيئاً؛ لا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً فضلاً على أن يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً. وهذا يحملهم على الافتقار إلى ربهم سبحانه وتعالى؛ وعلى التعبد له، والتذلل له والخضوع له، والإيمان بأوامره، والانتهاء عن نواهيه ﷺ.

وهو قَصْرٌ لعدم الاعتداد بِمُلْكٍ غيره في الأرض؛ لأن ملك غيره في الأرض مُلْكٌ ناقص، فضلاً عن كونه هو سبحانه وتعالى صاحب هذا الملك كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَنِيلِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ...﴾ [آل عمران: ٢٦].

ومُلْكٍ غيره ناقص لأنَّ الملوك مفتقرون إلى من يرفع ما يقع عليهم من أعدائهم أو من عوادي الزمن، ولا بد أن يكون لهم أحلاف وجند يدفعون عنهم ذلك. وكذلك يحتاجون - أي: ملوك الدنيا - إلى من يدبر لهم نظام المملكة من وزراء وقواد، ويحتاجون إلى من يجبي لهم الأموال ونحو ذلك من الجزية حتى يستطيعوا أن يوفروا في مملكتهم أسباب قيامها وانتعاشهما وبقائهما شيئاً من الزمان.

وقوله تعالى: ﴿سُحْرٍ وَيُمِيتُ...﴾ بعد قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يشير إلى أن الإحياء والإماتة مما يستعمل عليه معنى ملك السماوات والأرض؛ يعني: لما ملكَ بِهِ هذه السماوات ومن فيها والأرض ومن فيها دلَّ هذا على أن من أحوال هذه الملك أن تموت وأن تخيا، وإذا كان هو مالكها بِهِ فالإحياء والإماتة من شأنه وتدبيره جل وعلا.

وتخصيص الإحياء والإماتة بالذكر للاهتمام بها لدلالتها على دقيق الحكمة في تصرف الله تعالى في السماوات والأرض، فلو كانت أحياءً كلها لتغيرت الحكمة، ولو كانت موتاً كلها لتغيرت الحكمة، ولو بقي من بقي ومات من مات ولم تكن الأرض هكذا يتجدد فيها الموت والإحياء لتغيرت كل هذه الحِكْمَة؛ فدلَّ ذلك على هذه الحكمة لله الملك سبحانه وتعالى، وأنها حكمٌ عظيمة لا يستطيعها أحد، ولم يدعها أحد، بل كل أحد تحتها - تحت حكمة الإحياء والإماتة - الله تعالى. هذا هو المعنى الأول المستفاد من تخصيص الإحياء والإماتة بالذكر.

المعنى الثاني: أن هذين الفعلين بالذات ظاهران لا يستطيع المخلوق ادعاؤه أن له عملاً فيها؛ بعد أن قال: له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت، لا يستطيع أحد أن يدعي أن له في الإحياء والإماتة عملاً.

وفيها - أي في قوله: «تُحْيِي وَتُمْيِتُ» - دليل آخر؛ وهو التذكير بدليل إمكانبعث؛ فلما أمات أنساً وأحياناً أنساً بعدهم دلّ على أن هؤلاء يمكن أن يحيهم مرة أخرى أو لا؟ نعم. دلّ هذا على إمكان البعث كذلك؛ لأنه لما أحيا وأمات وظهر ذلك للناس دلّ على أنه سبحانه وتعالى قادر على بعثهم مرة أخرى؛ فإذا كان يحيى من لا شيء، أفلابنطبيع أن يحي من أماتهم وهو قد خلقه من قبل؟ فهذا أسهل من أن يحيهم من لا شيء كما قال تعالى: «وَقَدْ حَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلٍ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا» [مريم: ٩]، وهذا في نفس الوقت تعریض بالكفرة وآهتهم بأنهم يزعمون لهم ما لا يملكون، وكذلك تعریض بملوك الدنيا أنهم يملكون ما لا يستطيعون، ولا يستطيعون ما لا يملكون.

وجملة: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» تفید التزيل لجملة «تُحْيِي وَتُمْيِتُ»؛ لتبين أنه على كل شيء قادر - وليس بالإماتة والإحياء فقط - بل كل ذلك داخل تحت قدرته يحيى.



## القسم السابع

اَسْمَاعُ اللَّهِ

السلام



## مقدمة

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد..  
نواصل الكلام في شرح أسماء الله الحسنى بشرح اسم الله ﷺ السلام، لأن الكلام  
على اسمه ﷺ السلام مما يهم المرء في دينه ودنياه، ومرجع ذلك لأسباب عدّة:  
أولاً: أن أحوال المؤمنين المتقيين هذه الأيام يغلب عليها عدم الثبات على الطاعة،  
وكثر الانقطاع عن السير في طريق الله تعالى، وذلك بسبب كيد الشيطان، واتباع النفس  
والهوى والاشتغال بالدنيا، ولا يسلّمهم من هذه القواطع إلا السلام ﷺ، فإذا أخذ المرء  
حظه من توحيد الله تعالى بهذا الاسم المشرف، ودعاء الله تعالى به كما قال ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ  
الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ إذ به يسلّم بتسليم الله تعالى له من كل شيء  
يخشاه، فيتعلق المرء حينئذ بربه ﷺ ويحبه ويقبل عليه، ويتزود بزاد الإيمان والتقوى الذي  
تنقى به جوارحه وقلبه، فيخرج من الهمة الضعيفة والعزيمة المنهارة إلى مدد الله تعالى  
وقوته؛ فيستعين بالله فيقويه ﷺ على مواصلة السير في طريقه تعالى.

ثانياً: أن المرء في هذه الحياة الدنيا معرض للآفات والشرور، ومعرض للنقص  
والعيوب والمصائب ومعرض كذلك لأنواع الإيذاء كافة سواء كانت من نفسه أو من  
غيره، ولا يحفظه ويؤمنه ويسلّمه من هذه المصائب والمؤذيات في دينه ونفسه ودنياه  
وآخرته إلا السلام ﷺ، فيكون أخذه بحظه من هذا الاسم سبباً لسلامته في الدنيا  
والآخرة .

ثالثها: أن معاملات الناس اليوم يغلب عليها الأخلاق السيئة والنوايا الخبيثة التي يملؤها الحقد والغلو والتربص وإرادة الشر مما كان سبباً في إخفاقهم وتفرق قلوبهم وتشتت شملهم وذهب هيبتهم، ولن تغير هذه الأحوال إلا باستبدال هذه الأخلاق الرديئة بالأخلاق الحسنة من سلامة القلب والصدر، وأن يتعلموا هذا السلام ويتخلقوا به ويفشووه بينهم، وأن يتحققوا من هذا الاسم بما تعود آثاره على الناس كما ظهرت عليهم بركات آثار الله تعالى من السلام، فيصبحوا ويغدوا سلاماً مع غيرهم، يرجون لهم الرحمة، ويتمنون لهم المداية، ولا يحملون في قلوبهم ولا جوارحهم ولا نواياهم ما يخالف معنى السلام، وعندها يتظرون رحمة الله بهم، وتأييده لهم بنصرهم وإعلاء كلمتهم ورفع رايتهم.

ولما كان درس السلام (وهو من دروس الفتوحات الإلهية في شرح الأسماء الحسنى للذات العلية، والتي يلقىها فضيلة الشيخ: محمد الدبيسي - حفظه الله تعالى - بمسجده المبارك المهدى المحمدى) بهذه الأهمية، قام إخوانكم - حفظهم الله تعالى - بتفسير هذه الشرائط الصوتية لتخرج في هذه الرسالة، راجين مولاهم عليهم السلام أن يعم بها النفع، وأن تساهم في اتصاف المؤمنين بما يقوى دعوتهم، ويحسن صورتهم؛ فيظهر بهم وجه الإسلام أشد إشراقاً، ويصبحوا دعاة إلى الإسلام بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فينفضوا بهذه الحالة المشرفة عن أنفسهم تلك الحال المؤذية الصادين بها عن سبيل الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن ينفع به قارئه وكاتبه وناشره والناظر فيه.

مسجد المهدى المحمدى

## الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى «السلام»

## معنى السلام لغة<sup>(١)</sup>

قال الزخشري<sup>(٢)</sup>: "سلم من البلاء سلامه وسلاماً، وسلم من المرض: بريء، وسلمه الله. وسلم إليه الشيء فتسلمه. وسالت العدو مسالمة، وتسالموا، وخذوا بالسلم، وفلان سلم لفلان وحرب له. وعقد عقد السلم، وأسلم في كذا. وأسلم لأمر الله وسلم واستسلم. وأسلم للهلكة. وهو سلم في يد العدو: مسلم." اهـ. وقال الرازي<sup>(٣)</sup>: "والسلام السلام. وقرأ أبو عمرو (ادخلوا في السلام كافة) وذهب بمعناها إلى الإسلام. والسلام الصلح بفتح السين وكسرها يذكّر ويؤتى. والسلام المُسالم يقول أنا سلم من سالمني. والسلام السلام. والسلام الاستسلام. والسلام الاسم من التسليم. والسلام

(١) قال ابن منظور رحمه الله تعالى: "السلام والسلامة: البراءة: تَسْلِمَ منه أَيْ تَبَرَّأْ وقال ابن الأعرابي: السلام العافية، وقوله تعالى {إِذَا خَاطَبُوكُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوكُمُ سَلَامًا} معناه تَسْلِمَ وبراءة لا خير بيننا وبينكم ولا شر. اهـ. وليس المقصود في الآية السلام المستعمل في التحية لأن الآية مكية ولم يؤمر المسلمين يومئذ أن يسلموا على المشركين؛ ومنهم من يقول سلام أي أمري وأمرك المبارأة والمتركة، قال ابن عرفة قالوا سلاماً أي قالوا قولًا يتسلّمون فيه ليس فيه تعدّ ولا مأثم. وقيل قالوا سلاماً أي سداداً من القول وقصدًا لا لغو فيه وقوله قالوا سلاماً قال أي سلموا سلاماً وقال سلام أي أمري سلام لا أريد غير السلامه وقرئت الأخيرة قال سلم قال الفراء سلم وسلام واحد؛ وقال الزجاج الأول منصوب على سلموا سلاماً والثاني مرفوع على معنى أمري سلام. اهـ وكانت العرب في الجاهلية يحبون بأن يقول أحدهم لصاحبه أنتم صاحباً وأبیت اللعنة ويقولون: سلام عليكم فكانه علامه المسالمة وأنه لا حرب هنالك ثم جاء الله بالإسلام فقصروا على السلام وأمرموا بإفشاءه؛ وقوله يعني {سلام هي حتى مطلع العصر} أي لا دار فيها ولا يستطيع الشيطان أن يصنع فيها شيئاً اهـ بتصرف... انظر لسان العرب مادة (س-ل-م).

(٢) انظر أساس البلاغة (٢٢٥ / ١).

(٣) انظر مختار الصحاح (١٥٠ / ١).

اسمٌ من أسماء الله تعالى. والسلام البراءة من العيوب في قول أمية. وقرئ (ورجلاً سلماً). "اهـ

### وسلام في اللغة في حق الله تعالى ثلاثة معان:

الأول: ذو السلام، يعني صاحب السلام، وهو في صفاته رسول الله الذي سلم من كل عيب، وبرئ من كل آفة ونقص تلحق بالخلوقين.

الثاني: أنه رسول الله المعطى للسلامة في المبدأ والمعاد، وقيل: هو الذي سلم المخلوق من

ظلمه<sup>(١)</sup>.

الثالث: الذي يسلّم على أوليائه في الآخرة كما قال: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ طَبَتْمَ فَادْخُلُوهَا حَلِيلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وسنشير إلى هذه الآيات - إن شاء الله تعالى - عند ذكر معانى السلام بالقرآن الكريم.

ومعنى السلام: البراءة من العيوب والنقص، وذلك بأن يسلموها من الآفات والمؤذيات، والخلاص من التبعات والمهمکات، فهو رسول الله الذي يعطیهم السلامة من العيوب في خلقهم وفي مبدئهم، وذلك بخلقهم رسول الله سالمين كما قال رسول الله: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفْوِيتٍ﴾ [الملك: ٣]، وكما قال رسول الله: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَقْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وكذلك السلامة في معادهم وهو قوله: ﴿وَمَا رَبِّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فقد أمنهم رسول الله أن يُظلموا في الآخرة بآلا يأخذوا حقهم كاملاً، أظلّمك كتبتي؟!.

(١) وهذا ليس معناه وقوع الظلم منه رسول الله؛ إذ هو رسول الله قد حرم الظلم على نفسه، وإنما المقصود على معنى قوله تعالى: "وماربك بظلم لليبيد" فصلت: ٤٦.

وذهب بعض أهل اللغة إلى أن السلام بمعنى التحية<sup>(١)</sup>، ويكون لهذا القول معانٍ:

أوّلها: أن قول: السلام عليكم إعلام بالسلامة من ناحية القائل، فلا يصدر منه شر، أو عداوة، أو خيانة أو غدر وحسنة، فكأنه يقول: أنا سلم لك غير حرب، وولي لك غير عدو، فلا تخدر ولا تخف؛ فيأمهنے في عمل الجوارح والقلب، ففي ظاهره يأمهنے من شره وغائه فلا يغتابه ولا يظلمه ولا يوقع بينه وبين غيره بالنميمة، وفي باطنها يأمهنے من حقده وغله، فليس في قلبه له غش، ولا مكر، فصار سلاماً متحققاً باسم الله ﷺ السلام المفهوم من قول النبي ﷺ: «المُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»<sup>(٢)</sup>، وينبغي إذن أن يكون ذلك في محل نظر أهل الإبان.. والسلام هنا كما ذكرنا بمعنى التحية من أسمائه ﷺ.

ثانيها: أن السلام إنما هو اسم من أسماء الله تعالى، فإذا قال المؤمن لأخيه: السلام عليكم فإنما يعوده بالله تعالى، ويبارك عليه باسم الله تعالى من أن يمسه سوء أو شر، فكأنما يقول: الله تعالى يبارك عليك، والله تعالى يعيذك، والله تعالى يمنعك ويخميك، رحمة

(١) فائدة: لما كان السلام من أسماء الله ﷺ فإنه لا يقال: «السلام على الله»؛ لأن الله هو السلام ﷺ. ودليل هذا حديث ابن مسعود ﷺ قال: «كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ فَنَقُولُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ وَلَكُنْ فُولُوا التَّتْحِيَاتُ اللَّهُ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيَّاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبِرَّ كَاتِبِهِ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». رواه البخاري (٧٩١) ومسلم (٦٠٩) وأبو داود (٨٢٥) والنسائي (١١٥٥) وابن ماجه (٨٨٩) وهذا لفظ البخاري.  
ولأن المؤمن إذا قال لأخيه: السلام عليكم فإنما يعوده بالله تعالى، ويبارك عليه باسم الله تعالى من أن يمسه سوء أو شر، والله -جل وعلا- متبرئ عن أن يناله شيء من السوء أو من الآفات أو من الشر، وكل شيء إليه ﷺ، وهو المدعوه، فلا يدعى له ﷺ؛ لأن الدعاء إنما يكون للمخلوق المحتاج، أما الله جل وعلا فإنه غني لا يحتاج إلى شيء. والله أعلم.

(٢) رواه البخاري (٩) ومسلم (٥٨) والنسائي (٤٩١٠) والترمذى (٢٥٥١).

بك ومحبة لك بهذا السلام الذي هو اسمه ﷺ، ودليل صحة هذا التأويل حديث أنس - رضي الله عنه - الذي رواه البخاري في الأدب المفرد - وقد حَسَّنَ هذا الحديث الحافظ ابن حجر في الفتح - عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَضَعَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَلَّمَ عَلَى الْقَوْمِ فَرَدُوا عَلَيْهِ كَانَتْ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلٌ دَرَجَةٌ، لَا يَكُونُ ذَكْرُهُمُ السَّلَامُ، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ رَدًّا عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَطْيَبُ»<sup>(١)</sup>.

وهذا المعنى هو حظ المسلم في علاقته بالناس، وهو أن السلام هو الذي يسلم المسلمين من لسانه ويده، وأنه إذا قال لأحد: السلام عليكم فقد أمنه من كل شر يأتيه من جانبه.

لذلك قال النبي ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابِيْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»<sup>(٢)</sup>، وبين أن دخول الجنة موقوف على الإيمان، وأن الإيمان متوقف على المحبة، ثم بين ﷺ طريق المحبة وهو إفشاء السلام بين المؤمنين.

لذلك قال ﷺ في إلقاء السلام: «وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»<sup>(٣)</sup> وإلقاء السلام على من لا يعرفك إعلام له بأنك سالم مني من الشر ومن الأذى، وأنا ولي لك غير عدو، وأنا سلم لك غير حرب، وأنا أعيذك وأبارك عليك بالسلام من الله

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد حديث (١٠٣٩).

(٢) رواه مسلم (٨١) وأبو داود (٤٥١٩) والترمذى (٢٦١٢) وابن ماجه (٣٦٨٢). وهذا لفظ مسلم.

(٣) رواه البخاري (١١) ومسلم (٥٦) وأبو داود (٤٥٢٠) والنسائي (٤٩١٤) وابن ماجه (٣٢٤٤) ولننظر (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ).

تعالى، فإفشاء هذا السلام دليل إفساء المحبة بينهم والتراحم وترك الحقد والغلو والحسد وبباقي الصفات السيئة الرديئة الموجودة بين أهل الإيمان والتي فشت بدل السلام؛ الذي هو أدعى للمحبة ودليل على الإيمان وطريق لدخول الجنة.

## السلام مع الناس في الدنيا طريق السلام في الدنيا والآخرة

وهذا الحال من أعظم الأحوال التي تنقص أهل الإيمان، وهو أن قلوبهم التي تدعى المعرفة والمحبة لله تعالى لا بد أن تكون صافية لإخوانها، محبة لهم ترجو سلامهم حيث يؤمنوا شرها وبوافقها كما ذكر النبي ﷺ، فلا يكون القلب سالماً وسليماً وسلاماً حتى يتنزل عليه سلام الله تبارك وتعالى، فـكأن السلام من الله - جل وعلا - لا ينزل على هذه القلوب التي امتلأت بالشحنة و البغضاء، وتلك الجوارح التي وقعت في الآثم والمحظورات، وتخلىت بهذه الأخلاق واتصفت بتلك الصفات السيئة فـكأن هذه الصفات وهذه الأخلاق وهذه الجوارح التي وقعت في كل ما لا يكون من السلام في شيء، لا تستحق السلام من الله تعالى.

وهذا هو السبب في هذا الاضطراب النفسي الذي يعانيه المسلمون من هذا القلق وعدم الثبات على الطاعة واستقامة السير إلى الله تعالى، فإذا لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فكيف يسلم هو من نفسه؟ وإذا لم يسلم هو من نفسه كيف يكون أهلاً لتنزل السلام عليه من الله تعالى؟

إن نزل عليك السلام من الله تعالى فإنك حينئذ تشعر بالطمأنينة والسكينة، وبالقرب من الله تبارك وتعالى، فيخف عنك قلقك واضطرابك وخوفك، فصرت آمناً مطمئناً على يومك وغدك ومستقبلك، فأمنت في دنيا الناس من أن يصييك شيء يؤذيك

إلا أن يشاء الله تعالى.. حيثذا يكون هذا القلب أقرب إلى العبادة والمحبة والطاعة والإقبال على الله تعالى، وتكون تلك النفس أصفى في سيرها إلى الله تعالى فتقل غفلتها و تستعد للقاء الله -جل وعلا-، فتستقبل أنوار المعرفة من الله تعالى وأنوار المحبة والذكر والإخبار والإنبأة والخوف والرجاء والخشية والتوكيل والثقة... إلى بقية الأمور التي سنشير إليها في معنى القلب السليم في حظ المرء من هذا الاسم المعظم.

وقد ورد عن النبي ﷺ خبرٌ صحيحٌ أهل العلم يبين قيمة هذا السلام، وأن الله تعالى يجزي عليه ويضاعف مثوبته فيقول ﷺ: «ثَلَاثَةُ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: رَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُ، فَيَدْخُلُهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْدَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَيْرِهِ. وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمُسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُ فَيَدْخُلُهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْدَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَيْرِهِ. وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١)</sup>، ودخوله بيته بالسلام ليس مقصوده أن يدخل فيقول السلام عليكم، ثم يبدأ الشجار والعراب.. ولكن دخل وأهله سالمون من لسانه ويده، سالمون من صفاته السيئة كالحقد والغل وإرادة الشر، سالمون من آثامه وخطاياه ومن الوقوع في الذنوب والسيئات، قد فشا السلام والأمن في هذا البيت، فكان كذلك خارجه، فالله ضامن له.

فطريق أهل الإيمان إلى الجنة ومحبة الله جل وعلا، والسلامة في الأولى والآخرة هو: أن يسود السلام ببيوت المؤمنين المتقيين وأن يتشر خارجها، سواء بينهم وبين من يعرفون أو بينهم وبين من لا يعرفون..

(١) رواه أبو داود (٢٤٩٤) والنسائي (٣١٢٠). وقال النووي في الأذكار (ص ٣٤): حسن، وأورده ابن القيم في زاد المعاد (٣٤٨/٢) وقال: صحيح، وقال ابن حجر العسقلاني في هداية الرواية (١/٣٤٠): حسن.

وفي مثل هذا يحسن أن نشير إلى قوله عز وجل: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلْدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبَعْثَرُ حَيَا﴾ [مريم: ١٥]، فإن حظ أهل الإيمان من قوله وسلام عليه يوم يموت هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْبَلُوكُمْ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْرُثُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، يعني يبشرونهم حال موتهم بأعظم بشارة؛ قال أهل العلم<sup>(١)</sup> في تفسيرها: إن المؤمن ليدخل الجنة وما يزال في قلبه حلاوة هذه البشارة التي بشر بها عند موته، حيث تنزل عليه الملائكة ألا تخاف مما أنت مقدم عليه من أمور الآخرة، وألا تحزن على ما تركت من أمور الدنيا، وأبشر بالجنة، وعلى مقدار ما يتحقق لك من معانى السلام في سلامه جوارحك وصفاتك وقلبك بقدر ما تناول حظك من الله تعالى من هذا الاسم المعظم، وبقدر ما تحوز من سلام الله تعالى وسلامته في هذا الموضع عند القبض وفي الأولى والآخرة.

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٧/١٧٧) "وقوله: {تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ}" قال مجاهد والسدوي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت فائلين: {أَلَا تَخَافُوا} قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، {وَلَا تَحْرُثُوا} أي على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنما نخلفكم فيه، {وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراء رضي الله عنه: "إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان". وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاہ ابن حجر عن ابن عباس، والسدوي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتًا قرأ سورة "حر السجدة" حتى بلغ: {إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْبَلُوكُمْ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، {وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} قال: فيؤمّن الله خوفه، ويقرّ عينه بما عظيمة يخشى الناس يوم القيمة إلا هي للمؤمن فرحة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له في الدنيا. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً، وهو الواقع". اهـ.

فَحَظِّ الْعَبْدُ مِنْ هَذَا الْاسْمِ:

أولاً: السلامة في الدنيا بأن يتخلص من المؤذيات، فمن أفسنا السلام على الشر المذكور وتحقق به فإنه يحصل له هذا السلام الذي ذكر الله تعالى.

ثانياً: السلامة في الدين، وهي على ثلاث مراتب:

الأولى: أن يسلم قلبه ليأتي الله تعالى بقلب سليم؛ وهي أهمهم.. لأن من سلم في الدنيا قلبه فقد أتى الله تعالى بقلب سليم ينفعه يوم الفزع كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩-٨٨].

الثانية: أن يسلم في أخلاقه بأن يكون عقله كما ذكرنا أمير غضبه وشهوته وألا يكون أسيراً لها.

الثالثة: أن يسلم في عمله من البدع والشبهات ومتابعة الهوى والشهوات.

فإذا وحد المؤمن الله تعالى بهذا الاسم المعظم، ودعاه أن يرزقه حظه منه، وجاهد على أن يتخلق بهذا السلام مع نفسه ومع الناس كما بينت الآيات والأحاديث يوشك أن يأخذ حظه من هذا السلام.

### القلب السليم أهم حظوظ العبد من اسمه السلام

وذلك لأن هذه السلامة إذا تحقق بها قلب المرء تحقق له الفوز في الآخرة، فكل ما نتكلم عليه من معانى السلام فإنها مؤداه هذه المحصلة وهي: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ومعنى الآية: يوم لا ينفع شيء إلا من أتى الله بقلب سليم، لماذا؟ لأن أكثر ما ينفع المرء في دنياه ولده وماله، فإذا أراد تحصيل شيء في الدنيا حصله

بالمال أو بالولد، فالأولاد إما يدفعون عنه، أو يقومون له بأمره، وينصروننه؛ لأن الولد هو أشدق من يدفع عن أبيه، فإذا وقع المرء في مصيبة وكان له ولد دفع عنه هذه المصيبة، بأن يقع بدله أو ينصره فيها، فإذا لم يكن الولد هو الذي سيخلص أباً، فمن أين يأتي بمن يرحمه أكثر من ولده؟!.. أما إن كان له مال، فإن يدفع عن نفسه بهذا المال ما استطاع، فأصحاب المال في الدنيا يظنون أنهم يستطيعون أن يفعلوا كل شيء بما أوتوا من مال، بأن يشتروا سلامهم وأمنهم وسعادتهم والناس من الرجال والنساء؛ كذلك المال هو الذي يأتي له بالسلطان والجاه؛ فجاءت الآية لتقول يوم القيمة لا يفقدون ذلك كله، ولا ينفع أحدٌ أحداً إلا القلب السليم.

ونذكر معنى القلب السليم ليحفظه أهل الإيمان وليكون دليلاً لهم على سلامة قلوبهم ووعنهم في مجاهدة أنفسهم على التحقق بهذه السلامة، وأن يكون دعاؤهم لله تعالى باسمه السلام سبباً في أن يتحقق لهم هذا القلب السليم، فيفسروا السلام بينهم، فيتسبب في نزول سلام الله تبارك وتعالى عليهم؛ فيكون سبب سعادتهم في الأولى والآخرة.

ذكر هذا المعنى الإمام ابن القيم<sup>(١)</sup> فعرّفَ القلب السليم بأنه القلب السالم، فقال:

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى في طريق المجرتين (١ / ٣٧): "حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض في الباطن خوض الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خلاقه تحت الأمر، وأضمحل خوضه في معرفته بالحق فاطمأن إلى الله معرفة به ومحبة له وعلمه بأمره وإرادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الديني. بل الأحكام ثلاثة: حكم شرعى ديني، فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعـة، بل بالانقياد المحسـن، وهذا تسليم العبودية المحسنة فلا يعارض بذوق ولا وجـد ولا سيـاست ولا قيـاس ولا تقـلـيد، ولا يرى إلى خلافه سـبيلـاًـ الـبـتـةـ، وإنـماـ هوـ الانـقـيـادـ المـحـسـنـ والتـسـلـيمـ [والـإـذـغـانـ وـالـقـبـولـ فإذاـ تـلـقـىـ بـهـذـاـ التـسـلـيمـ وـالـمـسـأـلةـ إـقـرـارـاـ]ـ وـتـصـدـيقـاـ بـقـىـ هـنـاكـ اـنـقـيـادـ آخرـ وـتـسـلـيمـ آخرـ لـإـرـادـةـ وـتـنـفـيـداـ وـعـمـلاـ، فلاـ تـكـوـنـ لـهـ شـهـوـةـ تـنـازـعـ مـرـادـ اللهـ مـنـ تـنـفـيـذـ حـكـمـهـ". اـهـ.

"القلب السليم الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونفيه، ومن كل شبهة تعارض قدره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسول الله ﷺ".

والمعنى: أن القلب السليم ليس فيه شبهة تخالف أمر الله ونفيه، فإذا قال المولى ﷺ: افعل، ليس عنده ما يمنع ذلك: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» [النور: ٥١]، وإذا قال له: لا تفعل، كان كذلك أيضاً، فكأن المؤمن ليس بينه وبين أن يقوم بأمر الله إلا أن يعرف أمر الله، فليس عنده شبهة ولا شهوة تعارض أمره ونفيه بهذا القلب السليم، فكأن القلب السليم ليس قلباً يأتيه أمر الله تعالى أو أمر النبي ﷺ أو يأتيه نبي الله تعالى أو نبي النبي فيتعلل ويتحجج حتى لا ينفذ أمر الله أو يؤخره أو لا ينفذ أمر النبي أو يؤخره أو لا ينتهي عن نفيه أو يقع في هذا النفي أو يسارع إليه، فليس عنده شيء من ذلك، وإنما كما قالت الآية: «لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» [الحجرات: ١]، وكما قالت الآية: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمْ أَحْيَرَةٌ مِنْ أَمْرِهِمْ» [الأحزاب: ٣٦] فلا يقول حتى يقول الله تعالى، ورسوله ولا يفعل حتى يُؤْمِر، فإذا قال له: افعل. فعل، ولا يقول لماذا ولا كيف؟! المؤمنون قولهم سمعنا وأطعنا، يسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنات عرضها السماوات والأرض، ليس له أحد يحكمه في أمره وأقواله وأفعاله في الظاهر والباطن إلا رسول الله ﷺ، وإن لم يكن قلبه سالماً، وإنما هو قلب متعدد متتشكّك متخفّف، يريد أن يتفلت من أوامر الشرع، وأن يتکاسل وينام عنها، أو أن يتخفّف منها، لا يريد أن يحكّم إليها، وإن احتكم إليها يستصعبها ويستثقلها، ولا يريد أن يقوم بها، وإن قام بها على الملل والضيق والضجر، ويريد أن ينتهي منها، فلا يجد فيها حلاوة الإيمان، والتلذذ بالطاعة، والإقبال على الله تبارك وتعالى والراحة كما كان هدي النبي ﷺ في ذلك بقوله في الصلاة:

«أَرِحْنَا إِهْنَا يَا بِلَالُ»<sup>(١)</sup>.

فهذا العبد ذو القلب السالم كل همه التهاب مرضاه مولاه، وقد ذكرنا مثل ذلك في الكلام على اسمه الرحمن الرحيم في حديث النبي ﷺ عن العبد الذي كل همه أن يتمنى مرضاه الله تعالى فإذا بالله تعالى يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَمِسُ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَلَا يَزَالُ كَذِيلَكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ إِنَّ عَبْدِي فُلَانًا يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي، أَلَا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فُلَانٍ، وَيَقُولُهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُهُ مَنْ حَوْلَهُمْ حَتَّى يَقُولُهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّمِيعُ ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup>.

لهذا يقول الإمام ابن القيم: فسلم هذا القلب في محبة الله تعالى ولا يرده عن محبته شيء، فسلم في خوفه ورجائه والتوكيل عليه والإذابة إليه والذل له وإيثار مرضاته على كل حال والتبعاد من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا الله وحده بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

فيعتقد قلبه معه عقداً محكماً على الاتهام بالنبي ﷺ والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان، وهي الخبر عما في القلب، ويسلم كذلك في أعمال الجوارح والقلوب فلا يكون في جوارحه ولا قلبه ولا في اعتقاداته إلا تابعاً للنبي مؤتماً به - صلى الله عليه وآله وسلم - على المحبة وعلى الخضوع وعلى الاستسلام له فلا يتقدم بين يديه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى:

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٦٤) وأبو داود (٤٩٨٧) وقال العراقي في تحرير الإحياء (١/٢٢٤): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٧٩)، رقم (٢٢٤٥٤)، قال الهيثمي (١٠/٢٠٢) : رجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان، وهو ثقة . والطبراني في الأوسط (٢/٥٧)، رقم (١٢٤٠)، قال الهيثمي (١٠/٢٧٢) : رجاله ثقات .

﴿ يَتَأَمَّلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدِيَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِ ﴾

[الحجرات : ۱].

هذا قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديواناً يوم القيمة:

لم فعِلت؟ وكيف فعِلت؟ ...

فالسؤال الأول: لم فعِلت؟ الله تعالى وابتغاء مرضاته والدار الآخرة؟ أم أنها فعلت لحظ النفس والرياء وطلب المدح والثناء وأن يراها الناس على هذه الحال انتظاراً لحظ من حظوظ الدنيا الزائلة العاجلة، أو دفعاً لذمهم وخوفاً من مسبتهم وعارهم؟!؟!

والسؤال الثاني: كيف فعِلت؟ أمتتابعةً للنبي ﷺ، ومحبةً له ﷺ والتزاماً هديه في الظاهر والباطن أم أنها فعلت كيفما اتفق، لا يريد بذلك اتباعاً ولا هدياً؟!..

فالمسألة العظيمة إذن أن يعرف المرء هذا القلب السليم الذي هو سبب نجاته يوم القيمة، لأنه إن لم يأت بهذا القلب السليم فإنه سيأتي بقلب مريض أو ميت، والقلب المريض أو الميت لا ينفعه عند الله تعالى، ولا يكون سبب نجاته، وهذا يقع المرء في خوف شديد يدفعه على الفور إلى توحيد الله تعالى باسمه السلام، وبدعاء الله تعالى به، وبالتحقق بمعانى هذا الاسم، وذلك بمحاولته:

أولاً: أن يسلم له قلبه مع الله تعالى متضرراً بهذه السلامة تلك الأنوار التي تنزل عليه من جراء المحبة والرضا واليقين والتوكيل والإقبال على الله والاستعداد للآخرة والزهد في الدنيا فيشعر بحلوة الإيمان بقربه من الله تعالى، إذ كلما كان المرء متصفاً بصفات الله تعالى كان أقرب إلى الله جل وعلا، وأحب إليه ﷺ فستنزل عليه آثار هذه الأسماء، وتثاله بركتها، ويرضى عنه ربه، وتسعه رحمته ﷺ.

ثانياً: أن ينشر هذا السلام مع نفسه ومع الناس، وأن يعمل على أن يكون الناس سالمين منه في صفاته وأفعاله وأقواله وجوارحه، بأن ينقى قلبه من الغش والحسد والغل والحسد وإرادة الشر لهم، وهذا يستدعي منه إن كان بينه وبين أحد شيء من القطيعة أو الشجار أو الاعتراف على أمور الدنيا أن يسلمه منه ومن شره ومن أذاه، فيظهر بذلك قلبه له، رجاء سلام الله تعالى وتسليميه في الأولى والآخرة. ونزيد توضيح وصف السلام لله تعالى وما ينبغي في حق خلقه منه وذلك بكلام بعض العلماء فنقول:

### معنى السلام شرعاً:

قال الإمام الغزالى<sup>(١)</sup> رحمه الله تعالى: "السلام هو الذي تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، حتى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلاماً إلا وكانت معزية إليه صادرة منه وقد فهمت أن أفعاله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سالمة عن الشر، أعني الشر المطلق لذاته وليس في الوجود شر بهذه الصفة، كما سبق الإيماء إليه"، فليس في أفعاله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شر مطلق<sup>(٢)</sup>، وإنما إن كان فيها شر فلما يتضمنه من الخير، وقد أشرنا قبل ذلك في كلامنا على اسمه الرحمن الرحيم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كيف يقع في ملكه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تعذيب الصغار والكبار، أو يقع في ملكه الآفات والأمراض والمحن، وذكرنا المثل الذي ضربناه لذلك وهو هذا الولد

(١) انظر "المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى" للإمام الغزالى.

(٢) قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في جامع الرسائل (١/٣٥٦): "والضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرًّا مطلقاً، وإن كان شرًّا بالنسبة إلى من تضرر به. وهذا لا يجيء في كلام الله تعالى وكلام رسوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إضافة الشر وحده إلى الله، بل لا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة، إما أن يدخل في عموم المخلوقات فإنه إذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة والميشية والخلق وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تعلق بالعموم، وإما أن يضاف إلى السبب الفاعل، وإما أن يجذف فاعله".

المريض الذي تلزمه الحجامة للعلاج، فتأتي أمه لتمنعه أن يتحجّم رحمةً به، فيحجمه أبوه مع تألم الولد منها، فتكون أمه عدوة له في ثياب الرحيم به، ويكون أبوه هو الرحيم به على الحقيقة؛ لأن ذلك الأب الذي قد آلمه وأتعبه كان السبب في شفائه من الأمراض والعلل.

لذلك فليس في أفعاله **نَعَّالِمُ** الشر المطلق، وإن كان في ظاهرها بالنسبة للإنسان شر، فإنها تتضمن من الخير أكثر مما تتضمنه من الشر، وقد ورد ذلك أيضاً في حديث النبي ﷺ حيث قال: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»<sup>(١)</sup> وهذا يعلم المؤمن كيف يرضى عن ما يقع به من المحن والأمراض وال المصائب؛ لأن الله تعالى ما فعل به ذلك إلا لخير ضمن هذه الأفعال يريد الله تبارك وتعالى بعده، لأن الله **نَعَّالِمُ** لا ينتفع بشيء من تعذيب عباده.

إذن المؤمنون المتقوون مطالبون بحفظ هذه الجملة فيما يتعلق بالله تعالى، أنه قد سلمت ذاته **نَعَّالِمُ** عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، وأن كل ما يوجد في هذا الوجود من السلام معزو إليه صادر منه **نَعَّالِمُ**.

وهذا هو حظ المؤمن من هذا الاسم المشرف قال الإمام الغزالي: "تنبيه: كل عبد

(١) رواه مسلم (١٢٩٠) وأبو داود (٦٤٩) والترمذى (٣٣٤٤) والنسائى (٨٨٧)، وقال العيني في شرحه على البخارى (١٣ / ٧٠): "قال ابن بطال هذا الحديث أصل لأهل السنة في أن السعادة والشقاوة بخلق الله تعالى بخلاف قول القدريّة الذين يقولون إن الشر ليس بخلق الله، وقال التنووي: فيه إثبات للقدر وإن جمع الواقعات بقضاء الله تعالى وقدره لا يسأل عما يفعل وقيل إن سر القدر ينكشف للخلافة إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف لهم قبل دخولها، وفيه رد على أهل الجبر لأن الجبر لا يأتي الشيء إلا وهو يكرهه والتيسير ضد الجبر ألا ترى أن النبي قال: إن الله تجاوز عن أمتي ما استكرهوا عليه قال والتيسير هو أن يأتي الإنسان الشيء وهو يحبه".

سلم عن الغش والخذل والحسد وإرادة الشر قلبه، وسلمت عن الآثام والمحظورات جوارحه، وسلمت عن الانتكاس والانعكاس صفاته فهو الذي يأتي الله تعالى بقلب سليم، وهو السلام من العباد"

والمعنى أن المولى ﷺ قد سلمت ذاته وصفاته وأفعاله عن العيب والنقص والشر في ينبغي أن يكون حظ المؤمن من هذا الاسم أن يسلم قلبه وجوارحه وصفاته عن تلك المعاني، فيسلم قلبه من الحقد والغلو والغش وإرادة الشر، وتسلم جوارحه عن العاصي والآثام، وتسلم صفاته عن الانتكاس والانعكاس.

وهذه جملة يشرحها الإمام لفهم معناها في صفاتك التي ينبغي أن تكون متحققة بصفات الله تعالى، فيقول: "وأعني بالانتكاس في صفاتك أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه إذ الحق عكسه وهو أن تكون الشهوة والغضب أسير العقل وطوعه وإذا انعكس فقد انتكس" يعني أن الحق الذي يجب أن تكون عليه أن تكون شهوتك وغضبك أسيرين لعقلك، فيكون عقلك هو الذي يتحكم في الشهوة والغضب فلا ينعكس عليك، ومعنى الانتكاس في صفاتك، أن تكون صفات الشر غالبة على عقله، فلا يكون عقله هو الذي يحرك هذه الصفات ويذبح هذه الشهوات، ويمنع هذه الشرور والآثام أن يتصرف بها أو أن يتخلق بشيء منها ، بل يكون أسير الهوى وأسير الشهوة وأسير الصفات المذمومة وهي التي تغلبه وتحركه، فعلى المؤمن ألا يكون الغضب سبباً لإخراجه عن حدود الشرع والعقل، ولا تكون شهواته في الدنيا وصورها وأكلها وشربها وما لها هو الذي يُسيّرهُ في هذه الحياة، بل العقل هو الذي يتحكم في هذه الشهوات بما أوضعيه الله تعالى فيه من الأخلاق الحسنة المغروسة في طبع المرء.

فإذا انعكس فقد انتكس، يعني إذا انعكست هذه الصفات فصارت هي المتحكمـة في العقل صار المرء تابعاً هواه لا يتحكمـ في شهوته ولا يتمكـن من أن يحفظ نفسه أو أن يتوبـ مما وقعـ فيه فضلاً عن أن يسيرـ إلى الله تعالى وإن أراد شيئاً لنفسـه وحظوظـها، تركـ مـجاـهـدةـ نـفـسـهـ وـسـارـ فيـ مـطـلـوبـهاـ وـأـمـضـاهـ،ـ وإنـ كانـ عـقـلـهـ يـقـولـ:ـ لـاـ!ـ هـذـاـ خـطـأـ.

### انتكـاسـ الصـفـاتـ سـبـبـ تركـ مـجاـهـدةـ النـفـسـ

ومن أمثلـةـ ذـلـكـ أـنـ يـقـولـ أحـدـهـ:ـ نـويـتـ أـنـ أـصـلـىـ بـالـلـيلـ هـذـهـ الـلـيـلـةـ،ـ وـبـعـدـ الـعشـاءـ إـذـ نـفـسـهـ تـغـلـبـهـ تـقـولـ لـهـ:ـ نـمـ قـلـيلـاًـ ثـمـ اـسـتـيقـظـ قـبـلـ الـفـجـرـ فـصـلـ،ـ فـلـاـ يـسـتـيقـظـ وـلـاـ يـصـلـيـ فـيـضـيـعـ عـلـيـهـ الـوـتـرـ وـرـبـماـ ضـاعـ عـلـيـهـ الـفـجـرـ أـيـضاـ!ـ ..

أـوـ يـقـولـ مـثـلاـ:ـ قـدـ وـظـفـتـ عـلـيـ نـفـسـيـ كـلـ يـوـمـ وـرـداـ مـنـ الـقـرـآنـ،ـ فـيـأـيـ الـهـوـىـ وـالـشـهـوـةـ وـيـدـخـلـ الشـيـطـانـ لـهـ مـنـ تـلـكـ الـمـادـخـلـ لـيـقـولـ لـهـ:ـ أـنـتـ مـُـتـعـبـ وـلـاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـتـدـبـرـ الـقـرـاءـةـ وـلـاـ أـنـ تـفـهـمـهـاـ،ـ نـمـ قـلـيلـاًـ ثـمـ اـقـرـأـ بـعـدـ أـنـ تـسـتـيقـظـ،ـ أـوـ اـجـلـسـ مـعـ أـهـلـكـ قـلـيلـاـ وـائـتـنـسـ بـهـمـ ثـمـ اـقـرـأـ بـعـدـ،ـ فـتـجـدـ أـورـادـاـ قـدـ تـرـاكـمـتـ عـلـيـكـ وـتـكـاثـرـتـ فـلـاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـؤـديـ مـنـهـاـ شـيـئـاـ!ـ ..

مـثـلاـ تـأـتـيـ لـيـلـةـ الـاثـنـيـنـ وـقـدـ أـرـادـ أـنـ يـنـوـيـ الصـومـ فـيـصـبـعـ عـلـيـهـ الشـيـطـانـ أـمـرـ الصـيـامـ،ـ اـحـتـجـاجـاـ بـالـأـعـمـالـ وـالـمـهـامـ،ـ وـيـمـنـيهـ بـصـيـامـ الـخـمـيسـ بـدـلـاـ مـنـهـ،ـ وـهـكـذـاـ فـيـضـيـعـ عـلـيـهـ صـيـامـ الـاثـنـيـنـ وـالـخـمـيسـ.

هـذـاـ لـابـدـ أـنـ يـخـزـمـ المرـءـ أـمـرـهـ مـعـ عـقـلـهـ وـقـلـبـهـ فـيـ أـمـرـ هـذـهـ الشـهـوـاتـ وـأـنـ يـقـدـمـ فـيـهـ الشـرـعـ فـإـنـ عـاهـدـ اللـهـ تـعـالـىـ عـلـىـ شـيـءـ لـاـ بـدـ أـنـ يـوـفـيـ بـهـ،ـ فـالـشـيـطـانـ كـمـاـ قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فَلَا تَحْذُوْهُ عَدُوًا﴾ [فاطر آية: ٦]، يعني قد تريض بك وترصد لك ليه ونهاره أن تزل إلى شهوة أو غضب حتى يدخل إليك منها فيضيع عليك ليلك وأورادك، ويوقعك في الخطأ، والغيبة والنميمة والتطاول، أو يوقعك في الرباء والشبة والشهوات والشبهات، كل ذلك ليخرجك من عبادة الله تعالى إلى حظوظ النفس وشهواتها، فإن لم يستطع الإيقاع بك في شيء من ذلك أوقعك في التكاسل والنوم وطول الأمل، أو أوقعك في المكر وهمرات والمحرمات، أو أوقعك في الغفلة والنسيان.. المهم أن يبعدك عن الله تعالى، فهو عدوك الذي يتضرر أن يوقع بك ويهزمك، ويفل عزيمتك، ويضعف همتك، ويقعدك عن العمل والاستعداد للآخرة.

## كيف يحقق المرء السلام ومعناه في نفسه ؟

يقول الإمام الغزالى: "ولن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمين من لسانه ويده، فكيف يوصف به من لم يسلم هو من نفسه؟"<sup>(١)</sup> يعني إذا لم يسلم المسلمين من لسانه ويده فكيف يسلم هو من نفسه! وإذا نظرنا إلى هذا المعنى من كلام الإمام نجد أن هذا هو حظ المرء من اسم الله تعالى السلام، وهو الحظ الذي لم يحصل منه ما يكون سبباً في استئامة سير المرء إلى الله تعالى، انظر إلى حالك، إلى نفسك: كم أنت مضطرب! وكم أنت قلق! وكم أنت متعدد ومتشكك! ولا تستطيع أن تستقيم على شيء من العمل الصالح، ولا أن تثبت على عبادة، ولا أن تسير السير الحسن الصحيح إلى الله تعالى، فإذا ما سلم لك قلبك وسلمت لك جوارحك وشعرت بهذا السلام بينك وبين الله تعالى وبينك وبين نفسك استقرت لك أحوالك، واستنار لك قلبك، واستضاء لك طريقك

(١) انظر المقصد الأسمى للإمام الغزالى رحمه الله.

إلى الله تبارك وتعالى، فتنزل عليك آثار هذه البركات من الله -جل وعلا- ف تكون سبباً لحفظك في طريقك إلى الله -جل وعلا-، وكذلك كانت هذه الآثار وتلك الأنوار والبركات زادك الذي كلما فترت همتك وضعفت عزيمتك أخذ يدك إلى الله، وأعاد القوة لعزيمتك، وأبعد عنك المؤذيات من الشيطان والتفس ولهوى وأنار لك الطريق مرة أخرى إلى الله بِهِمْ.

ولن يتحقق لك ذلك أبداً المسكين إلا بالمجاهدة، فمجاهدتك لنفسك تبدأ من الآن بأن تتفكر في معاني اسمه السلام، فتجاهد نفسك وتحملها على التحقق بها بتصفية جوارحك وقلبك وصفاتك من كل ما يخالف معانى السلامة، من العيب والنقص والشر والسوء، لتعود شخصاً جديداً كلما راودتك نفسك على ذلك خشيت الانكماش والانعكاس الذي يغلب فيه الهوى والشهوة والغضب والشيطان على العقل والشرع والأخلاق الحسنة، فدفعك ذلك لمواصلة المجاهدة وسارعت إلى الالتجاء إلى الله تعالى أن يعينك ويقويك، وأن يهبك بِهِمْ من رحمته، وأن ينزل عليك من سلامه ما تستطيع أن تدفع به هذه الشرور وتلك المؤذيات، فلا تؤخر التفكير في هذه المعانى فتؤخر المجاهدة، لأنك إن أخررت ذلك أخذتك الدنيا وانشغلت بها، أو أخذتك التسويف والتكاسل فتعود مرة أخرى كأن لم تسمع شيئاً عن اسمه السلام، ولم تجاهد على التحقق بشيء من معانيه!..



الفصل الثاني

التفسير الإجمالي

للآيات الوارد فيها ذكر «السلام»

في القرآن الكريم

ونتكلّم في هذا الفصل عن مواضع السلام في كتاب الله تعالى، وهذه المواضع تشكّل الكثير من المعاني التي يلزم أهل الإيمان فهمها، وحمل النفس عليها، وسنشير إلى معانٍ هذه الآيات إجمالاً؛ لأن المقصود فقط هو معرفة أسماء الله تعالى وصفاته ﷺ، كما ذكر النبي ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup>.

وقد ورد ذكر اسم الله السلام ﷺ في قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وبالنظر الإجمالي في الآيات المتعلقة بالسلام لاحظنا أنها تشتمل على هذه العناوين وما يندرج تحتها من آيات:

الأول: أن الله تعالى سمى الدار الآخرة بدار السلام.

(١) رواه البخاري (٢٥٣١) ومسلم (٤٨٣٥) والترمذى (٣٤٢٨) وابن ماجه (٣٨٥١)، وقال النووي في شرح مسلم (٣٩/٩): "وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: (مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) فَأَخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِإِحْصَائِهَا، فَقَالَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ: مَعْنَاهُ: حَفِظَهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَظَهَرُ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ مُفْسَرًا فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى (مَنْ حَفِظَهَا) وَقَيلَ: أَحْصَاهَا: عَدَّهَا فِي الدُّعَاءِ بِهَا، وَقَيلَ: أَطَّافَهَا أَيْ: أَحْسَنَ الْمُرَاعَاةَ لَهَا، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ، وَصَدَّقَ بِمَعْنَاهَا، وَقَيلَ: مَعْنَاهُ: الْعَمَلُ بِهَا وَالطَّاعَةُ بِكُلِّ أَسْمَاهَا، وَالْإِيمَانُ بِهَا لَا يَقْتَضِي عَمَلاً، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ حِفْظُ الْقُرْآنَ وَتَلَوُّتُهُ كُلُّهُ، لِأَنَّهُ مُسْتَوْفٌ لَهَا، وَهُوَ ضَعِيفٌ وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ...". اهـ. وقال ابن حجر في الفتح (٢٢٠ / ١١): "وَإِنَّمَا مَقْصُودُ الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَالْمُرَادُ الْأَخْبَارُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ بِإِحْصَائِهَا لَا الْأَخْبَارُ بِحَضْرَةِ الْأَسْمَاءِ، وَقُوَّيْدَهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ مَسْعُودَ الَّذِي أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ إِبْنُ حِبَّانَ "أَسْأَلْكَ بِكُلِّ أَسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِّيْتُ بِهِ نَفْسِكَ، أَوْ أَنْزَلْتُهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَمْتُهُ أَخْدَى مِنْ خَلْقِكَ أَوْ إِسْتَأْتَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْكَ" وَعِنْدَ مَالِكٍ عَنْ كَعْبِ الْأَخْبَارِ فِي دُعَاءٍ "وَأَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ" وَأَورَدَ الطَّرِيرُ عَنْ فَتَاهَةِ نَجْوَهُ، وَمِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّهَا دَعَتْ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَجْوِيْهِ ذَلِكَ". اهـ.

الثاني: أنه إذا كانت الآخرة هي دار السلام فإن الله تعالى أعد لمن اتبع سبل السلام في الدنيا العواقب الحسنة في الآخرة، بداية من يوم موتهم، ثم يوم يبعثون أحياء ويلقون الله تعالى ثم حين يؤذن بهم إلى الجنة، وأخيراً حال كونهم فيها.

الثالث: أن الله تبارك وتعالى يهدي لسبل السلام، وأن النبي ﷺ يهدي كذلك إلى سبل السلام، وأن القرآن يهدي إلى سبل السلام.

الرابع: أن الله تعالى بينَ الصفات والأخلاق التي إن اتبعها المرء في الدنيا تكون طريقةً للفوز بالسلام من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

الخامس: أن رسل الله تعالى واتباعهم ومن اصطفى من عباده المؤمنين في محل السلام من الله جل وعلا. ونوضح إجمالاً هذه العناوين:

## أولاً: الدار الآخرة هي دار السلام

وهو أول ما نلاحظه في هذا التلخيص وفيها يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، يعني إلى الجنة، ولماذا سمّاها دار السلام؟ قال أهل العلم: وفي تسميتها بدار السلام أربعة أقوال:

أحدتها: نسبةً إلى الله تعالى السلام<sup>(١)</sup>.

والثانية: أو نسبةً إليها إلى السلام بمعنى: التحية لأن تحيthem فيها السلام.

(١) قال النسفي (١/٤٨٤) والزمشري (٣/١٠) "أضافها إلى اسمه تعظيمًا لها"، وقال البيضاوي (٣/١٤) "دار السلام: أي دار الله وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبيه على ذلك".

والثالث: أو نسبتها إلى السلام بمعنى: الدار التي من دخلها سلم من الموت والأحزان والنصب، وعلى هذا يؤول قوله تعالى: ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١].

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم: ﴿أَدْخُلُوهَا سَلَّمً﴾ [آمينين ﴿٤﴾] [الحجر: ٤٦]، وبعد استقرارهم: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمُ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، ولا يسمعون فيها إلا السلام: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَّمًا سَلَّمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] وعند لقاء الله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله ﴿تَحْيِيْهِمْ يَوْمَ يُلْقَوْهُ سَلَّمً﴾ [الأحزاب: ٤٤].

ومعنى: ﴿يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] يعني: يدعوا إلى الجنة التي من دخلها سلم، ويدعوا إليها يعني: أنه يدعوا الناس إلى أن يسلموا في الدنيا فيكون حظهم في الآخرة دار السلام، وذلك بأن تسلم قلوبهم من الشرك ومن المعصية ومن البدعة، لتسليم قلوبهم لأنفسهم. وفي قوله ﴿أَيْضًا﴾: ﴿هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، أضاف الله تبارك وتعالى الدار إلى نفسه وإلى اسمه المشرف السلام تأكيداً لأهل الإيمان على هذا المعنى وهو أن الجنة إنما سميت بذلك لأنها دار السلام، فمن دخلها يسعد فلا يشقي أبداً، ويصبح فلا يمرض أبداً، ويشب فلا يهرم أبداً في جوار الله تبارك وتعالى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين حيث يقال له معهم يا أهل الجنة خلود فلا موت<sup>(١)</sup>.

(١) رواه البخاري (٤٣٦١) ومسلم (٥٠٨٧) ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهْيَةً كَبْشِ أَمْلَاحَ فَيَنْادِي مَنْ أَدِيَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَسْرِيُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ هُلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآءَ، ثُمَّ يَنْادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَسْرِيُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هُلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآءَ، فَيَدْبِغُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ {وَأَنِلَّهُمْ يَوْمَ الْحُسْنَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}).

## ثاًيًا: العواقب الحسنة لأهل السلام في الآخرة

والسلام من الناس في الدنيا هم الذين يستحقون هذه المكارم وتلك العواقب من الله تبارك وتعالى في الآخرة، فيخرجون إلى المحشر بسلام فيلاقون ربهم فيحييهم بسلام، فيدخلون الجنة بسلام، فيكونون فيها آمنين بسلام، وتحييهم السلام، وكل ذلك لمن تحقق بهذا السلام في الدنيا، وأخذ بحظه من معنى اسمه ﷺ السلام، وظهر آثار ذلك في أحواله، سواء مع الله تبارك وتعالى، أو مع النبي ﷺ، أو في دعوته، أو مع الناس أجمعين، حتى جهادهم فهو سلام لأن به يخرجون الناس إلى السلام.

وببداية هذه العواقب الحسنة تكون عند لقاء الله تعالى، إذ كل الناس سيلتقي الله تعالى كما ذكر ﷺ: «وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقُوْهُ» [البقرة: ٢٢٣]، ولكنهم فريقان عند ملاقاة الله تعالى:

الأول: فريق يتلقاهم ربهم والملائكة بالتحية والسلام، والتحية تعني الكلام السار الجميل الذي يقابل الله تعالى به المؤمن حين يلقاءه فيدخل به عليه السرور والكرامة، ويبين له المودة والمحبة، ويبيّن له الأمان والسلامة كما قال ﷺ: «تَحِيَّهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ» فكأن المسلمين المؤمنين الموحدين لهم مقابلة وتحية خاصة عند الله تعالى، فيكون الناس في الضيق والنكد والهم والغم والكرب العظيم، وأهل الإيمان يكون لهم هذه البشارة العظيمة من الله تبارك وتعالى... تحييهم عند لقاء الله تعالى سلام فيعلمونهم أنهم سالمون من كل شر، ومن كل مصيبة تقع للناس يومئذ، فلن يصيبهم مكره ولا فزع.

والثاني: حاله ما ورد في الآية: «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَزَدًا» [مريم: ٨٥، ٨٦]، فال مجرمون يساقون، كأنهم قطيع يعنف ويُزجر.. يساق إلى جهنم ليلقوا سوء مصيرهم.

ثم بعد هذا اللقاء لأهل الإيمان: تأخذهم الملائكة إلى الجنة بهذه الحال المفخمة في منازل الآخرة، التي يبينها قوله تبارك وتعالى: «وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» هَذِهَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَابٍ حَفِيظٌ<sup>(١)</sup> مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقُلُوبٍ مُّبِينٍ<sup>(٢)</sup> أَدْخُلُوهَا سَلَامٌ<sup>(٣)</sup> [ق: ٣١-٣٤]، فيخرجوا إذن من المحشر العظيم ويكلّهم ربهم ويقرّر لهم بذنبهم ثم يغفر لهم بفضله وكرمه ليدخلوا الجنة بسلام كما قال: «أَدْخُلُوهَا سَلَامٌ»، والملائكة تسلم عليهم كما قال جل وعلا: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» [الزمر الآية: ٧٣]، ويطرق النبي ﷺ باب الجنة ويقول: محمد، فيقول له الملك: «إِنَّكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»<sup>(٤)</sup> ويأتي المؤمنون ويقدمهم فقراء المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ ويقول المولى ﷺ في وصف ذلك: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْثَمَ فَادْخُلُوهَا خَلِيلِيْنَ» [الزمر: ٧٣]...

ومثل ذلك قول المولى ﷺ: «إِنَّ الْمُتَقِينَ فِي مَقَامِ أَمِينٍ»<sup>(٥)</sup> فِي جَنَّتٍ وَعَيْنٍ<sup>(٦)</sup> يَلْبِسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَاسْتَبْرِقٍ مُتَقَبِّلِينَ<sup>(٧)</sup> كَذَلِكَ وَزَوْجَتُهُمْ بَحُورٍ عَيْنٍ<sup>(٨)</sup> يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنِكَهَةٍ أَمِينَ<sup>(٩)</sup>:» [الدخان: ٥١-٥٥] فذكر ﷺ أمنين:

الأول: عند دخولهم الجنة، والثاني: عند أكلهم وشربهم.

فالآمن من الأول غير الثاني، ففي الآمن من الأول: المقام الذي يقيمون فيه مقام آمن، لا يخرجون منه ولا يموتون فيه، ولا يصيبهم فيه إلا الآمن، أما الآمن الثاني: فعند أكلهم وشربهم لا يصيبهم ما يصيب أهل الدنيا من كثرة الأكل ومن التخمة ومن التعب من الطعام والشراب، وإنما يأكلون ما يشاءون فيها مع الآمن الكامل من أن يتسبب لهم هذا

(١) رواه مسلم (٢٩٢) ولفظه (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنِّي بَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ).

الأكل في أي شيء ينبعض عليهم أمنهم... وبهذا قد اجتمع لهم السلام والأمن كله.

ونَتَفَهَّمُ في تحية أهل الجنة التي في قوله تعالى: «**تَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ**» [ابراهيم: ٢٣]:

ترى هل هذه التحية كما هو الحال في الدنيا؟ فقد ذكرنا أن معنى السلام في تحية أهل الدنيا أن يلقى المرء أخاه فيسلم عليه، يقول له: أنت آمن مني، فلا يأتيك مني شر، ولا يأتيك مني مكروره، ولا يصيبك مني أذى من غيبة أو نميمة أو أكل مال أو بهتان... أما أهل الجنة فليس بينهم ضغۇن ولا حسد، وكل أمن من بعضهم، فكيف تكون تحيةهم سلام كما يقول المولى تبارك وتعالى؟ الجواب كما ذكر أهل العلم أن سلامهم في الآخرة هو الإخبار عن الأمان الذي هم فيه، وشكر الله تبارك وتعالى على هذا الأمان، فكأنهم إذا قالوا: «**سَلَامٌ**» [ابراهيم: ٢٣] عندما يلتقي بعضهم ببعض فإنها يلتقون بما بين سلامهم، ويبين شكرهم على هذا السلام.

لهذا يقول المولى تبارك وتعالى: «**سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ**» [يس: ٥٨] فالمولى يسلم عليهم، كما ورد في الأخبار أن الله تبارك وتعالى يسلم على أهل الجنة، وما رأوا شيئاً أفضل من أن يجعل عليهم رضوانه بعد أن يسلم عليهم، وأن تنزل عليهم بركاته تبارك كلما سلم عليهم.

ولهم بعد ذلك ما ذكر المولى تبارك وتعالى: «**دَعَوْنَاهُمْ فِيهَا سُبْحَنَنَاكَ اللَّهُمَّ وَتَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنِّيَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» [يونس: ١٠] فقوله: «**دَعَوْنَاهُمْ فِيهَا سُبْحَنَنَاكَ اللَّهُمَّ**» [يونس: ١٠] يعني: يدعون الله تبارك وتعالى ويسبحونه في كل ما يتكون ويأتون بهم يتفسرون تسبيح الله تعالى وتتنزهه وتقديسه فإن تقابلوا فتحييهم السلام، وإن جلسوا فيجلسون ويتسامرون ويتنعمون على أحسن حال كما كانوا يتنعمون في الدنيا مع فارق ضخم فيما يتنعمون به في جوار الله تعالى والنبين والصديقين، ثم إن تفرقوا ليذهب كُلُّ

إلى أهله فيكون آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.. شكرًا لله تبارك وتعالى على ما هم فيه.

والسلام من المعاني الواردة في صلاة النبي ﷺ، سواء كان في داخلها كما في قوله ﷺ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَئِمَّةُ النَّبِيِّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ»<sup>(١)</sup>، وبعد أن ينتهي من صلاته يقول: «اللَّهُمَّ أَكُتُ السَّلَامَ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»<sup>(٢)</sup> دعاء وثناء وتوحيدًا لله تبارك وتعالى..

وهناك آية نعرج عليها سريعاً وهي قوله ﷺ في حال أهل الجنة: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» [مريم: ٦٢]، وهذه الآية تذكر شراب أهل الجنة، فهم لهم خمرهم، التي ليست كخمر أهل الدنيا وصفتها الله تعالى في قوله ﷺ: «وَكَاسًا دِهَاقًا» <sup>(٣)</sup> لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا <sup>(٤)</sup> جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا <sup>(٥)</sup> [النَّبِيَا: ٣٦-٣١] وقوله: «إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا» [الواقعة: ٢٦] لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا <sup>(٦)</sup> جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا <sup>(٧)</sup> [النَّبِيَا: ٣٦-٣٥]، وقوله: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَمًا» [مريم: ٦٢].

وهذه الآيات من آيات إعجاز القرآن الكريم، ويبين ذلك قوله: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا» [مريم: ٦٢] يعني: حال شرب أهل الجنة لخمرهم لا يكونون على حال أهل الدنيا عندما يتثنون خمرها، فتكون سبباً لذهاب عقلهم وتلفظهم بالألفاظ السيئة والكلام المسيء وتحولهم للأخلاق الرديئة، ولكن في الآية هنا نفي الله تعالى هذه الحال عن أهل الجنة

(١) رواه البخاري (٧٨٨) ومسلم (٦٠٩) وأبو داود (٨٢٥) والترمذى (٢٦٦) والنسائى (١١٥٠) وابن ماجه (٨٨٩).

(٢) رواه مسلم (٩٣١) وأبو داود (١٢٩٢) والنسائى (١٣٢٠) والترمذى (٢٧٥) وابن ماجه (٩١٤).

وعن شر بهم فيها، فقال: في كأسهم وفي شربهم وحال اجتماعهم على ذلك، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم: ٦٢] وقد تتحمل هذا المعنى الثاني وهو أي: لا يسمعون في الجنة لغواً ﴿إِلَّا سَلَمًا﴾.

وهذا هو المعنى الجليل الذي يتصوره المرء، كأنه جالس في المسجد مثلاً، فلا يسمع من أحد كلاماً مسيئاً ولا كلاماً خارجاً عن حدود الأدب والأخلاق ولا غيبة ولا نمية ولا بهتان، ولا يسمع منهم ما يضايقه ويؤذيه؛ ولكن كل سماعهم في الجنة سلام سلام، سواء كان بلفظ السلام، أو على معنى أنهم سالمون، كلُّ لا يحس في تنعمه إلا بكونه سالماً من كل نقص.

أما قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبَّتُمْ فَادْخُلُوهَا خَلَدِينَ﴾ فالسلام هنا بمعنى، الأول: السلامة من كل ما يُقدر، وهو الأمان من كل ما يخالفون منه ويحذرون، ويكون سبباً لضيقهم ونكدهم وغمهم، كل ذلك انتهى في حقهم وانقلب إلى نعيم وسرور، والثاني: السلام بمعنى التحية والإكرام التي تتلقاهم بها الملائكة.

وقوله تعالى: "طابتكم" معناه أنه لا يدخل الجنة إلا الطيبون، إذ الناس ثلاثة أقسام: الطيبون المحض، والخيثيون المحض، ومن جمع بين الطيب وبين الخبث، ولا يدخل الجنة من جمع بين الطيب والخبث، يعني من جاء بعمل صالح وأخر سيئ لا يدخل الجنة حتى ينقى ويذهب من هذا الخبث ليقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبَّتُمْ﴾ إذ كيف يدخل ولم يطيب بعد، ولم يتخلص من درنه وخبثه، الناتج من عصيانه وخروجه عن أمر الله تعالى وتقديره وتفسيره؟!

لهذا فإن هذه الآية هي نهاية الخطر لأهل الإيمان، إذ فهموا منها أنهم لن يدخلوا

الجنة إلا بعد أن يكونوا طيبين، فمن أتى الله تعالى بغير القلب السليم لن يدخل الجنة حتى ينقى ويهذب، والناظر في أحوال نفسه لا شك يعلم أن أحواله تقصّر به عن أن يقال له: ﴿سَلَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْثُم﴾ فوجب على أهل الإيمان المبادرة بالتحقق بالسلامة في جوار حهم وأعماهم وأقواهم وصفاتهم وقلوبهم؛ ليكونوا أهلاً لأن يقال لهم: ﴿طِبْثُمْ فَادْخُلُوهَا خَنَدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

### ثالثاً: اتباع الله والرسول والقرآن سبيلاً للهداية إلى سبل السلام

وتلك السبل التي من سلكها أمن فيها، وسلم فيها من الآفات والمؤذيات كالشهوات والشبهات وقوابع الطريق من نفسه وشيطانه وهواء من المعاصي والمكرهات والرذائل، فإن المرء ما إن يسلك هذه السبل حتى يكون سبباً لتسليم الله له.

وأولى هذه الآيات التي تبين هذه السبل قوله ﷺ: ﴿فَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَّكَتَبْتُ مُبِيتٌ ﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبْلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] وأحد التفسيرين في الآية أن النور هو الرسول ﷺ، والتفسير الآخر أن النور هو القرآن الكريم، يعني: ﴿فَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥] وهو الكتاب المبين، والتفسيران كلاماً صحيحاً<sup>(١)</sup>.

وفي قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ قوله "بِهِ" علام يعود الضمير؟!

(١) ذكر القولين في تفسير الآية جمع من المفسرين كابن الجوزي في زاد المسير (٢/١٨٤) والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٦/١١٨)، وقال بعضهم بل النور هو النبي ﷺ والكتاب المبين هو القرآن وإليه ذهب الطبرى (١٤٣/١٠) وغيره.

لعوده احتفالاً:

أولاً: أن يعود إلى النبي، فيكون المعنى: يهدي الله ﷺ بهذا النبي ﷺ من أتَبَعَ رِضْوَانَهُ سُبْلَ السَّلَمِ).

ثانياً: أن يعود الضمير إلى القرآن الكريم في قوله: (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ) فيكون المعنى: يهدي الله ﷺ بالقرآن الكريم.

وذلك كله صحيح؛ لأن الله تبارك وتعالى قد ذكر أن النبي ﷺ يهدي إلى الله تعالى كما قال: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [صراط الله] [الشورى: ٥٢-٥٣] وكذلك القرآن الكريم قال الله تعالى فيه: (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلّٰتِي هُنَّ أَقْوَمُ) [الإسراء: ٩]؛ فيكون عود الضمير في الآية إلى النبي صحيحاً، ويكون عوده إلى القرآن صحيحاً كذلك.

والمعنى المهم الذي نريد الوصول إليه هو السلام في قوله: (سُبْلَ السَّلَمِ) يعني: طرق السلام التي من سار فيها أمن ، والسؤال الذي ينبغي أن نتفكر فيه، لماذا لا يأمن المرء في طريقه؟ ولماذا يتعرّض؟ ولماذا يضطرّ؟ ولماذا يتأخّر؟ ولماذا يتشكّك؟ ولماذا يصيبه الملل وضعف العزيمة والهمة، فيسير قليلاً ويرجع كثيراً، ويتبذّل في سيره إلى الله؟ الجواب: لأنّه لم يسلم في طريقه، فلو أخذ حظه من هذه السلام من الله تعالى؛ فإن الله تبارك وتعالى يحفظه، ويدود عنه، ويذبّ عنه ﷺ.

لذلك تُتّبعها بهذه الآية حتى يزداد هذا المعنى وضوحاً، وهي قوله تعالى: (وَالسَّلَمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَى) [طه: ٤٧] وقد قيلت هذه الآية في معرض محااجة موسى عليه السلام لفرعون، يقول ابن كثير في تفسيره: المعنى السلام عليك إن اتبعت الهدى.

وهذا ما نصبوا إليه وهو: متى يكون عليك السلام؟ ومتى يكون عليك الحفظ والكلأة من الله تبارك وتعالى؟ ومتى يثبتك فتستقيم في سيرك؟ الجواب: السلام عليك إن اتبعت المهدى وأعلى قدر اتباعك للهدى في الظاهر والباطن يتنزل عليك هذا السلام، واتباع المهدى في اتباع القرآن كما قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلّٰتِي هُوَ أَقْوَمُ» [الإسراء: ٩]، وفي اتباع النبي ﷺ كما قال: «وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [الشورى: ٥٢].

فعندما يُسأل هذا السؤال -مرة أخرى- لماذا التردد والتعب والرجوع والتقهقر؟ فالجواب أن ذلك دليل على أن المرء بعيد عن هذه المدائح التي تكون سبباً لسلامه وحفظه من الآفات والمؤذيات من الشهوات والشبهات والمعاصي والصور، والغفلة والبعد عن الله تعالى، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا وزرواتها، ولهذا سببان:

الأول: أن اتباعهم للقرآن الكريم ليس على القدر المطلوب الذي يصلون به إلى السلامة.

الثاني: أن التزامهم بهدى النبي ﷺ وبيتعاليمه، ليس بالدرجة التي تبلغهم السلامة؛ فعلى المرء إذن تعلم هديه ﷺ في الظاهر والباطن، لأن المرء إذا لم يتعلم سلوكه وهديه في الظاهر والباطن وأخلاقه وصفاته وعباداته ومعاملاته كيف يهتدى به؟ وكيف يسير وراءه؟ وكيف يكون على المهدى الذي اهتدى ويهدى به ﷺ؟

#### رابعاً: الصفات والأخلاق الموصلة للفوز بالسلام

بعد معرفة ما أعده الله لمن تحقق بمعاني السلام في الآخرة، كان لزاماً على المؤمنين أن يتحققوا بتلك المعاني، ولن يستقيم لهم هذا التحقق إلا بالمجاهدة على الصفات والأخلاق الموصلة لذلك.

وأولها: الصبر: سواء كان صبراً على الطاعة، أو صبراً عن المعصية، أو صبراً على البلاء والمحن في هذه الحياة الدنيا، فإنهم صبروا على ذلك جاءوا سالمين يوم القيمة؛ لذلك بينت الآية أنهم لا يقال لهم «سَلَّمُ عَلَيْكُمْ طِبَّتُمْ» [الزمر: ٧٣] فقط، وإنما طيبتهم جاءت نتيجة صبرهم؛ لذلك يُقال لهم عندما يدخلون الجنة: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَّمُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنَعِمْ عَقْبَى الدَّارِ» [الرعد: ٢٣-٢٤].

فلزم أن يكون المؤمن متخلقاً بالصبر لأن طريقه إلى التحقق بمعاني السلام؛ فيصبح طيباً يستحق أن يدخل الجنة، هذا الصبر -للأسف- لا يتصرف به أهل الإيمان اليوم، فهم لا يجاهدون أنفسهم في تصbirها على طاعة الله ﷺ ومجahdetها عليها حتى تظهر قلوبهم وتنقى خبثهم، وتخرج أدرانهم وعصيائهم وخروجهم عن أمر الله تعالى، وفي نفس الوقت لا يصبرون عن المعاصي والسيئات، ولا يجاهدون أنفسهم على البعد عن المكرورات والمحرمات؛ فقد يكون هذا الخبث سبب عدم دخولهم الجنة. حتى ينقوا ويهذبوا في النار -إلا بمشيئة الله تعالى-.

لذلك يقال هؤلاء الصابرين الذين صَبَرُوا أنفسهم على الطاعة وصبروها عن المعصية، وجاهدوها وتحملوا المشقة في سبيل الله تعالى: «سَلَّمُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنَعِمْ عَقْبَى الدَّارِ» [الرعد: ٢٤].

وإذا كان الصبر من صفات هؤلاء المؤمنين ليكون لهم السلام في الآخرة، فهو لاء المؤمنون لهم صفة أخرى وهي أنهم كانوا خائفين في الدنيا، فيقال لهم حينئذ: «أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ إِمَّا مُّبِينَ» [الحجر: ٤٥-٤٦]، والسلام هنا معناه الأمن ومع ذلك أكدّه بقوله: «إِمَّا مُّبِينَ» [الحجر: ٤٦] وهذا التأكيد له توجيهان:

الأول: إما أن يكون تأكيداً للمعنى، فيكون: ادخلوها بسلام، هذا السلام لا خوف فيه، ولا تردد فيه، وإنما الأمان الدائم.

الثاني: أن يكون بمعنى: يؤمنون بعد أن يدخلوها بسلام، فيؤمنون فيها من كل شر في أكلهم وشربهم ومحالسهم وحياتهم، وصحتهم ولدهم ونعمتهم وسرورهم.

ثانيها: السلام مع الوالدين -مع الأب بالذات- وقد ذكره الله في قوله ﷺ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ سَأَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّكُمْ كَاتَبَ لَكُمْ حَفِيَّاً» [مريم: ٤٧] حكاية عن إبراهيم عليه السلام..

ثالثها: التعامل بهذا السلام مع الناس سواء من كان منهم مؤمناً أو عاصياً أو كافراً كما جاء في قول الله تعالى: «وَإِذَا حَاطَبُوكُمُ الْجَهِيلُونَ قَالُوا سَلَامًا» [الفرقان: ٦٣] ..

وكذلك قوله ﷺ: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ» [الزخرف: ٨٩] ..

وقوله: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي أَجْهَلِهِنَّ» [القصص: ٥٥].

وتلك الآيات تحتاج لوقفة طويلة بعض الشيء، وإن كانت إجمالية لأهمية تلك الوقفة للمؤمنين المتقيين، للصعوبة الشديدة على النفس للتخلق بهذا الخلق، لكونه من أهم مداخل الشيطان على المرء.

أولى هذه الآيات قوله تعالى: «وَإِذَا حَاطَبُوكُمُ الْجَهِيلُونَ قَالُوا سَلَامًا» [الفرقان: ٦٣]، والجاهل في الآية تعني السفيه وليس المقصود منها قليل العلم، قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>: وإذا سفه عليهم الجهل بالقول السيئ لم يقابلوا لهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً.اهـ. وكان ذلك حال رسول الله - صلى الله عليه وآله

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣٩٥ / ٣).

وسلم - لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا<sup>(١)</sup>، وذلك على خلاف صفاتنا وأخلاقنا اليوم، فيقول القائلون: اتق غضب الخالق؛ وأحْلُمْ مَنْ خَلَقَ الله تعالى نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان على عكس ذلك تماماً، إذ كان لا يزيده جهل الجاهل وسفه السفهية وتطاول المتطاول إلا حلمًا<sup>(٢)</sup>، فلم يغضب لنفسه قط، ولكن يغضب عندما تنتهك حرمات الله تبارك وتعالى فلا يقوم لغضبه شيء - صلوات الله وسلامه عليه - ولم نسمع عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع شدة الأذى إلا السداد والرد بالحسنى، وأن يقابل السيئة بالحسنة، وتلك هي صفتة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التوراة والإنجيل، وورد عنه في القرآن: «إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم: ٤]، وكان ذلك منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امثلاً لقوله تعالى: «أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ» [المؤمنون: ٩٦] يعني: ادفع السيئة بالتي هي أحسن، وكان السياق المتوقع للأية: ادفع السيئة بالحسنة، ولكن الله تعالى قال: «بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» [المؤمنون: ٩٦]<sup>(٣)</sup>; أي بأحسن الحسن.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥١٥٤/٥) حديث (٢٢٢) وأورده ابن حجر العسقلاني في الإصابة (٥٥٦/١١) وقال: رجال الإسناد موثقون، والهشمي في مجمع الزوائد (٢٤٢/٨) وقال رواه الطبراني ورجاله ثقات، ولفظ موضع الشاهد منه (إن الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد هدى زيد بن سمعة، قال زيد بن سمعة: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين نظرت إليه إلا اثنين، لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا)، قال زيد بن سمعة: فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً من الحجرات ...).

(٢) قال الرمخشري (٢١٦/٥): "يعني: أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ الحسنة التي هي أحسن من أختها - إذا اعترضتك حستان - فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك . ومثال ذلك : رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة : أن تعفو عنه ، والتي هي أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك ففتدي ولدك من يد عدوه ." وقال ابن كثير (٤٤٠/١٤): "أَيْ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ فَادْفَعْ عَنْكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيهِ كِبِيرٌ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ".

وقد ذكرنا من قصصه ﷺ في ذلك الكثير، ففي حديث أنس رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدَ نَجْرَانٍ غَلِظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابٌ فَجَذَبَهُ جَذْبَهُ شَدِيدَهُ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثْرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرَّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبِهِ ثُمَّ قَالَ مُرْلِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَّفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»<sup>(١)</sup>.

وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: «وَإِذَا خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَّمًا» [الفرقان: ٦٣] إن الجاهلين في هذه الآية هم المشركون، وسيماهم الجاهلين لأنه أسوأ صفاتهم، ولكن العبرة في الآية بعموم اللفظ يعني: خاطبهم المسلم، خاطبهم الكافر، خاطبهم السفيه «قَالُوا سَلَّمًا» على هذا المعنى الذي ذكر الله تعالى.

و«قَالُوا سَلَّمًا» لها معنيان:

الأول: يغفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً. اهـ.

الثاني: ترك الرد والمسالمة مع عدم العتاب أو السب، وهذا معنى السلام، فكأنهم يقولون: شكرًا ، قولوا ما شئتم فلن أرد السيئة بالسيئة.

وهذه مسألة مطلوبة من المؤمنين المتقيين؛ ليسلموا في الآخرة بأخلاق عباد الرحمن نهى الله عنك، وإلا نقص حظهم في الآخرة من هذا السلام الذي قد ذكرنا عواقبه في بداية الآيات المتعلقة بالحشر والجنة والحساب عند الله تعالى.

لذلك قال ابن كثير رحمه الله تعالى في توضيح تلك الحال من أحوال الصحابة: روى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن النعman بن مقرن قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ، قَالَ: فَبَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْبُوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(١) رواه البخاري (٢٩١٦) ومسلم (١٧٤٩).

أما إنَّ ملَكًا يَبْنُكُمَا يَذْبُ عَنْكَ، كُلَّمَا يَشْتُمُكَ هَذَا قَالَ لَهُ بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحْقُّ بِهِ، وَإِذَا قَالَ لَهُ عَلَيْكَ السَّلَامُ قَالَ لَا بَلْ لَكَ أَنْتَ أَحْقُّ بِهِ»<sup>(١)</sup>، ومعنى ملكاً يبنكمَا يذب عنك: يدافع عنك، فكلما شتمك وقال لك يا كذا، فإن الملك يقول له: بل أنت، وأنت أحق بهذا الوصف، ومعنى قوله ﷺ: وإذا قلت له: عليك السلام قال الملك: لا بل عليك وأنت أحق به أى لا. ليس عليه السلام، بل عليك أنت، وأنت أحق بهذا السلام؛ ويجب أن يحفظ هذا الحديث.

وقد ورد أن رجلاً كان يسب أبي بكر رض وهو لا يرد والنبي ﷺ بينهما؛ وفي نهاية القول قال أبو بكر للرجل: أنت؟ فانصرف النبي ﷺ فقال له أبو بكر: بأبي أنت وأمي... قال ﷺ: إن الله تعالى قيس لك ملكاً يدافع عنك؛ حتى إذا دافعت عن نفسك انصرف الملك؛ فانصرف النبي ﷺ.<sup>(٢)</sup>

ثاني هذه الآيات قوله تعالى: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ» [الزخرف: ٨٩]، وهي للكفرة، وذكر الإمام ابن كثير هنا أن قوله: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ» يعني: فاعف عنهم وتتألفهم وقل لهم قولًا طيباً يتآلف قلوبهم؛ وقال بعض المفسرين: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ» أن الصفح هنا بمعنى

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٦٢٨)، وقال المحييمي في جمجم الزوابيد (٨/٧٨) رواه أحمد ورجاه رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٥١) وسكت عنه، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٨٤) مرسل، وحسنه الشيخ ناصر الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٨٩٦) ولفظه (عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسِيَّبِ أَنَّهُ قَالَ: يَبْنُكُمَا رَسُولُ اللَّهِ جَالِسٌ وَمَعْهُ أَصْحَابُهُ، وَقَعَ رَجُلٌ بِأَبِي بَكْرٍ فَآذَاهُ، فَصَمَّتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّانِيَةَ فَصَمَّتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّالِثَةَ فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ انتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْجَدْتَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَى نَزَّلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ بِمَا قَالَ لَكَ، فَلَمَّا انتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذَا وَقَعَ الشَّيْطَانُ).

الإعراض، أي: اتركهم وقل لهم: سلام، فلا تجدهم بمثل ما يخاطبونك به من كلام سيء، ولكن قل: سلمنا من المجادلة وتركناكم.

وهذه مسألة مطلوبة من أهل الإيمان، وهي إذا جادلك أحد فقل له: سلام، سلام، يعني: سلمنا من مجادلتكم، ومن شقاقنا إياكم، ومن شتمنا لكم ، بل العفو والصفح أقرب، تركناكم وأعرضنا عنكم وقلنا: ﴿سَلَامٌ﴾.

وثالث هذه الآيات قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِيَ الْجَهَنَّمَ﴾ [القصص: ٥٥] وهي آية في غاية الحكمة فكأنه يقول: نحن على العلم والأخلاق الحميدة التي أمر بها النبي ﷺ وأمر بها ربنا تبارك وتعالى، وليس بيننا وبينكم إلا السلام ، والسلام هنا يكون بمعنى المتابكة وترك المجادلة والمشاجرة، أو بمعنى أنه لا يصدر منا إلا العفو والصفح، فلا تتلفظ إلا بالكلام السديد الطيب، ولا يخرج منا إليكم شيء غير السلام.

النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم، كان قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِيَ الْجَهَنَّمَ﴾ وتلك هي الأخلاق العالية التي ذكر الله تعالى، وصدرت عن النبي ﷺ فتخلق بها أصحابه ﷺ، فلما تخلقوا بها في الدنيا كانت عاقبتهم في الآخرة هذا السلام الذي ذكرنا في دخولهم قبورهم، وفي خروجهم من المحشر، وفي لقاءهم الله تعالى، إلى آخر ما ذكر الله تعالى في عاقبة أهل السلام الذي وأشارت إليه الآيات الكريمة.

### خامسًا: سلام الله ﷺ على رسليه وعباده الصالحين

القارئ لكتاب الله تعالى يبيحلى له كثرة ذكر السلام على الرسل وأتباعهم، ويرى أنهم كانوا هم وأتباعهم في محل السلام من الله جل وعلا، وذلك في قوله ﷺ: ﴿قَيْلَ

يَنْوُحُ أَهْبِطُ إِسْلَمٍ مِّنَا وَبَرَكَتِ عَلَيْكَ ﴿ [هود: ٤٨] ، وإبراهيم: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْمُبَشِّرَى قَالُوا سَلَمًا ﷺ قَالَ سَلَمٌ ﴾ [هود: ٦٩] ، وأيضاً: ﴿ سَلَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصفات: ١٠٩] ، ويحيى العظيم: ﴿ وَسَلَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلْدَةِ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبَعْثَ حَيَاً ﴾ [مريم: ١٥] وعيسى العظيم: ﴿ وَالسَّلَمُ عَلَى يَوْمِ الْوِلَادَةِ وَيَوْمِ الْمُوْتِ وَيَوْمِ الْبَعْثَ حَيَاً ﴾ [مريم: ٣٣] وقوله: ﴿ سَلَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَرُورَكَ ﴾ [الصفات: ١٢٠] ، ﴿ سَلَمٌ عَلَى إِلَيَّا وَإِسْرَائِيلَ ﴾ [الصفات: ١٣٠] ثم جمعهم فقال: ﴿ وَسَلَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصفات: ١٨١] ، ولسلام من الله عليهم سيبان:

الأول: أن هؤلاء المسلمين قد وصفوا ربهم ﷺ بكل وصف سالم من الناقص.

الثاني: أنهم قد بذلوا ما يستحقون عليه السلام من الله تعالى، فكان السلام جزاء بذلهم وإحسانهم في هذه الحياة الدنيا، كما أشرنا في قوله: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصفات: ٨٠] ، والدليل على ذلك أن كل هذه الآيات قد أتت في سياق القصص الذي بيّن بذلهم وتضحيتهم، وبين كذلك ثباتهم على دعوتهم وتحملهم، وصبرهم على الأذى؛ حتى جاءهم نصر الله تعالى.

وفي النهاية، فقد أمر الله تعالى بالسلام على عباده بقوله: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلِّمُ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَنَا ﴾ [آل عمران: ٥٩] وهم المسلمون وغيرهم من أهل الإيمان المصطفون؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ ثُمَّ أَرْزَقْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢] ، "فالذين اصطفى" يدخل فيها أهل الإيمان الذين اصطفاهم الله تبارك وتعالى، لأن هؤلاء قد سلموا من الآفات والعيوب والنقائص في أخلاقهم وجوارحهم وقلوبهم، وسلموا في دعوتهم الله تبارك وتعالى وفي ثباتهم عليها وتحملهم وبذلهم وتبليغهم هذه الدعوة سالمة كما هي خلق الله تبارك وتعالى،

وسلموا كذلك في توحيدهم لربهم ﷺ، وذكروه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا فكان ذلك سبباً لسلام الله عليهم.

ونشير إلى معانٍ بعض تلك الآيات:

ونبدأ بقوله ﷺ: ﴿ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلْدَةِ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبَعَّثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥]، لشمول الإسلام لكل الأحوال، قال المفسرون فيها ذكره سفيان بن عيينة: أؤحشُ ما يكون على المرء هذه الموضع الثلاثة. اه يعني: أن هذه الأوقات أكثر المواقع التي يستشعر المرء فيها الوحشة: يوم يخرج من مكانه في بطنه أمه إلى دنيا لا يعرفها، ويوم يموت فيقابل ناساً لا يعرفهم، ويوم يخرج من قبره إلى المحشر العظيم، فهذه أصعب الأوقات وأوحشها على قلب المرء، فانظر كيف كانت عناية الله تعالى ببيهقي بن زكرياء وكذلك لوعيسي عليهما السلام، وانظر إلى هذه الوحشة يوم يخرج الناس من قبورهم في همٌ وكرب ومحن وآلام شديدة، إذ بالمؤمنين يومها في هذا السلام الذي ذكر الله تبارك وتعالى: ﴿ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلْدَةِ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبَعَّثُ حَيًّا ﴾، فيكون ذلك جزاء المرء الذي أخذ بحظه من اسم الله تعالى السلام، سلمه الله تعالى في هذه الموضع التي يخاف فيها الناس، فلا يفزع حين يفزع الناس، ولا يصبه خوفهم وحزنهم، ويكون أول شيء يلقاه يوم يخرج إلى الله تبارك وتعالى هو السلام كما قال ﷺ: ﴿ تَحَيَّتُهُمْ يَوْمَ يَأْلَقُونَهُ وَسَلَّمَ ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

والقارئ للآيات يلاحظ الفارق بين قوله ﷺ في يحيى التميمي: ﴿ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلْدَةِ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبَعَّثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥] وقوله في عيسى التميمي: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلْدَتُ وَيَوْمَ مَوْتُ وَيَوْمَ أُبَعَّثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣]، إذ في عيسى التميمي جاءت لفظة السلام بالتعريف وهذا

اسم جنس، أي المراد كل السلام، فيكون المعنى: كل سلام يمكن أن يكون فهو علىَ وهذا من الله تعالى، ويبين هذا فضل عيسى على يحيى عليهما السلام، وهو -كما أشرنا- يحمل معنى التحية والإكرام والسلامة من الآفات والنقص، والسلامة في دينه ودنياه، والسلامة في قلبه وعمله، والسلامة في جوارحه وأخلاقه، و السلامة منه لغيره، والسلامة كذلك عليه من غيره.

ولماذا يوم ولد؟ الجواب: لأن اليهود قد رموا أمه -عليهم السلام- ببهتان عظيم، كما قال تعالى: «وَيُكْفِرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرِيمَ بَهْتَنًا عَظِيمًا» [النساء: ١٥٦] ولماذا يوم يموت؟ الجواب: لأنهم قالوا صليب. وما صليب، ويوم يبعث حيا: لأنهم قالوا قد كفر بالتوراة فسيحشر مع الكفارة والملائكة فكأن الآيات رد من الله تعالى لكلام اليهود لعنهم الله تعالى؛ فإن قالوا قد ولد بغير رشد، ومات مصلوباً ويحشر مع الكفارة قال الله تعالى: لا وإنما السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

نتنقل إلى هذه الآية في الرسل أيضاً، وهي قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَّمًا قَالَ سَلَّمًا» [هود: ٦٩] وكان السياق المتوقع للآية "ولقد جاءت رسالنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلاماً" ولكن الآية خالفت بين سلام إبراهيم وسلام الملائكة، فسلام إبراهيم «قال سلام»، وسلام الملائكة: «قالوا سلاماً» بالتنوين، فسلام الملائكة مفعول مطلق للفعل، فيكون تقدير كلام الملائكة: إذ دخلوا عليه فقالوا سلمنا سلاماً ، أما سلام إبراهيم، وهو المرفوع، فهو خبر لمبدأ مذوف، فيكون تقدير كلام إبراهيم: أمري سلام لكم، فعبر عنه بالمصدر، والمصدر يتنااسب فيه معنى الفعل، كأنه يقول: كلي لكم سلام؛ لذلك قال: «فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَيْنِي»

ليس سلاماً فقط، ولكن تحية وإكراماً وضيافة، فمختصر ذلك أن سلام إبراهيم أفضل من سلام الملائكة.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّمْ بِتَحْيَيْ فَحَيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٦] وإن إبراهيم قد تأدب بتأديب الله له، فلما سلموا عليه هذا السلام، سلم عليهم بأفضل منه، وجعلت اللغة العربية هذه اللفظة الكريمة الموجزة لتبين رد إبراهيم الذي رده عليهم بلغتهم، فاختصرتها العربية إلى قوله: ﴿سَلَامٌ﴾.

### الفصل الثالث

التفسير التفصيلي لبعض آيات «السلام»

في هذا الفصل نتوسع قليلاً في تفسير بعض الآيات الواردة في السلام ونشير إلى معاني الجزاء الحسن من الله تعالى هؤلاء الأبرار الذين تحققوا بالسلام وتنزلت عليهم رحمة الله تعالى وبركاته، حتى يأخذ كل أحد بحظه من ذلك عسى أن ينال تلك العاقبة.

## ١. جزاء المبادرة بالإيمان والصدق والصبر على الأذى

نبدأ بتفسير آية الأنعام ونشير فيها إلى ما يتعلق بمعنى السلام، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكُوكَ الدَّيْنَ كُوْمُونَ يُؤْمِنُونَ بِعِيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا إِجْهَلَهُ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ رَغْفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

نرى الله تبارك وتعالى النبي ﷺ أن يطرد المؤمنين الفقراء، كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢..]

فقد كان الرسول ﷺ من خوفه على أمته ومن حرصه على إيمانهم، كان يدعو أشراف مكة إلى أن يؤمنوا بالله تعالى؛ فجاء أشراف مكة فرأوا حول النبي ﷺ عبيدهم وفقراءهم بلاً وصهيباً وخباباً وغيرهم من فقراء المسلمين فقالوا: اطرد هؤلاء عنك لنجلس إليك<sup>(١)</sup>.

وهذه المسألة من اجتهاد النبي في دعوة الناس ﷺ إلى الإسلام خاصة هؤلاء الذين إن أسلموا أسلم بإسلامهم ناس كثiron، وشققت الدعوة طريقها إلى الله، ولكن الله

(١) رواه مسلم (٢٤١٣) ولفظه (عن سعيد قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يخربون علينا. قال: وكنت أنا وأبن مسعود، ورجل من هذلين، وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدت نفسة فأنزل الله ﷺ {وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}).

تعالى لا يريد ذلك، لا تطرد الفقراء لأجل الأغنياء أن يجلسوا ويسمعوا ويؤمنوا حتى ولو كان في ذلك إيمانهم ولكن كما قال: ﴿وَلَا تَعْذِيزَنَا عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعِمَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَبَعَ هَوَنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رِبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلِيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلَيَكُفُرْ﴾ [الكهف: ٢٨-٢٩] ، هذا مراد الله تعالى وذلك مراد النبي ﷺ فنزل الوحي ليبين مراد الله تعالى، وإن كان مراد النبي ﷺ صحيحًا - وهو صحيح ولاشك - إنما ليس ذلك مراد الله تعالى.

ثم ذكر المولى جل وعلا هذا المعنى المهم، لتعلم قيمة هؤلاء المؤمنين الذين كان المولى ﷺ يعني بهم هذه العناية في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَائِتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ﴾، الأصل أن يكون الداخل هو الذي يسلم، فلما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبدأهم هو بالسلام، بشاره لهم وتكرمه لهم، ورفعه ل شأنهم ، قال بعض أهل العلم : إن الآية تحتمل التكرار في هذه البشارة، يعني: كلما دخلوا عليه ابتدأهم هو ﷺ بالسلام وقال البعض: في هذه المرة فقط لوقوع تلك الحادثة.

والتكرمة العظيمة لهم أن هذا السلام من ربهم ﷺ فيكون إبلاغهم به بشاره عظيمة لهم بإعلامهم أن عليهم السلام والأمن من الله تعالى وأنه الله تعالى قد غفر لهم بإيمانهم واتبعهم النبي ﷺ، وإن عملا سوءاً وتابوا أغرف الله لهم:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَائِتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ رَغْفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ٥٤ ..]

وذلك لا يمنع - كما يقول المفسرون - أن تكون هذه الآية عامة لكل أحد: ﴿تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ رَغْفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، ولكنها لما نزلت فيهم تكرمة لهم كانوا هم

ميموني النقيبة لمن بعدهم، وهم البادئين بهذا الخير لأهل الإيمان من بعدهم، فكأن تقديمهم لأخذ هذا الخير فاتحة البركة والخير على أهل الإيمان الذين من بعدهم.

وهناك معنى آخر في قوله ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هو أنهم آمنون من أن يطردتهم النبي ﷺ، أو أن يسيء إليهم، أو أن يكون قول المشركين فيهم صحيحًا، ويؤيد ذلك ما جاء في الخبر أن أبا سفيان بن حرب مَرَّ في أشراف من قريش على ضففاء المسلمين، بلال وخباب، فقالوا: إن سبوف الله لم تأخذ من عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أقولون ذلك لشيخ قريش وسيدهم؟ ثم أتى النبي ﷺ فأخبره؛ فقال له النبي ﷺ: «لعلك أغضبتهم يا أبا بكر؟ لئن كنت أغضبتم لقد أغضبت ربكم، فرجع إليهم أبو بكر قال: إخوته أغضبتم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي»<sup>(١)</sup>.

نقول بذلك لنبين جزاء ذلك الإيمان والتصديق والصبر والتحمل في الله تعالى والبذل وترك الأهل والمال والولد الذي يتضرر به أن يكون هؤلاء المؤمنون على هذه الحال من انتظار سلام الله تعالى عليهم، وأن يبدأهم النبي ﷺ بالسلام، وأن يخشى أبو بكر نفسه -رضي الله عنه- أن يكون قد أغضبهم.

## ٢. جزاء التلطف والتعطف مع الوالدين

الآية التالية هي قول إبراهيم الكتاب لأبيه: ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ

(١) رواه مسلم (٢٥٠٤) ولفظه (عَنْ عَائِدِ بْنِ عَمْرِو أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبَ وَبِلَالَ فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذْتُ سُبُّوفَ اللَّهِ مِنْ عُنْقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَكَ أَغْضَبْتُهُمْ؟ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتُهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبِّكَ. فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَنَاهُ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي).

بـ حَفِيْـاً [مريم: ٤٧] وقد أشرنا في الفصل السابق أن المرء ينبغي أن يكون سلامًا مع الناس أجمعين، كافرهم ومؤمنهم وعاصيهم ومتقيهم، فكان من باب أولى أن يكون سلامًا مع أبيه كذلك، وإذا كانت الآية قد جاءت في السلام مع الأب فينبعي للمرء أيضاً أن يتحقق بهذا السلام مع أمه وإخوته ومع أهل الإيمان.

وببداية الآيات قول إبراهيم الظاهر لأبيه آزر: «يَأَبْتَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَأَتَيْـعُـنِـي أَهـدـيـكَ صـرـاطـاً سـوـيـاً» ﴿١﴾ يَأَبْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَـنَ إِنَّ الشَّيْطَـنَ كَانَ لِرَحْمَـنَ عَصِيـاً ﴿٢﴾ يَأَبْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسِكَ عَذَابـي مِنَ الرَّحْمَـنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَـنِ وَلِيـاً ﴿٣﴾ قَالَ أَرَأَـيْـتَ أَنْتَ عَنِ الْهَـقِـيـقـيـةـ يَأـبـرـاهـيمـ لـيـنـ لـمـ تـنـتـهـ لـأـرـجـنـتـ وـأـهـجـرـنـ مـلـيـاً ﴿٤﴾ قَالَ سـلـمـ عـلـيـكـ سـأـسـتـغـفـرـ لـكـ رـبـيـ إـنـهـ كـانـ بـ حـفـيــاً [مريم: ٤٣-٤٧].

بعد أن توعده أبوه وهدده بالرجم والإبعاد والطرد لم يكن من إبراهيم -على نبينا وعليه أفضـلـ الصـلاـةـ وـالـسـلامـ - إلا أن قال: «سـلـمـ عـلـيـكـ» وـ«عـلـيـكـ» كما يقول أهل اللغة للتمكن المجازـيـ، فـكـانـ السـلامـ مـتـمـكـنـ مـنـهـ فـكـانـهـ يـقـولـ: لـكـ سـلامـ مـنـيـ مـتـمـكـنـ يـحـيطـ بـكـ مـفـوـقـكـ، وـهـذـاـ السـلامـ مـنـيـ مـعـ توـعدـكـ لـيـ، فـلـاـ يـصـيـبـكـ مـنـيـ أـذـىـ، وـلـاـ يـنـالـكـ مـنـيـ مـكـروـهـ، وـلـاـ تـنـتـظـرـ مـنـيـ مـاـ يـضـايـقـكـ وـيـحـزنـكـ.

وهـذـاـ درـسـ لـأـهـلـ الإـيمـانـ يـتـعـلـمـونـهـ وـهـوـ أـنـ مـهـمـاـ فعلـ بـهـ أـبـوـهـ وـأـمـهـ وـإـنـ كـانـاـ عـلـىـ الكـفـرـ وـالـشـرـكـ لـاـ يـخـرـجـ مـنـهـ إـلـيـهـمـ إـلـاـ السـلامـ، فـمـاـ بـالـكـ لـوـ كـانـواـ كـحـالـنـاـ الـيـوـمـ عـلـىـ الإـسـلامـ وـالـإـيمـانـ وـيـخـافـونـ عـلـىـ وـلـدـهـمـ، وـيـجـبـونـ لـهـ الـخـيـرـ؟ـ فـالـأـولـيـ بـكـ إـذـنـ أـنـ تـكـونـ سـلامـًاـ مـعـهـمـ أـكـثـرـ مـنـ سـلامـكـ مـعـ الـكـافـرـ إـنـ كـانـ لـكـ أـبـاـ أوـ أـمـاـ،ـ أـوـ كـانـ بـعـيـداـ لـاـ عـلـاقـةـ لـكـ بـهـ،ـ كـمـ رـأـيـناـ مـنـ إـبـرـاهـيمـ الظـاهـرــ فـيـ مـخـاطـبـتـهـ أـبـاهـ بـهـذـهـ الـآـيـاتـ الـتـيـ مـلـؤـهـاـ الـعـطـفـ وـالـتـلـطـفـ وـالـتـحـنـنـ وـالـتـقـرـبـ إـلـيـهـ بـأـنـوـاعـ الـقـرـبـ الـلـطـيفـةـ الـتـيـ تـأـخـذـ بـقـلـبـهـ إـلـيـهـ؛ـ وـنـلـاحـظـ أـنـ كـلـ الـآـيـاتـ

بدأت بقوله: يا أبـتـ، لتـدلـ عـلـى هـذـا التـعـطـفـ وـالتـحـنـ، وـفـي نـفـس الـوقـتـ لـتـدلـ عـلـى المـنـاقـشـةـ المـؤـدـبـةـ مـعـ أـبـيـهـ حـتـىـ فـي تـقـرـيرـ بـطـلـانـ هـذـاـ الـبـاطـلـ.

قال إبراهيم عليه السلام كما جاء في الآيات: ﴿يَتَأْبِتُ لَمْ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ وأهل العلم يسمونها التقرير العقلي، يعني لا يدخل في العقل أن تعبد من لا يسمع ولا يبصر ولا يعني عنك شيئاً، ثم قال عليه السلام: ﴿يَتَأْبِتُ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكُ فَأَتَبِعْنِي﴾ .. فلم يقل له: يا أبـتـ إنـكـ لا تـعـلـمـ شـيـئـاـ فـيـجـبـ عـلـيـكـ اـتـبـاعـيـ؛ـ وـلـكـ قـالـ عليه السلام: ﴿يَتَأْبِتُ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكُ﴾ .. ومدلول العلم عند العقلاـءـ أنـ الـعـالـمـ إـنـ كـانـ صـغـيرـاـ أوـ كـبـيرـاـ يـنـبـغـيـ لـلـجـاهـلـ أوـ لـلـذـيـ لـاـ يـعـلـمـ أـنـ يـتـبعـهـ،ـ وـأـلـاـ يـكـوـنـ السـنـ مـانـعـاـ مـنـ الـاتـبـاعـ؛ـ لـذـكـرـ

قال: ﴿قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ﴾ حتى لا يتـكـبـرـ عـلـيـهـ بـإـضـافـةـ الـعـلـمـ الـذـيـ قـدـ حـصـلـهـ إـلـيـهـ وـهـوـ

علم النبوة العالـيـ.

ونشير هنا إلى مهمات جليلة:

الأولى: أنه عليه السلام أحسن لأبيه القول، فلم يتـكـبـرـ عـلـيـهـ،ـ وـلـمـ يـشـرـ إـلـيـهـ بـأـنـهـ لـاـ يـدـرـيـ قـيـمةـ

الـعـلـمـ وـالـإـيمـانـ وـالـنـبـوـةـ؛ـ وـقـالـ مـتـواـضـعـاـ:ـ ﴿يَتَأْبِتُ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ﴾ـ شـيـءـ مـنـ الـعـلـمـ

﴿فَأَتَتِنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ـ معـ أـنـهـ قـدـ حـازـ الـعـلـمـ الـمـتـعـلـقـ بـالـنـبـوـةـ كـلـهـ فـلـمـ

يـكـنـ فـيـ زـمـانـهـ أـحـدـ أـعـلـمـ مـنـهـ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ يـقـولـ لـهـ هـذـاـ حـتـىـ يـكـوـنـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـاسـتـجـابـةـ

وـأـقـرـبـ إـلـىـ فـتـحـ قـلـبـهـ وـصـدـرـهـ وـالتـحـنـ إـلـيـهـ.

والثاني: أنه لما قال له أبوه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُنَكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] .. يعني

إـنـ لـمـ تـنـتـهـ عـنـ موـعـظـتـكـ وـإـبـلـاغـكـ لـدـيـنـ اللهـ وـعـنـ رسـالـتـكـ وـعـنـ إـيـصالـكـ الـعـلـمـ النـافـعـ إـلـىـ

الـنـاسـ،ـ لـأـرـجـنـكـ،ـ وـاهـجـرـنـيـ مـلـيـّـاـ يعنيـ:ـ زـمـانـ طـوـيـلـاـ،ـ ﴿قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾ـ يعنيـ:ـ أـتـرـكـ

سلام، فلم يتركه بسوء الأدب، أو بال مضائقه والشدة عليه، سلام التوديع والمطاركة، أو السلام بمعنى ترك الأذى ويجتهد كذلك أن يكون السلام بمعنى الدعاء له بالسلامة مما هو فيه من الكفر والشرك، بدليل أنه قال له بعد ذلك: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فهو ما زال مصراً على هدايته بكل السبل والطرق، بأن يدعو الله تعالى أن يهديه، وأن يخرجه من الظلمات إلى النور، وأن يأخذ بيده إلى طريق الإيمان والتوحيد الله تعالى فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ رَبُّ كَاتِبٍ حَفِيَّا﴾.

فالسلام هنا يستعمل على ثلاثة معان:

الأول: سلام التوديع والمطاركة.

الثاني: بمعنى أنت سالم مني لا يصلك مني أذى، ولا يصلك مني ما يضايقك، ولا يبلغك مني ما تكره أبداً.

الثالث: الدعاء له بالسلامة، وهذا طريق أهل الإيمان مع آبائهم وأمهاتهم على سبيل دعوتهم والتحنن إليهم والتلطف بهم لأنخذهم إلى طريق الله تعالى، وشرح صدروهم للإيمان وقضايا الدين.

ترى بعد ذلك السلام من إبراهيم الظليل، ماذا كانت العاقبة؟ كانت له العقبى في الأولى والآخرة، في الأولى هي: ﴿فَلَمَّا يَنْتَرُ كُوفَنَ بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنياء: ٦٩] فلما كان سلاماً كان جزاؤه السلام في الأولى، وفي الآخرة: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصفات: ٨٤] .. وهو الوحيد الذي قيل ذلك فيه صراحة، وإن كان النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أعلى درجة منه فهو سيد الأنبياء، ولكن الله تبارك وتعالى ذكر ذلك عنه فقال: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لالتصاق ما هو فيه من أحداث به الظليل.

فهذه هي الأخلاق التي يرجو بها المرء السلام في الآخرة، وعلى أهل الإيمان أن يتحققوا بمراد الله تعالى منهم، فـيأخذوا بحظهم من أسمائه الحسنى ﷺ وصفاته العليا، ويتركوا التكاسل والتواني في تحقيق تلك المعاني التي تقر لهم إلى ربهم ﷺ، والتي تحسن أخلاقهم وأعماهم وجوارحهم وقلوبهم؛ فيصيروا خلقاً جديداً مع الله تعالى، عندها يتذمرون ذلك الجزاء الذي آتاه الله إبراهيم عليه السلام في أولاهم وأخراهم.

### ٣. جزاء القيام بالدعوة إلى الله وتحمل مشاقها

نختتم بهذه الآيات التي تبين المعانى العظيمة في قصة نوح عليه السلام وهي قوله تعالى: «وَرَكِنَّا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ [الصافات: ٧٨-٧٩]» وقوله: «وَرَكِنَّا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٩﴾ ملخصها: تركنا له ثناء حسناً في الآخرين؛ وقوله: «فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾» فقد جاءت فقط مع نوح عليه السلام، فليس هناك آية فيها - مثلاً - سلام على إبراهيم في العالمين، ولا سلام على موسى في العالمين، وذلك لأن كل العالمين من ذرية نوح، وأنه كان يذكر في العالمين كلهم ذكر صدق وذكر خير، وأن الله تعالى قد وضع له الثناء، فلم يذكره البشر من يهود ولا نصارى إلا بخير، حتى العرب في أشعارهم القديمة الجاهلية يقولون:

فألفيت الأمانة لم تخنها .. كذلك كان نوح لا يخون

ونعود لمعنى السلام في قوله: «سَلَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾» فالسلام هنا بمعنى التحية والإكرام، وكلمة "سلام" في الآية منونة، وهذا التنوين يسمى في العربية تنوين التعظيم فيكون المعنى: تحية وإكرام جمیلان عظیمان لنوح عليه السلام.

والسؤال: هل المقصود في الآية الإخبار بالتحية والسلام لنوح؟ لا، المقصود ليس

ذلك فقط وإنما المقصود أيضاً بيان ما يلزم تلك التحية وذلك الإكرام والثناء الحسن من الله تعالى، ويلزم من ذلك وينبني عليه: الرضا والتقريب من الله تعالى، وحسن صلة الله تعالى به، ويidel على ذلك ماجاء في بقية الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١-٧٨]، المعنى: كجزاء نوح نجزي المحسنين، إذ إن جزاء نوح قد وضع في القمة التي بمثلها يجزى غيره من المحسنين؛ زيادة في إكرامه، وزيادة في حسن الثناء عليه، وزيادة في رفع قدره ومنزلته الظليلة، فكأن المعنى: كل محسن إذا أردنا أن نجزيه الجزاء الحسن الجميل نجزيه جزاء نوح الظليلة، ولكن لماذا؟ لأن الجزاء هنا مترب على الإحسان ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان من نوح الظليلة هو أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه الظليلة، فهو قد تحقق بالدرجة العليا من درجات عبادة رب؛ لذلك يقول أهل العلم: كيف لا يكون محسناً وقد قضى عمره ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمَسِينَ عَامًا﴾ يدعو إلى الله تعالى، وتحمل فيها ما تحمل في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

وهي المسألة المهمة في هذا السياق، فإذا قلنا: لماذا ذكر الله الظليلة تنويه وتشريفه لنوح إلى هذه الدرجة؟ فالجواب: لوصوله لتلك الدرجة العالية من الإحسان، بأن بذل وقته وجهده وتحمل في سبيل الله الظليلة: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمَسِينَ عَامًا﴾ لا يتزحزح فيها عن دعوته، ولا يتأخر عنها، ولا يتتساهل فيها، ولا يكسيل عنها لدرجة أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ فَلَمْ يَرِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿وَلَئِنْ كُلُّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي ءاذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُرُوا وَأَسْتَكِبُرُوا أَسْتَكِبَارًا ﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩-٥].. والمعنى من قوله ليلًا ونهارًا وجهاً وإسراً، أنه كلما وجد فرصة تسمح له بذلك لم يقصر أن يدعوه فيها إلى الله

تعالى، فإذا توسم قبول الناس عند هدوء الليل وصفاء الفكر وبُعد الناس عن الرقباء دعاهم ليلاً، وإذا وجدهم في مجتمعاتهم متهيئين لسماع قبول دعوة الحق دعاهم نهاراً، وكذلك دعاهم فرادى ودعاهم جماعات، فكان المعنى: شملت دعوته الكلية الناس جميعاً، أفراداً وجماعات ظاهراً وباطناً سرّاً وعلانية، ليلاً ونهاراً، فكان جزاء الله تعالى له أن ذكره بالسلام، وأعلى شأنه في الأولى والآخرة لإحسانه وثباته على دعوته، وأنه لم يتوان ولم يدخل جهداً ولا وقتاً ولا ليلاً ولا نهاراً في سبيل ذلك؛ فكان جزاؤه هذا الجزاء.

نستكمل آيات الجزاء الحسن في قوله ﷺ: «قَبِيلَ يَنْتُوحُ أَهْبِطُ إِسْلَامٍ مِّنَا وَبَرَّكَتِ عَلَيْكَ» [مود: ٤٨] والهبوط يعني النزول، والمقصود هنا التزول من السفينة، وقوله "سلام"، المراد بالسلام التحية ويخاطب به عند الوداع أيضاً كما يخاطب به عند اللقاء، ومعناه في لغة العرب ومعاملاتهم: انصرف بسلام، فيكون المعنى في قوله: «أَهْبِطُ إِسْلَامٍ مِّنَا» اهبط مصحوباً بالسلام، فالباء هنا للمصاحبة، فكانه كان في ضيافة الله وكفالته وضمانه للسلام حتى إذا أوصله المولى سالماً إلى مكانه قال: انصرف بسلام، وذلك دليل قوله: «وَحَمَلْتَنِهِ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ» تَجْبِرِي بِأَعْيُنِنَا [القرآن: ١٣] فحمله على الألواح والدسر التي كانت تحت عين الله تعالى، تدل على أنه كان في رعاية الله وفي أمانه حتى أوصله آمناً بعد أن أغرق الكفارة والمرتكبين وهبط الكلية سالماً بسفينته ومن معه من المؤمنين.

وبعد توديعه بسلام قال: «وَبَرَّكَتِ عَلَيْكَ» يعني: خيرات متزايدة نامية، وهذه عاقبة أهل الإيمان في كل زمان، أن الله تبارك وتعالى يهلك الكفارة وينجي المؤمنين، فيكتئبهم بعينه ويحملهم في ضيافته حتى ينجيهم، ثم بعد ذلك يسلّمهم ليستكملاً رحلة الإيمان والدعوة إلى الله تعالى مصحوبين فيها بالخيرات المتزايدة منه جل وعلا.

وانظر إلى التركيب القرآني الجميل في الآية: «قِيلَ يَنْتُوحُ أَهْبِطُ بِسْلَمٍ مَّنَا» وكان يمكن أن يكون السياق: قيل يا نوح اهبط السلام وبركات، لكنه لما قال: «أَهْبِطُ بِسْلَمٍ مَّنَا» كان فيه إضافة السلام لله تعالى وذلك يدل على أن هذه زيادة إكرام من الله تعالى لنوح وزيادة صلة الله تبارك وتعالى له، وزيادة تشريف الله تعالى إياه ورفع درجته، فعلى قدر المسلم بِسْلَمٍ، على قدر تعظيم هذا السلام، وعلى قدر قيمته.

ونحن نوضح قليلاً في هذا القصص القرآني؛ لأن الله تعالى يسوقه ثبيتاً وتصبيراً للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كما قال المولى عليه السلام: «كَذَلِكَ لِتُثْبَتَ بِهِ فُؤَادُكَ» [الفرقان: ٢٢] وقال: «وَكُلَّاً نَّصْرٌ عَلَيْكَ مِنْ أَبْيَاءِ الْرُّسُلِ مَا تُشْتَتَ بِهِ فُؤَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» [هود: ١٢٠]، وكذلك ليكون فيه العبرة لأهل الإيمان كما قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِ عِبْرَةٌ لِأُفْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرُ وَلَكِنْ تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقْصِيرَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [يوسف: ١١١].. ف يأتي هذا القصص ليكون شاحناً لقلوب المؤمنين، وحثاً لهم على الوفاء والبذل والاستمرار، وعلى عدم النكوص والتشكك والتردد والرجوع لأن المرء قد يخشى في الدنيا أن تحدث له المصائب والعلل، ف يأتي هذا القصص القرآني، ليثبت قلبه، ويثبت قدمه على الطريق، ويدفعه إلى مزيد البذل والجهد وإلى مزيد التضحية والفاء، وهو يعلم أن الله تعالى سيثبته وسيعينه وسيقويه وسينصره، وسينجيه كما نجى المؤمنين من قبل، لأن المرء في أحوالنا اليوم إذا حدث له شيء يئس سريعاً، ونسى أن الله تعالى يجعل سلامه على هؤلاء الذين اصطفاهم، كما قال: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَنَا» [النمل: ٥٩]، فعلى المؤمن إن أصحابه شيء أن يحسن الظن بربه ولا يتضرر إلا أن يأتيه السلام من الله تعالى في نفسه وأهله وولده، وأن العاقبة ستكون له، مهما بدا من غيوم وضباب،

ومهما بدا من سواد حalk في هذه الحياة الدنيا إلا أن العاقبة كما ذكر الله تعالى في نهاية هذه القصة: ﴿تَلَكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَيْبِ تُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَيْقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] ، فلن تكون دعوته إلى الله تعالى أبداً سبباً لهلاكه، بل على خلاف ذلك سوف تكون العاقبة له، وسلام الله تعالى يصحبه، وكذلك كفالته وضمانه وضيافته، وكل ذلك لما تحقق بمعنى السلام، ولما قام بالدعوة والأخلاق والثبات والبذل، فكان في سلام الله تعالى في الأولى والآخرة.

# فِلَرِسٌ

## الصفحة

١	.....	◆ تقديم
٥	.....	◆ القسم الأول: اسم الله «الرفيق»
٧	.....	◆ مقدمة
٩	.....	◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «الرفيق»
٢٣	.....	◆ الفصل الثاني: الرفق
٤١	.....	◆ القسم الثاني: اسم الله «الودود»
٤٣	.....	◆ مقدمة
٤٥	.....	◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «الودود»
٥٧	.....	◆ الفصل الثاني: حظ العبد من اسم الله تعالى «الودود»
٨١	.....	◆ القسم الثالث: اسم الله «اللطيف»
٨٣	.....	◆ مقدمة
٨٥	.....	◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «اللطيف»
٩٣	.....	◆ الفصل الثاني: لطف الله تعالى
١٠١	.....	◆ الفصل الثالث: الآيات الواردة في معانى اسم الله تعالى «اللطيف»

١٢٣	.....	◆ القسم الرابع: اسم الله «القدوس»	⊗
١٢٥	.....	◆ مقدمة	◆
١٢٧	.....	◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «القدوس»	◆
١٤١	.....	◆ الفصل الثاني: حظ العبد من اسم الله تعالى «القدوس»	◆
١٥٩	.....	◆ القسم الخامس: اسم الله «الوَكِيل»	⊗
١٦١	.....	◆ مقدمة	◆
١٦٣	.....	◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «الوَكِيل»	◆
١٨٩	.....	◆ الفصل الثاني: الآيات الواردة في معانى اسم الله تعالى «الوَكِيل»	◆
٢٧٥	.....	◆ القسم السادس: أسماء الله «الملك والمالك والمليك»	⊗
٢٧٧	.....	◆ مقدمة	◆
٢٧٩	.....	◆ الفصل الأول: معانى أسماء الله تعالى «الملك والمالك والمليك»	◆
٢٨٩	.....	◆ الفصل الثاني: ملك الله تعالى	◆
٣١٧	.....	◆ الفصل الثالث: نظرية إجمالية في الآيات الواردة في معانى أسماء الله تعالى «الملك والمالك والمليك»	◆
٣٤١	.....	◆ الفصل الرابع: الشرح التفصيلي لبعض الآيات الواردة في معانى أسماء الله تعالى «الملك والمالك والمليك»	◆
٣٦٣	.....	◆ القسم السابع: اسم الله «السلام»	⊗
٣٦٥	.....	◆ مقدمة	◆
٣٦٧	.....	◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «السلام»	◆
٣٨٧	.....	◆ الفصل الثاني: التفسير الإجمالي للآيات الواردة في معانى اسم الله «السلام»	◆
٤٠٩	.....	◆ الفصل الثالث: التفسير التفصيلي لبعض الآيات الواردة في معانى اسم الله «السلام»	◆